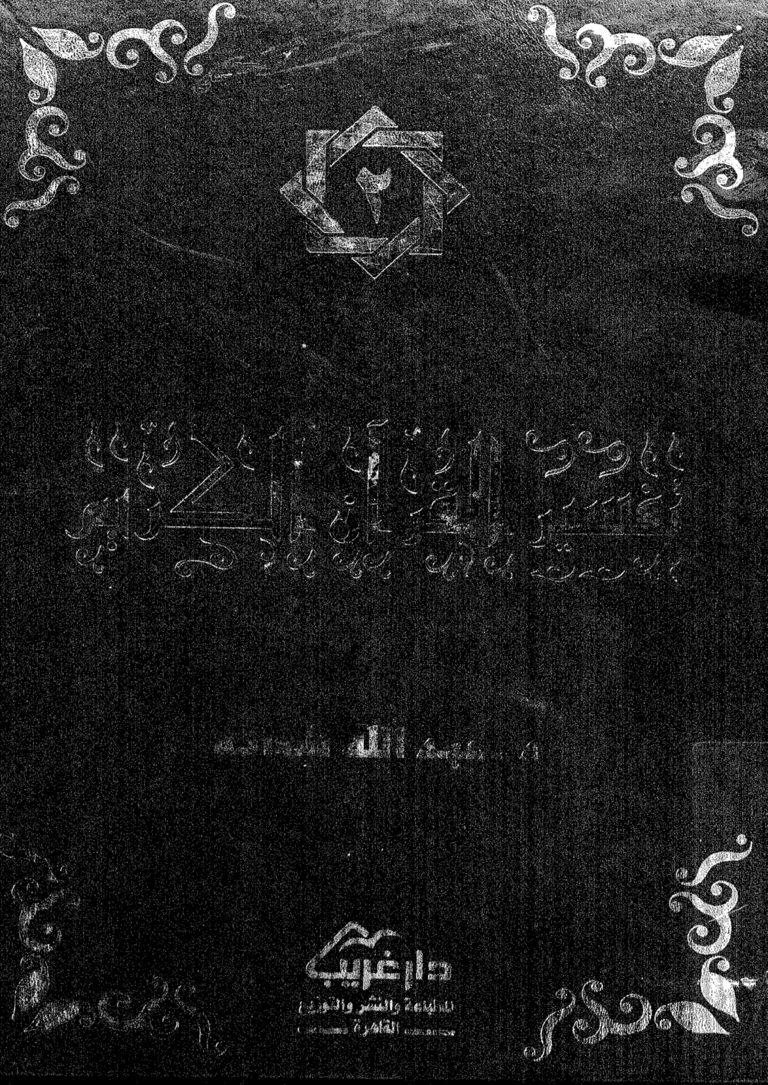

تفسير القرآن الكريم
دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

إهـــــــداء2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء الثالث من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ﴾

المفردات :

تلك : يشار بها إلى المؤنث ، ويعامل جمع الذكور معاملة المؤنث بتأويله بالجماعة؛ لهذا أنّث اسم الإشارة هنا، أى تلك جماعة الرسل.

من كلم الله : أن كلمه بلا واسطة ومن غير سفير، وهو موسى عليه السلام.

البينات : الحجج والأدلة.

بروح القدس : أى بالروح القدس؛ أى المطهر، وهو جبريل عليه السلام.

الأنبياء والرسل

النبوة من النبأ بمعنى الخبر، ومعناها وصول خبر من الله بطريق الوحى إلى من اختاره من عباده لتلقى ذلك، فالكلمة إذاً تفسير للعلاقة التى بين النبى والخالق جل جلاله، وهى علاقة الوحى والإنباء.

والرسالة ، تعنى تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الآخرين بشرع أو حكم معين ، فالكلمة إذًا تفسير للعلاقة التى بين النبى وسائر الناس وهى علاقة البعث والإرسال.

فإذا لاحظت فى النبى الحالة التى بينه وبين الله عز وجل فهى النبوة وإذا لاحظت حالته التى بينه وبين الناس فهى الرسالة.

والنبى من أوحى الله إليه بأمر ولم يكلفه بالتبليغ. والرسول من أوحى الله إليه بشرع وكلفه بالتبليغ فكل رسول نبي، وليس كل نبى رسول.

الوحى :

الوحى لغة هو الإعلام فى خفاء.

وشرعًا : إعلام الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.

صور الوحي :

أشار القرآن فى آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحي، حيث قال تعالى : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (الشورى : ٥١.)

وقد ورد فى صحيح البخارى وصف الوحي، وبدء الوحى وكيفية الوحي.

روى البخارى فى صحيحه عن عائشة رضى اللّه عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى اللّه عليه وسلم ، فقال، يا رسول اللّه، كيف يأتيك الوحى؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أحيانًا يأتينى مثل صلصلة الجرس – وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت منه ما قال ، وأحيانًا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول ».

قالت عائشة : لقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقًا(١).

الأنبياء الذين بعثهم اللّه عز وجل :

أول نبى أرسله اللّه تعالى مؤيدًا بالوحى والأحكام هو آدم أبو البشر ، وآخر الأنبيًّاء هو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وقد ذكر اللّه تعالى فى كتابه أسماء خمسة وعشرين نبيا مرسلاً وهم آدم ، إدريس ، نوح ، هود، صالح ، إبراهيم ، لوط ، إسماعيل ، إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، شعيب ، أيوب ، ذو الكفل ، موسى ، هارون ، سليمان ، داود، إلياس، إليسع ، يونس ، زكريا، يحيى ، عيسى ، محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وهناك أنبياء آخرون لم يتعرض القرآن لذكرهم ، ولكن أخبرنا عنهم فى الجملة : قال تعالى : وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (النساء : ١٦٤).

فيجب الإيمان بأن اللّه أرسل رسلاً وأنبياء كثيرين إلى كل أمة وجماعة، وفى مختلف الأمكنة والعصور.

قال تعالى : وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (فاطر : ٢٤).

وعلى هذا فلابد أن يكون عدد الأنبياء على مر العصور قد تجاوز الآلاف، وقد حدد بعض العلماء عددهم بـ ١٢٤ ألفًا ، ولكنا لا نرى دليلاً يحملنا على التزام تحديدهم بهذا العدد.

قال النسفى : وتحديد عددهم لا يؤمن معه أن يدخل فيهم من ليس منهم أو يخرج منهم من هو فيهم (٢).

(وأفضل الأنبياء هو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وقد فضل اللّه أولى العزم من الرسل وهم خمسة إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد صلى اللّه عليه وسلم . وينبغى أن نعلم أن النبوة التى أكرم الله بها الأنبياء حقيقة واحدة لا تتفاوت ولا تختلف ما بين نبى وآخر ، قال ، تعالى : لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ (البقرة : ٢٨٥).

وقال صلى اللّه عليه وسلم « لا تخيرونى على موسى ، ولا تفضلونى على الأنبياء » (٣).

قال ابن كثير فى التفسير :

ورد فى حديث الإسراء أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى الأنبياء فى السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل ، وقد قال تعالى : تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .

(فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين :

« لا تفضلونى على الأنبياء ».

فالجواب من وجوه :

(أحدها) : أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل وفى هذا نظر.

(الثـانى) : أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

(الثـالث) : أن هذا نهى عن التفضيل عند التخاصم والتشاجر (٤).

(الـرابـع) : لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية .

(الخامس) : ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.

صفات الأنبياء :

جملة ما يجب للأنبياء أربع صفات :

١ - الذكورة ، فلا تكون النبوة والرسالة لأنثى، والوحى إلى أم موسى معناه الإلهام والأمر المتجه إلى مريم قد يكون نداء من ملك مثل جبريل حين قال :

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي .. (مريم : ٢٤) وهذا بمجرده لا يعنى النبوة ولا يستلزمها.

٢ - الأمانة،ونعنى بها الصدق، وعصمتهم من الكذب وحفظ الله ظواهرهم وبواطنهم عن التلبس بأمر منهى عنه.

٣ - العصمة عن الوقوع فى الذنوب :

فالأنبياء معصومون عن الكفر والكبائر قبل البعثة وبعدها ومعصومون عن الصغائر فيما ذهب إليه الجمهور.

٤ - كمال العقل والضبط والعدالة.

إذ هى من مستلزمات أداء الرسالة.

والرسل بعد توافر هذه الشروط فيهم ، ليسوا من وراء ذلك إلا بشرًا كسائر الناس يأكلون ويشربون وينكحون ويمشون فى الأسواق . وتتعرض قلوبهم لكل ما يتعرض له قلب الإنسان من مشاعر الحب والكراهية والبغض والرحمة، ما دام أن شيئاً من ذلك لا يستوجب إثمًا، أو يستلزم شيئًا من خلاف الصفات الأربع التى ذكرناها ، وتتعرض أجسامهم للأسقام والأوجاع ، ثم تنتهى إلى الموت شأن البشر جميعًا، قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (الفرقان ٢٠).

عود إلى تفسير الآية :

٢٥٣ - تلكَ الرُّسُلُ فضَّلْنا بَعْضَهُمْ علَىٰ بَعْضٍ . . . .

هؤلاء الرسل الكرام - الذين بعثهم الله تعالى إلى الناس برسالاته وهداه فى مختلف البقاع والأزمان.

فضّل الله تعالى بعضهم على بعض فى المكانة والمعجزات ، وإن كانوا جميعًا قد تآخوا فى شرف النبوة والرسالة.

مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ، بين الله بعض مظاهر التفضيل.

فمن الأنبياء من فَضَّله الله بتكليمه مباشرة ودون وسيط مثل موسى عليه السلام قال تعالى : قالَ يا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (الأعراف : ١٤٤).

وتشير كتب السنة إلى أن الله كلم محمدًا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ فمنهم أولو العزم ، ومنهم خليل الله ، ومنهم كليمه ، إلى غير ذلك مما يمتاز به بعض الرسل على بعض .

وعلينا أن نكف عن الموازنة بينهم تكريمًا لهم عن أن يكونوا مجالاً للمناقشة والجدال والتعصب الجنسى أو الدينى ، وأن نؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه قال تعالى :

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ (البقرة ٢٨٥).

والإجماع منعقد على أن أفضل الرسل جميعًا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن رسالته عامة للبشرية جميعًا، ممتدة من عصره إلى آخر الزمان.

أما كل منهم فرسالته محصورة فى قوم ، وتنتهى رسالته ببعثة خلفه ، جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى:

وقوله وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ . أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء ، فكان بعد تفاوتهم فى الفضل أفضل منهم درجات كثيرة.

والظاهر أنه أراد محمدًا صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر، ولو لم يؤت إلا القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفًا على سائر ما أوتى الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات وفى هذا الإبهام من تفخيم فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشتبه والمتميز الذى لا يلتبس (٥).

وروى مسلم وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع » (٦).

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أعطينا عيسى ابن مريم الآيات الباهرات، والمعجزات الواضحات، كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإخبار قومه، بما يأكلونه ويدّخرونه فى بيوتهم، وفضلاً عن هذا فقد قويناه بجبريل عليه السلام.

- وجاء فى ظلال القرآن :

« والحكمة فى ذكر عيسى ابن مريم واضحة، فقد نزل القرآن ، وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى - عليه السلام - وبنوته للّه - سبحانه وتعالى - أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت. أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة فى الكأس، إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى غرقت الكنائس والمجامع فى الجدل حولها، وجرت الدماء أنهارًا فى الدول الرومانية، ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى - عليه السلام ، وذكره فى معظم المواضع منسوبًا إلى أمه مريم. أما روح القدس فالقرآن يعنى به جبريل عليه السلام - فهو حامل الوحى إلى الرسل ، وهذا أعظم تأييد وأكبره، وهو الذى ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بالسكينة والتثبيت والنصر فى مواقع الهول والشدة فى ثنايا الطريق .. وهذا كله التأييد (٧) » . ا . هـ.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا .

- يقول الشيخ محمد عبده :

لو شاء اللّه تعالى أن تكون سنته فى الإنسان ، أن يعذر المختلفون من أفراده بعضهم بعضا، ويوطن كل فريق نفسه على أن ينتصر لرأيه بالحجة، ويسعى إلى مصلحته بالفطنة لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه، ولكنه جعلهم درجات فى الفهم والحزم وأودع فى غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم والنضال دون مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول وعمل، فالقوى بالرأى يحارب بالرأى، والقوى بالسيف يقاوم بالسيف، فكان الاختلاف فى الرأى والمصالح معًا ، مع عدم العذر مؤديًا إلى الاقتتال لا محالة.

هكذا خلق الإنسان ، فلا يقال : لِمَ خلقه هكذا ؟ لأن هذا بحث عن أسرار الخلقة ككبر أذنى الحصان وصغر أذنى الجمل، ولذلك قال : وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا هو أثر إرادته وتخصيصها فلا مرد له (٨).

- اقتتال المسلمين :

قدم تفسير المنار بحثًا مستفيضًا ، عن اقتتال المسلمين وآثاره المدمرة نختصره فيما يأتى :

نهى القرآن عن الاختلاف والتفرق فى الدين ، قال تعالى :

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُم أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (آل عمران :٣-٥).

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ (الأنعام :١٥٩).

وإذا وقع التنازع لاختلاف وجب رده إلى الله ورسوله وتحكيم الكتاب والسنة فيه ولا يجوز أن يتمادى المسلمون على التفرق والاختلاف بحال قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (النساء : ٥٩).

أما الاقتتال بين المسلمين بسبب الاختلاف ، فأوله ما كان بين علي ومعاوية، ثم ما كان من حروب الخوارج ثم الشيعة ، ومنه ما كان بين المصريين والوهابيين (٩) ومن أراد تمام العبر فى ذلك فليرجع إلى كتب التاريخ ولاسيما تاريخ بغداد وحادثة خروج التتر، التى كانت أول حادثة زلزلت سلطان المسلمين فى الأرض، ودمرت بلادهم تدميرًا، لقد كان الخلاف بين الشافعية والحنفية من أسبابها ، وابن العلقمى الوزير الشيعى هو الذى دعاهم إلى بغداد سنة ٦٥٦هـ فخربوها وقتلوا فيمن قتلوا الشرفاء شيعة وغير شيعة ووبخه هولاكو على خيانته فمات غمًا.

والفتن التى كانت بين الشيعة والسنة فى الشرق والغرب كثيرة، وتاريخ بغداد مملوء بالفتن بين الشافعية والحنابلة ، وكان أشد الخلاف بين هؤلاء على الجهر بالبسملة فى الصلاة يسفكون الدماء لذلك.

ولا ينسين الراجع إلى التاريخ الفتنة بين الشافعية والحنفية، إذ تقلد ابن السمعانى مذهب الشافعى ، فقد كان ذلك من أسباب خراب مرو عاصمة خراسان (١٠).

والاختلاف فى الدين مفسد للأمم، مزلزل للكيان الاجتماعي، مدمر لروابط الألفة بين الناس، وقد بين القرآن علاجه للمسلمين ، وهو تحكيم الله تعالى فيما اختلفوا فيه، وبيان وجهة النظر بالحكمة و الموعظة الحسنة والنقاش الهادئ المستنير ، لإحقاق الحق بلا كبر ولا تمويه.

قال تعالى : ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (النحل ١٢٥).

لقد اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا ، والنصارى كانوا أشد منهم فى ذلك ، فتفرقوا طرائق قددا، وكان أهل المذهب الواحد يتشعبون شعبا يقاتل بعضها بعضا.

فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ . لقد امتحن الله عباده بصنوف النعم، بل جعل الله الموت والحياة للاختبار والابتلاء، قال تعالى : الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (الملك :٢).

وقد اختلف أتباع الرسل بعد ما جاءتهم الآيات البينات والدلائل الواضحة المؤيدة للحق.

فمنهم من آمن لطيب سريرته ، وحسن اختياره ، ومنهم من كفر لخبث نيته وسوء رأيه، ولو شاء الله لآمنوا جميعًا، ولم يقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد من ترك عباده لاختيارهم ، حتى يتبين الخبيث من الطيب.

ويدفع المؤمنون شر الكافرين وفسادهم ، ثم يجزى كلا على حسب عمله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة : ٢٥١).

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤) ﴾

المفردات :

الخلة : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين ، وسميت بذلك لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها، أى لشدة الحاجة إليها . ومنه سمى الخليل خليلا لاحتياج الإنسان إليه.

والشفاعة : مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، وتطلق على انضمام شخص إلى آخر لنفعه أو نصرته، وأكثر ما تستعمل فى انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى ما هو دونه.

والمعنى :

عليكم - أيها المؤمنون - أن تنفقوا فى وجوه الخير كإعانة المجاهدين، ومساعدة الفقراء والبائسين من أموالكم التى رزقكم الله إياها بفضله وكرمه، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى تقدموا عن طريقها ما تفتدون به أنفسكم ، ولا يكون فيه صديق يدفع عنكم، ولا شفيع يشفع لكم من سيئاتكم إلاَّ أن يأذن رب العالمين بالشفاعة تفضلا منه وكرمًا.

فالآية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق فى سبيل الله ، لأنه أهم عناصر القوة فى الأمة، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكامل.

والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والنفل ، والأمر به لمطلق الطلب، إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا نزلت بالأمة شدة لم تكف الزكاة عن دفعها.

وقوله : ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ . إشعار بأن هذا المال الذى بين أيدى الأغنياء ما هو إلا رزق رزقهم الله إياه، ونعمة أنعم بها عليهم، فمن الواجب شكرها بألا يبخلوا بجزء منه على الإنفاق فى وجوه الخير، لأن هذا البخل سيعود عليهم بما يضرهم.

وفى قوله : ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ ... إلخ . حث آخر على التعجيل بالإنفاق، لأنه تذكير للناس بهذا الوقت الذى تنتهى فيه الأعمال ، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم ، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات. فكأنه - سبحانه- يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإنفاق من قبل أن يأتى يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه.

و « من » فى قوله : مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ . للتبعيض . وفى قوله : مِّن قَبْلِ ، لابتداء الغاية. ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئًا مما رزقناكم.

والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبلها الله - تعالى - وهى التى لا يأذن بها، أما شفاعة النبى - صلى الله عليه وسلم - فقد أذن الله له بها وقبلها منه، وقد وردت - أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين، وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم وآله - قال : أُعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت الأرض مسجدًا وطهورا فأيُّمَّا رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة [١١].

ثم ختم - سبحانه وتعالى - الآية بقوله : وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة، الغىَّ على الرشد. والشر على الخير، والبخل على السخاء.

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم ، وبذلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفى إعانة المحتاجين.

وبذلك نرى أنَّ الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على المسارعة فى إنفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه ما كان نافعًا فى الدنيا من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق فى سبيل الله بسوء العاقبة، لأنه تشبه بالكافرين فى بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم فى وجوه الخير.

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق فى وجوه الخير. وذكرهم بأهوال يوم القيامة، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه وتعالى - فبينت كمال سلطانه ، وشمول علمه، وسابغ نعمه على خلقه. استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكمل الصفات وأعظمها فيقول :



﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥ ﴾

قال بعضهم : هذه آية الكرسى أفضل آية فى القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات. هذا هو التحقيق فى تفضيل بعض آيات القرآن على بعض. وإنما كانت أفضل أنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعه آية أخرى . جاء فى الحديث الشريف عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال : « لكل شىء سنام وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هى سيدة القرآن - أى أفضله - وهى آية الكرسى » (١٢).

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجليلة، أما الجملة الأولى والثانية فتتمثل فى قوله تعالى :

٢٥٥ - اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

ولفظ الجلالة اللَّهُ يقول العلماء ؛ : إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « أل » وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله .

قال القرطبى : قوله اللَّهُ هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع. فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقى لا إله إلا هو - سبحانه - (١٣).

ولفظ إِلَهَ قالوا إنه من أله نفسه يأله أى عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود . وقيل هو من أله أى تحير... وذلك أن العبد إذا تفكر فى صفاته - سبحانه - تحير فيها، ولذا قيل: تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله (١٤).

و الْحَيُّ أى الباقى الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء لها . لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء سواء يعتريهم الموت والفناء.

و الْقَيُّومُ أى : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم، والمعطى لهم ما به قوامهم . وهو مبالغة فى القيام . « وأصله قيوم - بوزن فيعول - من قام بالأمر إذا حفظه ودبره ».

والمعنى : الله - عز وجل - هو الإله الحق المنفرد بالألوهية التى لا يشاركه فيها سواه، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياطتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتتهم.

والجملة الثالثة قوله تعالى : **لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ** . وهى جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابى السابق، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة ولأن السِّنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها.

والسِّنة : الفتور الذى يكون فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك ، ويقال له غفوة يقال : وسن الرجل يوسن وسنا وسنة فهو وسن ووسنان إذا نعس والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبدا، ولايحجب علمه شىء حجبًا قصيرًا أو طويلاً، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس، أو النوم.

وتقديم السِّنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفى السِّنة يدل على نفى النوم بالأولى ، فنفيه ثانيًا صريحًا يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم.

وفى قوله : **لَا تَأْخُذُهُ** . دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذا، وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهرًا ، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزه عن ذلك ومبرأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

وقوله سبحانه فى الجملة الرابعة : **لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ** . تقرير لانفراده بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتصافه بالقيومية، لأن من كانت جميع الموجودات ملكاً له فهو حقيق بأن يكون قائمًا بتدبير أمرها .

والمراد بما فيهما ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما ومن الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم. فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما فى هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجماد وغير ذلك من المخلوقات. وصدرت الجملة بالجار والمجرور « له » لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده وليس لأحد سواه شىء معه .

والاستفهام فى قوله فى الجملة الخامسة : **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** للنفى والإنكار أى : لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه - قال تعالى : **وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ** (النجم : ٢٦).

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الألوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريده دفعًا على وجه الشفاعة والإسكانة والخضوع فضلاً عن أن يستقل بدفعه عنادًا أو مناصبة وعداوة. وفى ذلك تيئيس للكفار حيث زعموا أن آلهتهم شفعاء لهم عند الله »(١٥).

وقوله سبحانه فى الجملة السادسة : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . تأكيد لكمال سلطانه فى هذا الوجود، وبيان لشمول علمه على كل شىء.

والضمير فى : أَيْدِيهِمْ ، خَلْفَهُمْ . يعود إلى مَا فى قوله قبل ذلك : لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ . وعبر بضمير الذكور العقلاء، تغليبًا لجانبهم على جانب غير العقلاء.

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه – سبحانه – بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه.

وقوله تعالى فى الجملة السابعة : وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، معطوف على قوله : يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، لأنه مكمل لمعناه . والمراد بالعلم المعلوم . والإحاطة بالشىء معناها العلم الكامل به.

أى : لا يعلمون شيئًا من معلوماته – سبحانه – إلا بالقدر الذى أراد أن يعلمهم إياه على ألسنة رسله. فهو كقوله تعالى : عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... (الجن ٢٦–٢٧).

فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله – تعالى – ولنقصان علم سواه، إذ إن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل ، وهذا القليل ناقص لأنه ليس علم إحاطة واستغراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشىء، ووجوده وجنسه وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده ، إذ العلم الكامل بالشىء لا يكون إلا لله رب العالمين.

ثم قال تعالى فى الجملة الثامنة : وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ .

قال الراغب : الكرسى فى تعارف العامة اسم للشىء الذى يقعد عليه، وهو فى الأصل منسوب إلى الكرس أى الشىء المجتمع، ومنه الكراسة لأنها تجمع العلم.. وكل مجتمع من الشىء كرس ... »[١٦].

وللعلماء اتجاهان مشهوران فى تفسير معنى الكرسى فى الجملة الكريمة.

فالسلف يقولون : إن لله – تعالى – كرسيا، علينا أن نؤمن بوجوده وإن كنا لا نعرف حقيقته، لأن ذلك ليس فى مقدور البشر.

والخلف يقولون : الكرسى فى الآية كناية عن عظم السلطان، ونفوذ القدرة، وسعة العلم، وكمال الإحاطة.

ولصاحب الكشاف تلخيص حسن لأقوال العلماء فى ذلك ، فقد قال – رحمه الله – : وفى قوله : وسع كُرْسِيُّهُ ، **أربعة أوجه** : **أحدها** : أن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته ، ولا كرسى ثمة ولا قعود ولا قاعد ...

والثانى : وسع علمه ، وسمى العلم كرسيا تسمية بمكانه الذى هو كرسى العالم.

والثالث : وسعَ ملكه، تسمية بمكانه الذى هو كرسى الملك.

والرابع : ما روى أنه خلق كرسيا هو بين يدى العرش دونه السموات والأرض وهو إلى العرش كأصغر شىء. وعن الحسن الكرسى هو العرش (١٧).

هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال « كرسيه علمه » (١٨) ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال حبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة .

ثم ختم سبحانه الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشرة فقال تعالى : وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيم.

يَئُودُهُ : معناه يثقله ويشق عليه . يقال آدنى الأمر بمعنى أثقلنى وتحملت منه المشقة.

العَلِيُّ : هو المتعالى عن الأشباه ، والأنداد ، والأمثال ، والأضداد، وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث. وقيل : هو من العلو الذى هو بمعنى القدرة وعلو الشأن...

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، وهو المتعالى عن الأشباه والنظائر، المسيطر على خلقه ، العظيم فى ذاته وصفاته، ففى هاتين الجملتين بيان لعظيم قدرته، وعظيم رعايته لخلقه ، وتنزيهه – سبحانه عن مشابهة الحوادث.

وبعد، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل، كل جملة منها تشتمل على وصف أو أثر من صفات الله الجليلة، ونعوته المجيدة، وألوهيته الحقة، وقدرته النافذة، وعلمه المحيط بكل شىء، قد أقامت الأدلة الساطعة على وحدانية الله – تعالى – ، ووجوب إفراده بالعبادة.

وقد تكلم العلماء طويلاً عن تناسق جملها ، وبلاغة تركيبها، ووجوه فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف: « فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد فى فضلها ما ورد ؟ قلت : لما فضِّلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العالمين فما كان ذكرًا له كان أفضل من سائر الأذكار ».

ومن الأحاديث التى ساقها الإمام ابن كثير فى فضلها ما جاء عن أُبَى بن كعب أن النبى – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – سأله . **أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال** : الله ورسوله أعلم . فردها مرارًا ثم قال : آية الكرسى . فقال له الرسول – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – « ليهنك العلم أبا المنذر » (١٩).

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – أنه قال : « إن أعظم آية فى القرآن هى آية الكرسى » (٢٠).

وروى أن عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – خرج ذات يوم على الناس فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية فقال ابن مسعود : على الخبير سقطت . سمعت رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – يقول : أعظم آية فى القرآن : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . . . الآية (٢١).

وبعد أن ساق – سبحانه فى آية الكرسى الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتنزيهه عن صفات الحوادث، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلى لكل ذى عقل سليم، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه، فقال تعالى :



﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

المفردات :

الإكراه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين دين الإسلام والألف واللام فيه للعهد.

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه، مصدر رشد يرشد ويرشَد أى اهتدى. والمراد هنا : الحق والهدى.

والغىُّ : ضد الرشد والمراد به. مصدر من غوى يغوى إذا ضل فى معتقد أو رأى.

ويرى بعض العلماء أن نفى الإكراه هنا فى معنى النهى، أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام فإنه بين واضح فى دلائله وبراهينه، فمن هداه الله له ، ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة ، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيده الإكراه على الدخول فيه.

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخبرية. والمعنى : ليس فى الدين الذى هو تصديق بالقلب، وإذعان فى النفس، إكراه وإجبار من الله – تعالى – لأحد ، لأن مبنى هذا الدين على التمكين والاختيار ، وهو مناط الثواب والعقاب، ولولا ذلك لما حصل الابتلاء والاختبار ، ولبطل الامتحان.

أو المعنى – كما يرى بعضهم – أن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد، وعلى أن الكفر به غىٌّ وضلال ، أن يدخل عن طواعية واختيار فى دين الإسلام الذى ارتضاه الله وألا يكره على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد.

فالجملة الأولى وهى قوله تعالى : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . تنفى الإجبار على الدخول فى الدين، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه ، إذ التدين إذعان قلبى ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة، فإذا أكره عليه الإنسان ازداد كرها له ونفوراً منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر.

والجملة الثانية وهى قوله تعالى : قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ . بمثابة العلة لنفى هذا الإكراه على الدخول فى الدين ، أى قد ظهر الصبح لذى عينين، وانكشف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وقامت الأدلة الساطعة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران، وما دام الأمر كذلك فقد توافرت الأسباب التى تدعو إلى الدخول فى دين الإسلام ، ومن كفر بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره، وسوء عاقبة أمره.

ثم قال تعالى : فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا . الطاغوت : اسم لكل ما يطغى الإنسان ، كالأصنام والأوثان والشيطان وكل رأس فى الضلال، وكل ما عبد من دون الله .. وهو مأخوذ من طغى يطغى .. كسعى . طَغيًا وُطغيانًا. أو من يطغو طغوًا وطغوانًا ، إذا جاوز الحد وغلا فى الكفر وأسرف فى المعاصى والفجور.

والعروة : فى أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشىء من عراه، أى من الجهة التى يجب تعليقه منها، وتجمع على عرا. والعروة من الدلو والكوز مقبضه، ومن الثوب مدخل زره.

والوثقى : مؤنث الأوثق، وهو الشىء المحكم الموثق . يقال وُثق - بالضم وثاقة أى : قوى وثبت فهو وثيق أى ثابت محكم .

والانفصام : الانكسار ، والفصْم كسر الشىء وقطعه .

والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، وآمن بالله - إيمانًا خالصًا صادقًا، فقد ثبت أمره واستقام على الطريقة المثلى التى لا انقطاع لها، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم رباط.

والفاء فى قوله : فَمَن يَكْفُرْ ... للتفريع. والسين والتاء فى استمسك للتأكيد والطلب. وقوله : فقد اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ . فيه .. كما يقول الزمخشرى تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد المحسوس حتى يتصور السامع كأنما ينظر إليه بعينه فيحكم اعتقاده والتيقن به وجملة : لا انفصام لها . استئناف مقرر لما قبله أو حال من « العروة » والعامل : اسْتَمْسَكَ .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى سميع للأقوال وهمسات القلوب، وخلجات النفوس، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه، وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب.

قال القرطبى ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين..» لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض إلا الإسلام. وقيل إنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت فى أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية..

والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: أسلمى - أيتها العجوز - تسلمى ، إن الله بعث محمدًا بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إلى قريب. فقال عمر: اللهم اشهد وتلا : لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ . (٢٢).

والذى تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدين لا يكون مع الإكراه.. كما أشرنا من قبل .. ، ولأن الجهاد ما شرع فى الإسلام لإجبار الناس على الدخول فى الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار، وإنما شرع الجهاد لدفع الظلم، ورد العدوان ، وإعلاء كلمة الله ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول فى الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم بدأوا بالعداوة .

ولأن الروايات فى سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه فى الدين ، ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلمًا ، فقال للنبى - صلى الله عليه وسلم - ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية [٢٣].

وفى رواية أخرى أنه حاول إكراههما على الدخول فى الإسلام فاختصموا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال الأنصارى : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فنزلت الآية.

ولأن النسخ لا يصار إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، وهنا يمكن القول بأن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد ما لا يريدون ، وآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ...﴾ (التحريم : ٩) . جاءت لحض النبى - صلى الله عليه وسلم - وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا فى طريق دعوته، حتى يكفوا عن عدوانهم وتكون كلمة الله هى العليا.

ثم بيَّن - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين، فقال تعالى :



﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾

التفسير :

المولى : الناصر والمعين والحليف. مأخوذ من الولاية بمعنى النصرة.

والمعنى : الله الذى بيده ملكوت كل شىء : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . أى معينهم وناصرهم ومتولى أمورهم، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر ، ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر من الأوهام. أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت وهؤلاء يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم، وانتكاسهم فى المعاصى من نور الإيمان والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة. أولئك الموصوفون بتلك الصفات القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدا.

وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد، أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها. وفى تقديم : الَّذِينَ كَفَرُوا ، فى قوله :

" والذين كفرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ . إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطرًا على قلوبهم، لأن كفرهم بالله تعالى هو الذى جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر.

وقوله : والَّذِينَ كَفَرُوا ، مبتدأ و: أَوْلِيَاؤُهُمُ . مبتدأ ثان ، و : الطَّاغُوتُ . خبره. والجملة خبر المبتدأ الأول.

ولم - يقل سبحانه - والطاغوت ولى الذين كفروا ، للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت فى مقابل لفظ الجلالة.

فإن قيل : وهل كان الكافرون فى نور ثم أخرجوا منه ؟ فالجواب أن المراد بخروجهم خروجهم من النور الفطرى الذى جُبل عليه الناس كافة، أو من نور الحجج الواضحات التى من شأنها أنْ تَحمل كل عاقل على الدخول فى الإسلام. وقيل المراد بهؤلاء المخرَجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنو بالنبى - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ثم كفروا به بعدها، والإشارة فى قوله أُولَٰئِك تعود إلى الذين كفروا . وفى التعبير بـ « أَصْحَابُ النَّارِ » إشعار بأنهم ملازمون لها كما يلازم المالك ما يملكه والرفيق رفيقه وقوله :

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، تأكيدٌ لبقائهم فيها واختصاصهم بها.

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقت أحسن البشارات للمؤمنين، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى.

ثم ساق القرآن بعد ذلك الأمثلة للمؤمنين المهتدين ، وللضالين المغرورين فقال تعالى :



﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾

« حاجَّ » أى جادل وخاصم ، والمحاجَّة المخاصمة والمغالبة بالقول، يقال حاججته فحججته أى خاصمته بالقول فتغلبت عليه ، وتستعمل المحاجة، كثيرًا فى المخاصمة بالباطل، ومن ذلك قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ . وقوله تعالى : وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ.. (الأنعام:٨٠) .

والمعنى : لقد علمت أيها العاقل قصة ذلك الكافر المغرور الذى جادل إبراهيم - عليه السلام - فى شأن خالقه - عز وجل - ومن لم يعلم قصته فها نحن أولاء نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والاستفهام للتعجيب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره وبطره.

والمراد به - كما قال ابن كثير - نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ملك بابل، وكان معاصرًا لسيدنا إبراهيم - عليه السلام .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا المغرور وبين سيدنا إبراهيم أنها محاجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك، أطلق ذلك من باب المماثلة اللفظية ، أو هى محاجة فى نظره السقيم، ورأيه الباطل.

والضمير فى قوله ﴿ فِي رَبِّهِ ﴾ يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - وقيل يعود إلى نمروذ لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه، والإضافة - على الرأى الأول- للتشريف ، وللإيذان من أول الأمر بأن الله - تعالى - مؤيد وناصر لعبده إبراهيم . وقوله ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ بيان لإقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطغيان . أى سبب هذه المحاجة لأن أعطاه الله - تعالى - الملك فبطر وتكبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة، بل استعملها فى غير ما خلقت له فقوله ﴿ أَنْ آتَاهُ ﴾ مفعول لأجله، والكلام على تقدير حذف الجر. وهو مطرد الحذف مع أنْ وأنَّ.

وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . حكاية لما قاله إبراهيم - عليه السلام - لذلك الملك فى مقام التدليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه هو المستحق للعبادة. أى قال له : ربى وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدها، ويميت الأرواح ويفقدها حياتها، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك.

وقول إبراهيم - كما حكاه القرآن : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ .مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو « ربِّى » والخبر هو الموصول وصلته.

وعبر بالمضارع فى قوله ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ . لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر.

أى ربى هو الذى يحيى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهدا فى كثير من الأوقات، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تقلع عما أنت فيه من كفر وطغيان وضلال.

وقوله ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ... ﴾ ظرف لقوله ﴿ حَاجَّ ﴾ أو بدل اشتمال منه وفى هذا القول الذى حكاه القرآن عن إبراهيم - عليه السلام أوضح حجة وأقواها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة، ويملك بعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والظاهر أن قول إبراهيم : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ، جواب لسؤال سابق غير مذكور، وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بعثوا للدعوة إلى الله ، ومتى ادَّعى الرسول الرسالة فإن

المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم إلهـا فالظاهر هنا أن إبراهيم ادَّعى الرسالة فقال له نمروذ من ربك ؟ فقال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تدل عليها، ودليل إبراهيم فى غاية الصحة، لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة. وقدم ذكر الحياة على الموت هنا، لأن من شأن الدليل أن يكون غاية فى الوضوح والقوة، ولاشك أن عجائب الخلقة حال الحياة أكثر، واطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة ها هنا فى الذكر » (٢٤).

ثم حكى القرآن جواب نمروذ على إبراهيم فقال : قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . أى قال ذلك الطاغية : إذا كنت يا إبراهيم تدّعى أن ربك وحده الذى يحيى ويميت فأنا أعارضك فى ذلك لأنى أنا - أيضًا - أحيى وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية . قالوا : ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عمن يحكم بقتله ويقتل من شاء أن يقتله.

ولقد كان فى استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله ، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الإحياء والإماتة المقصودين بالاحتجاج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان فى استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجدال والمحاورة، وأتاه بحجة فى الإفحام فقال له - كما حكى القرآن - : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .

أى قال إبراهيم لخصمه المغرور : لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله- تعالى - ذلك ، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركًا لله - تعالى - فى قدرته ، فإن كان زعمك صحيحًا فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتى بالشمس من جهة المشرق عند شروقها، فأت بها أنت من جهة المغرب فى هذا الوقت، فماذا كانت نتيجة هذه الحجة الدامغة التى قذف إبراهيم - عليه السلام - بها فى وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن - فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أى : غلب وقهر، وتحير وانقطع عن حجاجه، واضطرب ولم يستطع أن يتكلم ، لأنه فوجئ بما لا يملك دفعه. و « بُهِتَ » فعل ماض جاء فى صورة الفعل المبنى للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفاعل . وقوله الَّذِي كَفَرَ هو فاعله . والبهت : الانقطاع والحيرة . وقرئ بوزن - عَلم ونَصَر وكرم.

والفاء فى قوله : فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ ... إلخ ، فصيحة لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحيى وتميت وأن قدرتك كقدرة الله ، فإن الله - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وعبر عن هذا المبهوت بقوله : الَّذِي كَفَرَ للإشعار بأن سبب حيرته واضطرابه هو كفره وعناده.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أى لا يهديهم إلى طريق الحق، ولا يلهمهم حجة ولا برهانًا، بسبب ظلمهم وطغيانهم وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن.

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكت للناس لونًا من ألوان رعاية الله لأوليائه وخذلانه لأعدائه ، لكى يكون فى ذلك عبرة وعظة لقوم يعقلون.

ثم ساقت السورة الكريمة قصتين تدلان أبلغ الدلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور، استمع إلى القرآن وهو يحكى هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول :



﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾

قال الألوسى ما ملخصه : قوله : أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ . معطوف على ما سبقه - وهو قوله : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ . والكاف اسمية بمعنى مثل معمولة لأرأيت محذوفًا. أى أو أرأيت الذى مر على قرية... وحذف لدلالة أَلَمْ تَرَ عليه . وقيل : إن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم أو الذى مر على قرية...، وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل : أرأيت - شيئًا عجيبًا - كالذى حاج إبراهيم فى ربه، أو كالذى مر على قرية .. ».

والذى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ قيل هو عزير بن شرخيا ، وقيل حزقيال بن بوزى، وقيل غير ذلك . والقرية قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها « بختنصر » البابلى .. والقرآن الكريم لم يهتم بتحديد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة وبيان الحال والشأن . وجملة وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا فى موضع الحال من الضمير المستتر فى مَرَّ والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها، والإتيان بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها وقيل هى حال من القرية، وسوغ إتيان الحال منها مع كونها نكرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرأيت ... ومعنى وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا أن جدرانها ساقطة على سقوفها أى أن الخراب قد عمها والدمار قد نزل بها ، أصبحت خالية من أهلها ، وفارغة ممن كان يعمرها. وأصل الخواء الخلو. فيقال خوت الدار وخويت

تخوى خواء إذا سقطت وخلت، والعروش جمع عرش وهو سقف البيت، ويسمى العريش. وكل شىء يهيأ ليظل أو يكن فهو عريش وعرش.

وقوله تعالى : قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . حكاية لما قاله ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها ما رأى من مظاهر الخراب والدمار.

والمعنى : أو أرأيت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها وفارغة ممن كان يسكنها، فهاله أمرها، وراعه شأنها ، وقال على سبيل التعجب: كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ؟ بأن يعيد إليها العمران بعد الخراب، ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلت منهم ؟ فقوله أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ بمعنى كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون أَنَّىٰ هنا بمعنى متى أى : متى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية.

وقال القرطبى : قوله : قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا . معناه من أى طريق وبأى سبب، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن فى المدن الخربة التى تبعد أن تعمر وتسكن: أنّى تعمر هذه بعد خرابها. فكان هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التى عهد فيها أهله وأحبته... »(٢٥).

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإعادة ، لا عن أصل الإعادة. لأنه كان مؤمنًا بالبعث والنشور، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها، وتشوق إلى عمارتها، واعتراف بالعجز عن طريق الإحياء ، فماذا كانت نتيجة هذا التساؤل ، كانت نتيجته كما حكاها القرآن : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية الخاوية على عروشها ما قال ، ألبثه الله - تعالى - فى الموت مائة عام « ثم بعثه » أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه قَالَ كَمْ لَبِثْتَ أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال « قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ».

وقال سبحانه : فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، ولم يقل ثم أحياه ، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلاً فاهمًا مستعدًا للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية، وللإشعار بسرعته وسهولة تأتيه على البارى سبحانه .

قال ابن كثير : كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه، فلما استقل سويًا قال الله له بواسطة الملك كَمْ لَبِثْتَ ؟ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٦).

وقوله تعالى : كَمْ لَبِثْتَ استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل : فماذا قال له بعد بعثه ؟ فقيل : قال كم لبثت ؛ ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه ، وتنحسم مادة استبعاده بالمرة.

وكم منصوبة على الظرفية ومميزها محذوف والتقدير كم يومًا أو وقتًا والناصب. لها قوله لبثت .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظة بعده، وأنه لا شيء محال على الله – تعالى – فهو القائل : ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحدة . (لقمان ٢٨).

وفى الحديث الشريف : « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ».

وقوله تعالى : قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، معطوف على مقدر، أى : ليس الأمر كما قلت أنك لبثت يومًا أو بعض يوم، إنك لبثت مائة عام. ثم أرشده – سبحانه – إلى التأمل فى أمور فيها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال – سبحانه –: فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .

قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة، ولم تذهب طراوته ، فكأنه لم تمر عليه السنون. ولفظ يتسنه : مشتق من السنة، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء، وأصلها سَنْهَةٌ لتصغيرها على سُنَيْهَة وجمعها على سَنهات كسجدة وسجدات ، ولقولهم: سَانَهته إذا عاملته سنة فسنة، وتَسنَّه عند القوم إذا قام فيهم سنة. أو الهاء فيه للوقف نحو كتابيه وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنة واوا ، وأصلها سنوة لتصغيرها على سنية وجمعها على سنوات .

وقوله : نُنشِزُهَا أى نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه، وأصله من النشز – بفتحتين وبالسكون – وهو المكان المرتفع . وقرئ نُنشِرُهَا بضم النون والراء أى نحييها ، من أنشر الله الموتى أى أحياهم.

والمعنى : قال الله تعالى لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها : إنك لم تلبث يومًا أو بعض يوم فى الموت كما تظن ، بل لبثت مائة عام ، فإن كنت فى شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمرًا آخر من دلائل قدرتنا ، فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكر الأعوام بل بقى على حالته، وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه، وتفرقت أوصاله، مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة.

وقوله : وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ، معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لترى وتشاهد بنفسك مظاهر قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلاً على صحة البعث.

وقوله : وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا .أى انظر وتأمل فى هذه العظام كيف نركب بعضها فى بعض بعد أن نوجدها.

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف نرفعها من الأرض فنردها إلى أماكنها فى جسده.

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يمينًا وشمالاً حوله فنظر إليها وهى تلوح فى بياضها ، فبعث الله ريحًا فجمعها من كل موضع، ثم ركب كل عظم فى موضعه ، ذلك كله بمرأى من العزير.

وجاء الضمير فى قوله : لَمْ يَتَسَنَّهْ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر فصارا بمنزلة شىء واحد فكأنه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، أى : فلما تبين له بالأدلة الناصعة، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأومن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شىء قدير ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء، والفاء فى قوله فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ .. عاطفة على مقدر يستدعيه المقام كأنه قيل : رفع الله العظام من أماكنها وأكساها لحمًا فلما تبين له ذلك وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شىء قدير . وفاعل « تبين » مضمر يفسره سياق الكلام والتقدير : فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شىء قدير .

تلك هى القصة الأولى التى ساقها الله - تعالى - كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور ، أما القصة الثانية التى تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن فى قوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ أى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قام إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً خالقه - سبحانه-: رب أرنى بعينى كيف تعيد الحياة إلى الموتى .

وفى قوله : رَبِّ تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة، والألوهية التامة، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك فى قدرة الله ولا فى صحة البعث وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان، فإن العيان يغرس فى القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان .

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم - عليه السلام - أسبابًا منها أنه لما قال للنمروذ : رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ . أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة. وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله : أَوَلَمْ تُؤْمِن . أى : أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأنى قادر على الإحياء وعلى كل شىء؟.

فالجملة الكريمة استئناف مبنى على السؤال ، وهى معطوفة على مقدر، والاستفهام للتقرير. وهنا يحكى القرآن الكريم جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول : قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . أى قال إبراهيم فى الرد على سؤال ربه له: أَوَلَمْ تُؤْمِن . ؟ بلى يا رب آمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيماناً صادقاً كاملاً ولكنى سألت هذا السؤال ليزداد قلبى سكوناً واطمئنانًا وإيمانًا ، لأن من شأن المشاهدة أن تغرس فى القلب سكونًا أعمق، واطمئناناً أشد، وإيماناً أقوى. وأنا فى جميع أحوالى مؤمن كل الإيمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين.

قال القرطبى ما ملخصه : لم يكن إبراهيم شاكًا فى إحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعاينة، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا جاء فى الحديث « ليس الخبر كالمعاينة » : قال الأخفش ، : لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين : سأل ليزداد يقيناً إلى يقينه.

وأما قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « نحن أحق بالشك من إبراهيم » فمعناه أنه لو كان شاكًا لكنا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك فإبراهيم - عليه السلام - أحرى ألا يشك، فالحديث مبنى على نفى الشك عن إبراهيم ، وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر ألفاظه الآتية لم تعط شكا، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شىء موجود متقرر الوجود عند السائل والمسئول، وكيف هنا إنما هى استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية - ... » (٢٧).

وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال له : أَوَلَمْ تُؤْمِن . وقد علم أنه أثبت الناس إيمانًا ؟ قلت : ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجليلة للسامعين و بَلَىٰ إيجاب لما بعد النفى معناه : بلى آمنت. وقوله : ولكن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . أى ليزداد سكونًا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة - أى علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال، وتظاهر الأدلة أسكن للقلوب وأزيد للبصيرة واليقين، ولأن علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضرورى ، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذى لا مجال فيه للتشكيك ، فإن قلت : بمَ تعلقت اللام فى قوله : لِيطمئنَّ . قلت : بمحذوف تقديره : ولكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب » (٢٨).

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : قال فخذ أربعة من الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .

قوله : فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ . أى فاضممهن إليك - قُرِئ بضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال - صاره يصُوره ويصيره ، أى أماله وضمه إليه. ويقال - أيضًا صار الشىء بمعنى قطعه وفصله، والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممهن إليك لتتأملهن وتعرف أشكالهن وهيئاتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء، ثم اذبحهن وجزئهن أجزاء : ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا. أى ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءًا من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك ، والفاء فى قوله : فَخُذْ . هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر أى : إذا أردت ذلك فخذ.

وقوله : مِنَ الطَّيْرِ . متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كائنات من الطير، أو متعلق بقوله : خُذْ. أى خذ من الطير . والطير اسم جمع - كركب وسفر ، وقيل هو جمع طائر مثل تاجر وتجر . قالوا : وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك.

ومما قالوه فى اختيار الطير لهذه الحالة : إن الطير من صفاته الطيران، وإنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته لسهولة تأتى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة.

وقوله : ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ . معطوف على محذوف دل عليه قوله : ﴿جُزْءًا﴾. لأن تجزئتهن إنما تقع بعد الذبح . والتقدير: فاذبحهن ثم اجعل ... إلخ . وقوله : ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ . أى قل لهن تعالين بإذن الله.

وقوله : ﴿يَأْتِينَكَ﴾ . جواب الأمر فهو فى محل جزم : ﴿سَعْيًا﴾ . منصوب على المصدر النوعى ، لأن السعى نوع من الإتيان فكأنه قيل : يأتينك إتيانًا سريعًا.

قال الفخر الرازى : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهن. وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحومها وريشها ودماءها وخلط بعضها ببعض – وفعل كما أمره الله ، ثم قال لهن تعالين بإذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل جزء إلى أصله-. ثم قال : ولكن أبا مسلم أنكر ذلك ، وقال : إن إبراهيم لما طلب إحياء الميت من الله – تعالى – أراه الله مثالاً قرب الأمر عليه به، والمراد بصرهن إليك الإمالة والتمرين على الإجابة. أى : فعود الطيور الأربعة أن تصير بحيث إذا دعوتها أجابتك وأتتك، فإذا صارت كذلك فاجعل على كل جبل واحد حال حياته : ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ . والغرض منه ذكر مثال محسوس فى عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة .... » (٢٩).

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى إحياء الرجل الذى أماته الله مائة عام، والذى جاء ذكره فى الآية السابقة، ولأن ظاهر الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على مرتفع من الأرض لا يجوز تحميل الألفاظ ما لا تحتمله ، وما ذهب إليه أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلاً عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين.

ثم ختم – سبحانه– الآية بقوله : ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . أى واعلم أن الله – تعالى – غالب على أمره، قاهر فوق عباده، حكيم فى كل شئونه وأفعاله ، وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا أبلغ الأدلة والشواهد على قدرة الله – تعالى – وعلى أنه المستحق للعبادة والخضوع، وعلى أن ما أخبر به من صحة البعث والنشور حق لا ريب فيه.

ثم حض الله – تعالى – عباده على الإنفاق فى سبيله، ووعدهم على ذلك بجزيل الثواب ، فقال تعالى :



﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا فى صدقة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان . وذلك آن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما حث الناس حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول الله كانت ثمانية آلاف، فأمسكت لنفسى ولعيالى أربعة آلاف، وأربعة آلاف أقرضتها لربى ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « **بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت** » [٣٠]. وجاء عثمان بألف دينار فى جيش العسرة فصبها فى حجر الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال أبو سعيد الخدري– رأيت النبى – صلى الله عليه وسلم – رافعًا يديه يدعو لعثمان ويقول : « **يارب عثمان إنى رضيت عن عثمان فارض عنه** » [٣١].

ونزول هاتين الآيتين فى شأن صدقة هذين الصحابيين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجهما وبذل ماله فى سبيل الله.

و « المثل » الشبه والنظير ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لماثلة مضربه لمورده الذى ورد فيه أولاً. ثم استعير للصفة أو الحال أو للقصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة، وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية.

و « الحبة » كما يقول القرطبى – اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته ، وأشهر ذلك البر فكثيرًا ما يراد بالحب.

و سُنْبُلَةٍ بوزن فنعلة – من أسبل الزرع إذ صار فيه السنبل ، أى استرسل بالسنبل كما يسترسل الستر بالإسبال. وقيل : معناه صار فيه حب مستور كما يستر الشيء بإسبال الستر عليه . والجمع سنابل.

والمعنى : مثل صدقة الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، أى : فى طاعته كمثل حبة ألقيت فى أرض طيبة، أصابها الغيث، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبتت فى الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة.

فأنت ترى أن الخالق – عز وجل – قد شبه حال الصدقة التى يبذلها المؤمن فى سبيل الله فيكافئه الله – تعالى – عليها بالثواب العظيم ، بحال الحبة التى تلقى فى الأرض النقية فتخرج عودًا مستويًا قائمًا قد تشعب إلى سبع شعب، فى كل شعبة سنبلة ، وفى كل سنبلة مائة حبة. وفى هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير ، ومن الترغيب فى فعل البر ولا سيما النفقة فى الجهاد فى سبيل الله.

قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله - تعالى - لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة » (٣٢).

وقال سبحانه : كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ . فأسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن المنبت فى الحقيقة هو الله ، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة بالحبات ولأنها هى الأصل لما تولد عنها.

ثم قال تعالى : وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ . أى والله - تعالى - يضاعف الثواب والجزاء أضعافاً كثيرة لمن يشاء من عباده ، فيعطى بعضهم سبعمائة ضعف، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك ، لأن الصدقة يختلف ثوابها باختلاف حال المتصدق فمتى خرجت منه بنية خالصة ، وقلب سليم ، ونفس صافية، ومن مال حلال ووضعت فى موضعها المناسب، متى كانت كذلك كان الجزاء عليها أوفر، والمضاعفة تزيد على سبعمائة ضعف، إذ عطاء الله لمن يشاء من عباده ليس له حدود ، وثوابه ليس له حساب محدود.

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى والله - تعالى - عطاؤه واسع ، وجوده عميم ، وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنيات عباده وبأقوالهم وبسائر شئونهم ، فيجازى كل إنسان على حسب نيته وعمله.

٢٦٢ - مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . استئناف جىء به لبيان كيفية الإنفاق الذى يحبه الله، ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم. وقوله : ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى . تحذير للمتصدق من هاتين الصفتين الذميمتين لأنهما مبطلتان لثواب الصدقة.

والمن معناه : أن يتطاول المحسن بإحسانه على من أحسن إليه، ويتفاخر عليه بسبب ما أعطاه من عطايا. كأن يقول على سبيل التفاخر والتعيير : لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : والمن فى اللغة على وجوه : فقد يأتى بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه بنعمة. وقد يأتى بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى - : وإنَّ لك لأجْرًا غير ممْنُونٍ . (القلم : ٣) . أى غير مقطوع وغير ممنوع ، ومنه سمى الموت منونًا لأنه يقطع الأعمار، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة . والمراد بالمن فى الآية المن المذموم هو بمعنى إظهار الاصطناع إليهم (٣٣).

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ، ويريد أنه اصطنعه وأوجب عليه حقا له، وكانوا يقولون : إذا صنعتم صنيعة فانسوها ولبعضهم.

وإن امرؤ أسدى إلىّ صنيعة وذكّرنيهــا ـ إنــه للئيــم

وفى نوابغ الكلم : « صنوان : من منح سائله ومنَّ، ومن منع نائله وضنَّ ، والمراد بالأذى فى الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولا يؤذيه، أو يفعل معه فعلا يسىء به إليه، وهو أعم من المن، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه (٣٤).

وجاء العطف بثم فى الجملة الكريمة، لإظهار التفاوت الشديد فى الرُّتْبَة بين الإنفاق الذى يحبه الله، وبين الإنفاق الذى يصاحبه المن والأذى ، وللإشعار بأن المن والأذى بغيضان عند الإنفاق وبعده، فعلى المنفق أن يستمر فى أدبه وإخلاصه وقت الإنفاق وبعده حتى لا يذهب ثوابه، إذ المن والأذى مبطلان للثواب فى أى وقت يحصلان فيه.

قال الشيخ ابن المنير مبينًا أن « ثم » هنا تفيد استمرار الفعل بجانب إفادتها للتفاوت فى الرتبة : وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل فى هذه الآية ونحوها. وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء الطول فى استصحابه ، فهى على هذا لم تخرج على الإشعار ببعد الزمن، ولكن معناها الأصلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه، ومعناها المستعار إليه دوام وجود الفعل وتراخى زمن بقائه ، وعليه حمل قوله - : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . أى : داوموا على هذه الاستقامة دوامًا متراخيًا ممتد الأمد.. وكذلك قوله تعالى هنا : ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى . أى يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان والأذى... (٣٥).

وكرر - سبحانه - النفى فى قوله : ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى . لتأكيده وشموله لأفراد كل واحد منهما، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى. حتى لقد قال بعض الصالحين: «لئن ظننت أن سلامك يثقل على من أنفقت عليه بنفقة تبتغى بها وجه الله ، فلا تسلم عليه ».

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا مَنٍّ ولا أذى فقال : لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . أى : لهم جزاؤهم العظيم مكافأة لهم على أدبهم وإخلاصهم ، عند مربيهم مالك أمرهم، ولا خوف عليهم مما سيجدونه فى مستقبلهم ، ولا هم يحزنون على ماضيهم، وذلك لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه خير عوض وأكرمه.

ثم كرر سبحانه التحذير من المن والأذى، مناديًا المؤمنين بأن يجتنبوا فى صدقاتهم هاتين الرذيلتين، مبيناً أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إيذائه، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعانى وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

★ ★ ★

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾

٢٦٣ - قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . والمعنى : قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ . بأن تقول السائل كلامًا جميلاً طيبًا تجبر به خاطره، ويحفظ له كرامته. وَمَغْفِرَةٌ . لما وقع منه من إلحاف فى السؤال، وستر لحاله وصفح عنه . خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى . أى خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه.

لأن الكلمة الطيبة للسائل ، والستر عليه، والعفو عنه فيما صدر منه كل ذلك يؤدى إلى رفع الدرجات عند الله، وإلى تهذيب النفوس، وتأليف القلوب، وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال . أما الصدقة التى يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدى إلى ذهاب ثوابها ، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولاسيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم ، وعلى صيانة ماء وجوههم ، لأن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرًا فى نفوسهم من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التى يعسر الشفاء منها .

قال القرطبى : روى مسلم فى صحيحه أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال : « الكلمة الطيبة صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق »[٣٦] فعلى المسئول أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب، ويقابله بالطلاقة والتقريب ليكون مشكورًا إن أعطى ومعذورًا إن منع. وقد قال بعض الحكماء : ألق صاحب الحاجة بالبشر فإن عدمت شكره لم تعدم عذره »[٣٧].

وقوله : **قول معروف** . مبتدأ ، وساغ الابتداء بالنكرة لوصفها وللعطف عليها، وقوله : ومغفرة . عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله . وقوله : خَيْرٌ . خبر عنهما، وقوله : يَتْبَعُهَا أَذًى . فى محل جر صفة لصدقة.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله : وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . أى والله - تعالى - فى غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين ، وإنما أمرهم بهما لمصلحة تعود عليهم. أو غنى عن الصدقة المصحوبة بالأذى فلا يقبلها . حليمٌ . فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها ، فهو - سبحانه - يمهل ولا يهمل . والجملة الكريمة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب.

٢٦٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ . نداء منه - سبحانه - للمؤمنين يكرر فيه نهيهم عن المن والأذى، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس : ولذا جاء فى الحديث الشريف : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر ».

ثم أكد - سبحانه - هذا النهى عن المن والأذى بذكر مثلين قال فى أولهما : كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .

والمعنى : يا من آمنتم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها وتمحقوا ثمارها، بسبب المن والأذى ، فيكون مثلكم فى هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام، كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغى به رضاء الله ولا ثواب الآخرة، لأنه كفر بالله ، وكفر بحساب الآخرة .

وفى هذا تنفير شديد من المَنِّ والأذى لأنه - سبحانه - شبَّه حال المتصدق المتصف بهما فى إبطال عمله بسببهما بحال هذا المنافق المرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر . وقوله : كَالَّذِي . الكاف فى محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كإبطال الذى ينفق ماله رئاء الناس .. أو فى محل نصب على الحال من فاعل : تُبْطِلُوا . أى لا تبطلوها مشابهين الذى ينفق ماله رئاء الناس

وقوله : رِئَاءَ . منصوب على أنه مفعول لأجله ، أى : كالذى ينفق ماله من أجل رئاء الناس . وأما المثال الثانى فقال - سبحانه - فيه : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا .

« الصفوان » اسم جنس جمعى واحده صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشىء مما يشوبه. يقال : يوم صفوان أى صافى الشمس . وقيل هو مفرد كحجر. و «الوابل» المطر الشديد. يقال : وبلت السماء تبل وبالا وبولا: اشتد مطرها. و «الصلد» هو الشىء الأجرد النقى من التراب الذى كان عليه. ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعرًا، والأصلد الأجرد الذى لا ينبت شيئًا مأخوذ من صلد يصلد فهو صلد.

والمعنى : يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمَنِّ والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذى ينفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله ، وإن مثل هذا المنافق فى انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئًا ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته ، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس لا يصلح لإنبات أى شىء عليه.

. فالتشبيه فى الجملة الكريمة بين الذى ينفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذى عليه قدر رقيق من التراب ستر حاله، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتتكشف حقيقته ويراه الرائى عاريًا من أى شىء يستره . وكذلك المنافق المرائى فى إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث لأن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائمًا عما تحته وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه.

ومن المفسرين من يرى أن التشبيه فى الجملة الكريمة بين المنفق الذى يبطل صدقته بالمَنِّ والأذى وبين الحجر الأملس ، وأن الضمير فى قوله : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ . يعود إلى هذا المبطل لصدقته بالمَنِّ والأذى . فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذى عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتًا للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه، فالمَنُّ والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع ، كما يزيل المطر التراب الذى يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس.

والذى نراه أن عودة الضمير فى قوله : فَمَثَلُهُ . على الذى ينفق ماله رئاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور ، ولأن التشبيه فى قوله : فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ . قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذى ينفق ماله رئاء الناس لأنه مفرد مثله، خلاف قوله : لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ . فإن الضمير فيه بلفظ الجمع، فمن الأولى أن يعود الضمير فى قوله : فَمَثَلُهُ . إلى المرائى لتوافقهما فى الإفراد .

ثم قال تعالى : لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا . أى أن الذين يبطلون صدقاتهم بالمَنِّ والأذى، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرون على تحصيل شىء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركتها، وأذهب ثمرتها وأزال ثوابها.

أو المعنى : إن أولئك المنانين ليس عندهم قدرة على شىء من المال الذى بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله وهو – سبحانه – الذى أنعم به عليهم، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة ، وأن ينفقوه بدون مَنٍّ أو أذى أو مراءاة، حتى يظفروا بحسن المثوبة منه – سبحانه –.

ثم ختم – سبحانه – الآية الكريمة بقوله : وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان.

والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين، فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذه الصفات التى لا تليق بهم.

والذى ينظر فى هذه الآيات الكريمة يرى أن الله – تعالى – قد حذر المنفقين من المَنِّ والأذى فى ثلاث آيات متواليات ، كما حذرهم من الرياء ، وساق أكثر من تشبيه لتقبيح الصدقات التى لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد فى النهى ؟ والجواب عن ذلك : أن المَنَّ والأذى فى الإنفاق كثيرًا ما يحصلان بسبب استعلاء كاذب، أو رغبة فى إذلال المحتاج وإظهاره بمظهر الضعيف : وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة، ولا يتلاقى مطلقًا مع الحكم التى من أجلها شرعت الصدقات – بل إنه ليتنافر معها تنافرًا تامًا، لأن الصدقات شرعها الله لتهذب النفوس ، وتطهر القلوب ، وتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء فإذا ما صاحبها المَنُّ والأذى أثمرت نقيض ما شرعت له، لأنها تثير فى نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات ، وتثير فى نفس الآخذ شعورًا بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه، وبذلك تتقطع الروابط ، ويتمزق المجتمع، وتتحول المحبة إلى عداوة.

ولقد تحدث الإمام الرازى عن الآثار السيئة للمَنِّ والأذى فقال ما ملخصه : وإنما كان المَنُّ مذمومًا لوجوه، **الأول :** أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة ، فإذا أضاف المعطى إلى ذلك إظهار الإنعام زاد ذلك فى انكسار قلبه فيكون فى حكم المضرة بعد المنفعة ، وفى حكم المسىء إليه بعد أن أحسن إليه. **والثانى :** أن إظهار المَنِّ يبعد أهل الحاجة عن الرغبة فى صدقته إذا اشتهر عن طريقه ذلك. الثالث: أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله – تعالى – عليه وأن يعتقد أن لله عليه نعمًا عظيمة حيث وفقه لهذا العمل ، ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه منة على الغير. الرابع : أن المعطى فى الحقيقة هو الله ، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه ، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون فى درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول ، وعن الآثار إلى المؤثر، وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسىء إلى الفقير بأن يقول له : فرج الله عنّى منك، وأنت أبدًا تأتى إلىَّ بما يؤلم .. إلخ » [٣٨].

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عددًا من الأحاديث الشريفة التى نهت عن المَنِّ والأذى، ومن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم :المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب[٣٩].

«وروى النسائى عن ابن عباس عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « لا يدخل الجنة مدمن خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا منان » [٤٠].

★ ★ ★

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾

المفردات :

ابتغاء مرضاة الله : طلبًا لرضوانه.

وتثبيتًا من انفسهم : أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ، ولا اضطراب الحرص.

الجنــــــة : البستان ، وأصل الجن ستر الشيء عن الحاسة، يقال جنه الليل وأجنه، أى ستره ، وسميت الجنة بذلك لأنها تظل ما تحتها وتستره.

الربـــوة : المكان المرتفع من الأرض، وأشجار الرُّبى أحسن منظرًا، وأزكى ثمرًا للطافة الهواء وفعل الشمس فيها.

آتت اكلها ضعفين : أخرجت ثمرها ضعفا بعد ضعف ، فتكون التثنية للتكثير، أو فآتت ثمرها ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان.

الطـل : المطر الخفيف وجمعه طلال ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها فيكفيها.

إعصار : الإعصار الريح التى تهب بشدة فتجتاح ما أمامها.

تمهيد :

بعد أن ذكر سبحانه مثل الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعون ذلك بالمن والأذى، ومثل الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، قفّى على ذلك بذكر مثل للذين ينفقون أموالهم طلبًا لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم.

٢٦٥ – وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ . . .

أى مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوان اللّه ، وتمكينًا لأنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان، باطمئنان حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها، كمثل جنة جيدة التربة ملتفة الشجر ، عظيمة الخصب، تنبت كثيرًا من الغلات نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مِثْلَىْ ما كانت تغل ، وإن لم يصبها الوابل فطل ومطر خفيف يكفيها، لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها، وهكذا كثير البر كثير الجود، إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره ، فخيره دائم وبره لا ينقطع .

وإنما قال من أنفسهم أى بعض أنفسهم ، جاء فى تفسير الكشاف (فإن قلت فما معنى التبعيض ؟ قلت معناه أن من بذل ماله لوجه اللّه فقد ثبت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه معًا فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله تعالى : وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ (٤١). (الصف : ١١).

فينبغى أن نقصد بأعمالنا رضا اللّه ، وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة فى حب المال.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى إنه عليم بأحوال عباده ، فهو يجازى المخلصين بما يرضيهم ، كما سيجازى المنافقين والمرائين بما يستحقون .

٢٦٦ – أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ . . . .

الاستفهام فى هذه الآية للنفي، والمعنى : لا يحب أحد أن يحدث له ما أوردته الآية الكريمة، وهو أن يكون له بستان فيه نخيل وأعناب – وهما من أنفس أشجار الفواكه المعروفة وأكثرها نفعًا – والأنهار تتخلل هذه الأشجار، ويملك فى هذا البستان – إلى جانب النوعين السابقين – جميع أنواع الأشجار المثمرة.

والحال أنه قد أصابه الكبر ، الذى أقعده عن الكسب، من غير تلك الحديقة اليانعة، وله فضلا عن شيخوخته وعجزه ذرية ضعفاء لا يقدرون على العمل، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ، فيفقدها صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها ، ويبقى هو وأولاده فى حالة شديدة من البؤس والحيرة ، والغم والحسرة، لحرمانه من تلك الحديقة التى كانت محط آماله.

وقد وصف الله الجنة هنا بثلاث صفات :

١ – ففيها نخل وأعناب.

٢ – وتجرى من تحتها الأنهار.

٣ – وهى زاخرة بأنواع الثمار.

أما صاحبها فقد أصابه الكبر، وله ذرية ضعفاء ، ثم هو يرى جنته ومحل آماله قد احترقت وهو فى أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها.

ولكأن الله يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر ، احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بارتكابكم لما نهى الله عنه، فلا تجدون لها نفعًا يوم القيامة، وأنتم فى أشد الحاجة إليها فى هذا اليوم العصيب، فيكون مثلكم فى الحزن والحسرة كمثل هذا الشيخ الكبير الذى احترقت جنته وهو فى أشد الحاجة إليها.

وروى ابن أبى مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل صالحًا حتى إذا كان عنده آخر عمره ، أحوج ما يكون إليه عمل العمل السيئ (٤٢).



﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ﴾

المفردات :

من طيبات ما كسبتم : من حلال ما كسبتم ، والطيب الجيد المستطاب.

ومما أخرجنا لكم من الأرض : أى ومن طيبات ما أخرجنا لكم من باطن الأرض ، من النباتات والحبوب والثمار والمعادن وغيرها.

ولا تيمموا الخبيث	: ولا تقصدوا بما تنفقون الردىء والحرام، والتيمم فى اللغة : القصد.
أن تغمضوا فيه	: الإغماض فى اللغة، غض البصر، مأخوذ من الغموض وهو الخفاء، والمراد هنا أن تتسامحوا فى أخذه وتتساهلوا، من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره، ويقال للبائع أغمض أى لا تستقص، كأنك لا تبصر.
حميــــــــد	: أى مستحق للحمد على نعمه العظام.

المعنى :

أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها ، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من الخبيث الردىء ، والحال أنكم لا تأخذونه أن أعطى هبة أو شراء أو غير ذلك ، إلا أن تتساهلوا فى قبوله، وتغضوا الطرف عن رداءته، وإذا كان هذا شأنكم فى قبول ما هو ردىء ، فكيف تقدمونه لغيركم؟ إن الله تعالى ينهاكم عن ذلك، لأنه من شأن المؤمن الصادق فى إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه ، ولا يعطى من شىء إلا ما يحب أن يعطى إليه . ففى الحديث الشريف : « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

سبب النزول :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا قال : نزلت هذه الآية فى الأنصار ، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الأسطوانتين فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله فى أفناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك : وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ (٤٣).



﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ ﴾

المفردات :

الشيطان يعدكم الفقر	: يخوفكم من الفقر إذا أنفقتم شيئًا من الأموال أو الثمرات.
ويأمركم بالفحشاء	: يغريكم ويحضكم على البخل بالصدقات ، وقيل المراد بالفحشاء جميع المعاصى.
المغفــــــــرة	: الصفح عن الذنب.
وفضــــــــلا	: أى زيادة فى الرزق ، أو ثوابًا فى الآخرة أو الأمرين معًا.
واســــــــع	: أى صاحب سعة، والمراد بها هنا: سعة النعمة والمغفرة.

التفسير :

٢٦٨ - الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ . . . . أى أن الشيطان يخوف المتصدقين الفقر ويغريهم بالبخل، ويخيِّل إليهم أن الإنفاق يذهب المال، ولابد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لحاجات الزمان.

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء فى الحال ومن ضعْف بسبب قلة المال، وأصل الفقر فى اللغة كسر فقار الظهر، ثم وصف الإنسان المحتاج الضعيف بأنه فقير، تشبيهًا له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزًا عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات، ومنه تسميتهم المصيبة فاقرة ، وقاصمة الظهر.

وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً . أى أن اللّه وعدكم على لسان نبيكم، وبما أودعه فى الفطرة السليمة من حب الخير والرغبة فى البر - مغفرة لكثير من خطاياهم ، وفضلاً : أى زيادة فى الخير والبركة فى المال والسعة فى الرزق والثواب فى الآخرة ، قال تعالى : وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (سبأ : ٣٩).

وروى البخارى ومسلم عن النبى - صلى اللّه عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا »[٤٤]. ومعنى الدعاء للمنفق بالخلف أن يسهل له أسباب الرزق ، ويرفع شأنه عند الناس، والبخيل المحروم من مثل هذا ، ومعنى الدعاء على الممسك بالتلف أن يذهب ماله حيث لا يفيده.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . أى واللّه تعالى واسع الجود والعطاء والرحمة، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها ، فلا يخفى عليه من أطاع شيطانه وهواه، ومن امتثل أوامر مولاه.



﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٦٩) ﴾

المفردات :

الحكمــــة : هى إصابة الحق فى قول أو فعل أو رأى ، وهى من الملكات النفسية العليا، التى يمنحها اللّه من هو أهل لها.

التفسير :

للعلماء فى المراد بالحكمة فى الآية الكريمة أقوال كثيرة:

قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل.

قال مالك : وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هى الفقه فى دين الله، وأمر يدخله فى القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً فى أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفا فى أمر دنياه عالمًا بأمر دينه بصيرًا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه فى دين الله.

وقال ابن عباس : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله.

روى البخارى ومسلم والنسائى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا حسد إلا فى اثنتين ، رجل آتاه الله مالاً فسلَّطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمةِ فهو يقضى بها ويعلّمها » (٤٥).

٢٦٩ - يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ . . . أى يعطى الله فضل إصابة الحق فى القول والعمل، أو يعطى العلم النافع الذى يكون معه العمل من يشاء من عباده الأخيار.

. . . وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا :

ومن يعطه الله نعمة التمييز بين الحق والباطل ، وييسر له الاهتداء إلى العلم النافع، والاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر فإنه يكون سعيدًا فى دنياه و أخراه.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ . والألباب جمع لب وهو فى الأصل خلاصة الشىء وقلبه، وأطلق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شىء فيه، والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة، التى تخلّصت من شوائب الهوى، ودوافع الشر، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة، أى : وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية وينتفع بثمارها إلا أصحاب العقول الراجحة والنفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به.



﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٢٧٠) ﴾

المفردات :

من نفقة : النفقة ، ما ينفقه الإنسان من المال فى خير أو شر.

او نذرتم من نذر : هو ما يوجبه الإنسان على نفسه من غير أن يلزمه الله به قبل نذره ثم يصير بالنذر واجب الأداء شرعًا.

التفسير :

هذه الآية مسوقة للحث على تنقية النفقات والنذور وتخليهما من شوائب الشر .. ومعناها : وما أنفقتم أيها المكلفون من نفقة قليلة أو كثيرة أو نذرتم من نذر هان أو عظم، فإن الله يعلمه بجميع أحواله وأوصافه. من طيب أو خبيث ، ابتغاء وجه الله به أو ابتغاء وجه سواه .

(وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين ، والوعيد الشديد للمتمردين ، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص وسيحضه على المسارعة فى الخيرات) (٤٦).

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . وما للظالمين الذين يضعون الأمور فى غير مواضعها، ويبذلون المال فى غير وجوهه المشروعة، ويضنون به على مستحقيه « من أنصار » ينصرونهم يوم الجزاء.

قال تعالى : مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (غافر : ١٨).

إن العالم الإسلامى غنى بثرواته وكنوزه، وإن الله مطلع وشاهد أين تنفق هذه الكنوز والثروات، ولو أنفق من هذه الكنوز فى مصارف الزكاة والصدقات المطلوبة لارتفع شأن هذه الأمة واستردت مكانتها وعادت خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ...

★ ★ ★

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

المفردات :

إن تبدوا الصدقات : إن تظهروها بحيث يراها الناس ليقتدوا بكم.

فنعمـــــا هى : فنعم شيئًا هذه الصدقات التى أبديتموها ، وفى الكلام مضاف مقدر، أى فنعمًا إظهارها.

التفسير :

٢٧١ - : إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ .. : أى إن أظهرتم الصدقات فنعم شىء إظهارها، لحمل الغير على الاقتداء بكم.

وإن تُخْفُوهَا : أى إن تستروها عن أعين الناس.

وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ : أى وتعطوها من يستحقها من الفقراء فالإخفاء خير لكم وأفضل عند الله من الإظهار.

قال ابن كثير : والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية ولما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **سبعة يظلهم الله فى ظله** يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . (الحشر : ١٦). ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (٤٧).

وأخرج الطبرانى مرفوعًا : « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » (٤٨).

وقال الألوسى : والأكثرون على أن الصدقة سرا أفضل من الصدقة علنًا، وعلى أن هذه الأفضلية فيما إذا كان - كل من صدقتى السر والعلانية - تطوعًا ممن لم يعرف بمال « أى لم يعرف بغنى » وإلا فإبداء الفرض لغيره (أى لغير المتطوع المذكور) أفضل لنفى التهمة، وكذا الإظهار أفضل لمن يقتدى به وأمن نفسه. انتهى وعن ابن عباس - رضى الله عنه - « صدقة السر فى التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا، وصدقة الفريضة علانيتها أفضـــل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا، وكذلك جميـــع الفرائض والنوافل فى الأشياء كلها » (٤٩).

وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ . أى ويمحو عنكم بعض ذنوبكم بسبب الصدقات ، لأن فعل الحسنات يمسح السيئات .

قال تعالى : وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين . (هود : ١١٤).

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ : أى يعلم علما دقيقًا بكل ما تعلمونه وسيجزيكم عليه.



﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

قال القرطبى ما ملخصه : قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُم . هذا الكلام متصل بذكر الصدقات ، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين.

روى سعيد بن جبير مرسلا عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فى سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر الفقراء من المسلمين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم »(٥٠).

فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام. وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة فى أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك . ثم قال : قال علماؤنا : هذه الصدقة التى أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هى صدقة التطوع ، وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر، لقوله - عليه الصلاة والسلام - :

« أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها إلى فقرائكم » (٥١).

والمعنى : ليس عليك يا محمد هداية من خالفك فى دينك ، ولكن الله - تعالى - يهدى من يشاء هدايته إلى نور الإيمان، وطريق الحق. وما دام الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن تعاملوا غيركم بما يوجبه عليكم إيمانكم من سماحة فى الخلق، وعطف على المحتاجين ولو كانوا من المخالفين لكم فى الدين.

وعلى هذا المعنى الذى يؤيده سبب النزول يكون الضمير فى قوله هُدَاهُمْ . يعود على غير المسلمين.

ومن المفسرين من يرى أن الضمير فى قوله هُدَاهُمْ . يعود إلى المسلمين المخاطبين فى الآيات السابقة، فيكون المعنى : لا يجب عليك أيها الرسول الكريم أن تجعل المسلمين جميعًا مهديين إلى الإتيان بما أمروا به

ومنتهين عما نهوا عنه من ترك المن والأذى والرياء فى صدقتهم، ولكن الله وحده الذى يهدى من يشاء هدايته إلى الاستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.

قال الألوسى : وعلى هذا الرأى تكون الجملة معترضة جيء بها على طريق تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سيد المخاطبين - صلى الله عليه وسلم - مع الالتفات إلى الغيبة فيما بين الخطابات المتعلقة بأولئك المكلفين مبالغة فى حملهم على الامتثال .. ثم قال : والذى يستدعيه سبب النزول رجوع ضمير هُدَاهُمْ . إلى الكفار ، وحينئذ لا التفات وإنما هناك تلوين الخطاب فقط (٥٢).

ثم حض - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق فى وجوه الخير فقال : وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُم . أى: ما تقدمونه من مال فى وجوه البر أيها المؤمنون - فإن نفعه سيعود بالسعادة فى الدنيا، وبالثواب الجزيل فى الآخرة. فكونوا أسخياء فى الإحسان إلى الفقراء ، وابتعدوا عن وسوسة الشيطان الذى : يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ. (البقرة : ٢٦٨).

و « ما » شرطية جازمة لتنفقوا ، وهى منتصبة به على المفعولية ، و « من » للتبعيض وهى مع مجرورها متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل اسم الشرط، والتقدير: أى شيء تنفقوا كائنا من المال فهو لأنفسكم لا ينتفع به فى الآخرة غيركم .

قال الفخر الرازى ما ملخصه : وقوله تعالى : وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ . يحتمل وجوها **الأول** : أن يكون المعنى : ولستم فى صدقتكم على أقاربكم من المشركين تقصدون إلا وجه الله فى صلة رحم وسد خلة مضطر، وليس عليكم اهتداؤهم حتى يمنعكم ذلك من الإنفاق عليهم . **الثانى** : أن هذا وإن كان ظاهره خبرا إلا أن معناه نهى أى : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله. **الثالث** : أن قوله : وَمَا تُنفِقُون . أى ولا تكونوا منفقين مستحقين الاسم الذى يفيد المدح حتى تبتغوا بذلك وجه الله . وفى ذكر الوجه تشريف عظيم لأنك إذا قلت : فعلت هذا الشيء لوجه زيد فهو أشرف فى الذكر من قولك : فعلته له . لأن وجه الشيء أشرف ما فيه ، ثم كثر حتى صار يعبر عن الشرف بهذا اللفظ، وأيضًا فإن قولك: فعلت هذا الفعل لوجهه يدل على أنك فعلت له فقط وليس لغيره فيه شركة » (٥٣).

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُون . أى : أن ما تنفقوا من خير - أيها المؤمنون ستعود عليكم ثماره ومنافعه فى الدنيا والآخرة. أما فى الدنيا فإنكم بسبب هذا الإنفاق تزكو أموالكم ، وتحسن سيرتكم بين الناس، وأما فى الآخرة فإنكم تنالون من خالقكم ورازقكم أجزل الثواب، وأفضل الدرجات.

وقوله : وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ . أى لا تنقصون شيئًا مما وعدكم الله به على نفقتكم فى سبيله .

قال الجمل : وهاتان الجملتان أى قوله تعالى : وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ . وقوله: وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ. تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ .وقوله : وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ .جملة من

مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى : إِلَيْكُمْ .فالعامل فيها : يُوفَّ. وهى تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله : يُوَفَّ إِلَيْكُمْ . لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا . ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرهم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب إنفاقهم فى طاعة الله – تعالى – اندراجاً أوليا » (٥٤).

هذا ، والذى يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمل الآيات التى وردت فى الحض على بذل المال فى وجوه الخير، فقد كرر فيها فعل : تنفقوا. ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله، وجىء به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام لكى يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال.

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال فى وجوه الخير ، خص – سبحانه – بالذكر طائفة من المؤمنين هى أولى الناس بالعون والمساعدة، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمل العقلاء على المسارعة فى إكرام أفرادها وسد حاجتهم.

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصويرًا كريماً نبيلاً تستجيش به المشاعر، وتحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعففة فيقول :

٢٧٣ – لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . . . .

لقد وصفهم الله – تعالى – أولا بالفقراء ، أى الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقرهم واحتياجهم إلى ضروريات الحياة.

وقوله : لِلْفُقَرَاءِ . متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق ، والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه الإنفاق فى سبيل الله ، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد .

والجملة استئناف بياني، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هى ؟ فأجيبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم .

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب فى عطائهم للفقراء بألا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعروهم بالمذلة والضعف. وأيضاً ففى هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذى قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

قال القرطبى : والمراد بهؤلاء الفقراء ، فقراء المهاجرين وغيرهم ، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر. وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة (٥٥) وكانوا نحو أربعمائة رجل، وذلك أنهم كانوا يأتون فقراء وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة فى المسجد النبوى بالمدينة فقيل لهم : « أهل الصفة » (٥٦).

أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهى قوله تعالى : الَّذِين أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

والإحصار فى اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريده بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء .

والمعنى : اجعلوا الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التى من أعظمها الجهاد فى سبيل الله ، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، أو غير ذلك من الأسباب التى جعلتهم فى حالة شديدة من الفاقة والاحتياج.

وعبر فى الجملة الكريمة بالفعل أُحْصِرُوا . بالبناء للمجهول ، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم فى مباشرة الأسباب ، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم.

وقوله : فِي سَبِيلِ اللَّهِ . تكريم وتشريف لهم ، أى أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إيثارهم إعلاء كلمة الله على أى شىء آخر ، ففى سبيل الله هاجروا ، وفى سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وفى سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه.

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها : لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ .والضرب فى الأرض هو السير فيها للتكسب والتجارة وغيرهما.

أى أنهم عاجزون عن السير فى الأرض لتحصيل رزقهم بسبب انشغالهم بالجهاد ، أو بسبب ضعفهم وقلة ذات يدهم.

والصفة الرابعة من صفاتهم هى قوله تعالى : يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ .

والتعفف : ترك الشىء والتنزه عن طلبه، بقهر النفس والتغلب عليها. يقال : عف عن الشىء إذا كف عنه، والحسبان بمعنى الظن.

أى يظنهم الجاهل بحالهم ، أو الذى لا فراسة عنده، يظنهم أغنياء من أجل تجملهم وتعففهم عن السؤال ، أما صاحب الفراسة الصادقة، والبصيرة النافذة ، فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره.

و مِنَ . فى قوله : مِنَ التَّعَفُّفِ . للتعليل ، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان.

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهى قوله تعالى : تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ . والسيما والسيماء : العلامة التى يعرف بها الشىء، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة.

والمعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى فى هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم.

قال الإمام الرازى ما ملخصه : قال مجاهد : سِيمَاهُمْ . التخشع والتواضع أى تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم – وقال السدى : – تعرفهم بسيماهم – أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة. وقال الضحاك: أى بصفرة ألوانهم ورثاثة ثيابهم ... ثم قال – رحمه الله – : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شئ آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقعا فى قلوب الخلق، وكل من رآهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحية ، لا علامات جسمانية. ألا ترى أن الأسد إذا مر هابته سائر السباع بطباعها لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت، والبازى إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة ، وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذا هنا ... » [٥٧].

وقد ذكر – سبحانه – فى الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من أجل تعففهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراستهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الأنظار التى تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستنيرة والحس المرهف، والفراسة الصائبة، فإنهم يدركون ما عليه أولئك القوم من احتياج بسبب ما منحهم الله من فكر صائب ونظر نافذ، فى الحديث الشريف « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » [٥٨].

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهى قوله تعالى : لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . والإلحاف – كما يقول صاحب الكشاف – : هو الإلحاح بأ لاَّ يفارق – السائل المسئول – إلا بشئ يعطاه . من قولهم : لحفنى من فضل لحافه أى أعطانى من فضل ما عنده . ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا . وقيل هو نفى للسؤال والإلحاف » [٥٩].

والذى عليه المحققون من العلماء أن النفى منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلا تعففا منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كان يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس فى سماتهم، لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك.

وإنما جاء النفى بهذه الطريقة التى يوهم ظاهرها أن النفى متجه إلى الإلحاف وحده للموازنة بينهم وبين غيرهم، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافًا فهم لا يسألون مطلقًا لا بإلحاف ولا بدونه، والنفى بهذه الطريقة فيه تعريض للملحفين وثناء على المتعففين؛ ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون ألبتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافا والمراد التنبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافا، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر طياش مهذار سفيه، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بذم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض فى الترهات ولا يشرع فى السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض فى الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغنى عن ذلك، بل غرضك التنبيه على مذمة الثانى . فالأمر هنا كذلك لأن قوله : لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا . بعد قوله : يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ. الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين عن الآخر فى استيجاب المدح والتعظيم » [٦٠].

هذا وقد وردت أحاديث متعددة تمدح المتعففين عن السؤال ، وتذم الملحفين فيه ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ليس المسكين الذى ترده اللقمة واللقمتان ولا التمرة والتمرتان إنما المسكين الذى يتعفف. اقرأوا إن شئتم : لا يسألون الناس إلحافا . (٦١).

وروى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم » (٦٢).

روى مسلم - أيضًا - فى صحيحه عن عوف بن مالك قال : كنا تسعة أو ثمانية أو سبعة عند رسول الله فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فقلنا: علام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. والصلوات الخمس.. وتطيعوا ولا تسألوا الناس. فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدا يناوله إياه »(٦٣).

والخلاصة أن السؤال إنما يجوز عند الضرورة ، وأنه لا يصح لمؤمن أن يسأل الناس وعنده ما يكفيه ، لأن السؤال ذل يربأ بنفسه عنه كل من يحافظ على مروءته وكرامته وشرفه.

وقوله : وما تُنفقُوا من خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ به عَلِيمٌ . تحريض للمؤمنين على البذل والسخاء وتربية لنفوسهم على الشعور بمراقبة الله - تعالى - وعلى محبة فعل الخير، أى : وما تنفقوا من خير سواء أكان المنفق قليلاً أم كثيراً سراً أم علناً فإن الله يعلمه وسيجازيكم عليه بأجزل الثواب، وأعظم العطاء.

ثم ختم - سبحانه - الحديث عن النفقة والمنفقين بقوله :

٢٧٤ - الذين يُنفقون أموالَهُم بالليل والنهار سرًا وعلانية فلهم أجرهُم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنُون . وقوله : الَّذِينَ يُنفقُون أمْوالَهُم بِاللَّيْلِ والنَّهارِ سرًا وعلانيةً . استئناف المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقتهم فى كل الأزمان وفى كل الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين فى الليل وفى النهار، وفى الغدو وفى الآصال ، فى السر وفى العلن وفى كل وقت وفى كل حال، لأنهم لقوة إيمانهم . وصفاء نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله - تعالى -.

وقد بين الله - تعالى - فى ثلاث جمل حُسن عاقبتهم ، وغظيم ثوابهم، فقال فى الجملة الأولى: فلهم أجرهُم عند ربهِم . فلهم أجرهم الجزيل عند خالقهم ومربيهم ورازقهم.

و الجملة الكريمة خبر لقوله : الَّذِينَ يُنفِقُونَ ... . ودخلت الفاء فى الخبر لأن الموصول فى معنى الشرط فتدخل الفاء فى خبره جوازاً ، والدلالة على سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق فى سبيل الله .

وقال فى الجملة الثانية : ولا خوفٌ عليْهِمْ . أى : لا خوف عليهم من أى عذاب لأنهم فى مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح.

وقال فى الجملة الثالثة : ولا هُم يحْزنُون . أى لا يصيبهم ما يؤدى بهم إلى الحزن والهم والغم : لأنهم دائماً فى اطمئنان يدفع عنهم الهموم والأحزان. وقد روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها أن على بن أبى طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً، وبدرهم نهارًا، وبدرهم سرًا ، وبدرهم علانية فقال له النبى – صلى اللّه عليه وسلم – ما حملك على ذلك ؟ فقال : أريد أن أكون أهلا لما وعدنى ربى . فقال – صلى اللّه عليه وسلم – : لك ذلك فأنزل اللّه هذه الآية »(٦٤).

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمومها، فهى تنطبق على كل من بذل ماله فى سبيل اللّه فى عموم الأوقات والأحوال.

أما بعد : فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله تعالى :

مثلُ الَّذين ينفقُون أموالَهُمْ في سَبيل اللَّه كمثَل حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سبْع سنابل ... . وانتهت بقوله تعالى :

الَّذين يُنفقُونَ أَمْوالَهم باللَّيْل والنَّهار سرًا وعَلانيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عند ربّهم ولا خَوْفٌ عليْهم ولا هُمْ يحزنُون .

والذى يقرأ هذه الآيات الكريمة بتدبر وتعقل يراها قد حضت الناس على الإنفاق فى سبيل اللّه بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل، كما يراها قد بينت أحكام الصدقة وآدابها . والآفات التى تذهب بخيرها، وضربت الأمثال لذلك، كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها، وأولى الناس بها. ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعففين ، وكما بدأت الآيات حديثها بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمته أيضا بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنى التى أعدها اللّه لهم.

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة فى دنياهم، ولنالوا رضا اللّه ومثوبته فى آخراهم.

وبعد هذه الصورة المشرقة التى ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين ، أتبعها بصورة مضادة لها وهى صورة الربا والمرابين . ومن مظاهر التضاد والتباين بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال فى وجوه الخير بدون عوض ينتظره المتصدق ، أما الربا فهو إخراج المال فى وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج مع ضمان استرداده ومعه زيادة محرمة. وأن الصدقة نتيجتها الرخاء والطهارة للمال، وشيوع روح المحبة والتعاون والتكافل والاطمئنان بين أفراد المجتمع، أما الربا فنتيجته محق البركة من المال ، وشيوع روح التقاطع والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس. ولقد نفر القرآن الناس من تعاطى الربا تنفيرًا شديدًا وحذرهم من سوء عاقبته تحذيرًا مؤكدًا فقال – تعالى – :

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

٢٧٥ - الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ .. استئناف قصد به الترهيب من تعاطى الربا، بعد الترغيب فى بذل الصدقة لمستحقيها.

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد، لأن الصدقة - كما يقول الفخر الرازى - عبارة عن تنقيص المال - فى الظاهر - بسبب أمر الله فى ذلك، والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهى الله عنه فكانا متضادين .

والأكل فى الحقيقة : ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشىء وأخذه بحرص وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن معظم مكاسب الناس تتفق فى الأكل.

والربا فى اللغة : الزيادة المطلقة، يقال : ربا الشىء يربو إذا زاد ونما، ومنه قوله تعالى : وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . (الحج : ٥).

أى : زادت .

وهو فى الشرع : - كما قال الألوسى - عبارة عن فضل مال لا يقابله عوض فى معاوضة مال بمال.

وقوله : يَتَخَبَّطُهُ. من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير استواء واتساق. يقال : خبطته أخبطه خبطا أى ضربته ضربا متواليا على أنحاء مختلفة. ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه . ويقال للذى يتصرف فى أمر ولا يهتدى فيه يخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبى سلمى فى معلقته:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ، ومن تخطئ يعمر فيهرم

والمس : الخبل والجنون . يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون .

وأصل المس اللمس باليد، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

والمعنى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا . أى يتعاملون به أخذًا وإعطاء :**لا يَقُومُونَ** . يوم القيامة للقاء الله إلا كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه وجنونه، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه يقوم قياما منكرًا مفزعًا بسبب أخذه الربا الذى حرم الله أخذه.

فالآية الكريمة تصور المرابى بتلك الصورة المرعبة المفزعة، التى تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا.

وهنا نحب أن نوضح أمرين : أما الأمر الأول فهو أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك ..

قال الألوسى : وقيام المرابى يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار ، فقد أخرج الطبرانى عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إياك والذنوب التى لا تغفر . الغلول فمن غل شيئًا أتى به يوم القيامة . وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونًا يتخبط »[٦٥]. ثم قرأ الآية . وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له ... ثم قال : وقال ابن عطية : المراد تشبيه المرابى فى حرصه وتحركه فى اكتسابه فى الدنيا بالمتخبط المصروع كما يقول لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن . ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ، ولما روى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غير داعٍ سوى الاستبعاد الذى لا يعتبر فى مثل هذه المقامات »[٦٦].

و الذى نراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين ، فى الدنيا والآخرة، فهم فى الدنيا فى قلق مستمر، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرهم فى جمع المال ، ووساوسهم التى لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون فى مصير أموالهم.. ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين فى أقوالهم وحركاتهم ، أما فى الآخرة فقد توعدهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم.

وقد رجّح الإمام الرازى أن الآية الكريمة تصور حال المرابى فى الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : « إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك فى أمر الدنيا متخبطا .. وآكل

الربا بلا شك آنه يكون مفرطا فى حب الدنيا متهالكا فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجابا بينه وبين اللّه – تعالى – فالخبط الذى كان حاصلاً له فى الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط فى الآخرة وأوقعه فى ذلك الحجاب، وهذا التأويل أقرب عندى من غيره (٦٧).

وأما الأمر الثانى فهو أن جمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه فى الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى مسه الشيطان لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون.

ولكن الزمخشرى ومن تابعه ينكرون ذلك ، ويرون أن كون الصرع أو الجنون من الشيطان باطل : لأنه لا يقدر على ذلك، فقد قال الزمخشرى فى تفسيره : وتخبط الشيطان من زعمات العرب، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون . ورجل ممسوس – أى مجنون –. وهذا أيضًا من زعماتهم ، وأن الجنّى يمسه فيختلط عليه ، وكذلك جن الرجل معناه ضربته الجن، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات » (٦٨).

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشرى ومن تابعه الإمام القرطبى فقد قال : « وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا يكون منه مس . وقد روى النسائى عن أبى اليسر قال : كان رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – يدعو فيقول : « اللهم إنى أعوذ بك من التردى والغرق والهدم والحريق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت فى سبيلك مدبرًا وأعوذ بك أن أموت لديغا » (٦٩).

وقال الشيخ أحمد بن المنير : ومعنى قول الزمخشرى أن تخبط الشيطان من زعمات العرب، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لا حقيقة لها، كما يقال فى الغول والعنقاء ونحو ذلك. وهذا القول من تخبط الشيطان بالقدرية – أى المعتزلة – فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع، ثم قال : واعتقاد السلف وأهل السنة آن هذه الأمور على حقائقها واقعة كما أخبر الشرع عنها، والقدرية ينكرون كثيرًامما يزعمونه مخالفًا لقواعدهم ، من ذلك السحر، وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن. وإن عترفوا بشىء من ذلك فعلى غير الوجه الذى يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع فى خبط طويل لهم (٧٠).

والذى نراه أن ما عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون ، ولأنه لا يسوغ لنا أن نؤول بغير ظاهره بسبب اتجاه لا دليل عليه.

وقوله : مِنَ الْمَسِّ . متعلق بيقومون ، أى لا يقومون من المس الذى حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه.

وقوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . بيان لزعمهم الباطل الذى سوغ لهم التعامل بالربا، ورد عليه بما يهدمه.

واسم الإشارة ذلك . يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم . والمعنى : ذلك الأكل استحلوه عن طريق الربا، أو ذلك العذاب الذى حل بهم والذى من مظاهره قيامهم قيام المتخبط ، سببه قولهم إن البيع الذى أحله الله يشابه الربا الذى نتعامل به فى أن كلا منهما معاوضة.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام فى الربا لا فى البيع. فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشىء الذى لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونًا فى الحل حتى شبهوا به البيع » (٧١).

وقوله : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا . جملة مستأنفة ، وهى رد من الله – تعالى – عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع.

قال الألوسى : وحاصل هذا الرد من الله – تعالى – عليهم : أن ما ذكرتم من أن الربا مثل البيع – قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان ، على أن بين البابين فرقا، وهو أن من باع ثوبًا يساوى درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلاً لدرهمين فلا شىء منهما إلا وهو مقابله شىء من الثوب. وأما إذا باع درهمًا بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض، ولا يمكن جعل الإمهال عوضًا إذ الإمهال ليس بمال فى مقابلة المال » (٧٢).

وقوله : فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ .

تفريع على الوعيد السابق فى قوله : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا . . إلخ.

والمجىء بمعنى العلم والبلاغ . والموعظة : ما يعظ الله – تعالى – به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره.

أى : فمن بلغه نهى الله – تعالى – عن الربا ، فامتثل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه، : فله ما سلف. أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل التحريم وليس له ما تقدم الاتفاق عليه ولم يقبضه . لأن الله تعالى يقول بعد ذلك : وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ .

وقوله: وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ . أى أمر هذا المرابى الذى تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوَّض إلى الله – تعالى – فهو الذى يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه.

قال ابن كثير : وقوله : فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ ... إلخ من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله تعالى : عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ . (المائدة : ٩٥) . وكما قال النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة : « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمى هاتين وأول ربا أضع ربا عمى العباس » (٧٣).

ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى : فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ . أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم (٧٤).

و مَن . فى قوله : فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ .شرطية وهو الظاهر . ويحتمل أن تكون موصولة . وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالابتداء . وقوله : فَلَهُ مَا سَلَفَ . هو الجزاء أو الخبر . و مَوْعِظَةٌ . فاعل جاء. وسقطت التاء من الفعل للفصل بينه وبين الفاعل ولكون الموعظة ها بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر.

وفى قوله : مِّن رَّبِّهِ . تضخيم لشأن الموعظة، وإغراء بالامتثال والطاعة، لأنها صادرة من اللّه – تعالى – المربى لعباده.

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه اللّه لعباده، لأنه – سبحانه – لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل، إذ الإسلام يجب ما قبله . فما أكله المرابى قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له ، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم. وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخلص من هذا المال الناتج عنه الربا.

ولقد توعد اللّه – تعالى – من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه اللّه – تعالى – فقال : وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهى اللّه عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها، والماكثون فيها بسبب تعديهم لما نهى اللّه عنه.

وفى هذه الجملة الكريمة تأكيدٌ للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجوه من المؤكدات منها : التعبير فيها بأولئك التى تدل على البعيد فهم بعيدون عن رحمة اللّه . والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وبكلمة خَالِدُونَ. التى تدل على طول المكث.

ثم بين – سبحانه – سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال :

٢٧٦ – يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ... .

والمحق : النقصان والإزالة للشىء حالا بعد حال . ومنه محاق القمر، أى انتقاصه فى الرؤية شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شىء.

أى : أن المال الذى يدخله الربا يمحقه اللّه ، ويذهب بركته، وأما المال الذى يبذل منه صاحبه فى سبيل اللّه فإنه – سبحانه – يباركه وينميه ويزيده لصاحبه.

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : « اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات، والصارف عن الصدقات الاحتراز عن نقصان المال، لما كان الأمر كذلك بيّن –

سبحانه - أن الربا وإن كان زيادة فى المال إلا أنه نقصان فى الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصانًا فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى . واللائق بالعاقل ألاَّ يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوارف بل يعول على ما أمره به الشرع.

ثم قال: واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة. أما محق الربا فى الدنيا فمن وجوه إحداها: أن الغالب فى المرابى وإن كثر ماله أن تئول عاقبته إلى الفقر، وتزول البركة عنه ، ففى الحديث : « الربا وإن كثر فإلى قل » . وثانيها : إن لم ينقص ماله فإن عاقبته الذم والنقص سقوط العدالة وزوال الأمانة.. وثالثها : أن الفقراء يلعنونه ويبغضونه بسبب أخذه لأموالهم . ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاره أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده.

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلوجوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهادا ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس -، ومنها أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقى هو العقاب وذلك هو الخسار الأكبر.

وأما إرباء الصدقات فى الدنيا فمن وجوه منها : أن من كان لله كان الله له، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله، ومنها أن يزداد كل يوم فى ذكره الجميل وميل القلوب إليه، ومنها أن الفقراء يدعون له بالدعوات الصالحة وتنقطع عنه الأطماع..

وأما إرباؤها فى الآخرة فقد روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «إن الله تعالى يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم مهره ، أو فلوَّه حتى أن اللقمة لتصير مثل أُحد » (٧٥).

ففى هذه الجملة الكريمة بشارة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرابين . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله:

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . و « كفار » من كفر بمعنى ستر وأخفى وجحد فهى صيغة مبالغة لكافر.

و أثيمٍ . فعيل بمعنى فاعل فهى صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو المكثر من ارتكاب الآثام المبطئ عن فعل الخيرات.

أى : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه الستر لنعمه والجحود بها، والتمادى فى ارتكاب المنكرات، والابتعاد عن فعل الخيرات.

وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين للإشارة إلى أن إيمان المرابين ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه ، وهم فى الحالتين آثمون معاقبون بعيدون عن محبة الله ورضاه. وسيعاقب - سبحانه - الناقصين فى إيمانهم والكافرين به بما يستحقون من عقوبات.

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا، أو فعلوه مع عدم استحلالهم له.

وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال تعالى :

٢٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا . أى إيمانًا كاملاً بكل ما أمر الله به ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . أى الأعمال الصالحة التى تصلح بها نفوسهم والتى من جملتها الإحسان إلى المحتاجين ، والابتعاد عن الربا والمرابين ، وَأَقَامُوا الصَّلاةَ. بالطريقة التى أمر الله بها، بأن يؤدوها فى أوقاتها بخشوع واطمئنان ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ . أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس .

هؤلاء الذين اتصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة. لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ . أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم.

وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ . يوم الفزع الأكبر . وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . لأى سبب من الأسباب ، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ، ورضوان من الله - تعالى - يجعلهم فى فرح دائم، وفى سرور مقيم.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيأمرهم بتقوى الله وينهاهم عن التعامل بالربا فيقول :

٢٧٨ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ . . . . أى اخشوه وصونوا أنفسكم عن الأعمال والأقوال التى تفضى بكم إلى عقابه .

وقوله : وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ، أى : اتركوا ما بقى فى ذمم الذين عاملتموهم بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رءوس أموالكم فحسب، فهذا مقابل لقوله تعالى قبل ذلك فَلَهُ مَا سَلَفَ أى ما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم ، وما لم تقبضوه فأنتم مأمورون بتركه.

وقوله : مِنَ الرِّبَا . متعلق بمحذوف على أنه حال من فاعل : بَقِيَ . أى اتركوا الذى بقى حال كونه بعض الربا، ومن للتبعيض . أو متعلق ببقي.

و وَذَرُوا. فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو فاعل ، وأصله : وَذَرُوا. فحذفت فاؤه ، والماضى منه « وذر ».

وقوله : إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . حض لهم على ترك الربا ، أى إن كنتم مؤمنين حق الإيمان فامتثلوا أمر الله وذروا ما بقى من الربا مما زاد على رءوس أموالكم.

قال ابن كثير : نزل هذا السياق فى بنى عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبنى المغيرة من بنى مخزوم، كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا . وقالت بنو المغيرة : لا نؤدى فى الإسلام ، فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت

هذه الآية ، فكتب بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه. فقالوا: نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لكل من استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار » (٧٦).

ثم هدد الله - تعالى - كل من يتعامل بالربا تهديدًا عنيفًا فقال :

٢٧٩ - فإن لَّمْ تفعَلُوا فأْذَنُوا بحرْبٍ مِّن اللَّه ورَسُوله .

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئًا بعد نهيكم عن ذلك ، فكونوا على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا.

وقوله : فأْذَنوا . من أذن بالشىء يأذن إذا علمه. وقرئ : فآذِنُوا . من آذنه الأمر وآذنه به : أعلمه إياه : أى أعلموا من لم ينته عن الربا بحرب من الله ورسوله.

وتنكير « حرب » للتهويل والتعظيم، أى فكونوا على علم ويقين من أن حربًا عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله .

قال بعضهم : والمراد المبالغة فى التهديد دون نفس الحرب. وقال آخرون : المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص وقدر عليه الإمام قبض عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى أن تظهر منه التوبة. وإن وقع ممن يكون له عسكر وشوكة، حاربه الإمام كما يحارب الفئة الباغية، وكما حارب أبو بكر الصديق مانعى الزكاة.

وقال ابن عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب فبها وإلا ضرب عنقه » (٧٧).

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال :

وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ .

أى : وإن تبتم عن التعامل بالربا الذى يوجب الحرب عليكم من الله ورسوله فلكم رءوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوا سواها، وبذلك لا تكونون ظالمين لغرمائكم ، ولا يكونون هم ظالمين لكم، لأن من خذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطا ومتفضلا، ومن دفع ما عليه بدون إنقاص منه كان صادقًا فى معاملته.

ثم أمر الله - تعالى -الدائنين أن يصبروا على المدينين الذين لا يجدون ما يؤدونه من ديونهم فقال تعالى :

٢٨٠- وإن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ .

العسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال . يقال : أعسر الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال.

النظرة : اسم من الإنظار بمعنى الإمهال . يقال : نظره وانتظره وتنظره، تأنّى عليه وأمهله فى الطلب.

والميسرة : مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار. يقال : أيسر الرجل فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله.

والمعنى : وإن وجد مدين معسر فأمهلوه فى أداء دينه إلى الوقت الذى يتمكن فيه من سداد ما عليه من ديون، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه بشدة وقال له : إما أن تقضى وإما أن تربي، أى تدفع زيادة على أصل الدين.

و « كان » هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين إن لم يذكر، وقوله « فنظرة » الفاء جواب الشرط. ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة.

ثم حبب - سبحانه - إلى عباده التصدق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال تعالى : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أى: فإن فعلتم هذا يكون أكثر ثوابًا لكم من الإنظار.

وجواب الشرط فى قوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصدق خير لكم فلا تتباطؤوا فى فعله ، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصدق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله -تعالى-.

وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التى تحض على إمهال المعسر، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم فى صحيحه عن أبى قتادة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - قال : «من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة »[٧٨].

وروى الطبرانى عن أسعد بن زرارة أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - قال : « من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه »[٧٩].

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » [٨٠].

ثم ساق - سبحانه - فى ختام حديثه عن الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال .. تعالى - : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

أى : واحذروا - أيها المؤمنون - يومًا عظيمًا فى أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذى تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله، ولا يظلم ربك أحدا.

فالآية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء، حتى يبتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها اللّه – تعالى –.

قال الألوسى : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هى آخر ما نزل على رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – من القرآن ، واختلف فى مدة بقائه بعدها. فقيل : تسع ليال. وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحدًا وعشرين يومًا . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين ... » [٨١].

هذا ، والمتدبر فى هذه الآيات التى وردت فى موضوع الربا، يراها قد نفّرت منه تنفيرًا شديدًا، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات ، وشبهت الذين يأكلونه بتشبيهات تفزع منها النفوس ، وتشمئز منها القلوب، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا فى معاملاتهم ما شرعه اللّه لهم، وأن يتسامحوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصدق به.

وقد تكلم الفقهاء [٨٢] وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلامًا مستفيضًا، قال بعضهم: الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل.

فربا النسيئة : هو الذى كان معروفًا بين العرب فى الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه فى موعد معين، فإذا حل الأجل طولب المدين برأس المال كاملاً، فإذا تعذر الأداء زادوا فى الحق وفى الأجل.

وربا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين، أو دينار بدينارين ، أو رطل من العسل برطلين ، أو شعير كيلة بكيلتين.

وكان ابن عباس فى أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسيئة وكان يجيز ربا الفضل اعتمادًا على ما روى عن النبى – صلى اللّه عليه وسلم – قال – : « إنما الربا فى النسيئة » [٨٣] ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبى – صلى اللّه عليه وسلم – قال : « الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل يدا بيد » [٨٤]رجع عن قوله . لأن قوله – صلى اللّه عليه وسلم– « إنما الربا فى النسيئة » محمول على اختلاف الجنس فإن النسيئة تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير. تحرم فيه النسيئة ويباح فيه التفاضل.

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا فى القسمين : أما ربا النسيئة فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما فى قوله تعالى : وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا .

وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذى رواه عبادة بن الصامت أن النبى – صلى اللّه عليه وسلم – قال : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر . والملح بالملح. مثلاً بمثل، سواء بسواء، يدا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت يدا بيد» [٨٥].

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع، وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها فى العلة. وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر ... » [٨٦].

ومن الحكم التى ذكرت فى أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ المال من الغير بدون عوض ، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق فى الكسب والتجارة والصناعة، وإلى استغلال حاجة المحتاج آسوأ استغلال ، وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والتخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع – كما سبق آن آشرنا .

ومن الأحاديث الشريفة التى وردت فى التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – قال : « اجتنبوا السبع الموبقات – أى المهلكات – قالوا : يا رسول اللّه وما هن ؟ قال : الشرك باللّه ، والسحر وقتل النفس التى حرّم اللّه إلا بالحق ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات» (٨٧).

وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر عن عبيد اللّه قال : «لعن رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه» (٨٨).

وبعد أن أمر – سبحانه – المؤمنين أن يسارعوا فى التصدق على المحتاجين وأن يجتنبوا الربا والمرابين. وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإنفاق فى وجوه الخير، وتمحق وتذهب بتعاطى الربا ، بعد أن وضح كل ذلك ساق لهم آية جامعة، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق، وآشرف وسيلة، وآن يصونوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئًا من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا، استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (٢٨٢) ﴾

قال ابن كثير : قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه . هذا إرشاد منه – تعالى – لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على ذلك فى آخر الآية حيث قال : ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا .

وروى البخارى عن ابن عباس أنه قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ : يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم . . . الآية .

وثبت فى الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبى – صلى الله عليه وسلم – المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » (٨٩).

ومعنى تداينتم . تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضا. وحقيقة الدين – كما يقول القرطبى – « عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقدًا والآخر فى الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضرا، والدين ما كان غائبًا » (٩٠).

والأجل فى اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره . وأجل الدين هو الوقت المعين لأدائه فى المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال : أجل الشىء يأجل إذا تأخر والآجل نقيض العاجل.

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضا بالدين إلى وقت معين ، فاكتبوا هذا الدين، لأن فى هذه الكتابة حفظا له، وضبطا لمقداره، ومنعًا للتنازع من أن يقع بينكم.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ، وأى حاجة إلى ذكر الدين؟ قلت : ذكر – لفظ الدين – ليرجع الضمير إليه فى قوله : فَاكْتُبُوهُ. إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتنويع الدين إلى مؤجل وحال.

فإن قلت : ما فائدة قوله : مُسَمًّى . قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلومًا كالتوقيت بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية »[٩١].

وجمهور العلماء على أن الأمر فى قوله « فاكتبوه » للندب، ولأن الله – تعالى – قد قال بعد ذلك « فإن آمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته »، ولأن النبى – صلى الله عليه وسلم – لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم، ولا المدينين بأن يكتبوها .

وقال الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب، ومن لم يفعل ذلك كان آثما، لأن الأصل فى الأمر أنه للوجوب ...

وقوله : وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ . بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاها عقب الأمر بها على سبيل الإجمال.

أى : عليكم أيها المؤمنون – إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق.

وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين فى كتابته، لأن الله تعالى يقول : وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ . (المائدة : ٨) . فالجملة الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصا تتوافر فيه إجادة الكتابة والخبرة بشروط العقود وتوثيقها، كما تتوافر فيه الاستقامة وتحرى الحق . ومفعول « يكتب » محذوف ثقة بالفهامة ، أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل. والتقييد بالظرف بينكم للإيذان بأنه ينبغى للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن ينفرد به أحد المتعاقدين لأن فى هذا الانفراد تهمة يجب أن يربأ بنفسه عنها .

والجار والمجرور وهو : بِالْعَدْلِ . متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى : وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق.

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادرًا على الكتابة عن الامتناع عنها متى دعى إليها فقال : وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ.

أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتداينين ديونهما بالطريقة التى علمه الله بأن يتحرى العدل والحق فى كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية.

فالكاف ومجرورها فى قوله تعالى : كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ . نعت لمصدر محذوف والتقدير: فليكتب كتابه مثل ما علمه الله - تعالى : بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها.

ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه كما علمه الله إياها ويسرها له ونفعه بها، فعليه أن ينفع غيره بها، فهو كقوله تعالى : وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ . (القصص : ٧٧) وفى الحديث الشريف « إن من الصدقة أن تعين صانعًا أو تصنع لأخرق » [٩٢]وفى حديث : « من كتم علما يعلمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » [٩٣].

وقوله : فَلْيَكْتُبْ. تفريع على قوله : وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ . أى : فليكتب الكتابة التى علمه الله إياها فهو توكيد للأمر المستفاد من قوله : وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ . ويجوز أن يكون توكيدًا للأمر الصريح فى قوله وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.

قال القرطبى : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة على الشاهد فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب، وقال الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر على كاتب غيره فيضر صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فريضة ، وإن قدر على كاتب غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره» [٩٤].

وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد قررت مبدأ الكتابة فى الدين، وبينت كيفية الكتابة، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها، ونهته عن الامتناع عنها إذا دعى لها.

ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء فقال تعالى : وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا .

والإملال معناه الإملاء ، فهما لغتان معناهما واحد. وقد جاء القرآن باللغتين فقال تعالى : وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . (الفرقان :٥).

أى : وعلى المدين الذى عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقرارًا به وبالحقوق التى يجب عليه الوفاء بها. وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - فى إملائه فلا ينقص من الدين الذى عليه شيئًا ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذى يملى على الكاتب هو المدين لأنه هو المكلف بأداء مضمون الكتابة، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه بما عليه

ولأنه لو أملى الدائن فربما يزيد فى الدين ، أو يملى شيئًا ليس محل اتفاق بينه وبين المدين، ولأن المدين فى الغالب فى موقف ضعيف فأعطاه اللّه - تعالى - حق الإملاء على الكاتب حتى لا يغبن من الدائن.

فأنت ترى أن اللّه - تعالى - قد مكّن المدين من الإملاء على الكاتب حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره ، ولكنه فى الوقت نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى اللّه ، وعدم الإنقاص من الدين الذى عليه . وأن ذلك لتشريع حكيم عادل لا ظلم فيه للدائن ولا للمدين.

ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذى عليه الدين لا يحسن الإملاء فقال تعالى : فإن كان الّذي علَيه الحقُ وهو المدين : سفيهًا . أى جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متلافا مبذرا لا يحسن تدبير أمره.

أو ضعيفا . بأن يكون صبيا أو شيخا تقدمت به الشيخوخة.

أوَ لا يستَطيعُ أن يُملَّ هُوَ . بأن يكون عييا أو أخرسًا أو لا خبرة له بإملاء أمثال هذه المكاتبات.

فليمْلل وليُهُ بالعَدْل . أى فعلى ولى أمره أو من يهمه شأنه ولا يرضى له أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحريًا الحق والعدل فيما يكلف به.

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الديون، انتقل القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فيه فقال تعالى : واستَشهدُوا شَهيدَيْنِ من رِّجَالكُمْ . أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى بينكم من معاملات مؤجلة، لأن هذا الإشهاد يعطى الديون والكتابة توثيقًا وتثبيتًا . والسين والتاء فى قوله : « واستشهدوا » للطلب.

قال الألوسى : « وفى اختيار صيغة المبالغة فى : شَهيدَيْن . للإيماء إلى من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكأن فيه رمزًا إلى العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم ولعله لم يقل رجلين لذلك، والأمر للندب أو للوجوب على الخلاف فى ذلك » [٩٥].

وقوله : من رِّجَالكُمَ . متعلق بقوله : وَاستَشهِدُوا . ومن لابتداء الغاية. ويجوز أن يكون متعلقًا بمحذوف صفة لشهيدين ومن للتبعيض ، أى من رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم.

ثم بين - سبحانه - الحكم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال : فإن لَّمْ يكُونا رَجُلَيْنِ فرجُلٌ وامرأتان ممن ترضَوْنَ منَ الشُّهَدَاء .

وقوله : ممَّن تَرضَوْنَ . متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان. أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائنون مرضيين عندكم بعدالتهم.

وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للتشدد فى اعتباره، لأن اتصاف النساء به قد لا يتوافر كثيرًا.

وقوله : مِنَ الشُّهَدَاءِ . متعلق بمحذوف حال من ضمير المفعول المقدر فى «ترضون» العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن ترضونهم حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم ، وثقتكم بهم.

وقوله تعالى : مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ . أدق فى الدلالة على صدق الشهادة من العدالة، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضيا فى دينه وخلقه ولكنه يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته فى وقت الحاجة إليها، أو قد يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه فى الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب بعض المعاصي، فجاء- سبحانه - بهذه الجملة الحكيمة لكى يقول للناس : اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم، ويقيمون الشهادة على وجهها بدون التأثر بأى نوع من أنواع المؤثرات.

هذا ، وشهادة النساء مع الرجال عند الحنفية فى الأموال والطلاق والنكاح والرجعة وكل شىء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز فى الأموال وتوابعها خاصة. ولا تقبل فى أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص والنكاح والطلاق والرجعة.

ثم بين - سبحانه - العلة فى أن المرأتين تقومان مقام الرجل الواحد فى الشهادة فقال : أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ.

قال القرطبى : معنى تضل تنسى . والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالا» (٩٦).

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد فى الشهادة ، خشية أن تنسى إحداهما فتذكر كل واحدة منهما الأخرى. إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدة انفعالها بالحوادث قد تتوهم ما لم تر، فكان من الحكمة آن يكون مع المرأة أخرى فى الشهادة بحيث تتذاكران الحق فيما بينهما.

والعلة فى الحقيقة هى التذكير، ولكن الضلال لما كان سببا فى التذكير، نزل منزلة العلة. وذلك كأن تقول: أعددت السلاح خشية أن يجىء العدو فأدفعه فإن العلة هى الدفاع عن النفس، ولكن لما كان مجىء العدو سببًا فيه نزل منزلته.

وكما أمر اللّه - تعالى - الكتاب فى أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة، أمر الشهود أيضًا بعدم الامتناع عن الشهادة فقال تعالى : وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا . أى : ولا يمتنع الشهود عن أداء الشهادة وتحملها متى دعوا إليها، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها قد يؤدى إلى ضياع الحقوق، واللّه - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق، ونشر العدل بين الناس ، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤدوا الشهادة كما آمرهم اللّه - تعالى -. ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال : وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .

السأم : الضجر والملل . يقال : سئمت الشىء أسأمه سأما وسآمة أى مللته وضجرته.

والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون – ألاَّ تسأموا من كتابة الدين إلى الوقت المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيرًا أم صغيرًا ، لأن الكتابة فى الحالتين أدعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها ، وإلى عدم نشوب التنازع أو التخاصم بينكم، ولأن الدين قد يكون صغيرًا فى نظر الغنى المليء إلا أنه كبير فى نظر الفقير المعسر، ولأن التهاون فى شأن الدين الصغير قد يؤدى إلى التهاون فى شأن الدين الكبير، لذا وجب عليكم أن تنقادوا لشرع الله وأن تكتبوا ما بينكم.

والضمير فى قوله : أَن تَكْتُبُوهُ . يعود إلى الدين أو إلى الحق. وقوله : صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا. حال من الضمير. اى لا تسأموا أن تكتبوه على كل حال قليلاً أو كثيرًا ، وقدم الصغير على الكبير اهتمامًا به وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى.

ثم بين – سبحانه – ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما امتثلوا ما أمرهم الله – تعالى – به ، فقال : ذَلِكُم أَقسَطُ عِندَ اللَّه .

واسم الإشارة : ذَلِكُمْ . يعود إلى كل ما سبق ذكره فى الآية من الكتابة والإشهاد ومن عدم الامتناع عنهما، ومن تحرى الحق والعدل.

و أَقْسَطُ . بمعنى أعدل. يقال : أقسط فلان فى الحكم يقسط إقساطا إذا عدل فهو مقسط . قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. (المائدة : ٤٢) .. ويقال : قاسط إذا جار وظلم. قال تعالى : وَأَمَّا الْقَاسِطُون فكانوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا . (الجن : ١٥).

أى : ذلكم الذى شرعناه فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما أعدل فى علم الله – تعالى – ، وكل ما كان كذلك فهو أعدل وأفضل وأحكم فى ذاته ؛ لأنه – سبحانه – هو الأعلم بما فيه مصلحتكم فاستجيبوا له، وتلك هى الفائدة الأولى. أما الفائدة الثانية فهى قوله – سبحانه – : وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ. ومعنى وَأَقْوَمُ . أبلغ فى الاستقامة التى هى ضد الاعوجاج أى : أثبت لها وأعون على إقامتها وأدائها، وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا. أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة. أى أن الأوامر والنواهى السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم الله – تعالى – ، وأعون فى إقامة الشهادة إذ بها يتم الاعتماد على الحفظ، وأقرب إلى عدم الشك فى جنس الدين وقدره وأجله، وإذا توافرت هذه الفوائد الثلاث فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا فُقدت فإن الثقة تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح – سبحانه – فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْس عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا.

والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : وهى التى يجرى فيها التقابض فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنًا يسيرًا . وسميت الحاضرة، لأن البيع والثمن كلاهما حاضر.

والمعنى : أن الله – تعالى – يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا أنه – سبحانه – رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى تكثرون إدارتها والتعامل فيها، لأنه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم، وهو – سبحانه – : وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ . (الحج ٧٨). ولأن أمثال هذه التجارات التى يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالديون فكأنه قيل : إذا تداينتم فتكاتبوا وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التى يجرى فيها التقابض لا جناح عليكم فى عدم كتابتها.

وقيل : الاستثناء متصل والجملة مستثناة فى موضع نصب لأنه استثناء من الجنس، لا لأنه أمر بالكتابة فى كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة . والتقدير: آمركم بالكتابة والإشهاد فى كل معاملة إلا فى حال حضور التجارة فلا بأس من ترك الكتابة و تِجَارَةً قرأها الجمهور بالرفع على أنها اسم تكون ، والخبر جملة تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ أو على أنها فاعل تكون اذا اعتبرناها تامة.

وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة أى : إلا أن تكون التجارة حاضرة.

وقوله – تعالى – : وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ . أمر منه – سبحانه – بالإشهاد عند البيع، وهذا أمر للإرشاد والتعليم عند جمهور العلماء. ويرى الظاهرية أنه للوجوب.

قال صاحب الكشاف : هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقًا ناجزا أو كالئا – أى مؤجلا – لأنه أحوط وأبعد مما عسى يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع. يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة. وعن الضحاك : « هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل »[٩٧].

ثم نهى – سبحانه – عن المضارة فقال : وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ .

والمضارة : إدخال الضرر. والفعل : يُضَارَّ . احتمل أن يكون مبنيا للفاعل ، وأن أصله « ولا يضارر – بكسر الراء– ويحتمل أن يكون مبنيا للمفعول . وأن أصله لا يضارر بفتح الراء الأولى.

والمعنى على الأول : نهى الكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضررا بأحد المتعاقدين ، بأن يبخس الكاتب أحدهما، أو يشهد الشاهد بغير الحق.

والمعنى على الثانى : وهو الظاهر – نهى الدائن والمدين عن أن ينزل أحدهما ضررا بالكاتب أو الشاهد لحملهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق، فإنهما أمينان ، والإضرار بهما قد يحملهما على الخيانة وفى ذلك ضياع للأمانة وذهاب للثقة ؛ ولذا قال تعالى بعد ذلك : وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ.

أى : وإن تفعلوا ما نهيتم عنه أو تخالفوا ما أمرتم به، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرتم أهلا للعقوبة، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة فى دينكم ودنياكم.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بخشيته . وبتذكيرهم بنعمه فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصلح لكم أمر دنياكم وما يصلح لكم أمر دينكم متى اتقيتموه واستجبتم له ، وهو - سبحانه - بكل شىء عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وبعد : فهذه هى آية الدَّين التى هى أطول آية فى القرآن ، تقرؤها فتراها قد اشتملت على أدق التشريعات، وأحكم التوجيهات ، وأنجح الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل.

تقرؤها فترى الدقة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب، وترى الطلاوة فى التعبير، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تطغى دقة الصياغة على جمال العرض.

وترى الوفاء الكامل ، لكل الجوانب التشريعية، والاحتراس التام من كل الموترات التى قد تؤثر على سلامة التعاقد، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن.

وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تغرس فى النفوس الخوف من الله - تعالى- والمراقبة له، والاستجابة لأوامره، لا كطريقة البشر فى قوانينهم التى صاغوها فى قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير فى النفس ولا باهتزاز فى القلب.

ولو لم يكن فى شريعة الله سوى هذا التأثير الذى تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلاً على سموها وفضلها ، وعلى أنها من صنع الله - تعالى - ولو أن المسلمين أخذوا بها وبتوجيهاتها فى سائر شئونهم لظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية.



﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) ﴾

المفردات :

وإن كنتم على سفر : أى مسافرين فعلا، ولذا عبر بقوله : عَلَىٰ سَفَرٍ. إشعارًا بمباشرتهم له وتمكنهم منه تمكن الراكب مما يركبه.

فرهان مقبوضة : الرهان جمع رهن ، وهو ما يأخذه الدائن من الأعيان ذات القيمة ضمانًا لدينه، وهو فى الأصل مصدر، وشاع استعماله فى العين المرهونة حتى أصبح حقيقة عرفية فيها.

التفسير :

٢٨٣ - وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ . . لحظ فى الآيات لونًا من ألوان التدرج فى التشريع ، فقد بين اللّه أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها مطلوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يترخص حينئذ بالرهن المقبوض.

وقد يعتمد الدائن على أمانة المدين ، وسلامة ذمته، فيجب على المدين أن يقدر هذه الأمانة، قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا . (النساء : ٥٨).

معنى الآية :

وإذا كنتم - أيها المتداينون - مسافرين ، ولم تجدوا كاتبًا يكتب بينكم الدين، فالذى يستوثق به حينئذ ، رهان يقبضها الدائنون ، وتبقى عندهم حتى أداء الدين فترد إلى المدين.

وإذا أودع أحدكم آخر وديعة تكون أمانة عنده وقد اعتمد على أمانته ، فليؤد الوديع المؤتمن الأمانة عند طلبها وليخش اللّه الذى رباه وتولاه بالعناية حتى لا يقطع عنه نعمته فى الدنيا والآخرة .

ولا تخفوا الشهادة بما علمتم إذا دعيتم لأدائها، ومن يكتم الشهادة بالحق فهو آثم خبيث القلب، واللّه مطلع على أعمالكم ، عليم بما تعملون من خير وشر وسيجازيكم عليها حسب ما تستحقون.

فى أعقاب الآية :

١ - أخذ مجاهد بظاهر الآية فلم يجز الرهن إلا فى السفر ، وقيده الضحاك فى السفر بفقدان الكاتب، ولكن الراجح جواز الرهن سفرا وحضرا.

قال القرطبى : ولم يرو عن أحد منع الرهن فى الحضر سوى مجاهد والضحاك وداود ، متمسكين بالآية ولا حجة فيها لهم، لأن هذا الكلام وإن خرج مخرج الشرط، فالمراد به غالب الأحوال ، وليس كون الرهن فى الآية فى السفر مما يحظر فى غيره [٩٨].

٢ - روى البخارى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - « رهن درعه فى المدينة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير»(٩٩) ومن الواضح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما رهن درعه كان مقيمًا ولم يكن مسافرا .

٣ - أخذ بعض الفقهاء من قوله تعالى : فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ. أن الرهن لا يتم إلا بالقبض فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية ، وهذا مذهب الأحناف والشافعية، ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض، لأن القبض حكم من أحكامه، فمن حق الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة، فالقبض حكم من أحكام العقد، وليس ركنًا من أركانه ولا شرطًا لتمامه.

٤ - حث القرآن على أداء الشهادة بالحق ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ . (النساء:١٣٥).

وهذه درة فى جبين التربية الإسلامية، ودليل على عناية القرآن بتكوين شخصية المسلم وتثبيت معالم الحق والفضيلة، ومحاربة الجبن والرذيلة، وقد نهى القرآن عن كتمان الشهادة.

وفى هذه الآية :

وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ . وقد نسب الإثم إلى القلب، لأن كتمان الشهادة من أعمال القلب، وإذا أثم القلب أثم صاحبه، لأن العبرة بأفعال القلوب، ولذا رفعت المؤاخذة عمن يفعل المعصية ناسيا، لأنه لا قصد له فيها.

« ولأن القلب رئيس الأعضاء ، والمضغة التى إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله، فكأنه قيل : فقد تمكن الإثم فى أصل نفسه وملك أشرف مكان منه »(١٠٠).

روى الشيخان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب »(١٠١).



﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ﴾

المفردات :

تبدوا ما فى أنفسكم : تظهروه

يحاسبكم به : أى يبينه لكم، ويجازيكم عليه.

التفسير :

٢٨٤ - لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... الآية . لله ما فى السموات وما فى الأرض من أجزائهما، وما استقر فيهما ، لا يشاركه فى خلقها أو ملكها، أو التصرف فيها شريك، فله أن يلزمكم - أيها العباد - بما يشاء من التكاليف وعليكم - أيها العباد - أن تطيعوه ولا تعصوه .

والله - سبحانه وتعالى - يحاسبكم أيها العباد - على نياتكم ، وما تكسبه قلوبكم سواء أأخفيتموه أم أظهرتموه.

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته ، كمن عزم على السرقة وأصر عليها ثم وجد الشرطى فتركها.

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل أو تكلم »(١٠٢).

وأخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربه تعالى قال : « إن الله كتب الحسنات والسيئات - ثم بين ذلك - فمن هَمّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة »(١٠٣).

وروى عن أبى هريرة قال : « جاء ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فسألوه فقالوا : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان. وسئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الوسوسة ، قال : تلك صريح الإيمان(١٠٤).

وفى كتب التفسير أن الصحابة لما سمعوا هذه الآية رقت قلوبهم ودمعت عيونهم، وخافوا أن يحاسبهم الله على خطرات نفوسهم ، وهم لا يملكونها ولا يستطيعون التحكم فيها، حيث قال سبحانه : وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ . (البقرة :٢٨٤).

فلما فعلوا نسخها الله فانزل : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا . (البقرة : ٢٨٦).

وروى ابن جرير الطبرى عن مجاهد والضحاك أنه قال : هى محكمة لم تنسخ ، واختار ابن جرير ذلك ، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب.

وقد ورد فى الصحيحين ومن طرق متعددة وعن قتادة عن صفوان بن محرز قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال: يا بن عمر : ما سمعت رسول الله- صلى الله عليه وسلم - يقول فى النجوى ؟ قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدنو المؤمن من ربه - عز وجل - حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له : هل تعرف كذا ؟ ، فيقول : رب أعرف

مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ . قال : إنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم. قال : فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه ، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد : هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . (هود : ١٨) (١٠٥).

وجاء فى تفسير الألوسى : المؤاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية فى الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التى تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث فى النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم :

مراتب القصد خمس، هاجس ذكروا
فخاطر فحديث النفس فاستمعا
يليـه هم فـعـزم كلهـا رفـعت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعا(١٠٦).

وجاء فى ظلال القرآن :

« وهكذا يعقب على التشريع المدنى البحت بهذا التوجيه الوجدانى البحت ويربط بين التشريعات للحياة وخالق الحياة، بذلك الرباط الوثيق، المؤلف من الخوف والرجاء فى مالك الأرض والسماء ، فيضيف إلى ضمانات التشريع القانونية ، ضمانات القلب الوجدانية .. وهى الضمان الوثيق المميز لشرائع الإسلام فى قلوب المسلمين فى المجتمع المسلم .. وهى والتشريع فى الإسلام متكاملان، فالإسلام يصنع القلوب التى يشرع لها، ويصنع المجتمع الذى يقنن له صنعة إلهية متكاملة متناسقة ، تربية وتشريعًا ، وتقوى وسلطانًا ، ومنهجًا للإنسان من صنع خالق الإنسان ، فأنى تذهب شرائع الأرض، وقوانين الأرض، ومناهج الأرض؟ أنى تذهب نظرة إنسان قاصر ، محدود العمر، محدود المعرفة، محدود الرؤية ، يتقلب هواه هنا وهناك ، فلا يستقر على حال ، ولا يكاد يجتمع اثنان على رأى ولا على رؤية ولا على إدراك ؟ ..

ألا إنها الشقوة للبشرية فى هذا الشرود عن منهج الله وشرعه.

الشقوة التى بدأت فى الغرب هربًا من الكنيسة الطاغية الباغية هناك .. ومن إلهها الذى كانت تزعم أنها تنطق باسمه، وتحرم على الناس أن يتفكروا أو يتدبروا ، وتفرض عليهم باسمه الإتاوات الباهظة والاستبداد المنفر.. فلما هم الناس أن يتخلصوا من هذا الكابوس ، تخلصوا من الكنيسة وسلطانها، ولكنهم لم يقفوا عند حد الاعتدال ، فتخلصوا كذلك من إله الكنيسة وسلطانه .. ثم تخلصوا من كل دين يقودهم فى حياتهم الأرضية بمنهج الله .. وكانت الشقوة وكان البلاء (١٠٧).

فأما نحن - نحن الذين نزعم الإسلام - فما بالنا ؟ ما بالنا نشرد عن الله ومنهجه وشريعته وقانونه ؟ ما بالنا وديننا السمح القويم لم يفرض علينا إلا كل ما يرفع عنا الأغلال ، ويحط عنا الأثقال ، ويؤدى إلى الرقى والفلاح ؟ (١٠٨).

★ ★ ★

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾

المفردات :

وملائكتـه : الملائكة أجسام نورانية قادرة على التشكل، خلقوا للطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

التفسير :

٢٨٥ – آمن الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ من رَّبِّه وَالْمُؤْمِنُونَ . . . .

هذا ختام سورة البقرة أطول سورة فى القرآن ، السورة التى اشتملت على التشريع وساهمت فى بناء الفرد، وتكوين المجتمع.

قال الزجاج – رحمه الله – : لما ذكر الله – عز وجل – فى هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصيام والحج والطلاق والحيض والإيلاء والجهاد، وقصص الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والربا والدين ، ختمها بقوله : آمن الرَّسُولُ. لتعظيمه وتصديق نبيه – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين لجميع ذلك المذكور قبله، وغيره ليكون تأكيداً له [١٠٩].

معنى الآية :

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه فى هذه السورة وغيرها – إجمالاً وتفصيلا، وآمن المؤمنون به كذلك.

كلٌّ آمَنَ بالله وَمَلائكته وَكُتُبه وَرُسُله . كل من النبى وأفراد المؤمنين، صدق بالله وما يتصف به من كل كمال، وما يتنزه به عن كل نقص، وصدق بملائكته وطهارتهم من المعاصى أنهم منفذون لأوامر الله تعالى ، وأن بعضهم سفراء بينه تعالى وبين رسله الأكرمين، وآمن بكتبه التى أنزلها على رسله متعبدا بها عباده، وآمن برسله من حيث إنهم مبلِّغون لكتبه وشرائعه إلى خلقه.

لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه . بل نؤمن بهم جميعًا فهم رسل الله إلى خلقه، فمن كفر بأحدهم ، فهو كافر بهم جميعًا ، ولا نقول كما قال الضالون : نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ . (النساء : ١٥٠).

وقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا : أى قالوا : بلغنا الرسول فسمعنا القول سماع تدبر وفهم، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهى طاعة إذعان وانقياد.

غُفْرَانكَ رَبَّنَا : أى اغفر لنا غفرانك ، أو نسألك غفرانك ذنوبنا.

وإِلَيْكَ الْمَصِيرُ : أى الرجوع بالموت والبعث إليك وحدك لا إلى غيرك، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » . (الشعراء : ٨٨–٨٩).

★ ★ ★

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾

تختم السورة بهذه الآية الكريمة ، وفيها يسر التشريع وسماحة الإسلام، فتكاليفه فى متناول البشر، الصلوات الخمس ، والصوم شهر فى السنة ، والزكاة نسبة قليلة من المال ، والحج فريضة لمن استطاع إليه سبيلا، وعند المرض والسفر يباح للإنسان قصر الصلاة وجمعها ويباح للصائم فى رمضان الفطر والقضاء، وفى كثير من تشريعات الإسلام تتجلى سماحة هذا الدين ومراعاته لطبيعة الإنسان.

فالشريعة يسر كلها، ورحمة كلها، وعدل كلها، قال تعالى : يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ . (البقرة :١٨٥).

وقال سبحانه : مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ . (المائدة: ٦).

ويقول النبى – صلى الله عليه وسلم – « يسّروا ولا تعسروا ، وبشّروا ولا تنفروا .. » (١١٠).

ومجمل معنى الفقرة الأولى : إن الله لا يكلف عباده إلا ما يستطيعون تأديته والقيام به، ولذلك كان كل مكلف مجزيًّا بعمله : إن خيرًا فخير. وإن شرًّا فشر .. ومن هذه الفقرة تتضح المسئولية الفردية، وتحمل الإنسان لتبعات عمله، فهو أهل للجزاء الحسن إذا أحسن، وهو مستحق للمؤاخذة إذا أساء ، قال تعالى :

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (الجاثية:٢١).

وتسترسل الآية فى دعاء رخى ندى يملأ القلب نورا والنفس خيرًا وبركة.

رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا . ربنا لا تعاقبنا إن وقعنا فى النسيان لما كلفتنا إياه، أو أهملنا أسباب السلامة فوقعنا فى الخطأ بسبب ضعف أو قصور.

فقد فتحت باب التوبة للتائبين ، وقبلت رجوع المذنبين إليك، ولم تغلق فى وجههم باب رحمتك.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا. (الزمر:٥٣).

رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا .الإصر، معناه العبء الثقيل ، مأخوذ من أصره يأصره أى حبسه، والمراد به : التكاليف الشاقة، أى ربنا ولا تحمل علينا عبئًا ثقيلاً، كما حملته على الذين من قبلنا ولا تشدد علينا فى التشريع كما شددت على اليهود بسبب تعنتهم وظلمهم.

فمن شرائعهم قتل النفس فى التوبة أو فى القصاص ، لأنه لا يجوز غيره فى شريعتهم، وقطع موضع النجاسة من الثوب، ونحوه ، وصرف ربع المال فى الزكاة.

قال تعالى : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ . (الأنعام: ١٤٦).

على أن الإصر الأكبر الذى رفعه الله عن هذه الأمة هو إصر العبودية للبشر، عبودية العبد للعبد، فالله ينادينا فى القرآن بأنه قريب لا يحتاج إلى واسطة : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ . (البقرة :١٨٦).

ولا بأس أن ننقل هنا طائفةً مما حمله بنو إسرائيل من الآصار والعناء ننقله عن أسفارهم. فى سفر الخروج فى الإصحاح الحادى والعشرين:

(١٥) ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا.

(١٦) ومن سرق إنسانًا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا.

(١٧) ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا.

وفى سفر اللاويين ، فى الإصحاح الحادى عشر تحريم بعض الطيور وفيه آصار كثيرة منها :

(٣٣) وكل متاع خزف وقع فيه منها فكل ما فيه يتنجس وأما هو فتكسرونه.

وفى الإصحاح الثانى عشر أحكام النفساء عندهم ، والفرق بين ولادتها ذكرًا وأنثى ، وأنها فى الأول تكون نجسة أسبوعًا، ثم ثلاثا وثلاثين يومًا ، وفى الثانى أسبوعين ثم ستة وستين يومًا .

وفى الإصحاح الخامس عشر أحكام الحائض ومنها :

(١٩) وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء. (٢٠) وكل ما تضطجع عليه فى طمثها يكون نجسا وكل ما تجلس عليه يكون نجسا . (٢١) وكل من مس ثيابها يغسل ثيابه.

ومن دعاء المؤمنين :

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ أى لا تكلفنا ما لا طاقة لنا به من التكاليف.

والطاقة : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة وذلك تشبيه بالطوق المحيط فقوله تعالى لا تُحملنا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ أى ما يصعب علينا مزاولته، وليس معناه : لا تحملنا ما لا قدرة لنا به [١١١].

إنهم يتوجهون إلى الله راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم، فلا يكلفهم ما لا يطيقون كى لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه، وإلا فهى الطاعة والتسليم، إنه طمع الصغير فى كرم الكبير وبره وتيسيره.

ومن دعاء المؤمنين :

واعفُ عنّا واغْفِرْ لنا وارحمنا . إنه تبتل المؤمن وإخلاصه فى طلب العون من اللّه .

اعْفُ عنَّا : بكرمك بأن تمحو عنا ما ألممنا به من الذنوب وتتجاوز عنها .

واغْفِرْ لنا : سامحنا واشملنا برحمتك وغفرانك وسترك.

وَارْحَمْنَا : برحمتك الواسعة، فهم طلبوا من اللّه أن يعفوا عنهم بأن يسقط عنهم العقاب ، وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته ، ثم ختموا دعاءهم بقوله :

أنت مولانا فانصُرنا عَلى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ .. أنت ولى المؤمنين وناصر المتقين فاجعلنا أهلا لعونك وتوفيقك ، وانصرنا على الكافرين الجاحدين فضلك ونعمتك، وهو ختام يدل على كمال الإيمان ونهاية الخضوع والطاعة للرحمن، والرغبة فى إحقاق الحق ونصرة الدين وهزيمة الكافرين.

وفى تفسير ابن كثير عنوان عن :

(ذكر الأحاديث الواردة فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا اللّه بهما).

(الحديث الأول) قال البخارى عن ابن مسعود قال : قال رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - «من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة كفتاه» (١١٢). ثم نقل عشرة أحاديث نبوية فى فضل الآيتين الآخيرتين من سورة البقرة.

وقد ورد فى صحيح مسلم عن النبى - صلى اللّه عليه وسلم - أن اللّه تعالى قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات: قد فعلت .

أى لما قال المؤمنون : رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، (قال اللّه - عز وجل - قد فعلت) رَبَّنا ولا تحْمِلْ عليْنا إصْرًا كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا (قال : قد فعلت) وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا . (قال : قد فعلت) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة أن رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة» ولفظ الترمذى : «وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (١١٣).

وأخرج سعيد بن منصور والترمذى والحاكم عن أبى هريرة ، قال : قال رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم: « لكل شىء سنام ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى »(١١٤).



فائــدة

قال ابن القيم : تأمل خطاب القرآن ، تجد ملكًا له الملك كله ، وله الحمد كله، أزمة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه، مستويا على العرش، لا تخفى عليه خافية من أقطار مملكته ، عالماً بما فى نفوس عبيده، مطلعًا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردًا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ويعطى ويمنع، ويثيب ويعاقب ، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضى ، ويدبر الأمور نازلة من عنده دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه.

فتأمل كيف تجده يثنى على نفسه، ويمجد نفسه، ويحمد نفسه، وينصح عباده ويدلهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ، ويرغبهم فيه ويحذرهم مما فيه هلاكهم، ويتعرف إليهم بأسمائه وصفاته، ويتحبب إليهم، بنعمه وآلائه ، يذكرهم بنعمه عليهم ، ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها، ويحذرهم من نقمه، ويذكرهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه، ويخبرهم بصنعه فى أوليائه وأعدائه، وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء، ويثنى على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم، ويذم أعداءه بسيئ أعمالهم وقبيح صفاتهم ، ويضرب الأمثال وينوع الأدلة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة، ويصدق الصادق ويكذب الكاذب ، ويقول الحق، ويهدى السبيل. ويدعو إلى دار السلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها، ويحذر من دار البوار ويذكر عذابها وآلامها، ويذكر عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجهة ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، ويذكرهم غناءه عنهم ، وعن جميع الموجودات ، وأنه الغنى بنفسه عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه لا ينال أحد ذرة من الخير فما فوقها إلا بفضله ورحمته، ولا ذرة من الشر فما فوقها إلا بعدله وحكمته ، وتشهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم ، وغافر زلاتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم ، والرافع عنهم ، والحامى عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجى لهم من كل كرب ، والموفى لهم بوعده ، وأنه وليهم الذى لا ولى لهم سواه. فهو مولاهم الحق، وينصرهم على عدوهم، فنعم المولى ونعم النصير. وإذا شهدت القلوب من القرآن ملكا عظيما، جوادًا رحيمًا جميلاً هذا شأنه، فكيف لا تحبه ، وتنافس فى القرب منه ، وتنفق أنفاسها فى التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل ما سواه، ورضاه آثر عندها من رضى كل من سواه ؟ وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه، والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها، بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت ولم تنتفع بحياتها ؟.

★ ★ ★

أمهات المسائل الواردة فى سورة البقرة

١ - دعوة الناس جميعًا إلى عبادة ربهم.

٢ - عدم اتخاذ أنداد له.

٣ - ذكر الوحى والرسالة، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزَّل على عبده، وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله.

٤ - ذكر أسس الدين وهو توحيد الله .

٥ - إباحة الأكل من جميع الطيبات .

٦ - ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وأحكام الصيام، والحج، والعمرة، وأحكام القتال والقصاص.

٧ - الأمر بإنفاق المال فى سبيل الله .

٨ - تحريم الخمر والميسر .

٩ - معاملة اليتامى ومخالطتهم.

١٠ - أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة.

١١ - تحريم الربا والأمر بترك ما بقى منه.

١٢ - أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة، وحكم النساء والرجال فى ذلك.

١٣ - وجوب أداء الأمانة.

١٤ - تحريم كتمان الشهادة.

١٥ - خاتمة ذلك كله، الدعاء الذى طلب إلينا أن ندعوه به ..

★ ★ ★

خاتمة من تفسير البقاعى

(... ولما بشَّرهم بذلك عرفهم مواقع نعمه من دعاء رتبه على الأخف فالأخف، على سبيل التعلى، إعلامًا بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانًا، ولا مما قارفوه خطأ ولا حمل عليهم ثقلا، بل جعل شريعتهم حنيفية سمحاء، ولا حملهم فوق طاقتهم ، مع أن له جميع ذلك ، وأنه عفا عن عقابهم ثم سترهم ، فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم ، ثم رحمهم بأن أحلهم محل القرب فجعلهم أهلا للخلافة، فلاح بذلك أنه يعلى أمرهم على كل أمر، ويظهر دينهم على كل دين ، إذ كان - سبحانه وتعالى - هو الداعى عنهم ، وليكون الدعاء محمولاً على الإصابة ومشمولاً بالإجابة.

فقال تعالى : رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا أى لا تعاقبنا ، إن نَّسِينَا أمرك ونهيك ، أَوْ أَخْطَأْنَا أى فعلنا خلاف الصواب تفريطا ونحوه (١١٥).

* * *

اللهم اجعل هذا القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء حزننا، وأعنا على إكمال ما قصدناه بفضلك ، يا أرحم الراحمين.

تم تفسير سورة البقرة عصر الجمعة ٢٣
من ربيع الثانى سنة ١٤٠١هـ الموافق
٢٧ من فبراير (شباط) سنة
١٩٨١ بمدينة العين بدولة
الإمارات العربية
المتحدة والحمد لله
رب العالمين

★ ★ ★


سورة آل عمــران

ســـورة آل عــمــران

سورة آل عمران سورة مدنية ، وآياتها مائتان ، نزلت بعد الأنفال ، والمراد بعمران هو والد مريم ، أم عيسى – عليهما السلام – وآل عمران هم عيسى ويحيى ومريم وأمها .

وتسمى الزهـــراء : لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب فى شأن عيسى عليه السلام.

والأمــــــــان : لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط فى شأنه.

والكنــــــــز : لتضمنها الأسرار العيسوية.

والمجـــــــادلة : لنزول نيف وثمانين آية منها فى مجادلة رسول الله – صَلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم – نصارى نجران.

وسورة الاستغفار : لما فيها من قوله تعالى: وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ . (آل عمران : ١٧).

★ ★ ★

من أهداف سورة آل عمـــران

١ – بيان معنى الدين ، ومعنى الإسلام ، فليس الدين هو كل اعتقاد فى الله إنما هو صورة واحدة من صور الاعتقاد فيه سبحانه ، صورة التوحيد المطلق الناصع القاطع :

توحيد الألوهية التى يتوجه إليها البشر.

وتوحيد القوامة على البشر وعلى الكون كله، فلا يقوم شىء إلا بالله تعالى ، ولا يقوم على الخلائق إلا الله تعالى.

١ – تصوير حال المسلمين مع ربهم ، واستسلامهم له ، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق .

١ – التحذير من ولاية غير المؤمنين ، والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير ، وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولى الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ، ولا يتبعون منهجه فى الحياة.

– بيان أن اللذائذ الدنيوية زائلة، والآخرة خير وأبقى .

– محبة الله سبحانه لا تتم إلا بمتابعة الرسول – صلى الله عليه وسلم .

– بيان قصص بعض المصطفين الأخيار : كمريم وزكريا ويحيى وعيسى – عليهم السلام – وما جرى لعيسى من المعجزات ، والرد على من ادعى أنه ابن الله .

– أمر النبى أن يدعو أهل الكتاب إلى المباهلة والدعاء بأن ينزل الله لعنته على الكافرين.

– بيان أنه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يؤمنوا بجميع الرسل، وأن من صفة محمد كونه مصدقاً لما معهم.

– بيان أفضلية البيت الحرام على غيره ، وأن حجَّه واجب على المستطيع .

١ – ذكر غزوة أحد ، وبيان أن طريق الجنة : الجهاد والعمل الصالح، وأن كثيرًا من الأمم حاربت مع أنبيائهم .

١ – النبى صلى الله عليه وسلم رحيم بأمته ، ولو كان سيئ الأخلاق لابتعد الناس عنه ، وقد حثه القرآن على مشاورة أصحابه والعزم والتوكل على الله . وقد تفضل الله على الخلق برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

١ – بيان حال الشهداء وفضلهم ومنزلتهم السامية عند الله .

١ – بيان أن بعض أهل الكتاب آمنوا ، وحث المؤمنين على الصبر والمرابطة والتقوى والتمسك بالوحدانية المطلقة .

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

الحـــى : ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة.

القيـــوم : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه.

الفـرقان : القرآن ، أو جميع الكتب السماوية، لأنها تفرق بين الحق والباطل.

ذو انتقام : ذو عقوبة شديدة لمن عصاه، لا يقدر على العقاب بمثلها أحد.

التفسير :

- الٓمٓ

تحدثنا عن فواتح السور فى أول سورة البقرة ، وتكلمنا عن الحروف المقطعة التى بدئت بها بعض السور.

وآراء العلماء فى هذه الفواتح ترجع إلى رأيين اثنين.

أحدهما : أنها جميعًا مما استأثر الله به ، ولا يعلم معناها أحد سواه - وهذا رأى كثير من الصحابة والتابعين.

ثانيهما : أن لها معنى وقد ذهبوا فى معناها مذاهب شتى . فمنهم من قال هى أسماء للسورة، ومنهم من قال هى رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، ومنهم من قال هى حروف للتنبيه، ومنهم من ذكر أنها حروف للتحدى والإعجاز ، وبيان أن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل القرآن ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها، وفى هذا دليل على أنه ليس من صنع بشر بل تنزيل من حكيم حميد.

٢ - اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

رغم أن بعض الناس قد يؤلّهون أربابا كثيرة، ويعبدون أشياء عدة إلا أن الحقيقة الخالدة هى أن كافة المخلوقات تنتمى إلى الله الذى لم يكن له شريك أزلا ولا شريك له أبدا، فهو الله الحى القيوم ، واهب الحياة للخلق أجمعين لا عون ولا مدد إلا منه ، وهو المعين ولا معين سواه، لا شبيه له فى صفاته ، ولا ند له فى ذاته، ولا مثيل له، ولا شريك له ، ولذا فاتخاذ إله آخر - أيا كان - مع الله فى الأرض أو السماء . إن هو إلا زور وبهتان مبين.

روى ابن جرير وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - وكانوا نحو ستين راكبًا ، وخاصموه فى عيس ابن مريم وقالوا: من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم : ألستم

تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى . قال فهل يملك عيسى من ذلك شيئًا ؟ قالوا: لا . قال ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء . وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، ولا يحدث الحدث؟ قالوا بلى . قال ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذى كما يغذى الصبي، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم. فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا. فأنزل اللّه : الٓـم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . إلى آخر الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ، أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادئ ذى بدء، ثم أتبع ذلك بما يؤكده من كونه حيا قيوما: أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى ، فكيف تقوم به قبل وجوده.

ويذكر البيضاوى فى تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) رواية تفيد أن الرسول (ﷺ) قال : إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور :(١١٦).

فى البقـــــرة : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

وفى آل عمـران : اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ .

وفى طـــــــه : وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .

٣ - نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ... .

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ يعنى القرآن ، وللقرآن أسماء كثيرة وردت متفرقات فى ثنايا الكتاب العزيز فهو القرآن ، والكتاب ، والفرقان ، والذكر ... وغير ذلك من الأسماء العديدة التى أوردها السيوطى فى كتابه (الإتقان) وقد عبر عن القرآن بالكتاب، للإيذان بأنه هو الكتاب المتميز الذى ينصرف إليه هذا الاسم عند الإطلاق ، والألف واللام فيه للعهد أى الكتاب المعهود . أو الإشارة إلى أنه مشتمل على ما فى غيره من الكتب السماوية من المقاصد المشتركة بين الأديان فكأنه جنس الكتب السماوية ، والألف واللام فيه على هذا للجنس.

بِالْحَقِّ أى بالصدق الذى لا شبهة فيه .

فقد أنزل اللّه القرآن متلبسًا بالحق فى جميع صوره من توحيد اللّه وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وإخباره عن أحوال الأمم السابقة ، وشهادته بنبوة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - وبيان ما جاء به من العبادات والمعاملات والأخلاق وأحوال الآخرة ، فكل هذه الصور من الحق ، نزل بها القرآن .

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ .

الضمير فى يديه يعود على الكتاب ، والمعنى أن الكتاب العزيز مصدق لما قبله من الكتب السماوية التى أنزلها الله على رسله ، ومحقق لها فيما نزلت به ، فإن الله سبحانه لم يبعث رسولا قط إلا بالدعوة إلى توحيده، والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه ، مثل صحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى.

قال أبو مسلم : المراد منه أنه تعالى لم يبعث نبيا قط إلا بالدعاء إلى توحيده والإيمان به، وتنزيهه عما لا يليق به، والأمر بالعدل والإحسان ، وبالشرائع التى هى صلاح كل زمان، فالقرآن مصدق لتلك الكتب فى كل ذلك (١١٧).

التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ . أى أنزل التوراة على موسى وأنزل الإنجيل على عيسى.

٤ - مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . أى أنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن لأجل هداية الناس حين أنزلهما على موسى وعيسى، فلم يكن فيهما شىء من الضلال الذى يشتملان عليه الآن (١١٨).

وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ، المراد بالفرقان ما يفرق بين الحق والباطل، والمعنى الأقرب أن المقصود بالفرقان هو القرآن الكريم، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أنه فصل بين الحق والباطل فى أمر عيسى، لأن سورة آل عمران تحدثت فى نصفها الأول عن عيسى عليه السلام وبينت حقيقته ، ونفت أن يكون ابنا لله . وناقشت من ذهب إلى تأليهه. وذهب مفسرون آخرون إلى أن القرآن فصل بين الحق والباطل فى أحكام الشرائع، فقد أحل الحلال وحرم الحرام، وفرض الفرائض، وسن الأخلاق الرفيعة ...

أخرج ابن جرير ، عن محمد بن جعفر بن الزبير أنه - أى القرآن - الفاصل بين الحق والباطل فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى - عليه السلام - وغيره .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ. المراد بالكافرين : النصارى الذين نزل صدر السورة بسببهم أو كل كافر فيدخل هؤلاء فيه دخولا أوليا.

والمراد بآيات الله : الكتب المنزلة على الرسل، أو ما يعمها وغيرها كالآيات والمعجزات.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ . العزيز : الغالب الذى لا يغلب ، والانتقام : العقوبة، وكلمة عَزِيزٌ : للإشارة إلى القدرة التامة على العقاب.

والجملة سيقت لتقرير الوعيد السابق عليها

التــــوراة و الإنجـــيل

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى تفسير هذه الآيات ما يأتى :

يفهم الناس بوجه عام أن المراد بالتوراة هى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم [١١٩] وأن المقصود بالإنجيل أناجيل العهد الجديد الأربعة الشهيرة [١٢٠] ومن هنا ظهرت هذه المشكلة.

أى هذه الكتب يا ترى هى كلام الله حقا ؟ وهل يصدق القرآن فعلا كل ما ورد فيها من أقوال ؟ والحقيقة أن التوراة ليست هى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم بل هى منشورة فى بطنها، وأن الإنجيل ليس هو الأناجيل الأربعة بل هو موجود بين سطورها.

فالمراد بالتوراة أصلاً تلك الأحكام التى نزلت على موسى عليه السلام منذ بعثته وإلى وفاته أى فى مدة تقارب اثنين وأربعين عامًا كانت منها تلك الوصايا العشر التى دوَّنها الله على ألواح وأعطاها له. أما بقية الأحكام فقد أمر موسى عليه السلام بكتابة اثنتى عشرة نسخة منها وأعطاها لأسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر، وأعطى نسخة من بين هذه النسخ إلى بنى لاوِّى أحد أسباط بنى إسرائيل كى يحفظوها. وكان هذا الكتاب يسمى بالتوراة، وقد ظل سليمًا محفوظًا ككتاب مستقل حتى أول تدمير لبيت المقدس، وكانت نسخة بنى لاوى والألواح الحجرية توضع فى تابوت العهد ويعرفها بنو إسرائيل باسم (التوراة). غير أن غفلتهم ونسيانهم وصل إلى حد أنه حين حدث ترميم الهيكل السليمانى فى عهد (يوسياه) ملك يهوذا . عثر كبير الكهان على التوراة موضوعة فى مكان ما فى (خلقيا) وأعطاها إلى كاتب الملك كأعجوبة أثرية فأخذها الكاتب وقدّمها للملك كاكتشاف مدهش عجيب (انظر الملوك الثانى إصحاح ٢٢ من ٨-١٣).

وحين فتح (بختنصَّر) أورشليم وأحرق الهيكل والمدينة بأكملها وسواها بالتراب فقد بنو إسرائيل نسخ التوراة الأصلية ، التى كانت لديهم أعداد جد قليلة منها، وكانوا قد أسدلوا عليها ستائر النسيان .

ثم لما عادت بقية بنى إسرائيل من الأسر البابلى فى عهد الكاهن عزرا (عزير) إلى أورشليم وبنى بيت المقدس من جديد دوَّن عزرا كل تاريخ بنى إسرائيل بعون من بعض أكابر القوم وهو ما يضم الآن الأسفار السبعة عشر الأولى من العهد القديم.

والأسفار الأربعة من هذا التاريخ التى تحوى سيرة موسى عليه السلام وهى الخروج واللاويين والعدد والتثنية أدرجت فيها آيات التوراة التى كانت فى يد عزرا ومعاونيه حسب موقعها وفق ترتيب نزولها.

فالتوراة الآن إذن هى تلك الأجزاء المتفرقة التى تتناثر فيها سيرة موسى عليه السلام بين صفحات العهد القديم، ونستطيع أن نتبينها من بين هذا السرد التاريخى بعلامة واحدة هى أننا إذا وجدنا مصنف سيرة موسى يقول : قال الله لموسى كذا ... أو قال موسى : الرب إلهكم يقول كذا... فلنعلم أن جزءًا من التوراة قد بدأ هنا . ثم إذا استؤنف سرد السيرة فلنعلم أن هذا الجزء قد انتهى. وإذا ما أسهب مصنف التوراة فى شرح وتفسير شيء ما فى موضع وسط صفحاتها تعذر على المرء العادى أن يميز ما إذا كان هذا الجزء من التوراة أم من الشرح

والتفسير. ومع ذلك فمن لهم بصيرة فى تدبر الكتب السماوية فى مقدورهم أن يعرفوا إلى حد ما التفاسير والشروح التى أضيفت وألحقت بهذه الأجزاء على نحو صحيح.

والقرآن يسمى هذه الأجزاء المتناثرة (التوراة) ويصدقها، والحقيقة أننا لو جمعنا هذه الأجزاء وقارناها بالقرآن فلن نجد قيد شعرة من الاختلاف فى الأحكام الجزئية فى بعض المواضع، والمتدبر لكليهما اليوم يستطيع أن يحس إحساسًا واضحًا بأن كلا الرافدين صادر من منبع واحد.

كذلك فالإنجيل فى أصله هو تلك الخطب والأقوال التى قالها المسيح عليه السلام حتى آخر عامين أو ثلاثة من حياته بوصفه نبيا من عند الله . أما هل كتبت هذه الكلمات الطيبات فى حياته أم لا فليس عندنا أى مصدر نستقى منه المعلومات حول ذلك وقد يجوز أن يكون بعض الناس قد دوّنوها ويجوز أن بعض المؤمنين به سمعوها وحفظوها شفاهة. على أى حال حين كتبت رسائل مختلفة عن سيرته الطاهرة بعده بردح من الزمن أدرجت فيها - إلى جانب البيان التاريخى - تلك الأقوال والخطب التى وصلت إلى مصنفى هذه الرسائل عن طريق الروايات الشفهية أو المذكرات المكتوبة. وكتب متى ومرقص ولوقا ويوحنا التى تسمى اليوم (أناجيل) ليست هى الإنجيل الأصلى وإنما الإنجيل الحق هو أقوال المسيح التى أدرجت بين سطورها وليس لدينا وسيلة للتعرف عليها أو التفريق بينها وبين كلام كتاب سيرة المسيح عليه السلام سوى أنه حين يقول المؤلف قال المسيح كذا... أو علم المسيح الناس كذا ... فهذه هى أجزاء الإنجيل الأصلى، والقرآن يسمى هذه الأجزاء بالإنجيل ويصدقها ولو جمع امرؤ اليوم هذه الأجزاء المنثورة بين صفحات العهد الجديد وقارنها بالقرآن لما وجد بين كليهما سوى فرق طفيف وحتى هذا الفرق البسيط الذى يدركه من يقوم بهذه المقارنة يمكن حله وإزالته بسهولة ويسر بعد التفكير فيه بعقل بعيد عن التعصب (١٢١).



﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦ ﴾

المفردات :

لا يخفى : لا يغيب.

يصوركم : يخلقكم على ما شاء من صورة.

الأرحام : جمع رحم وهى مكان الحمل مشتق من الرحمة.

التفسير :

٥ - إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ . إن الله واسع العلم، لا يخفى عليه شىء كائن فى الأرض ولا فى السماء ، لعلمه بما يقع فى العالم من كلى أو جزئى، فهو العالم بما كان وما يكون ، وهو مطلع على

كفر من كفر بآيات الله، وإيمان من آمن بها، وهو مجازيهم عليه، والمسيحيون يؤمنون بألوهية عيسى غافلين عن أنه بشر محدود المعرفة فكيف يكون إلهًا ؟.

وعبر عن علمه – تعالى – بذلك إيذانًا بأن علمه سبحانه بالكائنات، ولو كانت فى أقصى غايات الخفاء ليس من شأنه أن يكون فيه شائبة خفاء بوجه من الوجوه، بل هو فى غاية الوضوح والجلاء (١٢٢).

٦– هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ .

هو الذى يمنحكم الصورة التى يشاء ويمنحكم الخصائص المميزة لهذه الصورة ، وهو وحده الذى يتولى التصوير بمحض إرادته ومطلق مشيئته .

قال أبو السعود فى التفسير :

(يصوركم كائنين على مشيئته تعالى تابعين لها فى قبول الأحوال المتغايرة من كونكم نطفا ثم علقا ثم مضغا غير مخلَّقة ثم مخلقة وفى الاتصاف بالصفات المختلفة من الذكورة والأنوثة والحسن والقبح وغير ذلك من الصفات).

لا إله إلاَّ هُوَ . إذ لا يتصف بشىء مما ذكر من الشئون العظيمة الخاصة بالألوهية أحد ليتوهم ألوهيته.

العَزِيزُ الحَكِيمُ . المتناهى فى القدرة والحكمة؛ ولذلك يخلقكم على ما ذكر من النمط البديع .

وفى هذه اللمسة تجلية لشبهات النصارى فى عيسى عليه السلام ونشأته ومولده فالله هو الذى صور عيسى (كيف يشاء) . لا أن عيسى هو الرب، أو هو الله أو هو الابن، أو هو الأقنوم اللاهوتى الناسوتى ، إلى آخر ما انتهت إليه التصورات المنحرفة الغامضة المجانبة لفكرة التوحيد.

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾

المفردات :

محكمات : واضحات.

متشابهات : محتملات لعدة معان لا يتضح مقصودها فاشتبه أمرها على الناس.

زيغ : ميل عن الحق إلى الباطل.

ابتغاء الفتنة : طلبًا لها.

الراسخون فى العلم : الثابتون فيه.

الألبـــــاب : العقول الخالصة.

المعنى العام للآية :

وهو الذى أنزل عليك القرآن وكان من حكمته أن جعل منه آيات محكمات محددة المعنى بيّنة المقاصد، هى الأصل وإليها المرجع، وأخر متشابهات يدق معناها على أذهان كثير من الناس ، وتشتبه على الراسخين فى العلم وقد نزلت هذه المتشابهات لتبعث العلماء على العلم ، والنظر ودقة الفكر فى الاجتهاد، وفى البحث فى الدين.

وشأن الزائغين عن الحق أن يتبعوا ما تشابه من القرآن ، رغبة فى إثارة الفتنة، وهم يؤولون الآيات حسب أهوائهم ، وهذه الآيات لا يعلم تأويلها الحق إلا اللّه ، والذين تثبتوا فى العلم وتمكنوا منه، وأولئك المتمكنون منه يقولون : إننا نوقن بأن ذلك من عند اللّه ، لا نفرق فى الإيمان بالقرآن بين محكمه ومتشابهه، وما يعقل ذلك إلا أصحاب العقول السليمة التى لا تخضع للهوى والشهوة.

ويتعلق بتفسير الآية ما يأتى :

١ - المحكم والمتشابه

المحكمات : من أحكم الشىء بمعنى وثّقه وأتقنه ، والمعنى العام لهذه المادة المنع فإن كل محكم يمنع بإحكامه تطرق الخلل إلى نفسه أو غيره ، ومنه الحكم والحكمة، وحكمة الفرس، قيل وهى أصل المادة.

والمتشابه : يطلق فى اللغة على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضا، وعلى ما يشتبه من الأمر أى يلتبس قال فى الأساس (وتشابه الشيئان ، واشتبها ، وشبهته به، وشبهته إياه واشتبهت الأمور وتشابهت : التبست لإشباه بعضها بعضا، وفى القرآن المحكم والمتشابه).

٢ - آراء العلماء فى المحكم

(أ) هو الحلال والحرام ... روى عن ابن عباس ومجاهد.

(ب) هو ما علم العلماء تأويله ...

(جـ) هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان.

(د) هو ما لم يحتمل من التأويل إلا وجهًا واحدًا.

(هـ) هو الأمر والنهى والوعد والوعيد والحلال والحرام .

(و) عن ابن مسعود : قال أنزل القرآن على خمسة أوجه :

حرام وحلال ، ومحكم ومتشابه، وأمثال ، فأحل الحلال، وحرّم الحرام ، وآمن بالمتشابه، واعمل بالمحكم واعتبر بالأمثال.

(ز) قال ابن عباس هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ هن أصل الكتاب اللاتى يعمل عليهن فى الأحكام ومجمع الحلال والحرام .

٣ - آراء العلماء فى المتشابه

(أ) هو ما لم يكن للعلماء إلى معرفته سبيل كقيام الساعة .

(ب) هو الحروف المقطعة فى فواتح السور كقوله الٓم . ونحو ذلك . وقد جاء فى تفسير المنار أن المفسرين قد اختلفوا فى المحكم والمتشابه على أقوال :

(أحدها) أن المحكمات هى قوله : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ... (الأنعام :١٥١) إلى آخر الآية والآيتين اللتين بعدها (١٢٣) والمتشابهات هى التى تشابهت على اليهود وهى أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور .

(ثانيها) أن المحكم هو الناسخ والمتشابه هو المنسوخ.

(ثالثها) أن المحكم ما كان دليله واضحًا لائحًا كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة ، والمتشابه ما يحتاج فى معرفته إلى التدبر والتأمل.

(ورابعها) أن المحكم كل ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلى أو خفي، والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة ومقادير الجزاء على الأعمال (١٢٤).

٤ - الوقف والوصل

فى قوله تعالى :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .

للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان :

١ - رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله : وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ . كلام مستأنف، وعلى هذا فالمتشابه لا يعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(أ) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله.

(ب) أن قوله : يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا . ظاهر فى التسليم المحض لله تعالى، ومن عرف الشىء وفهمه لا يعبر عنه بما يدل على التسليم المحض.

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبى بن كعب وعائشة.

٢ - ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ : الْعِلْمِ . ويجعل قوله : يَقُولُونَ آمَنَّا . كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين فى العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة، والراسخون فى العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم [١٢٥] ويشهد لصحة هذا الرأى أمران :

أحدهما : أن الله تعالى ما أنزل القرآن إلا ليعمل به ، فلا ينبغى أن يكون فيه ألغاز ومعميات لا يمكن فهمها وإدراكها، فمتشابهه يجب أن يرد إلى محكمه كما قال تعالى هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ : أى مرجعه عند الاشتباه.

وثانيهما : أن الله تعالى أثنى على الراسخين فى العلم بقوله : وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ففى وصفهم بأنهم أصحاب العقول الخالصة المتذكرة دليل على أنهم استعملوها فى كشف المتشابهات والتذكر بها.

٥ - الحكمة فى وجود المتشابه

(أ) امتحان قلوب المؤمنين فى التصديق به .

(ب) هو حافز للعقول إلى النظر فيه.

(جـ) البحث عن المتشابه ومحاولة فهمه من حظ الخاصة كما أن التسليم والتفويض من حظ العامة.

قال الزمخشرى : فإن قلت : فهلا كان القرآن كله محكما ؟.

قلت: لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به، لسهولة مأخذه، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل والنظر والاستدلال، ولو فعلوا ذلك، لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به [١٢٦].

ولما فى المتشابه من الابتلاء ، والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه، ولما فى تقادح العلماء وإتعاب القرائح - فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم ، من الفوائد الجليلة، والعلوم الجمَّة، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف فيه - إذا رأى فيه ما يناقض ظاهره- وأهمه طلب ما يوفق بينه ، ويجريه على سنن واحدة ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه للمحكم- ازداد طمأنينة إلى معتقده ، وقوة إيمانه ... اهـ.

٦ - زعم التناقض

زعم النصارى أن القرآن فيه تناقض حين نفى بنوة عيسى لله ، ثم أثبتها حين ذكر أنه روح منه، وهذا زيغ منهم يبتغون به الفتنة، فإن المراد من قوله « وروح منه » أنه صادر من الله ، فكما أن كل شىء صادر من الله بالخلق والإبداع ، فكذلك روح عيسى، وصدق الله إذ يقول : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (الإخلاص : ٣ - ٤).

٧ - صفات الله

جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على أن لله وجها ويدين وجهة هى السماء ومكانا هو العرش ونحو ذلك مما يوهم التشبيه والجسمية والانتقال، وآيات أخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها .

وطائفة ثالثة : منها ما يصرح بأنه لا تدركه الأبصار ومنها ما يدل على جواز رؤيته تعالى .

فرأى رجال السلف الصالح متابعة الصحابة والتابعين فى موقفهم منها.

« فغلَّبوا أدلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها، وعلموا استحالة التشبيه ، وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل [١٢٧] وقد سئل الإمام مالك عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى) فقال : « الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة » [١٢٨].

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى تفسير سورة آل عمـــــران :

ونشأت المشكلة : حينما بدأ الباحثون يتعرضون للآيات التى وردت فى القرآن الكريم ، والتى توهم التشبيه، كاليد والوجه والاستواء، أو التى وردت فى الأحاديث : كالنزول والصورة ، والأصابع.

بدأت المشكلة: حينما تعرض بعض الباحثين لهذه الألفاظ وأمثالها : تأويلا لها، أو نفيًا لمعناها، أو تفسيرًا أو شرحًا ... (... والموقف الذى يقفه من أراد متابعة السلف الصالح إذن تجاه كلمات الصورة واليد والنزول، إنما هو الإيمان بها مع التنزيه لله تعالى عن الجسمية وتوابعها، وليس معنى ذلك ، أن هذه الألفاظ معطلة عن المعنى ، بل لها معنى يليق بجلال الله وعظمته : مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم، وأن يؤمن بأن ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - فهو كما وصفه ، وحق بالمعنى الذى أراده - وعلى الوجه الذى قال ، وأن لا يحاول لها تفسيرًا ولا تأويلا.

وشعار السلف معروف فى هذه الكلمات وهو :

« أمروها كما جاءت » - يقول الإمام الرازى فى كتابه (أساس التقديس) : « إن هذه المتشابهات ، يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى فيها ، شىء غير ظواهرها، ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض فى تفسيرها ».

إن الأصول الدقيقة للعقيدة والشريعة ، قاطعة الدلالة مدركة المقاصد وهى أصل هذا الكتاب.

والذين فى قلوبهم زيغ، يتركون الأصول الواضحة، ويجرون وراء المتشابه لأنهم يجدون فيه مجالاً لإيقاع الفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة ، والاختلافات التى تنشأ عن بلبلة الفكر نتيجة إقحامه فيما لا مجال للفكر فى تأويله ، وأما الراسخون فى العلم فيقولون فى طمأنينة وثقة آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا أى الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له وليس شىء من عند الله بمختلف ولا متضاد.

روى الإمام أحمد أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وسلَّم - سمع قومًا يتدارسون فقال : (إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه) (١٢٩).

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

لا تزغ قلوبنا : لا تملها عن الحق.

من لـــدنك : من عنـــــدك.

ليوم لا ريب فيه : ليوم لا يصح أن يشك فيه وهو يوم القيامة.

التفسير :

٨ - رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ .

هذه الآية من تتمة كلام الراسخين فى العلم فهم أمام المتشابه من القرآن ، يؤمنون به ، ويصدقون بأنه كلام الله وينحنون بعقولهم أمام كلام ربهم قائلين : آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ثم يسترسلون فى الدعاء سائلين الله الثبات على الحق والاستمرار على الهدى، ولن يكون ذلك إلا بتوفيق الله لهم .

ويذهب الشريف الرضى فى تفسيره هنا إلى أنه دعاء بالتثبيت على الهداية، وإمدادهم بالألطاف التى معها يستمرون على الإيمان، وعلى طريق المعتزلة يسوق الشريف تفسيره فى نطاق جدلى ينتهى إلى الجواب السليم فيجرى تساؤلا بقوله : وكيف يكون مزيغًا لقلوبهم بألا يفعل اللطف ؟ ثم يتولى الإجابة قائلاً :

من حيث كان المعلوم له متى قطع إمدادهم بألطافه وتوفيقه زاغوا وانصرفوا عن الإيمان ، ويمضى شارحًا ضاربًا المثل قائلاً : ويجرى هذا مجرى قولهم :

اللهم لا تسلّط علينا من لا يرحمنا ، ومعناه لا تخل بيننا وبين من لا يرحمنا فيتسلط علينا .

وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ . هم يعرفون أنهم لا يقدرون على شىء إلا بفضل الله ورحمته، وأنهم لا يملكون قلوبهم فهى فى يد الله .. فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة.

روى ابن أبى حاتم عن أم سلمة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « يا مقلّب القلوب ثبت قلبى على دينك » (١٣٠) ثم قرأ : رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ .

والوهاب : كثير الهبات والعطايا أى إنك أنت وحدك الوهاب لكل موهوب، وفيه دليل على أن الهدى بتوفيق الله ، والضلال بعدم الإعانة منه، لتقصير العبد فى سلوك سبيله ، وأنه متفضل بما ينعم به على عباده، من غير أن يجب عليه شىء .

٩ - رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ . . . .

أى أنت يا ربنا ، جامع المهتدين والزائغين ، لحسابهم وجزائهم فى يوم لا ينبغى أن يرتاب فى وقوعه . ليجزى كل إنسان بما عمله فى الدنيا من خير وشر.

إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ . هذه الجملة من كلام الله بعد أن تم كلام الراسخين فى العلم. كأن القوم لما قالوا : « إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » صدّقهم الله فى ذلك وأيد كلامهم بقوله « إن الله لا يخلف الميعاد» وقيل هو كلام الراسخين.

والمعنى على هذا :

إنك لا تخلف وعدك للمسلمين والكافرين بالثواب والعقاب.

والتأكيد بإن ، وإظهار لفظ الجلالة بدلا من الضمير يفيد تأكيد نفى الريب، كما يفيد تأكيد قيام الساعة تأكيدًا حاسمًا .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ ﴾

المفردات :

وقود النار : وقود النار - بالفتح - ما توقد به النار ، وبالضم : الاشتعال.

كدأب : الدأب ، العادة ، والصنيع والحال ، و الشأن والأمر.

التفسير :

١٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ . التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع- المضار.

وَلا أَوْلادُهُم . الذين بهم يتناصرون ، وعليهم يعتمدون.

مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا . أى من عذاب الله شيئًا من الإغناء أى لن تدفع عنهم شيئًا من عذابه.

قال تعالى : يوْمَ لا ينفعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۞ إلاَّ مَنْ أتى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . (الشعراء : ٨٨، ٨٩).

وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ . بفتح الواو أى حطبها وقرئ بالضم بمعنى أهل وقودها، وأكثر اللغويين على أن الضم للمصدر أى التوقد، والفتح للحطب.

وقال الزجاج المصدر مضموم ، ويجوز فيه الفتح ، وهذا كقوله تعالى : إِنَّكُمْ وما تَعْبُدُون من دون الله حصبُ جَهَنَّمَ أنتُمْ لَهَا وارِدُونَ . (الأنبياء : ٩٨).

١١ - كَدأبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .قال ابن عباس كصنيع آل فرعون ، أو كسنة آل فرعون، وكفعل آل فرعون ، وكشبه آل فرعون والألفاظ متقاربة.

والدأب بالتسكين والتحريك أيضًا كنهر ونهر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة كما يقال : لا يزال هذا دأبى ودأبك.

وقال امرؤ القيس :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسل

والمعنى كعادتك فى أم الحويرث حين أهلكت نفسك فى حبها وبكيت دارها ورسمها ".

والمعنى فى الآية :

لن تغنى عن هؤلاء الكفار أموالهم ولا أولادهم ، شأنهم فى هذا شأن آل فرعون حيث لم يغن عنهم ما ملكوه من أموال طائلة، وما أنجبوه من أبناء عديدين ، فأغرقوا وأدخلوا نارا بسبب كفرهم، وكما دخلوا النار بكفرهم فسيدخلها كل كافر مفسد.

والَّذين من قَبْلِهم . أى الأمم الكافرة التى كذبت الرسل.

كَذَّبُوا بآياتنَا بيان وتفسير لدأبهم الذى فعلوا على طريقة الاستئناف المبنى على السؤال المقدر. والآيات: المعجزات والبراهين التى أيد بها الرسل، أو الأدلة على وجود الله ووحدانيته أو هما معًا .

فأخذهُم اللَّهُ بذُنوبهمْ أى عاقبهم وأهلكهم بسببها وقد استعمل الأخذ لأن من ينزل به العقاب يصير كالمأخوذ المأسور الذى لا يقدر على التخلص.

واللَّهُ شَديدُ العقَاب . أى الأخذ بالذنب ، فيه تهويل للمؤاخذة وزيادة تخويف للكفرة ، وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله من الأخذ للجميع وتكملة له.



﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾

المفردات :

المهـــاد : الفــــراش.

سبب النزول :

روى أبو داود فى سننه والبيهقى فى الدلائل عن طريق ابن إسحاق عن ابن عباس :

أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما أصاب ما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال :

يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشا. فقالوا: يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش: كانوا أغمارا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تكن مثلنا ..) فأنزل الله :

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ . إلى قوله : لأُولِي الأَبْصَارِ. وحكم الآية يعم جميع الكافرين، وإن نزلت بسبب اليهود :

المعنى : قل ، يا محمد لهؤلاء الكفار : ستغلبون - ألبتة - عن قريب وستحشرون بعد موتكم إلى جهنم وبئس الفراش : جهنم ، التى مهدتموها لأنفسكم بذنوبكم وآثامكم.

والتعبير عن جهنم بالمهاد، للتهكم بهم، فإن المهاد هو الفراش الذى يمهد ليستراح عليه، ولا مهاد ولا راحة فى السعير ، وقد صدق الله وعده بقتل يهود بنى قريظة (١٣١)، وإجلاء بنى النضير وفتح خيبر (١٣٢) وضرب على من عداهم وهو من أوضح شواهد النبوة ، حيث أخبر القرآن به قبل وقوعه .



﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾

المفردات :

آيـــة : الآية هنا ، العبرة والعظة.

فئـــة : الفئة، الطائفة من الناس.

الأبصار : البصائر والعقول .

التفسير :

١٣ - قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ... .

أى قل لأولئك اليهود الذين غرتهم أموالهم واعتزوا بأولادهم وأنصارهم لا تغرنكم كثرة العدد ولا المال والولد، فليس هذا سبيل النصر والغلب فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تفنيد ما تدّعون.

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين.

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها.

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذن الله.

فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى فئة مؤمنة فى أعلى درجات الإيمان تجاهد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله وحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله.

وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ. أى فئة أخرى كافرة ، والمراد بها كفار قريش.

وكان المسلمون فى بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معهم فرسان وستة أدرع وثمانية سيوف، وأكثرهم رجالة. وكان المشركون قريبًا من ألف.

يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ . أى يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين قريبًا من ألفين، أو مثلى عدد المسلمين.

والمراد من الرؤية الظن والحسبان ، وقد كثّر الله المسلمين فى أعين المشركين ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم ، أو أنزل الله الملائكة حتى صار عدد المسلمين كثيرًا فى نظر المشركين .

رَأْيَ الْعَيْنِ . أى رؤية ظاهرة لا لبس فيها.

لقد كانت هناك مواقف مختلفة للمعركة. فقبل المعركة قلل الله المسلمين فى أعين المشركين حتى يجترئوا عليهم كما قلل الله المشركين فى أعين المسلمين ، ليزداد حماس المسلمين ويقينهم بالنصر.

قال تعالى : وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . (الأنفال : ٤٤).

فلما بدأت المعركة والتحم الجيشان ، كثر عدد المسلمين فى أعين الكفار ليهابوهم وتتزلزل أقدامهم ، فيفشلوا وينهزموا .

ويحتمل أن المسلمين كثروا أولاً فى أعين المشركين ليحصل لهم الرعب والخوف والجزع والهلع، ثم لما حصل التّصاف والتقى الفريقان قلل الله هؤلاء فى أعين هؤلاء ليقدم كل منهما على الآخر ليقضى الله أمرًا كان مفعولا.

ومضمون الآيات يرجح الرأى الأول ، والعبرة أنه كان هناك تقليل للعدد فى مواطن ، وتكثير للعدد فى مواطن أخرى من المعركة، وأن ذلك كان سبيلاً من سبل النصر.

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ . والله يقوى بنصره وعونه من يشاء من عباده ، فالنصر والظفر، إنما يحصلان بتأييد الله ونصره لا بكثرة العدد ولا بقوة الشوكة، ولا بقوة السلاح: وقد تقف بعض العقبات فى طريق النصر ولكن العاقبة دائمًا للمتقين .

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . إن فى التكثير والتقليل، وغلبة القليل مع عدم العدة على الكثير الشاكى السلاح لَعِبْرَةً اى لاعتبارا وآية وموعظة لِّأُولِي الْأَبْصَارِ لذوى العقول والبصائر .



﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) ﴾

المفردات :

حب الشهوات : حب المشتهيات للنفس.

المقنطرة : المجمعة أو المضعّفة.

المسومة : الراعية فى المرعى ، مأخوذ من سوَّم خيله، إذا أرسلها فى المرعى ، أو المطهمة الحسان.

والأنعام : الإبل والبقر، والغنم والمعز.

والحرث : مصدر مراد به المزروع .

التفسير :

فى آية واحدة يجمع السياق القرآنى أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان : النساء والبنين والأموال المكدَّسة والخيل والأرض الخضراء والأنعام .. وهى خلاصة الرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى.

وقد بدات الآية أنواع المشتهيات بقولها :

١ - من النِّسَاءِ وقدمهن على الكل لأن التمتع بهن أكثر والاستئناس بهن أتم، إذ يحصل منهن أتم اللذات.

٢ - والْبَنِين والمراد بهم الأولاد الذكور للتكثُّر بهم والتفاخر والزينة، وقيل المراد بهم الأولاد مطلقا كما قال تعالى: أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ . (الأنفال : ٢٨) وفى الحديث (الولد مجبنة مبخلة) [١٣٣]. والعلة فى حب الزوجة، وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع، وهى حكمة مطردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى.

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لا يزول، لأن الولد لا يعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة . فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده، وكم من غنى عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر، بسبب حب والدهم لغير أمهم.

٣ - وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ أى الأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والقناطير جمع قنطار، ويطلق أحيانًا على المال الكثير بغير عدد وقد يستعمل فى مقدار كثير معين من المال وهو ١٢ ألف أوقية.

وفى القاموس القنطار مائة رطل من الذهب والفضة ووصف القناطير بالمقنطرة للمبالغة، فمن عادة العرب أن يصفوا الشىء بما يشتق منه للمبالغة ، كقولهم ألوف مؤلفة، وبدر مبدرة، وإبل مؤبلة، ودراهم مدرهمة، وظل ظليل.

ونهم المال هو الذى ترسمه القناطير المقنطرة ولو كان يريد مجرد الميل إلى المال لقال : والأموال ، أو والذهب ، والفضة، ولكن القناطير المقنطرة توحى بالنهم الشديد لتكديس الأموال، ذلك أن التكديس ذاته شهوة، بغض النظر عما يستطيع المال توفيره لصاحبه من الشهوات الأخرى.

وحب المال غريزة فطرية، وقد يبلغ النَّهم بالإنسان فى جمع المال أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد فيفتن فى الوصول إليه الفنون المختلفة، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام.

وقد أباح الإسلام الملكية ولكنه هذَّبها وقلَّم أظافرها وأوجب أن يكون تملك المال من طرق سليمة، كما أوجب فيه الزكاة، وغير ذلك من الواجبات، وبذلك يكون المال نعمة لا نقمة، فنعم المال الصالح للرجل الصالح.

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب) [١٣٤].

٤ - وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ . : التى ترعى فى الأودية، يقال : سام الدابة : رعاها، وأسامها : أخرجها إلى المرعى كما قال تعالى : مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. (النحل :١٠).

وقال ابن جرير : المسومة المعلَّمة ، التى عليها السيمياء وهى العلامة.

وقال أبو مسلم : المراد من هذه العلامات الأوضاح والغرر التى تكون فى الخيل ، وهى أن تكون الأفراس غرا، وقال النابغة :

بسمر كالقداح مسومات ... عليها معشر أشباه جن

وقال ابن جرير : إن معنى المطهمة والمعلَّمة والرائعة واحد.

وكل من الخيل الراعية التى تقتنى للتجارة، والمطهمة التى يقتنيها الكبراء والأغنياء للمفاخرة، من متاع الدنيا الذى يتنافس فيه، ومن الناس من يغلو فى حب الخيل وأشباهها حتى يفوق عنده كل حب.

٥ - وَالأَنْعَامِ . وهى الإبل والبقر والغنم، والأنعام مال أهل البادية بها ثروتهم، وفيها تكاثرهم وتفاخرهم، ومنها معايشهم ومرافقهم .

وقد امتن الله بالأنعام على عباده فقال :

وَالأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ : (النحل : ٥ - ٨).

٦ - وَالْحَرْثِ . أى الزرع والنبات والشجر على اختلاف أنواعه وهو قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر.

ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . أى ذلك الذى ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس فى حياتهم الدنيا أى الأولى.

وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . والله عنده حسن المرجع فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موت الناس وبعثهم فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه فى الآجل.

والإسلام دين وسط فهو لم يحرّم التمتع بالطيبات ، فإن التمتع بها حلال كما قال - سبحانه : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ . (الأعراف : ٣٢).

فالزوجة الصالحة نعمة والدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة.

وينبغى أن تكون وسيلة للعفة والاستقامة والذرية الصالحة.

والابن الصالح نعمة، والمال نعمة وهو وسيلة لإخراج الزكاة والصدقة. وكذلك الخيل والأنعام والحرث.

ولكن على المؤمن ألا يشتغل بها عن طاعة الله، وألا يجعلها أكبر هَمِّهِ أو شاغلا له عن آخرته.

فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال فهو السعيد فى الدارين.

ومن دعاء المؤمنين :
رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . (البقرة : ٢٠١).

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧) ﴾

المفردات :

أؤنبئكم : الهمزة للاستفهام ، والمراد منه : التنبيه والتشويق إلى ما ينبئهم به. والإنباء : الإخبار. فكأنه يقول : إنى مخبركم بخبر يستدعى انتباهكم وشوقكم إلى سماعه، فاستمعوا إليه.

وأزواج مطهرة : وزوجات مطهرة من الأدناس حسية ومعنوية .

والقانتين : والمطيعين لله، الخاضعين له، المقرين بعبوديتهم له.

بالأسحار : الأسحار جمع سحر ، وهو آخر الليل قبيل الفجر .

ورضوان : الرضوان : الرضا العظيم.

التفسير :

١٥ - قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . . .

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالا، أمر رسوله بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب.

والمعنى : قل لقومك وغيرهم : أأخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره، وجئ بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه. وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولاشك فى ذلك إذ هى من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها.

ثم أجابهم عن هذا الاستفهام المشوق فقال :

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . . . .

جعل ما أعده للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين :

نوعًا جسمانيا نفسيا وهو الجنات وما فيها من الخيرات ، والأزواج المطهرات.

ونوعا روحيا عقليا وهو رضوان الله تعالى .

قال القاسمى :

و لِلَّذِينَ اتَّقَوْا . خبر المبتدأ الذى هو :جَنَّاتٌ

و تَجْرِي . صفة لها و عِندَ رَبِّهِمْ . صفة للجنات فى الأصل قدم فانتصب على الحال، والعندية مقيدة لكمال علو رتبة الجنات وسمو طبقتها.

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١٣٥).

خَالِدِينَ فِيهَا . أى ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولا.

وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ . من الدنس والخبث والأذى والحيض وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا.

وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ . أى يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده، وهذه اللذة الروحانية تتمة ما حصل لهم من اللذات الجسمانية وأكبرها كونًا قال تعالى : وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة: ٧٢).

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى أن رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم قال : إن اللّه عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا: يا ربنا وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا (١٣٦).

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ : أى عالم بمصالحهم فيجب أن يرضوا لأنفسهم ما اختاره لهم من نعيم الآخرة، وأن يزهدوا فيما زهدهم فيه من أمور الدنيا.

١٦ – الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . هؤلاء المتقون هم الذين يقولون :

ربنا إننا صدقنا بالذى أنزلته على رسولك محمد وسائر من سبقه من الرسل، فاغفر لنا ذنوبنا واحفظنا من عذاب النار. قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى اللّه، ثم يدعو، ويؤيده ما فى الصحيحين من حديث أصحاب الغار (١٣٧) وتوسل كل منهم بصالح عمله، ثم تفريج البارى تعالى عنهم .

١٧ – الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ .

الصَّابِرِينَ. على البأساء والضراء وحين البأس.

وَالصَّادِقِينَ . فى إيمانهم وأقوالهم ونياتهم.

والْقَانِتِينَ. المطيعين لله الخاضعين له.

وَالْمُنفِقِينَ . أموالهم فى حقوق الله تعالى، وحقوق ذويهم، وفى أنواع البر التى ندبهم الله ورسوله إليها.

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ . أى هم يعبدون الله ويصلون بالليل، وفى آخر الليل يستغفرون الله تعالى. والأسحار جمع سحر. وهو الهزيع الأخير من الليل قبل الفجر.

روى ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفر لى ، فنظرت فإذا هو ابن مسعود. وثبت فى صحيح البخارى ومسلم وغيرهما من المسانيد والسنن من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله- صلى الله عليه وسلم - قال : « ينزل ربنا، تبارك وتعالى ، كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، يقول : من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفر لى فأغفر له ؟» (١٣٨) .

وفى رواية لمسلم : « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى ويقول : من يقرض غير عدوم ولا ظلوم ؟» وفى رواية « حتى ينفجر الفجر ».

« ويروى أن بعض الصالحين قال لابنه : يا بنى لا يكن الديك أحسن منك ينادى بالأسحار وأنت نائم ، والحكمة فى تخصيص الأسحار كونه وقت غفلة الناس عن التعرض للنفحات الرحمانية والألطاف الإلهية وعند ذلك تكون العبادة أشق، والنية خالصة، والرغبة وافرة، مع قربه تعالى وتقدس من عباده.

قال السيوطى : فى الآية فضيلة الاستغفار فى السحر، وأن هذا الوقت أفضل الأوقات. وقال الرازى: واعلم أن الاستغفار بالسحر له مزيد أثر فى قوة الإيمان وفى كل العبودية » (١٣٩).

لطيفة :

قال الزمخشرى : الواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم فى كل واحدة منها.



﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

شهد الله أنه لا إله إلا هو : أى بيّن لعباده ذلك بالأدلة الواضحة، فكأن ذلك منه شهادة وأى شهادة، أما شهادة الملائكة وأولى العلم فهى: إقرارهم بذلك.

قائمًا بالقسط : أى قائمًا بالعدل فى تدبير الكون.

التفسير :

١٨ - شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . أى علم وأخبر، أو قال أو بين أنه لا معبود حقيقى سوى ذاته العلية.

وتطلق هذه الشهادة على ما أقامه القرآن من الأدلة على وحدانيته، كقوله تعالى :

لَوْ كان فيهما آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لفسدتا . (الأنبياء : ٢٢).

وقوله عز شأنه : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . (الإخلاص : ١).

وقوله تعالى : فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ . (محمد : ١٩).

وكما شهد اللّه بأنه لا إله إلا هو ، فقد شهد الملائكة الذين : لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ. (التحريم : ٦).

وكذلك أصحاب العلم والفكر السديد من الأنبياء والمرسلين ، ومن آمن بهم، وكل من فكّر فى آيات اللّه الكونية فآمن به. هؤلاء جميعًا، شهدوا للّه بالوحدانية ، حال كونه قائمًا بالقسط والعدل فى تدبيره للكون، فبعدله قامت السموات والأرض.

.... والعدل هنا هو : الحكمة فى التدبير ، الذى استقامت به أمور الكون.

لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ . كرره تأكيداً وليضيف إليه قوله : الْعَزِيزُ ، فلا يرام جنابه.

الْحَكِيمُ . لا يصدر عنه شىء إلا على وفق الاستقامة.

(وقال العارف الشعرانى فى كتاب « الجواهر والدرر » : سألت أخى أفضل الدين : لمَ شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال :

لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له، وإنه هو الموحد نفسه بنفسه- فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر فى الأدلة كالبشر، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلى الإلهى ، وذلك أقوى العلوم وأصدقها، فلذلك قُدموا فى الذكر على أولى العلم. وأيضا فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فناسب ذكرهم فى الوسط فاعلم ذلك »[١٤٠].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾

المفردات :

بغيًا بينهـم : ظلمًا قائمًا فيهم، وحسدا موجودا فى بيئتهم .

فإن حاجوك : أى جادلوك .

اسلمت وجهى لله : أخلصت ذاتى ونفسى له تعالى .

والأُميين : المراد بهم، من لا يكتبون من مشركى العرب من غير الكتابيين لشيوع الأمية فيهم .

التفسير :

١٩ - إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ... . الإسلام هنا معناه إخلاص الوجه لله تعالى، فاليهودية إسلام فى مدتها والمسيحية إسلام فى فترتها والرسالة المحمدية إسلام بمعنى إخلاص الوجه لله والامتثال لطاعته.

وتسمية أتباع الدين الإسلامى فى العصر الحاضر بالمسلمين كانت تسمية سابقة على وجودهم الزمنى قال تعالى :

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ... . (الحج : ٧٨).

وإذا تتبعنا المعنى اللغوى لكلمة إسلام والمعنى الشرعى لها خرجنا بالنتائج الآتية :

- إن الدين وإسلام الوجه لله، والتوحيد والإسلام كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضا ويشرح بعضها بعضا.

- إن جوهر الشخصية الإسلامية ، أو شخصية المسلم هو إسلام الوجه لله، أو التوحيد أو التدين الصادق أو الإسلام.

يقول ابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨هـ فى المعنى اللغوى للإسلام: المسلم معناه المخلص لله فى عباداته، من قولهم سلم الشىء لفلان خلص له، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

والإسلام لا يشير إلى شخص معين، ولا إلى شعب معين ولا إلى إقليم معين، ولا يحُد بالبعثة المحمدية. فرسالة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى هى الإسلام بنص القرآن الكريم.

قال تعالى : ما كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (آل عمران:٦٧).

ومن دعاء يوسف الصديق :

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ توفني مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . (يوسف :١٠١).

- وقال سيدنا موسى لقومه :

يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ سورة . (يونس :٨٤).

وفى شأن عيسى يقول القرآن الكريم :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . (آل عمران :٥٢-٥٣).

معنى الآية :

إن الملة المرضيَّة عند الله هى الإسلام ، فلا يقبل من أحد دين غيره بعد رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد أرسله الله مصدقاً لما سبقه من الرسل والكتب ومهيمنًا عليها يقر صحيحها ويقوِّم عوجها وينسخ ما قبله من الأديان والشرائع.

وكما أن الإسلام هو دين هذه الأمة الذى رضيه لها، فهو دين جميع الأنبياء والمرسلين وأممهم من قبل محمد، فهو دين الله دائمًا فى جميع الأزمان، لاشتماله على توحيده تعالى وتنزيهه عن الصاحبة والولد واحتوائه على أصول الشرائع المشتركة بينها .. أما الفروع، فإنها مختلفة باختلاف الأمم قال تعالى : لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا. (المائدة : ٤٨).

فإن ما يصلح منها لأمة لا يصلح لأمة أخرى.

« فالصيام مشروع فى جميع الأديان، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم. والميراث مشروع فى جميع الشرائع، ولكن كيفيته تختلف باختلاف الأمم. وهكذا الأمر بالنسبة لباقى الأحكام » [١٤١].

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ . لقد أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل أن يصدق بعضهم بعضا وأن يؤمنوا بالنبى محمد عند ظهوره، وكان اليهود يبشرون بنبى سيظهر ويستفتحون به ويدعون الله أن ينصرهم بسببه.

ومن دعاء اليهود فى حروبهم مع المشركين :

(اللهم افتح علينا ، وانصرنا بالنبى المبعوث آخر الزمان).

وكانوا يقولون لأعدائهم المشركين :

قد أظل زمان بنبى يخرج بتصديق ما قلنا، فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما ظهر الإسلام آمن بعضهم كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة من أحبار اليهود، وكفر أكثرهم من بعد ما جاءهم العلم اليقينى بأنه الحق، إذ جاء الإسلام ونبيه وفق أوصافه ونعوته فى كتبهم.

وما كان اختلافهم فيه - من بعد ما أتاهم العلم - إلا بغيا وحسدًا.

قال تعالى : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا . النساء:٥٤).

بَغْيًا بَيْنَهُمْ .أى حسدا كائنا بينهم ، وطلبا للرئاسة. وهذا تشنيع عليهم إثر تشنيع.

وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

المعنى :

ومن يجحد آيات الله الشاهدة بأن الإسلام هو الدين عند الله فإنه تعالى يجازيه ويعاقبه على كفره عن قريب، فإنه سريع الحساب.

قال أبو السعود فى التفسير :

فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ قائم مقام جواب الشرط علة له. أى ومن يكفر بآياته تعالى فإن حسابه يأتى عن قريب ، أو يتم حسابه بسرعة فإن الله سريع الحساب.

وإظهار الجلالة لتربية المهابة وإدخال الروعة ، وفى ترتيب العقاب على مطلق الكفر بآياته تعالى من غير تعرض لخصوصية حالهم من كون كفرهم بعد إيتاء الكتاب وحصول الاطلاع على ما فيه وكون ذلك للبغى دلالة على كمال شدة عقابهم (١٤٢).

٢٠ - فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ...

المعنى :

فإن جادلك أهل الكتاب ، أو جميع الناس فى الدين بعد ما جاءهم العلم به ، وظهرت لهم براهينه ، فقل لهم أسلمت وجهى لله، أى أخلصت ذاتى ونفسى له ومن آمن معى أخلصوا له أنفسهم كذلك.

وإطلاق الوجه على الذات كلها، لأنه ترجمان النفس، وعليه تظهر آثارها، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل لأهميته.

والمراد من الآية أن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لأهل الكتاب ذلك ليعلموا أنه ليس مسئولا عن انحرافهم وكفرهم، وأن تبعة ذلك عليهم وحدهم ، وأنه سائر فى طريق عبادة الله وحده هو

واتباعه ، دون اكتراث بضلالهم لأن المحاجة والجدل معهم لا فائدة فيهما، بعدما جاءهم العلم بأن ما عليه هو الحق.

وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ... . أى قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والأُمِّيِّينَ أى الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب الذين عرفوا بهذا الوصف لعدم معرفة سوادهم الأعظم القراءة والكتابة، قل لهم : هل أجدى معكم هذا وأسلمتم متبعين لى كما فعل المؤمنون . أم أنتم بعد على الكفر.

قال الزمخشرى : يعنى أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضى حصوله لا محالة، فهل أسلمتم؟ أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة، ولم تبق من طرق البيان والكف طريقا إلا سلكته : هل فهمتها؟ ومنه قول الله عز وعلا فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ . (المائدة:٩١) بعد ما ذكر الصوارف عن الخمر والميسر، وفى هذا الاستفهام استقصار وتعيير بالمعاندة وقلة الإنصاف ، لأن المنصف إذا تجلت له الحجة لم يتوقف إذعانه للحق . انتهى.

فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ : أى خرجوا من الضلال فنفعوا أنفسهم.

وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . وإن أعرضوا عن الإسلام فلا يضرك إعراضهم فما عليك إلا تبليغهم وقد فعلت، فخلصت بذلك من التبعة . وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . عليم بأحوالهم فلا تخفى عليه أعمالهم فيجزى من أسلم بإسلامه ، ويعاقب من أعرض على إعراضه. والجملة وعد ووعيد قال ابن كثير : هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث فمن ذلك قوله تعالى : قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً. (الأعراف: ١٥٨).

وقد أرسل النبى – صلى الله عليه وسلم – كتبه إلى ملوك الآفاق وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم ، كتابيهم وأميهم ، امتثالاً لأمر الله له بذلك . وروى البخارى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : «أُعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى ، نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا، وأحلت لى الغنائم وأُعطيت الشفاعة، وأُرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[١٤٣].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

المراد بالذين يكفرون بآيات الله هم اليهود خاصة .

بغير الحق : بغير شبهة لديهم .

القسط : العدل .

فبشرهم بعذاب أليم : البشارة والبشرى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

حبطت أعمالهم : بطلت أعمالهم الحسنة، فضاع ثوابها .

التفسير :

٢١ - إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِين يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

إن الذين ينكرون آيات الله فيكفرون بما يجب الإيمان به ، ويقتلون أنبياءهم بغير جريمة تقتضى القتل، ويقتلون الواعظين المذكرين الذين يأمرونهم بالعدل من صفوة الناس ، فأنذرهم يا محمد بعذاب شديد الإيلام، والمراد بهم اليهود ، فإنهم قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، وقتلوا حزقيال عليه السلام ، قتله قاض يهودى لما نهاه عن منكر فعله، وزعموا أنهم قتلوا عيسى ابن مريم عليه السلام.

روى ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : « قلت: يا رسول الله، أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبيا ، أو رجلاً أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّه . . . . (١٤٤).

ثم قال « يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثةً وأربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة فقام مائة واثناعشر رجلاً من عباد بنى إسرائيل فأمروا قتلتهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعًا من آخر النهار » (١٤٥).

« و الصفات المذكورة فى الآية توحى بأن التهديد كان موجهًا لليهود فهذه سمتهم فى تاريخهم يعرفون بها حتى ذكرت، ولكن هذا لا يمنع أن يكون الكلام موجهًا للنصارى كذلك فقد كانوا حتى ذلك التاريخ قتلوا الألوف من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهب الدولة الرومانية المسيحية بما فيهم من جاهروا بتوحيد الله تعالى وبشرية

المسيح عليه السلام ، وهؤلاء ممن يأمرون بالقسط . كما أنه تهديد دائم لكل من يقع منه مثل هذا الصنيع البشع .. وكثير ما هم فى كل زمان .. » (١٤٦).

٢٢ - أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .

اسم الإشارة هنا مبتدأ وما فيه من معنى البعد للدلالة على ترامى أمرهم فى الضلال وبعد منزلتهم فى فظاعة الحال ، والموصول بما فى حيز صلته خبره، أى أولئك المتصفون بتلك الصفات القبيحة، الذين بطلت أعمالهم التى عملوها من البر والحسنات ولم يبق لها أثر فى الدارين (١٤٧) أما فى الدنيا فإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن والخزى، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم ، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم ، وأما حبوط أعمالهم فى الآخرة ، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم.

وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . ينصرونهم من عذاب الله .

وقد دلت الآية على عظم حال الآمر بالمعروف ، وعظم ذنب قاتله، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله تعالى وقتل الأنبياء .

قال الحاكم : وتدل على صحة ما قيل ، أنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه ، وإن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين ، وقد روى أبو داود أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » (١٤٨).

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

المفردات :

ألم تـر : استفهام لتعجيب النبى - صلى الله عليه وسلم - من حالهم .

أوتوا نصيبا من الكتاب : أعطوا حظا منه ، والكتاب : اسم جنس لكل كتاب سماوى، والمقصود من النصيب التوراة والإنجيل.

وهم معرضون : وهم منصرفون.

أياما معدودات : يقصدون بها أيام عبادتهم للعجل.

وغرهم : وأطمعهم.

ما كانوا يفترون : ما كانوا يكذبون من أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودات.

ووفيت كل نفس ما كسبت : وأعطيت كل نفس جزاء ما عملته من خير أو شر وافيا.

التفسير:

٢٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ .

أخرج ابن إسحاق وجماعة عن ابن عباس قال:

دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيت المدراس - مدرسة اليهود لدراسة التوراة - على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه . قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأنزل الله الآية (١٤٩).

والخطاب فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ . لكل من تتأتى منه الرؤية أو للنبى - صلى الله عليه وسلم - ، والاستفهام للتعجيب من حالهم ، أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ، كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها، ومن المفسرين من ذكر أن الآية إشارة إلى قصة تحاكم اليهود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، لما زنا منهم اثنان فحكم عليهما بالرجم، فأبوا، وقالوا: لا نجد فى كتابنا إلا التحميم (١٥٠) ، فجىء بالتوراة فوجد فيها الرجم، فرجما، فغضبوا فشنع عليهم بهذه الآية.

آخرج البخارى فى كتاب التفسير ، سورة آل عمران باب قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - برجل منهم وامرأة قد زنيا. فقال لهم : « كيف تفعلون بمن زنا منكم ؟ » قالوا نحممهما ونضربهما، فقال لهم : « لا تجدون فى التوراة الرجم؟» فقالوا لا نجد فيها شيئًا ، فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم ، فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ، ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه الآية ؟ فلما رأوا ذلك قالوا هى آية الرجم فأمر بهما فرجما قريبًا من موضع الجنائز عند المسجد(١٥١)

قال بعض المفسرين . ومن ثمار هذه الآية ، أن من دعى إلى كتاب الله تعالى وإلى ما فيه من شرع وجب عليه الإجابة، وقد قال العلماء رضى الله عنهم : يستحب أن يقول: سمعاً وطاعة، لقوله تعالى : إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (النور ٥١)، والمقصود من الفريق الذى تولى منهم : علماؤهم ، فهم الذين كانوا يديرون النقاش والكلام مع الرسول - صلى الله عليه وسلم.

٢٤ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

المعنى :

ذلك : إشارة إلى التولى والإعراض.

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ : أى بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم . وبسبب هذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب

وخلاصة ذلك أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها، اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء واعتمادًا على مجرد الانتساب إلى هذا الدين ، واعتقادا أن هذا كافٍ فى نجاتهم.

ومن استخف بوعيد الله تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمات الدين، ويتهاون فى أداء الطاعات، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح السيئات . وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيرًا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش ، إما أن تدركه الشفاعات، أو تنجيه الكفارات، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحسانًا من الله وفضلاً. فإن فاته ذلك عذِّب على قدر خطيئته ، ثم يخرج من النار ويدخل الجنة. وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون فى النار مهما كانت أعمالهم. والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفات أهله ، وبالعمل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن. كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته . أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يومًا، وهى مدة عبادة اليهود العجل.

وقال الشيخ محمد عبده : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شىء ا هـ. والسياق يفيد اعتقاد اليهود بأنهم لا يعذبون إلا مدة قليلة ، لزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، وخدعهم فى دينهم ما كانوا يفترونه من هذا الزعم الذى لا نصيب له من الصحة.

٢٥ - فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ .

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ : أى فكيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا شك فى مجيئه.

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعد لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلاص منه.

وأن ما حدثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعليلاتهم وأباطيلهم تطمع بما لايكون .

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ . أى ورأت كل نفس ما عملت من خير أو شر محضرا لا نقص فيه ثم جوزيت عليه وكان منشأ سعادتها أو شقائها، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص، إذ لا امتياز لشعب على شعب وإن تسمَّى بعضهم بشعب الله، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله فإن

الجزاء إنما يكون من جنس العمل فى ذلك اليوم : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ . (آل عمران :٣٠).

★ ★ ★

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

اللهم : أصله يا اللّه، فحذف (يا) وعوض عنها الميم وشددت لكونها عوض عن حرفين ، ولا تجمع الميم مع (يا) إلا شذوذًا كقول الشاعر:

إنى إذا ما حدث ألما أقول يا اللهم يا اللهما

مالك الملك : الملك - بضم الميم وفتحها وكسرها - معناه الاحتواء . أى الحيازة مع القدرة على التصرف. مأخوذ من : ملك الشيء يملكه : احتواه قادرًا على حرية التصرف فيه. وهو بهذا المعنى يطلق على : ملك اللّه وملك غيره ، ومعنى : مَالِكَ الْمُلْكِ : صاحب السلطان والتصرف المطلق.

بيدك الخير : بقدرتك منح الخير ومنعه.

تولج الليل في النهار : الولوج الدخول ، والإيلاج : الإدخال، ويراد به زيادة زمان الليل فى النهار ، فيطول الليل ويقصر النهار وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ معناه عكس المعنى السابق.

وتخرج الحى من الميت : أى وتكون الأحياء من المواد الأولية التى لا حياة فيها: كالهواء والماء والغذاء والتراب.

وتخرج الميت من الحى : وتجعل الحى يموت ، فتخرجه بذلك من جنس الأحياء.

سبب النزول :

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما فتح رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود: هيهات ، من أين لمحمد ملك فارس والروم ؟ هم أعز وأمنع من ذلك . ألم يكف محمدًا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

وروى غير ذلك فى سبب النزول.

سياق الآية :

بينت الآيات السابقة أن الدين عند الله الإسلام وناقشت أهل الكتاب فى إحجامهم عن الإيمان بالنبى محمد - صلى الله عليه وسلم - بغيا وحسدا مع علمهم بصدقه ومعرفتهم بأمارات نبوته، ثم بينت هذه الآية أن الملك لله يؤتيه من يشاء من عباده .

٢٦ - قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .

أى أنت يا ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، فأنت تؤتى الملك من تشاء من عبادك إما تبعا للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال بحسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع، كما نزعه من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم.

وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ : فى الدنيا والآخرة ، بأسباب العزة والكرامة.

وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ : أن تذله فى إحداهما أو فيهما من غير ممانعة من الغير ولا مدافعة.

بِيَدِكَ الْخَيْرُ : أى بقدرتك الخير كله لا بقدرة أحد غيرك تتصرف فيه قبضًا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك.

إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : فقدرتك لا حدود لها ، وعطاؤك غير منقوص ، وأنت قادر على أن تعطى الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء .

من كتب التفسير :

١ - جاء فى تفسير أبى السعود :

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خط الخندق عام الأحزاب، وقطع لكل عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالتل لم تعمل فيها المعاول فوجهوا سلمان إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخبره فجاء عليه السلام وأخذ منه المعول فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها لكأن مصباحاً فى جوف بيت مظلم ، فكبر وكبر معه المسلمون وقال: أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب. ثم ضرب الثانية فقال : أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم ، ثم ضرب الثالثة فقال : أضاءت لى قصور صنعاء وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة على كلها فأبشروا . فقال المنافقون : ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزلت هذه الآية : قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ .... (١٥٢)

٢ - جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

الملك - بضم الميم - فى حق الله تعالى هو - على ما قاله المحققون - صفة قائمة بذاته تعالى ، متعلقة بما سواه ، تعلق التصرف التام ، المقتضى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولا يصح إطلاقه- بهذا المعنى - على غير الله تعالى .

وهو أخص من الملك - بكسر الميم - فإنه صفة تقتضى الاستيلاء والتسلط على شىء بطريق مشروع، وتجعله صاحب الحق فى التصرف فيه ، من غير نظر إلى استغناء المتصرف وافتقار المتصرف فيه ، ولهذا يصح إطلاقه على غير الله تعالى .

٣ - جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تعليقًا فى الهامش على قوله تعالى : ﴿ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ ﴾ . هو ما يأتى :

« دورة الحياة والموت هى معجزة الكون وسر الحياة نفسها والسمات الرئيسية فى هذه الدورة أن الماء وثانى أكسيد الكربون والنتروجين والأملاح غير العضوية فى التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتيريا إلى مواد عضوية هى مادة الحياة فى النبات والحيوان ، أما فى الشق الثانى من هذه الدورة فتعود هذه المواد إلى عالم الموت فى صورة نفايات الأحياء ونواتج أيضها وتنفسها .

ثم فى صورة أجسامها كلها عندما تموت وتستسلم لعوامل التحلل البكتيرى والكيماوى التى تحيلها إلى مواد غير عضوية بسيطة مهيأة للدخول فى دورة جديدة من دورات الحياة ، وهكذا فى كل لحظة من الزمان يخرج الخالق القدير حياة من الموت وموتًا من الحياة، وهذه الدورة المتكررة لا تتم إلا فى وجود كائن أودعه الله سر الحياة كبذرة النبات مثلاً.

والآية الكريمة تذكر أولى الألباب بالمعجزة الأولى وهى خلق الحياة من مادة الأرض - لإخراج الميت من الحى وهذا هو الإعجاز بعينه .

٢٧ - ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

يطيل الله الليل فى بعض فصول السنة . بإضافة جزء من النهار إليه ، ويطيل النهار فى بعض فصولها، بزيادة جزء من زمان الليل فيه ، ويخرج الحى من المواد الأولية الميتة التى خلق منها ، كالماء والتراب وبعض عناصر الهواء، ويخرج الميت من الحى بأن يفقده أسباب الحياة فيموت ويعود إلى أصله ، ويرزق من يشاء رزقه بغير حساب أى رزقًا واسعًا بغير تضييق عليه.

وكما يرزق من يشاء بغير حساب ، يضيقه على من يشاء لحكمة تقتضيه؛ ولم يذكر ذلك فى الآية لعلمه من أمثاله فيما سبق ، ولأن من يملك الإعطاء يملك المنع.

ويرى بعض المفسرين : أن إخراج الحى من الميت ، معناه إخراج الجنين من النطفة ، أو الفرخ من البيضة ، وإن إخراج الميت من الحى ، معناه إخراج النطفة من الحيوان أو البيضة من الدجاجة.

ولكن هذا الرأى لا يقبل إلا على سبيل التشبيه ، بجعل النطفة - أو البيضة بجانب الحيوان الذى يتكون منها- كالشىء الميت ، لعظم الفرق بينهما ، أما على الحقيقة فلا، لأن النطفة مليئة بالكائنات الحية المتحركة، كما يتبين ذلك تحت آلة التكبير - المجهر، ومثلها البيضة .

وكذا القول بأن المراد من الميت الذى يخرج من الحى : النطفة أو البيضة التى يخرجها الله من الحيوان، لا يصح أن يقبل إلا على سبيل المجاز، لما قدمناه.

وقال الحسن فى معنى الآية : يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن، فحمل الحياة والموت على المجاز، وروى هذا التفسير عن أئمة أهل البيت .

ويمكن تفسيرها مجازًا بمعنى : يخرج الطيب من الخبيث ، والخبيث من الطيب ، والعالم من الجاهل ، والجاهل من العالم ، والذكى من البليد والبليد من الذكى ، وإلى غير ذلك قال القفال ، والكلمة محتملة لكل ما ذكر ، أما الكفر والإيمان فقد قال تعالى :

أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا . (الأنعام : ١٢٢).

يريد كان كافرا فهديناه فجعل الموت كفرا والحياة إيمانًا ، وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء وجعلها قبل ذلك ميتة فقال :

يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (الروم:٥٠).

وقال سبحانه : فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . (فاطر: ٩).

وقال عز شأنه: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (البقرة: ٢٨).

★ ★ ★

﴿ لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) ﴾

المفردات :

أولياء : أصدقاء ، أو أنصار.

من دون المؤمنين : متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين.

فليس من الله فى شىء : فليس من دين الله فى شىء.

إلا أن تتقوا منهم تقاة : إلا لتقوا أنفسكم وتحفظوها مما يتقى ويحذر منهم .

المصير : المرجع .

سبب النزول :

روى عن ابن عباس ، قال : كان الحجاج بن عمرو ، وكهمس بن أبى الحقيق ، وقيس بن زيد والكل من اليهود - يباطنون نفرا من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير ، وسعد بن خيثمة لأولئك النفر :

اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم، فانزل الله هذه الآية .

التفسير :

٢٨ - لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . . .

تقرر الآية أن موالاة الكافر خطر على من والاه، وأنها لا تكون إلا عند الضرورة ، لاتقاء ضرر يكون من ناحيته ، على ألا تبلغ الموالاة درجة المباطنة بخفايا المؤمنين .

والموالاة تطلق لغة على الحب والصداقة والمباطنة بالأسرار ، وتطلق على النصرة وكلا المعنين تصح إرادته، ولهذا لا يحل للمؤمنين أن يوالوا الكافرين، بأى معنى من معانى الموالاة، ومن يفعل ذلك فليس من دين الله فى شىء وقد يذكر ذلك صريحًا فى قوله تعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ (المائدة:٥١).

وقد تكرر النهى عن موالاة المؤمنين للكافرين فى عديد من آى القرآن لخطورتها على كيانهم فهم دائمًا يتربصون بهم الدوائر ، ويبغونهم الفتنة، وفى المسلمين سمّاعون لهم ، وهم المنافقون وضعاف النفوس.

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ . . . (الممتحنة :١).

وقال عز شانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا (النساء : ١٤٤).

فعلى المؤمنين أن يحذروا موالاتهم حتى يأمنوا شرهم ، عليهم أن يقصروا موالاتهم على المؤمنين، لا يتجاوزونهم إلى الكافرين لغرض من الأغراض، إلا أن يتقوا أو يحفظوا أنفسهم من ضرر من شأنه أن

يتقى ويحذر. فإذا اضطر المسلمون لموالاتهم دفاعًا عن الوطن، أو المال أو العرض ، فلهم ذلك فى حدود الضرورة.

وأجاز المحققون من العلماء : الاستعانة بالكفار، بشرط الحاجة والوثوق .. أما بدونها فلا تجوز .

واستدل لذلك ، بأن النبى – صلى الله عليه وسلم –، استعان بيهود بنى قينقاع ، ورضخ لهم (١٥٣) واستعان بصفوان بن أمية فى هوازن.

على أن بعضهم ذكر أن الاستعانة المنهى عنها ، هى استعانة الذليل بالعزيز، أما غيرها فلا.

جاء فى تفسير القاسمى :

واعلم أن الموالاة التى هى المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار لا تجوز، فإن قيل : قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة ، وفى ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف فجواب ذلك أن المراد موالاتهم فى الدين ، وفيما فيه تعظيم لهم.

فإن قيل فى سبب نزول الآية : إن النبى – صلى الله عليه وسلم – منع عبادة بن الصامت من الاستعانة باليهود على قريش (١٥٤) وقد حالف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اليهود على حرب قريش ، وفى هذا دلالة على جواز الاستعانة بهم.

وقد ذكر الراضى أنه يجوز الاستعانة بالفساق على حرب المبطلين ، قال : وقد حالف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – اليهود على حرب قريش وغيرها إلى أن نقضوه يوم الأحزاب ، وحد – صلى الله عليه وسلم – الحلف بينه وبين خزاعة. قال الراضى بالله : وهو ظاهر عن آبائنا عليهم السلام ، وقد استعان على عليه السلام بقتلة عثمان . ولعل الجواب والله أعلم أن الاستعانة جائزة مع الحاجة إليها، ويحمل على هذا استعانة الرسول – صلى الله عليه وسلم – باليهود ، وممنوعة مع عدم الحاجة أو خشية مضرة منهم ، وعليه يحمل حديث عبادة بن الصامت.

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ .

مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ . حال . أى متجاوزين المؤمنين إليهم ، استقلالا أو اشتراكا ، وفيه إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالاة، وأن فى موالاتهم مندوحة عن موالاة الكفرة.

وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ . أى ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله فى شىء تقع عليه اسم الولاية . يعنى أنه منسلخ من ولاية الله رأساً. وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولى وموالاة عدوه متنافيان (١٥٥).

إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً أى تخافوا منهم محذورا ، فأظهروا معهم الموالاة باللسان دون القلب لدفعه ، روى البخارى فى كتاب الأدب ، باب المداراة مع الناس . عن أبى الدرداء رضى الله عنه أنه قال: «إنا لنكشر(١٥٦) فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم». (١٥٧).

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ : أى ذاته المقدسة فلا تتعرضوا لسخطه بمخالفة أحكامه وموالاة أعدائه وهو تهديد عظيم مشعر بتناهى المنهى فى القبح. وفى إضافة تحذيرهم إلى نفسه وإلى ذاته العلية، إيذان ببلوغ المنهى عنه منتهى الخطورة.

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾

المفردات :

محضـرا : يحضره ملائكة الله فى الصحف.

أمدا بعيدا : غاية أو مسافة بعيدة.

التفسير :

٢٩ - قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

هذه الآية واضحة الصلة بما قبلها ، وهى توحى بأن صلاتٍ متعددة من القرابة أو التجارة أو غيرهما ، كانت تربط بين معسكر المسلمين ومعسكر الكافرين.

وتبين هذه الآية أن الله مطلع وشاهد لما يخفيه الإنسان وما يظهره، وقد شمل علم الله كل ما فى السموات والأرض، فقد أحاط بكل شىء علما، وهو على كل شىء قدير.

والآية فيها تحذير واضح من موالاة المؤمنين للكافرين ، وتهديد بأن الله عالم بخفايا النفوس، ومطلع على الظاهر والباطن.

٣٠ - يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا . .

تعرض الآية مشهدا من مشاهد القيامة ، وهو يوم الحساب والجزاء، وفى هذا اليوم يقف الإنسان وجهًا لوجه أمام عمله الذى قدمه فى الدنيا ، فالخير شاخص أمام صاحبه، يفرح به وتشتد سعادته.

وتجد كل نفس أيضًا : ما عملته من سوء وشر فى الدنيا محضرا يوم القيامة فى صحائفها لتساء به، وتتمنى حين تراه لو أن بينها وبينه مسافة بعيدة بعد المشرقين .

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ . يخوفكم الله من نفسه إن خالفتم ما كلفكم به، ومن رأفة الله ورحمته هذا التحذير وهذا التذكير ، وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد .

★ ★ ★

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) ﴾

التفسير :

قال القرطبى : روى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنحب ربنا ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .

وقال محمد بن جعفر بن الزبير : نزلت فى نصارى نجران وذلك أنهم قالوا : « إنما نعظِّم المسيح حبًا لله تعالى وتعظيمًا له » فأنزل الله الآية ردا عليهم . رواه محمد بن إسحاق.

والمعروف أن سبب النزول قد يتعدد لنازل واحد من القرآن الكريم ، والعبرة مع هذا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

إن تعاليم الإسلام واضحة، وأوامره واجبة الاتباع وحب الله ليس دعوى باللسان ، ولا هيامًا بالوجدان، ولكنه التزام بأحكام الشرع ، واتباع لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى كل ما جاء به قال – صلى الله عليه وسلم – « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به » (١٥٨).فقد أتم الله الدين ، وأكمل على المسلمين نعمة الإسلام ، ووجب عليهم الاتباع دون الابتداع ، فمن ادَّعى أن عقله أو رأيه أو حكمه أصوب من حكم الله ، فقد احتكم إلى أحكام الجاهلية ، وخالف منهج القرآن وهدى نبى الإسلام .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » (١٥٩).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » (١٦٠).

وجاء فى تفسير ابن كثير :

هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله – وليس على الطريقة المحمدية – بأنه كاذب فى دعواه، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى فى جميع أقواله وأفعاله.

إن العمل بشرع الله يورث المسلم إخلاصًا وحبا لله ولرسوله ، وأفضل درجات العبادة أن يعبد المؤمن ربه حبا له ، وشوقًا إلى لقائه ورغبة فى مرضاته، وإذا داوم العبد على طاعة الله أحبه الله وغفر ذنبه وهداه إلى الطريق القويم .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- « إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل فقال : « إنى أحب فلانًا فأحبه . قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى فى السماء فيقول : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء . قال : ثم يوضع له القبول فى الأرض. (١٦١)

وإذا أبغض الله عبدًا دعا جبريل فيقول : إنى أبغض فلانًا فأبغضه قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه قال : فيبغضونه. ثم توضع له البغضاء فى الأرض ».

٣٢ - قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ .

إن حقيقة الإسلام هى طاعة الله والرسول فى جميع الأوامر والنواهى ، ومن أعرض عن طاعة الله ورسوله فقد أغلق باب الهدى وأعرض عن الإيمان.

والإعراض عن الإيمان ، والنفور من شرع الله يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله تعالى .

« أما لو كان توليه وإعراضه مجرد ترك لما أمر به ، اتباعًا لشهواته - مع اعتقاده أن ذلك حرام ، وأنه مذنب فيما يفعل ، ومقصر فى حقه تعالى - فإن الكفر بالنسبة له كفر للنعمة وعدم قيام بشكرها. والله لا يحب من عصاه بكفر أو فجور » (١٦٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

المفردات :

اصطفى : اختار، والاصطفاء أخذ ما صفا من الشىء.

وآل إبراهيم وآل عمران : المراد بالآل فيهما من كان من ذريتهما من الأنبياء.

ذريـــــة : الذرية فى أصل اللغة الصغار من الأولاد، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار، وللواحد والكثير.

التفسير :

٣٣ - إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ .

أى أن الله اختار هؤلاء ، وجعلهم صفوة العالمين ، بجعل النبوة والرسالة فيهم.

فأولهم : آدمَ . خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء كل شئ وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما فى ذلك من الحكمة.

وثانيهم نوح : وهو الأب الثانى للبشر ، فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله فى الفلك العظيم، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت فى البلاد وفشت فيهم الوثنية . فظهر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه نبيا مرسلا، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون ، من ذريته وآله كإسماعيل وإسحاق ، ويعقوب والأسباط وكان من أرفع أولاده قدرًا، وأنبههم ذكرا آل عمران وهم عيسى وأمه مريم ابنة عمران، وينتهى نسبها إلى يعقوب عليه السلام، وختمت النبوة بولد إسماعيل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - المبعوث رحمة للعالمين. وقد دعا إبراهيم ربه أن يبارك له فى ذريته ، وأن يرسل فيهم رسولا يعلمهم هدى السماء، ويرشدهم إلى الخير والمعروف، ومن دعاء إبراهيم ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة : ١٢٩).

ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم « أنا دعوة أبى إبراهيم ». (١٦٣).

عَلَى الْعَالَمِينَ. أى عالمى زمانهم، أى اصطفى كل واحد منهم على عالمى زمانه.

وقد فضلهم الله بما آتاهم من النبوة والكتاب فى معظمهم ، وفى مريم : بحملها وولادتها من غير مماسة بشر، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربها، وإمدادها فى مصلاها برزق الله فى غير أوانه، واختيارها لتكون أما لعيسى : الذى شاء له مولده أن يكون بغير أب.

٣٤ - ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . أى ذرية يشبه بعضها بعضا فى الخير والفضيلة التى كانت سببا فى اصطفائهم، وهذه الذرية هى التى ذكرها الله فى سياق الكلام عن إبراهيم بقوله : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٨٧)﴾ (الأنعام: ٨٤ - ٨٧).

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ ﴾

المفردات :

نذرت لك ما فى بطنى : النذر ما يوجبه الإنسان على نفسه.

محررا : خالصا، أى أوجبت على نفسى أن يكون ما فى بطنى لخدمة بيتك خالصا.

اعيذها بك : أجيرها بك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى سواك والتعلق به، يقال عاذ بفلان إذا استجار به.

الرجيم : المرجوم، المطرود من الخير.

التفسير :

٣٥ - إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ العليم

امرأة عمران هى حنة بنت فاقوذا ، كما رواه إسحاق بن بشر عن ابن عباس والحاكم عن أبى هريرة .. وكانت هذه السيدة عاقرا لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان فتحركت نفسها يومًا لأن تكون أما فلاذت بربها ودعته متضرعة أن يهب لها ولدًا، ونذرت إن حقق الله أمنيتها ، أن تجعل ولدها محررًا . أى خالصًا للعبادة وخدمة بيت المقدس عتيقًا من سوى ذلك ، فلا تشغله بشىء من أمورها .

فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . أى تقبل منى قربانى وما جعلت لك خالصًا، والتقبل أخذ الشىء على وجه الرضا.

(قال أبو منصور فى « التأويلات » : جعلت ما فى بطنها لله خالصا لم تطلب منه الاستئناس به ولا ما يطمع الناس فيه من أولادهم ، وذلك من الصفوة التى ذكر الله عز وجل، وهكذا الواجب على كل أحد إذا طلب ولدا أن يطلب للوجه الذى طلبت امرأة عمران وزكريا حيث قال: رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً. (آل عمران :٣٨).

وما سأل إبراهيم : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ . (الصافات:١٠٠)

وكقوله تعالى : وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .(الفرقان :٧٤).
هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا مايطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم) - انتهى .

٣٦ - فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أى فلما وضعتها أنثى على خلاف ما كانت تأمله - قالت متحسرة حزينة على فوات رجائها.

رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ . قالت ذلك وهى لا تعلم بمكانة ما وضعته ، والله وحده هو الذى يعلم بشأنها ، وما علق بها من عظائم الأمور ودقائق الأسرار، وقالت فى تحسرها : وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ . فى خدمة بيت المقدس ، فإنها مقصورة على الغلمان دون الإناث فكأنها تقول : ماذا أصنع فى نذرى يارب؟.

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ . وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس، وإن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدانته فلتكن من العابدات القانتات ، ومعنى مريم : العابدة.

وقد أطلقت عليها اسم مريم فى اليوم الذى ولدت فيه وهى السنة فى شريعتنا أيضًا .

فقد أخرج الشيخان عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ولد لى ولد سميته باسم أبى إبراهيم ». (١٦٤).

وأخرج الشيخان أيضًا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - حمل إليه وليد فحنكه وسماه عبد الله .

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

وإنى أجيرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير.

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » (١٦٥). والمراد أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها، فإن الله تعالى عصمها ببركة هذه الاستعاذة.

★ ★ ★

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾

المفردات:

فتقبلها : أى قبل مريم - فى النذر - مكان الذكر.

أنبتها : أى رباها تربية طيبة.

وكفلها زكريا : وجعل زكريا كافلا وضامنًا لها، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام.

المحراب : المحراب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ،وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبًا عمن فى المعبد.

أنَّى لك هذا : أى من أين هذا، والأيام أيام قحط وجدب.

بغير حساب : أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته.

التفسير:

٣٧ - فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ . . . .أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت. :

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا . أى رباها تربية حسنة كما يربى النبات فى الأرض ونماها صلاحًا وعفة وسداد رأى.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . أى جعل زكريا كافلا لها، لتقتبس منه العلوم والمعارف ولتمضى على سنته من الصلاح، وكان زوج أختها كما ورد فى الصحيح «فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا الخالة» ويحيى ابن زكريا عليهما السلام.

وهكذا تهيأت لها البيئة الصالحة كما تهيأت لها الوراثة الصالحة فكانت سيدة نساء العالمين.

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا . وجد ألوانًا من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان.

قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا . ؟ أى من أين لك هذا والأيام أيام جدب وقحط، أو من أين لك هذا ولا كافل لك سواى؟

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . الله يرزق الناس جميعًا بتسخير بعضهم لبعض، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله، وليس فى هذا دلالة أنه من خوارق العادات.

ويحتمل أن تكون جملة : إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . من كلام الله تعالى وليس من كلامها، سيقت: للإيذان بأنه لا ينبغى أن تعجب من هذا الرزق، فإن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

والرزق قد يكون حسّيا وقد يكون معنويا يشمل الهدى والتقى والبركة والتوفيق لصالح الأعمال. وفى الحديث الشريف.. « ما رزق المرء بعد تقوى الله خيرًا من المرأة الصالحة ».

★ ★ ★

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

المفردات :

هنالك : أى فى ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم فى المحراب أو فى ذلك الوقت، وهنالك يشار به إلى المكان والزمان.

الذرية : الولد، وتقع على الواحد والكثير.

طيبة : الطيب: ما تستطاب أفعاله وأخلاقه.

سميع الدعاء : أى مجيبه.

مصدقًا بكلمة من الله : كلمة الله عيسى عليه السلام، حيث جاء بقوله تعالى (كن) من غير توسط أب.

وحصورا : الحصور الذى لا يباشر النساء، أو هو الذى يمنع نفسه من المعاصى.

أنّى يكون : كيف يحصل لى.

بلغنى الكبر : أدركتنى الشيخوخة.

وامرأتى عاقر : عقيم لا تلد.

آية : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل.

ألا تكلم الناس : أى لا تقدر على كلامهم من غير آفة.

إلا رمزا : الإشارة بيد أو رأس أو غيرها.

بالعشى : الوقت من الزوال إلى الغروب، وقيل من العصر إلى ذهاب صدر الليل.

الإبكار : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى.

التفسير:

٣٨ ـ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر دعا ربه بهذا الدعاء.

أو فى تلك الحالة التى شاهدها، قال زكريا فى نفسه إن الذى جاء مريم بهذا الرزق لقادر على أن يصلح لى زوجتى ويرزقنى منها ذرية، فعند ذلك، قام فى المحراب، وابتهل إلى الله تعالى قائلا:

«رب هب لى من عندك ذرية صالحة مباركة، إنك كثير الإجابة لمن يدعوك».

قال علماؤنا: وقفت النبوة فى كتاب الله مرتين تتعلم من الصالحين، الأولى: عندما وقف موسى أمام الخضر يقول له : هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . (الكهف:٦٦). والثانية: عندما وقف زكريا أمام مريم وسألها: أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . (آل عمران:٣٧)، فتعلم زكريا من مريم التبتل إلى الله وإخلاص الدعاء، والتعلم هنا من مشاهدة الحال، أكثر من سماع الأقوال.

٣٩ ـ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ .

ناداه جبريل عليه السلام وهو من جنس الملائكة كما تقول فلان ركب السفن وهو إنما ركب سفينة واحدة، ويرى ابن جرير وغيره أن المراد جماعة من الملائكة، إذ لا ضرورة تدعو إلى التأويل وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد.

نادته الملائكة وهو قائم يصلّى فى المسجد، أن الله تعالى يبشرك بولد ذكر سماه الله يحيى، وقد أحياه الله من أبوين كبيرين.وحملت البشارة طائفة من البشريات.فهو غلام ذكر.

وهو مؤمن يصدق بعيسى عليه السلام الذى سمى كلمة الله لأن الله خلقه بقوله (كن) فكان، ومعنى تصديقه به إيمانه بأنه رسول الله، وهو بذلك يكون أول من آمن به، ويحيى أكبر من عيسى. ومن صفات يحيى أنه سيكون سيدا، والسيد من يسود قومه، ثم أطلق على كل فائق فى الدين والدنيا، كما قال بعض المحققين. ويمكن أن يجتمع فيه الأمران: الرياسة فى قومه، والتفوق فى الدين فإنه نبى الله، ومن الصالحين.

ومن صفات يحيى أيضًا أنه حصور.. وفسره ابن عباس، بأنه الذى لا يأتى النساء مع القدرة على ذلك، ولعل هذا لأن انهماكه فى العبادة شغله عنهن.

وفسر الحصور بعض المفسرين: بأنه المبالغ فى حصر النفس وحبسها عن المعاصى والشهوات.

ومن صفات يحيى التى بشر بها والده زكريا.

أنه سيكون نبيا من الصالحين.

أى سيوحى إليه إذا بلغ سن النبوة، وسيكون فى أعلى مراتب الصلاح.

وإذا أسند الفعل إلى الملائكة جاز تذكيره بتأويل الجمع كقوله تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . (الرعد: ٢٣). وجاز تأنيثه على تأويل الجماعة مثل قوله تعالى:

فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب . والملائكة لا توصف بالذكورة ولا بالأنوثة، فهم عباد مكرمون لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٤٠ - قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . لما بشرته الملائكة بذلك، وتحقق من البشارة، تعجب من وقوع ذلك مع وجود الموانع، فقد كان عمره (١٢٠) سنة وعمر زوجته ٩٨ سنة وهى عقيم لا تلد فى صباها فكيف تلد فى شيخوختها؟

قال الشيخ محمد عبده :

إن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم، من كمال إيمانها وحسن حالها، واعتقادها أن المسخر لها، والرازق لما عندها، هو من يرزق من يشاء بغير حساب، أخذ عن نفسه، وغاب عن حسه، وانصرف عن العالم وما فيه، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته، وإنما يكون الدعاء مستجابًا إذا جرى به اللسان بتلقين القلب حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب.

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة، وقد أوذن بسماع ندائه واستجابة دعائه سأل ربه عن كيفية الاستجابة وهى على غير السنة الكونية فأجابه بقوله:

قال كذلك الله يفعل ما يشاء : أى الله يفعل ما يشاء مثل ذلك من الأفعال الخارقة للعادة، الخارجة عن القياس.

٤١ - قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا . أى قال: رب اجعل لى علامة تدلنى على الحمل، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور، وقيل ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها. قال الله: علامتك، ألا تقدر على مكالمة الناس ثلاثة أيام متوالية من غير آفة.

وتقييد عدم الكلام بالناس، مؤذن بأنه كان غير محبوس عن ذكر الله تعالى، وكان حديثه مع الناس فى هذه المدة مقصورا على الإشارة باليد أو الرأس أو نحوهما وهذا معنى : إلا رمزا . وإنما جعلت آيته ذلك لتخليص المدة لذكره تعالى شكرًا على ما أنعم به عليه، وقيل: كانت عقوبة منه تعالى بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه.

واذكر ربك كثيرا : أى ذكرا كثيرا.

وسبح بالعشي والإبكار : أى سبح الله ونزهه عما لا يليق به فى وقت العشى - من الزوال إلى الغروب - وفى وقت الإبكار - من الفجر إلى الضحى.

والمراد من العشى والإبكار جميع الأوقات، والذكر: يتناول ما كان باللسان والقلب.

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾

المفردات :

إن الله اصطفاك : قبلك واختارك لخدمة بيت المقدس وكان ذلك خاصا بالرجال.

وطهرك : من الأدناس، أو طهرك بالإيمان عن الكفر وبالطاعة عن العصيان.

واصطفاك على نساء العالمين : اختارك عليهن، بأن تكونى أما لعيسى من غير أب، - وجعلك وإياه آية للعالمين، ولم يكن ذلك لأحد من النساء.

اقنتى لربك : داومى على طاعته.

واسجدى : واخضعى.

واركعى مع الراكعين : الركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة.

يلقون أقلامهم : أى الأقلام التى يكتبون بها التوراة أو السهام والأزلام التى يضربون بها القرعة ويقامرون بها.

يختصمون : يتنازعون فى كفالتها.

التفسير :

٤٢ - وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . الملائكة هنا يمكن أن تطلق على جبريل بدليل قوله تعالى فى سورة مريم: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا . (مريم:١٧).

ويجوز أن يكونوا جماعة من الملائكة قالت لمريم:

يا مريم، إن الله اختارك لخدمة بيته، ولم يكن يخدمه قبلك إلا الرجال، وطهرك من الأدناس حسية كانت أو خلقية أو اعتقادية، وبرأك من العيوب واختصك بولادة نبى دون أن يمسك رجل، فكنت فريدة فى ذلك بين نساء العالمين لطهرك وفضلك. أو فضلك على نساء أهل زمانك، كما فضل آسية امرأة فرعون على نساء أهل زمانها، وفضل الله خديجة زوج النبى على نساء أهل زمانها، وفضل الله فاطمة بنت محمد على نساء أهل زمانها، وقد ورد ذلك فى الحديث الشريف.

٤٣ - يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . وقالت الملائكة لمريم:

داومى على طاعة ربك واخضعى له، وصلى مع المصلين، وقد أمرها الله بذلك حتى لا يحدث لها فتور أو غفلة. بعد ما علمت مكانتها عند الله تعالى.

٤٤ - ذلك مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ . أى هذه أخبار قصصناها عليك من أخبار مريم وزكريا، لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك، ولم تقرأها فى كتاب، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين، لتكون دلالة على صحة نبوتك، وإلزاماً للمعاندين الجاحدين.

وصدق الله العظيم وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . (العنكبوت : ٤٨).

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى وما كنت يا محمد معاينا لفعلهم وما جرى من أمرهم فى شأن مريم إذ يلقون أقلامهم أى سهامهم التى جعلوا عليها علامات يعرف بها من يكفل مريم على وجهة القرعة : وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . بسببها تنافسا فى كفالتها مع زوج خالتها زكريا، فكان زكريا يريدها، لأن خالتها معه، ولأنه كان رئيس الأحبار، ويرى أنه أحق بها لذلك. وكان كل واحد من القراء يريدها لأنها ابنة عالمهم، فاقترحوا حلا لهذه المشكلة أن يقترعوا:

وطريقة الاقتراع لم يرد بها خبر صحيح، وقد روى عن قتادة وغيره أنهم ذهبوا إلى نهر الأردن واقترعوا هناك على أن يلقوا أقلامهم، فأيهم ثبت فى جريه الماء فهو كافلها، فألقوا أقلامهم، فاحتملها الماء إلا قلم زكريا فإنه ثبت [١٦٦].

وأيا كانت كيفية القرعة التى اتفقوا عليها، فإن هذه القرعة كانت سبيلا إلى فوز زكريا عليه السلام بكفالة مريم.

وفى هذه الآية دليل على أن القرعة سبيل مشروع لتمييز الحقوق. والاستهام [١٦٧] ورد فى القرآن فى موضعين، هذا الموضع وقوله تعالى : فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ . (الصافات:١٤١). وروى الشيخان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيها خرج سهمها سافرت معه[١٦٨]

وإنباء القرآن بما وقع فى كفالة مريم من نزاع وخصام ولجوء المتنازعين إلى القرعة، دليل على نبوته – صلى الله عليه وسلم – ، لأن ذلك لا يعلم إلا عن طريق الوحى.

قال تعالى:

وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

أى ما كنت عندهم فى الحالين، حتى تعلم أمرهم. وإنما أعلمك الله بوحيه.

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

يبشرك : التبشير، الإخبار بالبشارة وهى الخبر السار، وأطلق عليه ذلك لظهور أثره على البشرة.

المسيح : لفظ معرب وأصله مشيحا، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية.

وجيها : صاحب جاه وكرامة.

المهد : المهد هنا فراش الطفل الرضيع.

الكهل : من جاوز الثلاثين إلى الأربعين، وقيل من جاوز الثلاثين إلى إحدى وخمسين سنة.
والكهل من وخطه الشيب فى جلال ووقار، وهو بين حالى الغلومة والشيخوخة، ومنه اكتهلت الروضة إذا عمها النوار.

ولم يمسسنى بشر : المس هنا، كناية عن الجماع.

تمهيد :

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بذكر قصة عيسى وقد ذكر هنا طَرفًا من القصة، وفى سورة مريم نجد جانبًا من القصة يناسب جو السورة ويؤكد ما فيها، وهنا نجد جانبًا آخر، مما يؤكد أن القصص فى القرآن يأتى لعدة أغراض منها.

١ – بيان قدرة الله تعالى.

٢ – تأكيد ما تهدف إليه الآيات السابقة على القصة.

٣ – تحذير الكفار والطغاة من مصارع السابقين.

٤ – تثبيت المؤمنين عن طريق استلهام مضمون القصة ومحتواها.

التفسير :

٤٥ – **إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ.**

المعنى :

اذكر يا محمد، حين قالت الملائكة لمريم: يامريم، إن الله يخبرك بخبر يَسُرُّك، هو: أنه سيمن عليك بغلام اسمه المسيح عيسى ابن مريم ذى جاه وشرف فى الدنيا بما يظهره الله على يديه من المعجزات، وبما اتصف به من الصلاح والتقوى، وذى جاه فى الآخرة بظهور صدقه وعلو درجته ومن المقربين إلى الله والناس، المحبوبين لديهم.

ويلحق بالآية ما يأتى:

١ - المراد من الملائكة هنا جبريل عليه السلام، لقوله تعالى فى سورة مريم فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم.

٢ - إطلاق لفظ كلمة على عيسى عليه السلام، لأنه خلق بغير أب بمقتضى كلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . (يس : ٨٢) وكما قال سبحانه إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (آل عمران : ٥٩). وبما أن كُن كلمة، فلذا سمى (كلمة).

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شىء خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد فى تكوينه، وحمل أمه به، ما جعله الله سببا للحمل فى العادة، وهو تلقيح ماء الرجل للمرأة، أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذانا بذلك، بخلاف الأشياء فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية.

٣ - المسيح لقب لعيسى عليه السلام، وهو من الألقاب ذات الشرف، كالفاروق لعمر، وهو لقب عبرى ومعناه القائم على عبادة الله، ومع كونه لقبًا، فقد صرحت الآية بأنه اسم له والألقاب إذا اشتهرت صارت أسماء.

٤ - قال القاسمى :

اسم الوليد الذى يميزه لقبًا الْمَسِيحُ وعلمًا عِيسَى معرب يسوع ، ويسوع بالسين المهملة كلمة يونانية معناها (مخلص) ويرادفها يشوع بالمعجمة، إلا أنها عبرانية، والمسيح بمعنى الممسوح أو المدهون. قال البقاعى، وأصل هذا الوصف أنه كان فى شريعتهم من مسحه الإمام بدهن القدس فكان طاهرًا متأهلا للملك والعلم والولايات الفاضلة مباركًا، فدل سبحانه على أن عيسى عليه السلام ملازم للبركة الناشئة عن المسح وإن لم يمسح.

٤٦ - وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ .

وبشرتها الملائكة بأنه يكلم الناس طفلا فى المهد مثلما يكلمهم وهو رجل ذو جلال ووقار فكلامه فى كلتا الحالين كلام رصين، مفيد نافع، ومن كلامه فى طفولته ما نطق به عقب ولادته : قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . (مريم:٣٠ - ٣٢).

أما كلامه فى كهولته فهو كلام الوحى والرسالة، والكهل من وخطه الشيب، أو من جاوز الثلاثين إلى الأربعين أو الخمسين.

قال الأعرابى: يقال للغلام مراهق، ثم محتلم ثم يقال تخرج وجهه، ثم اتصلت لحيته، ثم مجتمع، ثم كهل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، قال الأزهرى، وقيل له كهل حينئذ لانتهاء شبابه وكمال قوته.

وَمِنَ الصَّالِحِينَ . أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين.

٤٧ - قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ .

تلقت مريم البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة، واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذى يحير عقل الإنسان.

ومن أين لى ولد ولم يتصل بى بشر، والمولود لا يولد إلا من نكاح أو من سفاح وأنا لم أتزوج زواجًا حلالا ولست من أهل البغى والسفاح.

وفى سورة مريم : قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . (مريم : ٢٠ - ٢١).

لقد بلغها جبريل أن الله يفعل ما يشاء ولو خالف القياس بدون معاناة ولا صعوبة، ولا يحتاج تحقيق المراد إلى قوله تعالى «كن» بل يكفى أن يريده الله فيتحقق فى الحين الذى أراده سبحانه فيه، والأمر بكن محمول - عند الأكثرين - على أنه تمثيل لتأثير قدرته تعالى فى مراده بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور به، من غير امتناع ولا توقف، وأجاز بعضهم: أن يكون ذلك على الحقيقة، بأن يتعلق كلام الله النفسى: الذى هو بمعنى كن، على ما أراد الله تكوينه، فيكون ويحدث.

★ ★ ★

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات :

الأكمه : من ولد أعمى.

الأبرص : من بجلده بقع بيضاء تخالف لون سائره.

التفسير :

٤٨ - وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ .

فى جملة ما بشرت به الملائكة مريم عن ولدها عيسى المنتظر أن الله تعالى يعلّمه الكتابة بالقلم كما قاله ابن عباس وابن جريج أو يعلمه الخط والنظر فى الكتب والعلم الصحيح ويفقهه فى التوراة، ويعلمه أسرار أحكامها، وقد كان المسيح عليمًا بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه.

وتعليم المسيح : الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ صالح لأن يكون موهبة إلهية، ولأن يكون بمعلم، روى أنه لما ترعرع أسلمته أمه إلى المعلم، ولكن لا ندرى ماذا علمه المعلم، ولعله علمه ما تضمنته الآية من الكتابة والتوراة، أما الإنجيل فقد أنزله الله عليه، والحكمة يراد بها وضع الشيء فى موضعه، أو حسن التصرف، وحسن الفهم والاستنباط، وهى أقرب إلى الموهبة، ويمكن أن تنمى بالجد والعمل، قال تعالى : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ سورة .(البقرة : ٢٦٩).

٤٩ - وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ.

لقد أرسل الله المسيح رسولا إلى بنى إسرائيل، وهذا يؤذن بخصوص بعثته إليهم، روى أن الوحى آتاه وهو ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء.

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ . أى ويجعله الله رسولا إلى بنى إسرائيل، يخبرهم: أنى قد جئتكم ببرهان من ربكم على نبوتى هو أنى أنشئ لكم من الطين تمثالا كهيئة الطير وشكله، فأنفخ فيه فيكون بعد النفخ طيرًا بأمر الله الذى جعل ذلك معجزة وبرهانًا على أنه أرسلنى إليكم، فإن مثل ذلك لا يقدر عليه البشر، لأنه مما اختص الله به، فإذا أمكن الله بعض عباده من ذلك، فذلك يعتبر تأييدًا من الله له فى دعوى الرسالة.

وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ. وأشفى الأكمه الذى ولدته أمه أعمى فيصير بصيرا، وأشفى من بجلده برص، وهو بياض يخالف لون سائر الجلد. وهاتان العلتان أعجزتا الأطباء فى عصر عيسى، وقد كان الطب متقدمًا جدًا فى عهده، فأراهم الله المعجزة من جنس ما برعوا فيه، وقد جرت السنة آن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر فى زمنه.

فأعطى موسى العصا واليد البيضاء، حيث كان المصريون قد برعوا فى السحر، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى حذقه أطباء عصره، وأعطى محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن حيث كان العرب قد برعوا فى البيان واشتهروا بالفصاحة والبلاغة وفنون القول.

وتفيد الآية أن قدرة المسيح على شفاء المرضى كانت بإذن الله، وأن إحياء الموتى كان بإذن الله.

وفى كل معجزة من هذه المعجزات كان المسيح يلجأ إلى الله ويدعوه، فيحقق الله دعاءه، دون ممارسة الوسائل الطبية.

والأمر متعلق بإرادة الله وقدرته والله على كل شىء قدير.

وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ. وأخبركم بما تأكلونه فى بيوتكم، ولم أشاهده، وما تدخرونه للمستقبل من مال وطعام لا سبيل لى إلى عمله.

والمراد: الإخبار بهذين النوعين بخصوصهما، وقيل المراد أنه يخبرهم بالمغيبات.

واقتصر على ذكر هذين الأمرين لحضورهما لديهم فلا يبقى لهم شبهة، ولا شك أن صدقه فيما أخبر به شاهد على صدقه فى دعواه الرسالة إليهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إن فى ذلك لحجة ودلالة على صدقى فى دعوى الرسالة إن كنتم مصدقين بآيات الله.

وقد ذكر فى الإنجيل أنه عليه السلام رد بصر أعميين فى كفر ناحوم، وأعمى فى بيت صيدا، ورجل ولد أعمى فى أورشليم، وشفى عشرة مصابين بالبرص فى السامرة، وأبرأ أبرص فى كفر ناحوم، وأقام ابن الأرملة من الموت فى بلدة نايين، وأحيا ابنة جيروس فى كفر ناحوم والعازر فى بيت عينا.

٥٠ - وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . وأرسلت إليكم مصدقًا لشريعة التوراة التى نزلت على موسى ولأبيح لكم بأمر الله بعض ما حرم عليكم من قبل وقد جئتكم بآية من الله على صدق رسالتى فاتقوا الله وأطيعونى.

(والآية تكشف عن طبيعة المسيحية الحقة فالتوراة التى تنزلت على موسى - عليه السلام - وهى تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بنى إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر فى فترة من الزمان) - هذه التوراة معتمدة فى رسالة المسيح - عليه السلام -، وجاءت رسالته مصدقة لها مع تعديلات تتعلق، بإحلال ما حرم الله عليهم وكان تحريمه فى صورة عقوبات حلت بهم على معاصٍ وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالا لهم، ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام فيحل لهم بعض الذى حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أى دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع، وألا يقتصر على الجانب التهذيبى الأخلاقى وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على الشعائر والعبادات وحدها كذلك، فهذا لا يكون دينا، فما الدين إلا منهج الحياة الذى أراده الله للبشر، ونظام الحياة الذى يربط حياة الناس بمنهج الله، ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية، وعن القيم الخلقية، وعن الشرائع التنظيمية، فى أى دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهى، وأى انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين فى النفوس وفى الحياة، ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراد الله.

(وهذا ما حدث للمسيحية.. فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة، وعجزت المسيحية عن أن تكون نظامًا شاملا للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية فى حياتهم كلها، ومن بينها النظام الاجتماعى الذى تقوم عليه هذه الحياة، فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، هى الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادى فى الله، وهى تصدق بالتوراة وتؤيدها، ولكن العداء بين اليهودية والمسيحية جعل كل فريق يرفض ما عند الفريق الآخر) (١٦٩).

قال تعالى : وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ . (البقرة: ١٤٥).

٥١ - إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . يعلن المسيح حقيقة التوحيد والإيمان بالله وحده هذا الاعتقاد الذى قامت عليه جميع الرسالات السماوية، ويؤيد المسيح عليه السلام أن المعجزات الَّتِى جاءهم

بها لم يجئ بها من عند نفسه، فما له قدرة عليها وهو بشر، إنما جاءهم من عند الله، ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله، ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء، - فما هو برب وإنما هو عبد، وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله... ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته وطاعة الرسول والنظام الذى جاء به هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ .. وما عداه عوج وانحراف وما هو قطعا بالدين.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

فلما أحس : أصل الإحساس الإدراك بإحدى الحواس، ويستعار للعلم بلا شبهة وفى الأساس: أحسست منه مكرا، وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خيرا، وهل تحس من فلان بخير.

والأنصار : جمع نصير، وهو من يؤيدك وينصرك.

الحواريون : جمع حوارى، وهو الصفى والناصر. يقال: فلان حوارى فلان، خاصته من أصحابه وناصريه.

التفسير :

٥٢ - فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . فلما شعر عيسى من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء، فقد صح أنه لقى من اليهود شدائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه، ويستهزئون به ويقولون له : يا عيسى ما أكل فلان البارحة؟ وما أدخر فى بيته لغد؟ فيخبرهم، فيسخرون منه، حتى طال ذلك به وبهم، وهموا بقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض. وفى هذا عبرة وتسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم -.

ولما اشتد الكرب بعيسى، واستيقن بالخطر المحدق اتجه إلى من خلصت نيته من قومه بقوله:

مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . .

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى:

يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . (الصف:١٤).

قال المسيح للمخلصين من قومه وخاصتهم، من ينصرنى ويؤيدنى وأنا متجه إلى الله داعيًا لدينه، لايصرفه عن ذلك صارف ولا يمنعه مانع ؟.

فاستجاب له الخلصاء المتقون.

قالَ الْحوارِيُّونَ نَحْنُ أَنصارُ اللَّهِ . أى قال خاصة أصحابه وناصريه: نحن أنصار دين الله، والباذلون كل ما فى الوسع فى تأييد دعوتك، وسننضم معك فى نصرة الله وتبليغ دعوته.

آمنَّا باللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . أعلنوا إيمانهم وأظهروا استعدادهم للبذل والتضحية، وأشهدوا المسيح بأنهم مسلمون منقادون لكل ما يريده الله منهم.

٥٣ - رَبَّنَا آمنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . بعد أن لبوا دعوة عيسى عليه السلام، اتَّجَهُوا إلى الله تعالى قائلين، رَبَّنَا آمنا بما أنزلته على جميع رسلك، واتبعنا الرسول عليه السلام، وامتثلنا ما أتى به من عندك.

فاكتبنا عندك ببركة هذا الإيمان - مع الشاهدين من جميع الأمم: بصدق الأنبياء والمرسلين، ولا تجعلنا من المعاندين المكابرين، الذين ينكرون الحق مع وضوح دليله.

٥٤ - وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . ومكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكلوا به من يقتله غيلة.

ومكر الله فأبطل مكرهم فلم ينجحوا فيه، ورفع عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل.

قال ابن عباس: لما أراد ملك بنى إسرائيل قتل عيسى عليه السلام، دخل عيسى خوخة فيها كوة، فرفعه جبريل عليه السلام من الكوة إلى السماء، فقال الملك لرجل خبيث منهم ادخل عليه فاقتله، فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس فى البيت، فقتلوه وصلبوه، ظنا منهم أنه عيسى.

وقد جاء فى إنجيل برنابا ما يصدق هذا المروى عن ابن عباس وفيه أيضًا:

أن الخبيث هو يهوذا وكان من الحواريين المنافقين، وهو الذى دلهم على مكانه، وذلك أن عيسى جمع الحواريين تلك الليلة، وأوصاهم وقال: ليكفرنَّ بى أحدكم فذهب يهوذا إلى ملك اليهود وأخبره بمكانه، ومكان حوارييه، فلما توجه إليه الملك برجاله ودخلوا عليه البيت لم يجدوه فقد رفعه الله إليه وألقى شبه عيسى على يهوذا فأمر الملك بقتله، فقال له: أنا يهوذا؟ فقال الملك: إن كنت يهوذا فأين عيسى؟ فقال يهوذا: إن كنت عيسى فأين يهوذا؟ فلم يعبأ الملك بهذه المعارضة، وصلبه لشبهه بعيسى. ومن العجيب أن النصارى لا يعترفون بهذا الإنجيل مع أنه وجد بمكتبة بابا روما، وترجم إلى اللغة الإيطالية، ثم إلى الإنجليزية، وغيرهما من لغات العالم، ولم يوجد بالعربية إلا بعد ترجمته من الإنجليزية أخيرا.

مكر الله :

المكر لغة : هو تدبير خفى، يقصد به إضرار من يمكر به ولا يطلق المكر على الله إلا بأسلوب المشاكلة المعروف فى علم المعانى، وهو التعبير عن الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته، وقد أطلق هنا على إنجاء الله لعيسى وانتقامه من المنافق، لوقوعه فى صحبة مكرهم، هكذا قال طائفة من العلماء.

وقال غير واحد : المكر هو التدبير المحكم، وهو ليس بممتنع على الله تعالى وفى الحديث الشريف «رب أعنِّى ولا تعن علىَّ ..... وامكر لى ولا تمكر علىَّ» (١٧٠).

ثم ختم الله الآية بقوله: وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . أى أقواهم، وأشدهم مكرًا ، أو أنه أحسنهم مكرا، لبعد تدبيره عن الظلم.

★ ★ ★

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

المفردات :

متوفيك : التوفى: أخذ الشىء وافيًا تامًا ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها .

ومطهرك من الذين كفروا : بالرفع، أو تطهيره من تهمة أمه بالزنا.

وجاعل الذين اتبعوك : بتصديق ما جئت به.

فوق الذين كفروا : بذلك.

من الآيات : من الحجج الدالة على صدقك.

والذكر الحكيم : والقرآن المحكم المتقن، أو المتصف بالحكمة.

التفسير :

٥٥ - إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

اختلف العلماء فى المراد من التوفى هنا.

١ - فمن العلماء من قال : إنه على حقيقته المعروفة ، وإنه مرتبط بالآية السابقة.

والمعنى : ومكر اليهود بعيسى يريدون قتله، ومكر الله فأحبط تدبيرهم، وقال سبحانه وتعالى لعيسى: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ حين يأتى أجلك، ولن أسلطهم عليك ليقتلوك، وقد حقق الله وعده له إذ ألقى شبهه على يهوذا فقتلوه ، وأنجى عيسى ورفعه إليه، وسيبقى إلى آخر الزمان ليبلغ شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - للناس، ثم يتوفاه بعد ذلك ، كما ورد فى السنة الصحيحة.

فالآية على هذا كناية عن عصمته من الأعداء ، مشفوعة بالبشارة برفعته.

٢ - ومن العلماء من ذهب إلى أن الآية على ظاهرها، وأن التوفى هو الإماتة العادية وأن الرفع بعده للروح، ولا غرابة فى خطاب الشخص وإرادة روحه فالروح هى حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان بروحه.

والمعنى : إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى كما قال فى إدريس عليه السلام «ورفعناه مكانًا عليا » ونظرنا فى تفسير هذه الآية يحكم علينا أن نشفع القرآن بالسنة الصحيحة التى تفيد أن عيسى عليه السلام قد رفع حيا بدون وفاة، وتفيد أنه سينزل آخر الزمان ليجدد ما درس من شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « والله لينزلن ابن مريم حكمًا عادلاً فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص (١٧١)، فلا يسعى عليها، وليذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » (١٧٢).

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « كيف أنتم إذا أنزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم » (١٧٣).

وبما أن عيسى سينزل آخر الزمان ، فلابد أن يبقى حيا إلى حين ينزل ويبلغ شرع الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ، إذ لو مات قبل ذلك ، لكان نزوله هذا بعثاً له فى الدنيا ولا بعث إلا فى الآخرة .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان حديث آحاد يتصل بأمر اعتقادى ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولايوجد هنا واحد منهما، وقالوا ربما كان المراد بنزول المسيح وحكمه فى الأرض غلبة روحه، وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها (١٧٤) وسئل الشيخ محمد عبده عن المسيخ الدجال وقتل عيسى له فقال : « إن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها،

والأخذ بأسرارها وحكمها، وإن القرآن أعظم هاد إلى هذه الحكم والأسرار ، وسنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مبيّنة لذلك فلا حاجة للبشر إلى إصلاح وراء الرجوع إلى ذلك »(١٧٥) .

ونرى أن الدين لا يؤخذ بالرأى، وأن الحديث الصحيح قاطع الدلالة فى هذا الموضوع فينبغى أن نقبل حكمه وقد مدح الله المؤمنين بأنهم يؤمنون بالمحكم . ويفوضون إلى الله معرفة المتشابه مع الإيمان بما ورد على وجه الإجمال، وتفويض حقيقة المراد إلى الله تعالى .

جاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

« لقد أرادوا صلب عيسى عليه السلام وقتله ، وأراد الله أن يتوفاه ، وأن يرفعه إليه، وأن يطهره من مخالطة الذين كفروا والبقاء بينهم وهم رجس ودنس ، وأن يكرمه فيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .. وكان ما أراده الله ، وأبطل الله مكر الماكرين ».

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

فأما كيف كانت وفاته ، وكيف كان رفعه ... فهى أمور غيبية تدخل فى المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله ، ولا طائل وراء البحث فيها ، لا فى عقيدة ولا فى شريعة، والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهى بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون ما جزم بحقيقة ، ودون ما راحة بال فى أمر موكول إلى علم الله.

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا . أى أنجيك مما كانوا يريدون بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح ونسبة السوء إليه.

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . من إكرام الله لعيسى أنه قد جعل الذين اتبعوه فى الدين وآمنوا به فوق الذين كفروا والمراد أنهم أعلى منهم روحًا وأحسن خلقًا وأكمل أدبًا. وقيل فوقهم فى الحكم والسيادة وإن يكن هذا غير مطرد بالنسبة لليهود والنصارى . والمعروف الذى يحدثنا به التاريخ أن كل جماعة تتمسك بدينها وآدابه وأخلاقه لابد أن تكون فوق الجميع (١٧٦).

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . أى ثم مصيركم إلى يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به. وحينئذ يبين لهم الحق فى كل ما اختلفوا فيه.

٥٦ - فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ .

المعنى :

فأما الذين كذبوك وهم اليهود أو كفروا بالحق وحادوا عنه، أو جحدوا نبوة المسيح أو جعلوه إلها أو ابنا

لله، كل خارج عن الحق سيقع فى العذاب الشديد فى الدنيا، بالقتل أو الأسر أو الضيق النفسى وعدم الهداية والسعادة. وفى الآخرة ينتظرهم عذاب أشد وأنكى ، وما لهم من ناصرين يدفعون عنهم عذاب الله.

٥٧ - وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِين .

إن الجزاء من جنس العمل، فالكافر ينتظره العقاب فى الدنيا والآخرة والمؤمن ينتظره الثواب فى الدنيا والآخرة. إنه سبحانه يوفى المؤمنين أجورهم فى الدنيا بطمأنينة النفس وهدوء البال وسعة الرزق، والنصر والعون ، يستوى فى ذلك الأفراد والجماعات ، فالقاعدة الإلهية العامة هى أن كل من آمن بالله وعمل صالحاً ، فإن الله سبحانه وتعالى يكتب له الفوز والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة. يقول سبحانه فيما يتعلق بالأفراد:

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون . (النحل : ٩٧).

ويقول سبحانه عن الجماعات :

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . (الأعراف : ٩٦).

وفى ختام هذه الآية نجد هذه القاعدة الأصلية.

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِين . فالظلم خروج عن قوانين الفطرة، وجور فى العدل ، ووضع للشىء فى غير موضعه ، والظالم يتعرض لغضب الله فى الدنيا ولعقوبته يوم القيامة.

قال صلى الله عليه وسلم :

«إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (هود : ١٠٢) .

والظالم يتعرض للقصاص العادل فى يوم الجزاء، أخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله – صلى الله عيه وسلم – قال : « اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (١٧٧).

٥٨ – ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيم .

أى هذه الأنباء التى أنبأتك بها عن عيسى وأمه مريم وأمها، وزكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل نقرؤها لك على لسان جبريل ، وهو القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر فى الأخبار والحكم فى الأحكام فيهدى المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة ، وأسرار الاجتماع البشرى.

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات :

إن مثل عيسى : المثل : الحال الغريبة والشأن البديع.

كـن فيكـون : أى صر بشرا ، فصار بشرًا، والتعبير بالمضارع بدل الماضى، لتصويره بصورة الحاضر المشاهد، إيذانا بغرابته فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِين الامتراء الشك، أو الجدال أى لا تكن من الشاكين ، أو من المجادلين فى شأنه بعد وضوح الحق ، والخطاب لكل مكلف.

حـاجـك : أى جادلك.

ثم نبتـهل : أى ثم ندع الله ، مضارع من الابتهال وهو الدعاء.

وما من إله : ما : نافية ، ومن : لتأكيد الاستغراق المفهوم من النكرة المنفية ، وهى كلمة (إله) .

سبب النزول :

نزلت هذه الآيات على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند حضور وفد نجران ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : يا محمد لما سلمت أنه لا أب لعيسى من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى ، وزعموا أن معنى كونه « كلمة الله ، وروح الله » أن الله حل فى أمه، وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إنسانا وإلها، فضرب مثلا بآدم ليرد به على الكافرين والمفتونين .

التفسير :

٥٩ - إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عند اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُون . إن حال عيسى - وصفته العجيبة فى خلقه من غير أب - كحال آدم أبى البشر، أراد الله خلقه من تراب، ثم قال له : صر وكن بأمرى بشرا سويًا : ذا لحم ودم ، وعظام وأعصاب وعقل وإرادة فصار بشراً كما أراده الله.

وتم بذلك خلقه من تراب دون أب أو أم ، فكان بذلك أعجب من خلق عيسى من أم دون أب.

وإذا كنتم أيها النصارى لا تقولون بألوهية آدم، ولا ببنوته لله، فكيف تقولون بألوهية عيسى، أو بنوته لله، وهو دون آدم فى غرابة خلقه، والآية دليل على صحة القياس ، وشرعية النظر والاستدلال. فقد احتج الله عليهم بخلق آدم من غير أب ولا أم ، وحيث لم يقولوا بألوهية آدم. وجب القول بعدم ألوهية عيسى من باب أولى.

٦٠ – الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِين. أى هذا الذى أخبرتك به هو الحق فى شأن عيسى عليه السلام، فدم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق والتنزه عن الشك فيه.

والخطاب قد يوجه للنبي، ويراد به كل من يجادل فى شأن عيسى و كل من يخالجه شك فى أمره ، وتظهر فائدة ذلك من وجهين :

١ – أنه إذا سمع – صلى الله عليه وسلم – مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس.

٢ – أنه إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء، إذ إنه – صلى الله عليه وسلم – على جلالة قدره قد خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب فى هذه الآية ليس للنبى – صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يصح أن يكون الرسول شاكا أو مجادلاً بالباطل وإنما الخطاب لمن يجادل فى شأن عيسى ، أو يشك فى أمره .

والمعنى :

الحق فى شأن عيسى، نازل من ربك أيها المجادل فى شأنه فلا تكونن من الشاكين فى أمره ، بعد ما أسفر الصبح لذى عينين ، بهذه الحجة القاطعة لكل ريب. ويصح أن يكون الامتراء بمعنى المجادلة بالباطل، أى فلا تكونن بعد هذا الحق النازل من ربك من المجادلين فيه بالباطل . والخطاب فيه كسابقه لغير الرسول، من المجادلين والشاكين ، أو هو لكل من يتأتى منه الخطاب.

٦١ – فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ .

الخطاب فى هذه الآية للرسول – صلى الله عليه وسلم – لقد بينت الآيات السابقة حقيقة عيسى عليه السلام بما فيه كفاية وغناء لطالب الإيضاح والبيان.

وهنا يوجه الله تعالى رسوله الكريم إلى أن ينهى الجدل والمناظرة حول هذه القضية الواضحة، وحول هذا الحق المبين .. والمعنى ، فمن جادلك فى شأن عيسى بعد هذا البيان فلا تجادلهم فى شيء منه، وأفحمهم وقل لهم : تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ . ويضرع كل منا إلى الله تعالى ويدعوه أن يجعل لعنته على الكاذبين منا.

وقد حدث أن النبى – صلى الله عليه وسلم – لما نزلت هذه الآية أخبر وفد نجران بها ودعاهم إلى اجتماع حاشد ومعهم نساؤهم وأبناؤهم ، ليبتهل الجميع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين .

وحضر الرسول فى الموعد، ومعه الحسن والحسين، وفاطمة وعلي، فلم يجدهم، فقد تشاوروا فيما بينهم، فقالوا للعاقب – وكان صاحب رأيهم : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ فقال : والله يا معشر النصارى، لقد عرفتم أن محمدًا لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قوم نبيا قط فبقى

كبيرهم ، ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم ، فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم- فقالوا: يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نلاعنك ، ونتركك على دينك ، وأن نرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا : يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضا. فأمر النبى أبا عبيدة بن الجراح أن يخرج معهم، ويقضى بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه (١٧٨).

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل ، عن الضحاك وابن عباس : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ، ومقدارها ألف حُلَّة فى صفر ومثلها فى رجب، ودراهم ، وذلك بعد أن أشار عليهم يهود المدينة بالصلح وعدم الملاعنة وقالوا : هو النبى الذى نجده فى التوراة (١٧٩).

قد يقول قائل: إن الجزية فرضت بعد فتح مكة، ووفد نجران جاء قبلها فكيف يقال إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صالحهم على الجزية ؟ الجواب أن ذلك من باب المصالحة على ترك المباهلة وجاء فرض الجزية بعد ذلك على وفق ما صنعه الرسول ، وقد أجيب بأجوبة أخرى، فارجع إليها إن شئت فى تفسير ابن كثير.

٦٢ - إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم .

إن هذا الذى قصصناه عليك فى شأن عيسى هو القصص الحق المطابق للواقع الذى لا يصح العدول عنه إلى ما عليه النصارى فى شأنه : من أنه الله ،أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ . فلا شريك له فى ملكه بأى وجه من الوجوه ولا معبود بحق سواه.

إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيم . أى الغالب الذى لا يقهر ، المتقن لما يصنعه ويدبره.

٦٣ - فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ .

فإن أعرضوا عن اتباعك فى دينك، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التى جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فجزاؤهم وعقابهم عند الله وإن الله عليم بحال المفسدين فيجازيهم على فسادهم وإفسادهم . وأظهر فى مكان الإضمار، فلم يقل عليم بهم بل قال عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ لإظهار فسادهم ، واستحقاقهم للعقوبة، وفى هذا تهديد بليغ لهم.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

المفردات :

أهل الكتاب : اليهود والنصارى.

تعالوا : أقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه .

إلى كلمة : إلى العمل بكلمة، والمراد بها هنا الكلام الآتى بيانه فى الآية الكريمة .

سواء بيننا وبينكم : مستوية عادلة نعمل بها جميعًا ، ولا نختلف فيها .

ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله : الرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى، ويراد به هنا ما له حق التشريع من تحريم وتحليل .

مسلمون : منقادون لله مخلصون له.

تحاجون : تجادلون.

حنيفًا مسلمًا : الحنيف : المائل عن العقائد الزائفة، المسلم : الموحد المخلص لله.

تمهيد :

بين الله فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام ، وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم دعا أهل الكتاب إلى المباهلة فأعرضوا، وبذلك انقطعت محجتهم.

وهنا يدعوهم القرآن إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعًا،، ألا وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر النبى أن يقول لهم: اشهدوا بأنا مسلمون.

التفسير :

٦٤ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . . .

قل يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مقالة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب، وأمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن ثم بين هذه الكلمة فقال :

أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا . لا صنمًا ولا كوكبًا ، ولا نارًا ، ولا ملائكة ولا غير ذلك .

وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ . فلا يتخذ اليهود عزيرًا ابنا الله ، ولا يتخذ النصارى المسيح ابنا لله ، ولا يقولون إنه ثالث ثلاثة.

وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية، وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى وعيسى ، ومحمد خاتم النبيين . وقد جاء فى أسفار العهد القديم، نصوص عديدة، ناطقة بتوحيد الله وتنزيهه عن الشريك (١٨٠).

وقد كان اليهود موحِّدين وفى التوراة يقول الله لموسى « إن الرب إلهك، لا يكن لك آلهة أخرى ».

ومنبع شقاء اليهود اتباعهم لرؤساء الدين فيما يقررون من الأحكام وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله . وسار النصارى على هذا المنوال، وزادوا مسألة غفران الخطايا، وهى مسألة كان لها أثر خطير فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس ، فقامت طائفة جديدة تطلب الإصلاح وهى فرقة (البروتستانت) وقالت: دعونا من هؤلاء الأرباب، وخذوا الدين من الكتاب ، ولا تشركوا معه شيئًا سواه من قول فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفى عنقى صليب من ذهب، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن، وسمعته يقرأ فى سورة براءة اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فقلت : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم . فقال : أما كانوا يحللون لكم ويحرمون ، فتأخذون بأقوالهم . قال : نعم . فقال عليه الصلاة والسلام : هو ذلك (١٨١).

ثم قال الله لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم :

فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . أى فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله ، وعدم إشراك غيره معه فى العبادة فاعلموا أنهم لزمتهم الحجة، ولكنهم إن أبوا الحق عنادا فقولوا لهم : أنصفونا ، واشهدوا - معترفين لنا بأننا مسلمون مخلصون لربنا.

وقد ورد فى صحيح البخارى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرسل كتابه إلى قيصر ملك الروم يدعوه للإسلام ، وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسين :

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شيْئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . (١٨٢).

٦٥ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ... أى كيف تدَّعون أيها اليهود أنه كان يهوديا وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ؟.

وكيف تدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانيا ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟.

وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال، وقد قالوا: إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالى ألف سنة (١٨٣).

أفلا تعْقلُونَ . إن المتقدم على الشيء لا يمكن أن يكون تابعًا له.

٦٦- هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ .

المعنى :

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم من أمر موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام، فعندكم التوراة والإنجيل تعرفون منهما أمرهم، وإن كنتم غيرتم فيها وبدلتم فلماذا تحاجون فى أمر دين إبراهيم، وأنتم لا علم لكم بتفاصيله ولا بما جاء فى صحفه؟.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ. أى والله يعلم ما غاب عنكم ولم تشاهدوه ولم يأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه.

٦٧- مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

ما كان إبراهيم يهوديا كما ادعى اليهود ، ولا نصرانيا كما ادعى النصارى، ولكن - حنيفًا أى مائلاً عن الأديان الباطلة، مسلما: أى على طريقة الإسلام من التوحيد.

وما كان من المشركين . الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب.

وليس المراد بكونه مسلمًا، أنه كان على مثل ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من الشريعة بالتفصيل ، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعده ، وإنما المراد أنه كان متحققًا بمعنى الإسلام ، الذى يدل عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله فى عمل الخير تحقيقًا لقوله سبحانه إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ . (آل عمران : ١٩).

٦٨ - إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ .

روى عن ابن عباس أنه قال : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنَّا أولى بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، وأنه كان يهوديا ، وما بك إلا الحسد فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ومعنى الآية :

إن أولى الناس بإبراهيم ونصرته وولايته - هم الذين سلكوا طريقة منهاجه فى عصره فوحدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين وهذا النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء.

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ . بالنصر والمعونة والمحبة.

★ ★ ★

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات :

ودت : ود الشىء أحبه.

طـائفـة : جماعة وهم الأحبار والرؤساء.

لويضلونكم : لو بمعنى أن، أى أن يضلوكم.

وما يضلون إلا أنفسهم : الإضلال هنا بمعنى الإهلاك مجازا فالمعنى : وما يهلكون إلا أنفسهم بتمنى إضلالكم، أو بمعنى: الإخراج عن الهدى ، فالمعنى: وما تعود عاقبة الإضلال إلا على أنفسهم، أو بمعنى الخداع ، فهم يخدعونكم، وما يخدعون إلا أنفسهم فى الحقيقة.

وما يشعرون : وما يفطنون لذلك.

بآيات الله : الآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وأنتم تشهدون : أى تعلمون ما يدل على صحتها من التوراة والإنجيل.

تلبسون : تخلطون.

تمهيد:

قال المفسرون : إن اليهود دعوا معاذا وحذيفة وعمارا إلى دينهم فأنزل الله : وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُم .... الآية (١٨٤).

وقيل نزلت فى اليهود والنصارى.

ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصًا على إضلال المؤمنين سواء دعوا بعض الصحابة إلى دينهم أم لا.

وليس الإضلال خاصا بالدعوة ، بل كانوا يلقون ضروبًا من الشك فى النفس ليصدوها عن الإسلام من أغربها ما فى الآية الآتية (٧٢).

والمعنى:

أحبت طائفة من أهل الكتاب أن يهلكوكم بالتكفير والإخراج عن الإيمان ، وما يهلكون إلا أنفسهم بما يفعلون ، وما يفطنون لذلك، لزعمهم أنهم على الحق.

٧٠ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . لأى سبب تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنتم تشهدون بصحتها بما جاء فى كتبكم من نعته والبشارة به.

أو : لماذا تكفرون بآيات القرآن النازل من عند الله ، وأنتم تعلمون من التوراة والإنجيل ما يدل على صحتها ، ووجوب الاعتراف بها ؟.

٧١ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .

يا أهل الكتاب ، لماذا تسترون الحق بالباطل ، أو تخلطونه به، وذلك بتحريفكم آيات التوراة والإنجيل وسوء تأويلكم لها؟ لماذا تكتمون الحق فى شأن محمد وبشارته الموجودة فى كتبكم ، وأنتم تعلمون أنه حق، وأن ما جاء به هو من عند الله تعالى ؟.

★ ★ ★

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

وجه النهار : أوله ، سمى وجهًا لأنه أول ما يواجهك منه.

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم : أى كراهة أن يؤتى مثل ما أوتيتم.

أو يحاجوكم عند ربكم : أى يحاجوكم به عند كتاب ربكم بالتحاكم إليه.

التفسير :

٧٢ -وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

سبب النزول :

قال الحسن والسدى : تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر وقرى عرينة وقال بعضهم لبعض: ادخلوا فى دين محمد أول النهار - باللسان دون الاعتقاد - واكفروا آخره، وقولوا: إنَّا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمدا ليس بذلك ، وظهر لنا كذبه وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك. شك أصحابه فى دينهم ، وقالوا: إنهم أهل كتاب وهم أعلم به فيرجعون عن دينهم إلى دينكم .. [١٨٥] وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال : (صلت يهود مع محمد صلاة الصبح وكفروا آخر النهار مكرًا منهم ليروا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه) [١٨٦]. قال الشيخ محمد عبده : هذا النوع الذى تحكيه الآية مِنْ صد اليهود عن الإسلام مبنى على قاعدة طبيعية فى البشر، وهى أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه، وقد فقه فى هذا هرقل صاحب الروم فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شئون النبى - صلى الله عليه وسلم - عندما دعاه إلى الإسلام: (هل يرجع عن دين محمد من دخل فيه ؟ فقال أبو سفيان : لا).

وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلعوا على باطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب .

لطيفة :

قال الرازى : الفائدة من إخبار الله تعالى عن تواطئهم على هذه الحيلة من وجوه :

الأول : أن هذه الحيل كانت مخفية فيما بينهم وما أطلعوا عليها أحدا من الأجانب ، فلما - أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارا عن الغيب فيكون معجزًا.

الثانى : أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ولولا هذا الإعلام لكان ربما أثرت فى قلب بعض من فى إيمانه ضعف.

الثالث : أن القوم لما افتضحوا فى هذه الحيلة صار ذلك رادعًا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس.

٧٣ – وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

تواصى اليهود بألا يطلعوا المسلمين على شيء من أسرار كتابهم كالبشارة بنبينا محمد عليه الصلاة والسلام وأمارته وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ .

من معانى الإيمان فى اللغة الثقة والطمأنينة.

والمعنى : ولا تثقوا إلا بأبناء ملتكم من اليهود . ولا تطمئنوا إلا إليهم . فلا تذيعوا أسرارنا للمسلمين فإن ذلك يفسد علينا تدبيرنا.

وقد انتهى كلام اليهود عند قولهم : وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ . كما رجحه الفراء .

قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ . أى قل يا محمد لهؤلاء المتآمرين توبيخًا لهم : إن الهدى هدى اللّه ، فلا يتوقف على إظهاركم ما عندكم من البشائر بنبوة محمد ، والعلامات الدالة عليه ، ولا يزيله كفركم آخر النهار بعد إيمانكم أوله ، فمن أراد اللّه هداه أقنعه بما أيد به رسوله من الآيات البينات ، وأورثه الطمأنينة التامة فى قلبه وحفظه من كيد الكائدين، وكشف له دسائسهم ومؤامراتهم.

ثم أمر اللّه رسوله أن يقول لليهود :

أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ .

وفى الكلام جملة مقدرة يقتضيها المقام، والتقدير أتكيدون هذا الكيد كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجوكم به عند ربكم ؟.

وجاء فى تفسير القاسمى :

أن بمد الألف على الاستفهام فى قراءة ابن كثير وتقديرها فى قراءة غيره ، أى دعاكم الحسد والبغى حتى قلتم ما قلتم ودبرتموه الآن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ من الشرائع والعلم والكتاب.

أو كراهة أن يُحَاجُّوكُمْ أى الذين أوتوا مثل ما أوتيتم عِندَ رَبِّكُمْ أى بالشهادة عليكم يوم القيامة أنهم آمنوا وكفرتم بعد البيان الواضح فيفضحكم. ا هـ.

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم .

أى قل لهم إن الرسالة فضل من الله ومنة والله واسع العطاء وهو العليم بالمستحق فيعطيه من هو له أهل. وفى هذا إيماء إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجهلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء.

ويرى بعض المفسرين : أن الآية كلها يمكن أن تكون خطابا من الله للمؤمنين على جهة التثبيت لقلوبهم وتنوير بصائرهم، وحفظهم من تشكيك اليهود وتزويرهم فى دينهم.

والمعنى :

ولاتصدقوا - يا معشر المؤمنين - إلا من تبع دينكم أما غيرهم فاحذروهم، قل لهم يا محمد : إن الهدى هدى الله أنزله على محمد ، أما ما يقوله أعداء الإسلام فهو من تزويرهم ، فلا تصدقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الهدى والحق ولا أن يحاجوكم بما لديهم من دينهم عند ربكم فلا قدرة لهم على ذلك قل إن الفضل بيد الله ... إلخ.

وجاء فى تفسير المنار وغيره ، تفسيرات أخرى للآية ، لا تخلو من مآخذ .

٧٤ - يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيها بحسب مشيئته لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يبعث من يشاء نبيا ويبعثه رسولا، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله وعظيم إحسانه، لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، فالله لا يحابى أحدا، لا فردا ولا شعبًا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرًا.

★ ★ ★

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

المفردات :

تأمنه : من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا أو على كذا.

قنطار : المراد به هنا العدد الكثير أو المال الكثير، كما أن المراد بالدينار العدد القليل.

ليس علينا فى الأميين سبيل : يعنون بالأميين العرب، بجهلهم وقتئذ بالكتابة والقراءة.

سبيل : مؤاخذة وذنب، ومعنى كلامهم: ليس علينا فيما نأخذه من أموالهم مأخذ ولا حساب.

التفسير :

٧٥ - **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ...**

هذه الآية من أظهر الأدلة على سماحة القرآن ، فقد تحدثت الآيات السابقة عن أهل الكتاب . والكلام هنا موصول عنهم والآية تنصفهم، وتذكر أن منهم أمناء يؤدون الأمانة مهما كثر مقدارها، ومنهم خونة يجحدون الأمانة مهما قل عددها.

فمن الأمناء عبد الله بن سلام استودعه عربى قرشى ألفًا ومائتى أوقية ذهبًا - حين كان ابن سلام على يهوديته - فلما طلبها القرشى أداها إليه كاملة، ومن الخونة رجل اسمه فنحاص بن عازوراء استودعه رجل آخر من قريش دينارًا فجحده، ثم بينت الآية السبب فى هذا السلوك فقالت : **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** أى ليس علينا إثم فى أكل أموالهم فلا حساب ولا عقاب فى أكل أموال العرب.

وخلاصة رأيهم - أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له بل هو مبغض عنده محتقر لديه، فلا حقوق له ولا حرمة لماله، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين واحتقار المخالف وهضم حقوقه.

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم، فرد الله عليهم بقوله :

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وهم إذ يقولون هذا - يكذبون على الله تعالى - عن عمد وعلم بأنهم كاذبون . لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ولا أكل أموالهم بالباطل.

أخرج عبد الرزاق عن أبى صعصعة بن يزيد أن رجلا سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول ليس علينا بذلك بأس ، قال ابن عباس هذا كما قال أهل الكتاب : **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** . إنهم إذا أدُّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم [(١٨٧)].

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** قال نبى الله - صلى الله عليه وسلم - « **كذب أعداء الله** ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » [(١٨٨)].

ويستفاد من الآية ما يأتى :

١ - لا يحل لمسلم أن يخون أحدا ولو خالفه فى الدين.

٢ - لا يصح لمسلم أن يتصف بالخيانة مع من خانه.

٣ - قال القرطبى : فى الآية رد على الكفرة الذين يحرمون ويحللون غير تحريم الله وتحليله ، ويجعلون ذلك من الشرع.

٤ - استدل أبو حنيفة بالآية على ما ذهب إليه من مشروعية ملازمة الغريم بقوله تعالى : لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً أى بالمطالبة والملازمة والإلحاح فى استخلاص حقك.

ومن هدى السنة ما رواه أبو داود والترمذى والحاكم والطبرانى والبخارى فى التاريخ أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « **أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك** »(١٨٩).

والله تعالى يقول : وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا . (المائدة : ٨).

ولا نستطيع أن نبرح هذه الآية حتى نؤكد إنصاف القرآن لأهل الكتاب فهو لم يجردهم جميعًا من الأمانة أو الإيمان ، ومن هذا الإنصاف قوله تعالى :

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون . (آل عمران :١١٣).

ثم يقول سبحانه :

٧٦ - بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِين . أى بلى عليكم فى الأميين سبيل وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل، أو ائتمنك على شىء وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة.

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبًا لذاته، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره.

وقد أمر القرآن بالوفاء بالعهد والأمانة قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود .

- ومدح الله إبراهيم الخليل بقوله : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى . (النجم : ٣٧).

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

« لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » (١٩٠).

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خَصْلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » (١٩١) وفى رواية « ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » (١٩٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧) ﴾

المفردات :

يشترون : يستبدلون.

بعهد الله : بأمر الله المؤكد.

ثمناً قليلاً : عوضًا قليلا.

لا خلاق لهم : لا نصيب لهم.

ولا يزكيهم : ولا يطهرهم.

التفسير :

٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ ... .

سبب النزول :

ذكرت لهذه الآية أسباب نزول عديدة .

نذكر منها : ما أخرجه أصحاب الكتب الستة وغيرهم ، عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقطع بها حق امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان ».

فقال الأشعث بن قيس : فىَّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى ، فقدمته إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم - : ألك بينة ؟ قلت : لا . فقال لليهودى: احلف . فقلت : يا رسول الله إذًا يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ... . الآية (١٩٣).

وما أخرجه ابن جرير ، عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف، وحيى بن الأخطب : حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرهما ، وأخذوا على ذلك الرشوة.

والمعنى :

إن الذين يستبدلون بما عاهدهم الله عليه ، من بيان نعت محمد وعدم كتمانه، ويتغاضون عن أيمانهم الكاذبة الفاجرة، بالأثمان القليلة من أعراض الدنيا الزائلة - مهما عظمت - أولئك لا نصيب لهم فى ثواب الآخرة، ولاحظ لهم فى نعيمها.

وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ كلامًا فيه لطف بهم.

وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بعين رحمته تعالى .

وَلا يُزَكِّيهِمْ أى يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة. بل يأمر بهم إلى النار. ولهم عذاب أليم على الكتمان، واستبدالهم عهد الله ، والحلف زورا، واستحلالهم أخذ المقابل على التزوير.

قال القرطبى : وقد دلت هذه الآية والأحاديث على أن حكم الحاكم لا يحل المال فى الباطن بقضاء الظاهر، إذا علم المحكوم له بطلانه .

وفى حديث صحيح عن أم سلمة، قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنكم تختصمون إلىَّ، وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع . فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار.. فليأخذها أو ليتركها » (١٩٤).

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

يلوون ألسنتهم بالكتاب : يميلونها بالكتاب، عدولا به عن الحق تحريفًا أو تأويلاً.

واللى : الميل . يقال : لوى برأسه إذا أماله. والكتاب التوراة والإنجيل.

التفسير :

٧٨ - وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

روى الضحاك عن ابن عباس : أن الآية نزلت فى اليهود والنصارى جميعًا . وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل ، وألحقوا بكتاب الله تعالى ، ما ليس منه .

والمعنى :

وإن من أهل الكتاب الخائنين ، جماعة من علمائهم : يحرفون كلام الله ، ويميلون به عن القصد ، لتظنوا- أيها المسلمون - حينما تسمعونهم : أن ما حرفوه هو من صميم كتابهم الذى أنزله الله على رسولهم . وما هو - فى الحقيقة - من الكتاب ، بل من كلامهم ويؤكدون نسبته إلى الكتاب بقولهم : ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ، ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ بل من عند أنفسهم . ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بنسبته إليه ، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم عليه - سبحانه- يكذبون، وكما وقع التحريف فى القراءة ، وقع فى تأويل النصوص فى الكتابة .

ولهذا ترى التناقض والتكاذب والتهافت بين نسخها.

فمن يقرأ الأناجيل الأربعة يجد الاختلاف بينها واسع النطاق. وبخاصة : فيما تورده عن صلب المسيح عليه السلام ، وكذلك التوراة.

وأما احتجاج الرسول بقوله : ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ . (آل عمران : ٩٣).

فيحمل على أن رسول الله كان يعلم ببقاء بعض ما يفى بالغرض سالمًا عن التغيير . فإنهم لم يغيروا جميع ما فى التوراة : إما لجهلهم بدلالة ما بقى عى المقصود ، أو لصرف الله إياهم عن تغييره.

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

المفردات :

والحكم : أى الحكمة . وهى إصابة الحق .

ربانيين : منسوبين إلى الرب سبحانه . والألف والنون يزادان للمبالغة كثيرًا كلحيانى العظيم اللحية، ورقبانى الغليظ الرقبة. والمراد من الربانى : العالم الفقيه ، الراسخ فى علوم الدين . وقيل : الحكيم التقى.

بعد إذ أنتم مسلمون : منقادون مستعدون للدين الحق .

التفسير :

٧٩ - ما كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ .

لا يزال الكلام متصلاً مع وفد نجران ، فإنه روى : أن السورة - كلها- إلى قوله : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ... نزلت بسببهم .. ذكره القرطبى .

وروى ابن إسحاق وغيره، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام- أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى يقال له : الرئيس: أو ذاك تريد منا يا محمد ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غيره، ما بذلك بعثنى ، وما بذلك أمرنى » فأنزل الله تعالى الآية (١٩٥).

وأخرج ابن أبى حاتم قال : كان ناس من يهود : يتعبدون الناس - من دون ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه . فقال : مَا كَانَ لِبَشَرٍ ... الآية .

وأيا كان سبب النزول ، فمعنى الآية : ما صح وما استقام لبشر اصطفاه ربه لتبليغ الرسالة إلى خلقه ، وأعطاه الكتاب الذى يرشد الناس إلى عبادة ربهم ، وأعطاه الحكمة - أى حسن التصرف فى الأمور - وأعطاه النبوة العاصمة من الخطأ، ثم يتنكر لربه الذى اختاره لهداية خلقه فيقول للناس : كونوا عبادًا لى إشراكًا مع الله أو إفرادا: متجاوزين توحيد الله إلى ما طلبته منكم . ولكن يقول لهم : كونوا علماء عاملين، كاملين فى العلم والعمل ، لأنكم تعلمون الناس الكتاب وتدرسونه ، فأولى بكم أن تتبعوه ولا تحيدوا عنه .

والتعبير بلفظ (ثم) لاستبعاد حصول ذلك القول من الرسول .

وإذا كان لا يصح لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة : أن يدعو الناس إلى عبادة نفسه فلا يصح له أن يدعوهم إلى عبادة غيره من باب أولى .

وبهذه الآية حصل الرد البليغ من الله تعالى على النصارى الذين ألهوا المسيح وعبدوه، وعلى اليهود الذين ألهوا عزيرا وقدسوه، وعلى من زعم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ، يقصد بنبوته : أن يدعو الناس إلى عبادته ، وعلى الأحبار الذين يتعبدون الناس من دون ربهم : بتحريفهم كتاب الله عن موضعه لمصلحتهم.

وخلاصة الرد : أن رسل الله برآء مما يصنعه أتباعهم . فإنه لا يعقل أن يأمروهم بهذا الكفر. وذلك هو ما يقوله عيسى عليه السلام ، لربه لما يسأله : أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ . ثم قال : سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ

أنت علاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أمَرْتَنِي به أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي ورَبَّكُمْ وكُنتُ عليْهِمْ شهيدًا مَا دُمتُ فيهِمْ فلمَّا توَفَّيْتنِي كُنتَ أنت الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وأنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد . (المائدة : ١١٦ ، ١١٧).

والآية توجب على أهل العلم أن يقرنوه بالعمل، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .

٨٠ - وَلا يَأْمُرَكُمْ أن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أرْبَابًا . . .

ولا يَأْمُرَكُمْ : بالنصب ، معطوف على يَقُولَ في الآية السابقة، داخل معه في حيز ما لا يجوز على الرسل.

المعنى :

ما كان لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولا أن يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا.. أيليق به - وهو رسول الله - أن يأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مخلصون منقادون لربكم؟

ومن قرأ : وَلا يَأْمُرُكُمْ بالرفع ، فعلى الاستئناف .

والمقصود من القراءتين واحد . وهو استحالة حدوث ذلك من الرسول .

وإذا كان سبب النزول وفد نجران . فلا إشكال في قوله تعالى لهم : « بعد إذ أنتم مسلمون » فإن الإسلام يراد منه حينئذ ، والاستعداد للدين الحق، إرخاء للعنان ومجاراة لهم.

وقيل إن سبب نزول الآيتين ، ما أخرجه عبد بن حُميد عن الحسن قال :

بلغني أن رجلاً قال : يا رسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ؟ أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا . ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله تعالى »[١٩٦]. وعلى هذا ، فالإسلام على ظاهره.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات :

ميثاق النبيين : الميثاق ، العهد الموثق المؤكد .

لما آتيتكم : اللام موطئة للقسم . وما : بمعنى الذى . كما نقله سيبويه عن الخليل. أى للذى آتيتكموه. وقيل: إن ما شرطية بمعنى إن . وهو الظاهر .

وحكمة : أى نبوة . سميت حكمة، لأنها منبعها .

إصرى : عهدى وميثاقى .

التفسير :

٨١ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ .

واذكر يا محمد ، لأهل الكتاب ، كيف أخذ الله العهد على النبيين جميعًا : لئن آتيتكم من كتاب تبلغونه لأممكم، وحكمة - أى نبوة ورسالة إليهم - ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتصدقن بأنه مرسل من عندى إلى الناس ، ولتنصرنه بالتبشير به ، وحض أممكم على أن تؤمن به ، إذا بعث إليهم وتنصره، تؤيده فيما جاء به ؟.

قال تعالى لهم بعد أخذ الميثاق عليهم : هل أقررتم بالإيمان به ونصرته وأخذتم على ذلكم عهدى وقبلتموه لتنفذوه وتعملوا به ؟. قالوا : أقررنا ووافقنا. قال الله تعالى : فليشهد بعضكم على بعض بهذا الإقرار ، وأنا معكم من الشاهدين على إقراركم وشهادة بعضكم على بعض .

والمراد من الرسول الذى يجيئهم مصدقا لما معهم : كل رسول يعاصرهم أو يأتى بعدهم فالآية الكريمة، تفيد : أن الله تعالى ، أخذ الميثاق على الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضا ويؤيده ولا يعارضه ، ويوصى باتباعه . فإن دين الجميع واحد . قال صلى الله عليه وسلم : « الأنبياء بنو علات [١٩٧] أمهاتهم شتى ودينهم واحد »[١٩٨]

وبعموم الرسول ، أخذ سعيد بن جبير وقتادة وطاووس والسدى والحسن . وهو ظاهر الآية . قال طاووس: أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء : أن يؤمن بما جاء به الآخر.

ومن العلماء من قال : المراد من الرسول ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الأرجح ، وبه قال الإمام على رضى الله عنه . فقد أخرج عنه ابن جرير قال : « لم يبعث الله نبيا من آدم فمن بعده ، إلا أخذ عليه العهد فى محمد - صلى الله عليه وسلم : لئن بعث - وهو حى - ليؤمنن به ولينصرنه .- ويأمره فيأخذ العهد على قومه ».

وسواء أكانت الآية عامة فى تأييد جميع الرسل بعضهم لبعض، وحث أممهم على اتباعهم ، أم خاصة بتأييدهم لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -، ونصرته بحث أممهم على تأييده إن بعث - فالغرض من الاية : أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - وقد أيده الله بالمعجزات المحققة لرسالته وجاء مصدقاً لما مع الأنبياء قبله فهو مؤيد من المرسلين قبله، وأن على أهل الكتاب المعاصرين له : أن يؤمنوا به ، امتثالاً لما جاء عنه فى كتب رسلهم . فإن كتب المرسلين توصى بالإيمان بكل رسول .

والقرآن الكريم جرى على هذا المنهج قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . (البقرة : ١٣٦) .

٨٢ - ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ :

أى فمن أعرض عن الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا الميثاق والإقرار والشهادة فأولئك هم الخارجون فى الكفر إلى أفحش مراتبه، المستحقون لأشد العقاب.

ولما كان دين الأنبياء واحدًا، ودين محمد هو دين الأنبياء جميعًا - أتبع هذا التهديد قوله :

★ ★ ★

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

المفردات :

أسلم : دان بالإسلام . أو انقاد وخضع .

والأسباط : الأسباط ، الحفدة . والمراد بهم هنا : ذرية يعقوب عليه السلام . فهم حفدة لأبيه إسحاق وجده إبراهيم.

ومن يبتغ : ومن يطلب .

التفسير :

٨٣ – أفغَيْر دِينِ اللَّهِ يَبْغُون وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُون :

سبب النزول :

ذكرالواحدى فى سبب النزول ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن أهل الكتابين اختصموا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه . فقال – صلى الله عليه وسلم – : « كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم » فغضبوا وقالوا : والله ما نرضى بقضائك ، ولا نأخذ بدينك. فأنزل الله هذه الآية (١٩٩) .

وعلى أى حال كان سبب النزول ، فالكلام – فى هذه الآية – مع أهل الكتاب الذين استمسكوا بدينهم ، ونازعوا فى الإسلام ، وأعرضوا عنه.

فبعد أن أخبرهم الله تعالى أنه أوصى الأنبياء بتأييده ونصرته ، وأنذر من تولى عنه ، ووبخهم على إعراضهم ، وأنكره عليهم – قال ما معناه :

أيتولى هؤلاء عن الإسلام إلى أديانهم المحرفة المنسوخة ، فيبغون بذلك دينا غير دين الله : كيف يطلبون غير دينه سبحانه وتعالى ، وقد استسلم وخضع له – من فى السموات والأرض طائعين وكارهين : فمشيئة الله نافذة فيهم ، وقدره جار عليهم ، أحبوا ذلك أم كرهوا . فالصحيح مستسلم لقدر الله ، محب لما وهبه الله من صحة . والعليل منقاد لقدر الله بمرضه طوعًا وكرهًا ..

وهكذا كل أقدار الله تجرى فى خلقه ، فيخضعون لها ، وإن جرت على غير ما يحبون ويشتهون . فما شاءه الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .فكيف يتمرد أهل الكتاب على دين هذا الإله القوى الفعال ، ويكفرون به. مع أنهم إليه يرجعون مقهورين ، فيحاسبهم على طغيانهم وكفرهم .

وتحتمل أن يكون المراد به : ما يشمل العقلاء وغيرهم ، ويكون المعنى: ولمشيئته تعالي، خضع وانقاد جميع الكائنات فى السموات والأرض: طائعة أو مسخرة. كما فى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ (الحج : ١٨).

٨٤ – قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ :

لما بيَّن الله تعالى : أنه أخذ الميثاق على كل نبى : أن يؤمن بغيره من الأنبياء ، وأنه لا يصح لأهل الكتاب أن يكفروا بدين الله الذى أنزله على محمد – وهو ممن أخذ الله الميثاق على الإيمان بهم ودينهم – لما بين الله هذا كله – أمر نبيه محمدا– صلى الله عليه وسلم –، أن يؤمن بمن سبقه من الأنبياء وألا يفرق فى الإيمان بين أحد من رسله ، ليكون فى الإيمان بهم ، كما كانوا فى شأن إخوانهم الأنبياء ، وهو خاتمهم.

المعنى :

قل يا محمد ، معبرًا عن نفسك، وعن المؤمنين : آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا من القرآن العظيم آمنا بالله وما أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ والأنبياء من أبنائه وَالأَسْبَاط من كتب وما أوتي مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ من التوراة والإنجيل ، وما أعطى سائر الأنبياء من ربهم من مختلف الكتب : لا نُفَرِّقُ بينهم، فلا نؤمن ببعض ، ونكفر ببعض كما فعل اليهود إذ كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم ، ونحن له منقادون : نطيعه فيما أمرنا به ، وننتهى عما نهانا عنه.

٨٥ – وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

ومن يطلب دينا غير دين الإسلام يتدين به : عقيدة وعملاً ، فلن يقبله الله منه ، لأنه غير ما شرعه الله لخلقه . وإذا كان الله لا يقبل دينا غير الإسلام – فكل من دان بغيره ، يكون فى الآخرة من الخاسرين ، لأنه محروم الثواب ، خالد فى العقاب.

روى أحمد فى مسنده عن النبى صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده، لو أصبح فيكم موسى بن عمران ، ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم »[٢٠٠] .

وروى أبو يعلى ، والبزار ، وأورده ابن كثير : « لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا اتباعى » وفى رواية : « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى ».

★ ★ ★

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩) ﴾

المفردات :

لعنة الله : أى الطرد من رحمته.

ولا هم ينظرون : أى ولا هم يمهلون. فعذابهم مستمر. أو لا ينظر إليهم، ولا يعتد بهم.

التفسير :

٨٦ - **كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين .**

سبب النزول :

أخرج عبد بن حُميد وغيره، عن الحسن : أنهم - أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد - صلى الله عليه وسلم - فى كتابهم وأقروا وشهدوا أنه حق. فلما بعث من غيرهم، حسدوا العرب على ذلك فأنكروا. وكفروا بعد إقرارهم.

المعنى :

أى سبيل لأن يهدى الله قومًا كفروا بمحمد ، بعد ما آمنوا به قبل مبعثه ، امتثالاً لما جاء فى كتبهم، وعلموا أن الرسول محمد حق حينما رأوه بعد مبعثه - مطابقًا لما جاء عنه فى كتبهم ، وجاءتهم الآيات الواضحات والمعجزات الشاهدات بصدقه : والله لا يهدى القوم الظالمين لأنفسهم بكفرهم، ما داموا مصرين على عنادهم وحسدهم للرسول ، على ما آتاه الله من فضله.

٨٧ ، ٨٨ - **أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُون .**

بعد أن بين الله شناعة الكفر بعد الإيمان ، ووضح أن شريعة الرسول حق بما أيده الله به من الآيات، أتبعه عقاب أولئك الكافرين. وذكر أن : أولئك الذين كفروا - بعد ما جاء هم الرسول مؤيدا بالآيات والمعجزات بعد ما عقدوا العزم على الإيمان به حين يبعث - يلعنهم الله - ويطردهم من رحمته ، وتلعنهم الملائكة، وتطلب لهم الطرد من رحمة الله ، ويلعنهم الناس أجمعون ، من أهل الإيمان أتباع الحق، خالدين فى اللعنة - أو فى جهنم - التى هى مقر الملعونين : لا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم يمهلون بأن يؤخر عنهم العذاب من وقت لآخر ، بل العذاب موصول مستمر.

ويجوز أن يكون معنى : وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ولا ينظر الله إليهم نظر رحمة، لا يعتد بهم . فهم مهملون متروكون فى عذابهم.

وهذه الآية وما قبلها وما بعدها إلى قوله تعالى : وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ - وإن نزلت فى أهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد مبعثه، مع أنهم كانوا مجمعين على الإيمان به حين يبعث- لكنها عامة الحكم فى كل من يكفر بعد الإيمان ، فتشمل المرتدين بعد الإسلام.

٨٩ - إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

يعنى : أى من تابوا من بعد كفرهم، وأصلحوا ما أفسدوه بالندم والإقبال على الطاعة بعد الإدبار عنها فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ، لأن الله عظيم الغفران، بليغ الرحمة، وذلك من عظيم كرمه، ووافر رحمته.

وقيل : معنى أصلحوا : دخلوا فى الصلاح . كما يقال : أصبحوا : دخلوا فى الصباح، وعلى هذا يكون الفعل لازمًا غير متعد، بخلافه على المعنى السابق فهو متعد.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ﴾

المفردات :

وأولئك هم الضالون : الذين أخطأوا طريق النجاة.

ولو افتدى به : معطوف على شرط مقدر يقتضيه المقام. والتقدير : لو أنفقه فيما يراه خيرا فى الدنيا ولو افتدى به فى الآخرة.

لن تنالوا : لن تصيبوا ولن تدركوا.

البـر : الخير والإحسان .

مما تحبون : بعض ما تحبون فلا ينفقونه كله.

التفسير :

٩٠ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ .

تمهيد :

علم اليهود بنبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يبعث وذلك من خلال بشارات الأنبياء به ، فلما بعثه الله رسولاً نبيا من نسل إسماعيل جحدوا نبوته حقدا وحسدا .

قال الشيخ محمد عبده :

كان اليهود يعرفون بشارات الأنبياء بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ، وكانوا عازمين على اتباعه إذا جاء فى زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات ، وظهرت فيه البشارات ، ثم أنهم كفروا به وعاندوه، بعد مجيئه بالبينات لهم، وظهرت الآيات على يديه ، والله لا يهدى أمثال هؤلاء الضالين (٢٠١) .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشهادتهم أن الرسول حق ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا بمقاومة الحق وإيذاء الرسول والصد عن سبيل الله بالكيد والتشكيك ، وبالحرب والكفاح، وبالتمادى فى الكفر والمعاصى.

لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ : لأن الشر قد تغلغل فى نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والحير .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ عن طريق الحق ، المخطئون سبيل النجاة.

قال الحافظ أبو بكر البزار عن عكرمة عن ابن عباس : أن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ، ثم أسلموا، ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فنزلت هذه الآية:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ (٢٠٢).

وقد اختار الطبرى رأى قتادة وعطاء والحسن فى أن هذه الآية نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفرًا بمحمد والقرآن وبالذنوب التى اكتسبوها .

وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى ، كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم

وعلماء القرآن يذكرون أن سبب نزول الآية قد يتعدد، ويعبر عنه بتعدد السبب والنازل واحد .

وسواء أكان سبب النزول اليهود وحدهم، أو اليهود والنصارى، أو تكرر الردة من بعض الناس، فإن الآية بعمومها تشمل كل من يكفر بعد إيمان ، فيدخل فى حكمها من ارتد عن الإسلام.

وظاهر الآيات يخالف ما صرح به القرآن فى غير موضع كقوله سبحانه وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ . (الشورى : ٢٥) . والجواب أن التوبة لمن أناب إلى الله ورجع إليه صادقًا فى حياته وهو متمتع بصحته وقوته.

ما الذين يصرون على الكفر، ويزدادون كفرًا، والذين يلجون فى هذا الكفر حتى تفلت الفرصة المتاحة وينتهى أمد الاختيار ويأتى دور الجزاء، هؤلاء لا توبة لهم ولا نجاة.

قال تعالى : إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . (النساء : ١٧-١٨).

وروى أحمد والترمذى وابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(٢٠٣).

من تفسير القاسمى :

« وقد أشكل على كثير من المفسرين قوله تعالى لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ مع أن التوبة مقبولة عند الجمهور ، فأجابوا بأن المراد عند حضور الموت.

قال الواحدى : فى الوجيز: لن تقبل توبتهم لأنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت وتلك التوبة لا تقبل .

وقيل عدم قبول توبتهم كناية عن عدم توبتهم أى لا يتوبون ، وقيل لأن توبتهم لا تكون إلا نفاقا، لارتدادهم وازديادهم كفرا . وبقى للمفسرين وجوه أخرى هى فى التأويل أبعد مما ذكر .

ولا أرى هذه الآية إلا كآية النساء :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . (النساء : ١٣٧)

وكلتاهما مما يدل صراحة على أن من تكررت ردته لا تقبل توبته ، وإلى هذا ذهب إسحاق وأحمد ، وذلك لرسوخه فى الكفر.

وقد أشار القاشانى إلى أن هذه الآية مع التى قبلها يستفاد منها أن الكفرة قسمان :

قسم رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمارة على قلوبهم فيهم وتمكنت، وتناهوا فى الغى والاستشراء ، وتمادوا فى البعد والعناد حتى صار ذلك ملكة لا تزول.

وقسم لم يرسخ ذلك فيهم بعد ، ولم يصر على قلوبهم رينا، ويبقى من وراء حجاب النفس مسكة من نور استعدادهم ، عسى أن تتداركهم رحمة من الله وتوفيق فيندموا فأشار إلى القسم الأول بقوله ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إلى آخره ، وإلى الثانى بقوله إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا - انتهى (٢٠٤).

٩١ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ

تشير هذه الآية إلى مشهد من مشاهد القيامة حيث يرى الكافر ما أعد له من العذاب الشديد فيتمنى أن يفتدى نفسه من النار بملء الأرض ذهبًا ، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . (المائدة : ٣٦).

وروى الشيخان والإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديًا؟ قال : فيقول: نعم ، فيقول الله: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر أبيك آدم ألا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك »[(٢٠٥)].

وقدر الزمخشرى الكلام بمعنى : لن يقبل من أحد منهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبًا .. ا هـ . فإذا رفضت الفدية فى هذه الحالة كان تنبيها على أن ثم أحوالا أخر لا ينفع فيها القبول بطريق الأولى بالنسبة إلى الحالة المذكورة.

وهذا كله تسجيل بأنه لا محيص ولا مخلص لهم من الوعيد، وإلا فمن المعلوم أنهم أعجز عن الفلس فى ذلك اليوم.

ونظير هذا التقدير من الأمثلة أن يقول القائل: لا أبيعك هذا الثوب بألف دينار ولو سلمتها إلى فى يدى هذه [(٢٠٦)].

وقال ابن كثير : من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة.

كما سئل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن عبد الله بن جدعان - وكان يقرى الضيف ويفك العاني، ويطعم الطعام - هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا إنه لم يقل يومًا من الدهر : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين»[(٢٠٧)].

وفى ختام الآية نجد هذا الوعيد .

أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ أولئك المصرون على الكفر حتى ماتوا ، لهم عذاب شديد الإيلام «وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ يدفعون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم فى الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم.

٩٢ - لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .

فى هذه الآية استئناف خطاب للمؤمنين سيق لبيان ما ينفعهم ويقبل منهم إثر بيان ما لا ينفع الكفرة ولا يقبل منهم ، أى لن تبلغوا حقيقة البر ، وتلحقوا بزمرة الأبرار بناء على أن تعريف البر للجنس ، أو لن تنالوا بر الله سبحانه وتعالى وهو ثوابه وجنته إذا كان للعهد . حتى تنفقوا فى سبيل الله تعالى مما تحبون ، أى تهوونه ويعجبكم من كرائم أموالكم . وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ .. أى شىء تنفقونه فى سبيل الله طيباً أو خبيثاً فالله مجازيكم به بحسب ما يعلم من نيتكم ، ومن موقع ذلك فى قلوبكم، فرُب منفق مما يحب لا يسلم من الرياء ، ورب فقير معدم لا يجد ما يحب فينفق منه ، ولكن قلبه يفيض بالبر ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره.

وفى الآية حث على إنفاق الجيد، وإخلاص النية ، وابتغاء وجه اللّه والدار الآخرة.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ . (البقرة: ٢٦٧).

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء « موضع » وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – فقال : يا رسول اللّه إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى بيرحاء، وإنها صدقة للّه عز وجل أرجو برها وذخرها عند اللّه ، فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه ، فقال رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – « بخ بخ . ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت . وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين ». قال أبو طلحة : أفعل يا رسول اللّه، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه (٢٠٨).

وفى الصحيحين أن عمر قال : يا رسول اللّه لم أصب مالا قط هو أنفس عندى من سهمى الذى هو بخيبر ، فما تأمرنى به قال : « احبس الأصل وأسبل الثمرة » (٢٠٩).

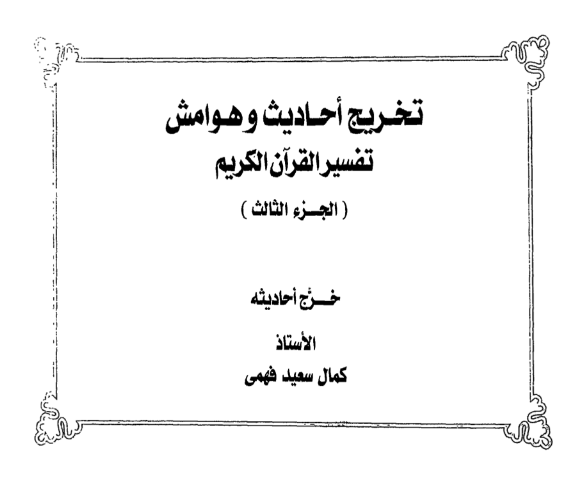
وروى الحافظ أبو بكر البزار أن عبد اللّه بن عمر قال : حضرتنى هذه الآية ، ذكرت ما أعطانى اللّه ، فلم أجد شيئًا أحب إلى من جارية لى رومية ، فقلت: هى حرة لوجه اللّه ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته للّه، لنكحتها، يعنى تزوجتها، فأنكحتها نافعًا (مولى كان يحبه كأحدأولاده).

وآثار السلف فى الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضاة اللّه كثيرة ...

★ ★ ★

وسلام على المرسلين ... والحمد للّه رب العالمين

تم تفسير **الجزء الثالث** ، ويليه تفسير **الجزء الرابع** إن شاء اللّه تعالى



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الثالث)

خرّج أحاديثه
الأستاذ
كمال سعيد فهمى

(١) أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس ٦ .

رواه البخاري في بدء الوحي (٢) وفي بدء الخلق (٣٢١٥) ومسلم في الفضائل (٢٣٣٣) والترمذي في المناقب (٣٦٣٤) والنسائي في الافتتاح (٩٣٣ ، ٩٤٢) وأحمد (٢٤٧٢٤ ، ٢٥٦٦٦) و مالك في الموطأ (٤٧٤) من حديث عائشة. وانظر كتاب "علوم الدين الإسلامي" للدكتور عبد الله شحاتة، وفي أوله موضوع (الوحي والقرآن).

(٢) انظر العقائد النسفية وشرحها للسعد : ص ٤٤٦ ، وقد ورد ذكر (١٨) ثمانية عشر نبيا في سورة الانعام المكية ليذكر الله المشركين أن إرسال الرسل سنة الله في خلقه، وهي نعمة الله على عباده، قال تعالى: وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم (٨٣) ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين (٨٥) وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين (٨٦) ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (٨٧) ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (الأنعام ٨٣ – ٨٨) .

(٣) لا تفضلوا بين أنبياء الله ٧ .

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤١٥) ومسلم في الفضائل (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة بلفظ : بينما يهودي يعرض سلعته أعطى بها شيئًا كرهه فقال لا والذي اصطفى موسى على البشر... فقال لم لطمت وجهه فذكره فغضب النبي ﷺ حتى رئي في وجهه ثم قال لا تفضلوا بين أنبياء الله .. الحديث .

(٤) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني جـ ١ صفحة ٢٧٧ .

(٥) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٩٧ .

(٦) أنا سيد ولد آدم ولا فخر ٩

رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٧) وأبو داود في السنة (٤٦٧٣) وأحمد (١٠٥٨٩) من حديث أبي هريرة. رواه الترمذي في تفسير القرآن (٣١٤٨) وفي المناقب (٣٦١٥) وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٨) وأحمد (١٠٦٠٤) من حديث أبي سعيد. ورواه أحمد (٢٥٤٢ ، ٢٦٨٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٧) في ظلال القرآن جـ ١ صفحة ٢٨٢ .

(٨) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٨ .

(٩) وانظر يا أخي إلى الحرب التي تثور بين هذا القطر وذلك من أقطار المسلمين وتراق فيها الدماء بسبب تحكم الأهواء ، مع قول النبي الأمين «إذا التقى المؤمنان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

(١٠) تفسير المنار جـ ٢ صفحة ٨ ـ ١٣ .

(١١) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبي ١٢ .

رواه البخاري في التيمم (٣٣٥) وفي الصلاة (٤٣٨) ومسلم في المساجد (٥٢١ ، ٥٢٣) والنسائي في الغسل (٤٣٢) وفي المساجد (٧٣٦) والدارمي في الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم في المساجد (٥٢٣) والترمذي في السير (١٥٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبي هريرة . ورواه أبو داود في الصلاة (٤٨٩) والدارمي في السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبي ذر ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس. ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه .

(١٢) لكل شئ سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة ١٣ .

رواه الترمذي في تفسير القرآن (٢٨٧٨) من حديث أبي هريرة . قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم شعبة في حكيم بن جبير وضعفه . قلت : وذكره السيوطي في الدر وزاد نسبته لسعيد بن منصور ومحمد بن نصر وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب .

(١٣) تفسير القرطبى جـ ١ صفحة ١٠٢ .

(١٤) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٢١ .

(١٥) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٩ .

(١٦) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٤٢٨ بتلخيص .

(١٧) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٠٣ .

(١٨) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٧٦ .

(١٩) أى آية فى كتاب الله أعظم .. ليهنك العلم أبا المنذر ١٦ .

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٨١٠) وأبو داود فى الصلاة (١٤٦٠) ، وأحمد (٢٠٧٧١) من حديث أبى بن كعب رضي الله عنه .

(٢٠) إن أعظم آية فى القرآن آية الكرسى ١٦ .

يشير إلى حديث أبى بن كعب المتقدم .

(٢١) أعظم آية فى القرآن ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ ١٦ .

ذكره السيوطى فى الدر وقال : وأخرج ابن مردويه والشيرازى فى الألقاب والهروى فى فضائله .

(٢٢) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٨٠ .

(٢٣) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١١ .

(٢٤) تفسير الفخر الرازى .

(٢٥) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٩٠ .

(٢٦) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١٤ .

(٢٧) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٩٧ .

(٢٨) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٠٨ .

(٢٩) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٤٤ .

(٣٠) بارك الله لك فيما أمسكت ٢٨ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج البزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة . قال الهيثمى فى المجمع : رواه البزار من طريقين إحداهما متصلة عن أبى هريرة والأخرى عن أبى سلمة مرسلة ، قال ولم نسمع أحدا أسنده من حديث عمر بن أبى سلمة إلا طالوت بن عباد ، وفيه عمر بن أبى سلمة وثقه العجلى وأبو حيثمة وابن حبان وضعفه شعبة وغيره، وبقية رجالهما ثقات .

(٣١) رضيت عن عثمان فارض ٢٨ .

ذكره الهندى فى الكنز (٣٢٨٤١) ونسبه لأبى نعيم وابن عساكر . عن أبى سعيد رضي الله عنه .

(٣٢) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣١٦ .

(٣٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٤٩ .

(٣٤) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١١ .

(٣٠) حاشية تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١١ للشيخ أحمد بن المنير .

(٣٦) الكلمة الطيبة صدقة ٣١ .

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٨٩) ومسلم في الزكاة (١٠٠٩) وأحمد (٨٠٤٩ ، ٢٧٣٠٠، ٢٧٤٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣٧) تفسير القرطبي جـ ٣ صفحة ٣٠٩ .

(٣٨) تفسير الفخر الرازي جـ ٧ صفحة ٤٩ .

(٣٩) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ٣٤ .

رواه مسلم في الإيمان (١٠٦) والنسائي في الزكاة (٢٥٦٣ ، ٢٥٦٤) وفي البيوع (٤٤٥٨) وفي الزينة (٥٣٣٣) وأبو داود في البيوع (٤٠٨٧) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٨ ، ٢٠٨١١ ، ٢٠٨٩٥ ، ٢٠٨٩٩ ، ٢٠٩٢٥ ، ٢٠٩٧٠ ، ٢١٠٣٤) والدارمي في البيوع (٢٦٠٥) من حديث أبي ذر . ورواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٩) وفي الشهادات (٢٦٧٢) وفي الأحكام (٧٢١٢) وفي التوحيد (٧٤٤٦) ومسلم في الإيمان (١٠٧) والترمذي في السير (١٥٩٥) والنسائي في الزكاة (٢٥٧٥) وفي البيوع (٤٤٦٢) وأبو داود في البيوع (٣٤٧٤) وابن ماجه في التجارات (٢٢٠٧) وابن ماجه في الجهاد (٢٨٧٠) (٧٣٩٣ ، ٩٨٦٦ ، ٩٨٦٧) من حديث أبي هريرة بلفظ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب ورجل حلف علي يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال رجل مسلم ورجل منع فضل ماء فيقول الله اليوم أمنعك فضلى كما منعت فضل ما لم تعمل يداك .

(٤٠) لا يدخل الجنة مدمن خمر ٣٤ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج الطبراني وابن مردويه فذكره من حديث ابن عباس . والحديث بهذا النحو روى عن غيره من الصحابة فرواه والنسائي في الأشربة (٥٦٧٢) وأحمد (٦٥٠١ ، ٦٨٤٣) والدارمي في الأشربة (٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو . ورواه أحمد (١٠٨٨٣ ، ١١٣٧٢) أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٤١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١٢ .

(٤٢) تفسير القرطبي جـ ٢ صفحة ٢١٨ .

(٤٣) ورد في تفسير ابن جرير عن البراء بن عازب رضى الله عنه ، وورد في تفسير ابن كثير ، وفي مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابوني جـ ١ صفحة ٢٤٠ ، وانظر التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب الخامس صفحة ٤٦٠ وفيه أيضًا الترمذي : حديث حسن صحيح .

(٤٤) ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ٣٨ .

رواه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٠) وأحمد (٧٩٩٣) من حديث أبي هريرة. ورواه أحمد (٢١٢١٤) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٤٥) لا حسد إلا في اثنتين ٣٨ .

رواه البخاري في العلم (٧٣) . وفي الزكاة (١٤٠٩) ، وفي الأحكام (٧١٤١) وفي الاعتصام (٧٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) وأحمد (٤٠٩٨) من حديث عبد الله بن مسعود ورواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٦) وأحمد (٩٨٥٧) من حديث أبي هريرة . رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٩) مسلم في صلاة المسافرين (٨١٥) والترمذي في البر والصلة (١٩٣٦) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٩) وأحمد (٤٥٣٦ ، ٦٣٦٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٤٦) التفسير الوسيط للقرآن الكريم : تفسير سورتي الفاتحة والبقرة للدكتور محمد سيد طنطاوي جامعة بنغازي . صفحة ٧٦٩ .

(٤٧) سبعة يظلهم الله في ظله ٤٠ .

رواه البخاري في الأذان (٦٦٠) وفي الزكاة (١٤٢٣) وفي الرقاق (٦٤٧٩) وفي الحدود (٦٨٠٨) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩١) والنسائي في آداب القضاة (٥٣٨٠) وأحمد (٩٣٧٣) ومالك في الجامع (١٧٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤٨) صدقة السر تطفئ غضب الرب ٤٠

رواه الترمذى فى الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة (٦٥٨) وقال : هذا حديث غريب من هذا الوجه . قال العراقى فى تخريج الإحياء أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد كلاهما ضعيف .. ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف جدًا .

(٤٩) روى ذلك ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية ، ونقله ابن كثير عنه فى تفسير هذه الآية .

(٥٠) لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم ٤١ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال رسول الله ﷺ لا تصدقوا إلا على أهل دينكم . فأنزل الله ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى قوله ﴿وما تفعلوا من خير يوف إليكم﴾ فقال رسول الله ﷺ : تصدقوا على أهل الأديان وقال : وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها . فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

(٥١) أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم ٤١ .

قال فى المجمع : كتاب الإيمان باب منه : وعن رجل من بنى عامر أنه استأذن على النبى ﷺ فقال : أيتلج ؟ فقال ﷺ لخادمته ١ اخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له فليقل السلام عليكم أأدخل ؟ قال : سمعته يقول ذلك فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ قال : فأذن أو قال فدخلت فقلت : بما أتيتنا؟ قال : لم آتكم إلا بخير أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له قال شعبة أحسبه قال وحده لا شريك له وأن تدعوا اللات والعزى وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات وأن تصوموا من السنة شهرًا وأن تحجوا البيت وأن تأخذوا من أموال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم قال فقال : هل بقى من الغيب شئ لا تعلمه قال : قد علم الله عز وجل خيرًا كثيرًا وإن من الغيب ما لا يعلمه إلا الله عز وجل الخمس ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ قلت عند أبى داود طرف منه . وقد رواه أحمد ورجاله كلهم ثقات أئمة .

(٥٢) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٤٥ بتصرف وتلخيص .

(٥٣) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٨٣ .

(٥٤) حاشية الجمل على الجلالين جـ ١ صفحة ٢٣٥ . بتصرف يسير .

(٥٥) الصفة . بضم الصُاد وتشديد الفاء . اسم الموضع بناه النبى . صلى الله عليه وسلم . فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله .

(٥٦) تفسير القرطبى جـ ٢ صفحة ٣٣٩ .

(٥٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٨٦ .

(٥٨) اتقوا فراسة المؤمن ٤٥

الترمذى فى التفسير (٣١٢٧) وقال : "حديث غريب" .

(٥٩) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣١٨ .

(٦٠) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٨٧ .

(٦١) ليس المسكين الذى ترده اللقمة ٤٥ .

البخارى فى الزكاة (١٤٧٦) ومسلم فيها (١٠٣٩) والنسائى فيها (٢٥٧١) والدارمى فيها ٣٧٩/١ والموطأ فى صفة النبى ﷺ ٩٢٣/٢ وأحمد ٣١٦/٢ عن أبى هريرة.

(٦٢) لا تزال المسألة بأحدكم ٤٥ .

مسلم فى الزكاة (١٠٤٠) ، وأحمد ١٥/٢ ، ٨٨ ، كلاهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٦٣) الا تبايعون رسول الله ... أن تعبدوا الله ٤٥ .

رواه مسلم فى الزكاة باب كراهة المسألة للناس (١٠٤٣) وأبو داود فى الزكاة باب كراهية المسألة (١٦٤٢) والنسائى فى الصلاة باب البيعة على الصلوات الخمس، وابن ماجه فى الجهاد باب البيعة (٢٨٦٧) من حديث عوف بن مالك الأشجعى رضي الله عنه.

(٦٤) ما حملك على هذا ... لك ذلك ٤٦ .

ذكره القرطبى فى "الجامع" وقال : وروى عن ابن عباس أنه قال : نزلت فى على بن أبى طالب .. فذكره .

(٦٥) إياك والذنوب التى لا تغفر ٤٨ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج الطبرانى عن عوف بن مالك .. فذكره .

(٦٦) تفسير الألوسى صفحة ٤٩ .

(٦٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ٩٦ .

(٦٨) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ صفحة ٣٢ .

(٦٩) اللهم إنى أعوذ بك من التردى ٤٩ .

رواه أبو داود فى الصلاة (١٥٥٢) وأحمد (١٥٠٩٧) النسائى فى الاستعاذة (٥٥٣١ ، ٥٥٣٣) من حديث أبى اليسر رضي الله عنه.

(٧٠) الإنصاف على الكشاف لابن المنير جـ ١ صفحة ٣٢٠ من الكشاف .

(٧١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٢١ .

(٧٢) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٥٠ .

(٧٣) كل ربا فى الجاهلية موضوع ٥٠ .

رواه مسلم فى الحج فى أثناء حديث طويل فى صفة حجه ﷺ (١٢١٨) والترمذى فى الحج (٨٥٦) رواه فى مناسك الحج (٢٩٣٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٠٥) وابن ماجه فى المناسك (٣٠٧٤) وأحمد (١٤٢٥١) والدارمى فى المناسك (١٨٥٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٧٤) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣٢٧ .

(٧٥) إن الله تعالى يقبل الصدقات ٥٢ .

البخارى فى الزكاة (١٤١٠) وفى التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم فى الزكاة (١٠١٤) ، وأحمد ٢/٢٣١ ، ٤١٩ ، كلهم عن أبى هريرة . ولفظه : من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب. ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يأخذها بيمينه فيُربيها .

(٧٦) تفسير ابن كثير جـ ١ صفحة ٣٣٠ ، بتصرف يسير .

(٧٧) تفسير الفخر الرازى جـ ٧ صفحة ١٠٦ .

(٧٨) من نفس عن غريمه أو محا عنه ٥٥ .

رواه أحمد (٢٢٠٥٣ ، ٢٢١١٧) والدارمى فى البيوع (٢٥٨٩) من حديث أبى قتادة رضي الله عنه.

(٧٩) من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر ٥٥ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج الطبرانى عن أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » قال الهندى فى الكنز (١٥٤١٨) : عن عاصم بن عبيد الله بن أسعد بن زرارة، وهو منقطع وهذا يدخل فيمن أسند عنه من الصحابة الذين ماتوا فى حياة النبى ﷺ لأن أسعد بن زرارة مات على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، قال البغوى : بلغنى أنه أول من مات من الصحابة بعد الهجرة وأول ميت صلى عليه النبى ﷺ ودفن بالبقيع وذلك قبل بدر قال الهيثمى فى المجمع : رواه الطبرانى فى الكبير من طريق عاصم بن عبيد الله عن أسعد ، وعاصم ضعيف ولم يدرك أسعد بن زرارة .

(٨٠) من أراد أن تستجاب دعوته ٥٥ .

رواه أحمد (٤٣٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٨١) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٥٤ .

(٨٢) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٣٤٧ ، وتفسير المنار جـ ٣ صفحة ١٠٦ .

(٨٣) إنما الربا فى النسيئة ٥٦ .

البخارى فى البيوع (٢١٧٨ ، ٢١٧٩) ومسلم فى المساقاة (١٥٩٦) والنسائى فى البيوع (٤٥٩١) وابن ماجه فى التجارات (٢٢٥٧) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

(٨٤) الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل ٥٦ .

رواه مسلم فى المساقاة (١٥٨٧) وأبو داود فى البيوع (٣٣٤٩) ، كلاهما عن عبادة بن الصامت .

(٨٥) الذهب بالذهب والفضة بالفضة ٥٦ .

رواه البخارى فى البيوع (٢١٧٠) ومسلم فى المساقاة (١٥٨٦) وأبو داود فى البيوع (٣٣٤٨) والترمذى فى البيوع (١٢٤٣) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » والنسائى فى البيوع (٤٥٥٨) وابن ماجه فى التجارات (٢٢٥٣) والدارمى فى البيوع ٢٥٨/٢ . كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٨٦) تفسير آيات الأحكام بتصرف وتلخيص. للشيخ محمد علي السايس جـ ١ صفحة ١٦١ .

(٨٧) اجتنبوا السبع الموبقات ٥٦ .

رواه البخارى فى الوصايا ٢٧٦٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨٩ ، والنسائى فى الوصايا ح ٣٦٧١ ، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبى هريره رضي الله عنه .

(٨٨) لعن رسول الله آكل الربا ٥٦ .

رواه مسلم فى المساقاة (١٥٩٨) من حديث جابر بن عبد الله . ورواه مسلم فى المساقاة (١٥٩٧) عن عبد الله قال لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله قال قلت وكاتبه وشاهديه قال إنما نحدث بما سمعنا، وأبو داود فى البيوع (٣٣٣٣) والنسائى فى الطلاق (٣٤١٦) وابن ماجه فى التجارات (٢٢٧٧) وأحمد (٣٧١٧ ، ٣٧٢٩ ، ٣٧٩٩ ، ٣٨٧١ ، ٤٠٧٩ ، ٤٢٧١ ، ٤٢٧٢ ، ٤٣١٥ ، ٤٣٨٩) والترمذى فى البيوع (١٢٠٦) وقال : حديث عبد الله حديث حسن صحيح . ورواه النسائى فى الزينة (٥١٠٣) ، وأحمد (٦٣٦ ، ٨٤٦ ، ٩٨٣ ، ١٢٩١ ، ١٣٦٨) من حديث على . ورواه البخارى فى البيوع (٢٠٨٦ ، ٢٢٣٨) ، وفى الطلاق (٥٣٤٧) وفى اللباس (٥٩٤٥ ، ٥٩٦٢) عن عون بن أبى جحيفة عن أبيه قال لعن النبى ﷺ الواشمة والمستوشمة وآكل الربا ومؤكله ونهى عن ثمن الكلب وكسب البغى ولعن المصورين . قلت : لفظه : وكاتبه وشاهديه فيه نظر . والصحيح مع الحديث هو : لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله .

(٨٩) من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ٥٧

البخارى فى السلم (٢٢٤٠) ومسلم فى المساقاة (١٦٠٤) وأبو داود فى البيوع (٣٤٦٣) ، كلهم عن ابن عباس .

(٩٠) تفسير القرطبى جـ ٢ صفحة ٣٧٧ .

(٩١) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٣٢٠ .

(٩٢) تعين صانعًا وتصنع لأخرق - الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله ٥٩ .

رواه مسلم فى الإيمان (١٣٦) عن أبى ذر ؛ قال : قلت : يا رسول الله ! أى الأعمال أفضل؟ قال : "الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله" قال قلت : أى الرقاب أفضل؟ قال : "أنفسها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا" قال قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تعين صانعًا أو تصنع لأخرق" قال قلت : يا رسول الله ! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : " تكف شرك عن الناس ، فإنها صدقة منك على نفسك" .

(٩٣) من كتم علمًا يعلمه ٥٩ .

رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٨) والترمذى فى العلم (٢٦٤٩) وابن ماجه فى المقدمة (٢٦٦) وأحمد (١٠١٠٩ ، ١٠٢١٩) من حديث أبى هريرة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة (٢٦٤) من حديث أنس . ورواه ابن ماجه أيضًا فى المقدمة (٢٦٥) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه .

(٩٤) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٢٨٥ .

(٩٥) تفسير الألوسى جـ ٣ صفحة ٥٧ .

(٩٦) تفسير القرطبى جـ ٢ صفحة ٢٩٧ .

(٩٧) تفسير الكشاف جـ ١ صفحة ٢٧٧ .

(٩٨) تفسير القرطبى جـ ٣ صفحة ٤٠٧ .

(٩٩) رهن درعه عند يهودى ٦٤ .

رواه البخارى فى البيوع (٢٢٠٠) وفى الرهن (٢٥٠٩) من حديث عائشة . ورواه البخارى فى الرهن (٢٥٠٨) وابن ماجه فى الأحكام (٢٤٣٧) من حديث أنس رضي الله عنه .

(١٠٠) تفسير النسفى جـ ١ صفحة ١٤٢ .

(١٠١) ألا إن فى الجسد مضغة ٦٥ .

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، ومسلم فى المساقاة ح ٢٩٩٦ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٣٩٧٤ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٤١٩ .

(١٠٢) إن الله تجاوز لى عن أمتى ما وسوست ٦٦ .

رواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ، ومسلم فى الأيمان (١٢٧) ، كلاهما عن أبى هريرة .

(١٠٣) إن الله كتب الحسنات والسيئات ٦٦ .

رواه البخارى فى الرقاق ح ٦٠١٠ومسلم فى الإيمان ح ١٨٧ ، وأحمد ح ٢٦٨٤ ، ٣٢٢٨ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(١٠٤) وقد وجدتموه ... ذاك صريح الايمان ٦٦ .

رواه مسلم فى الإيمان (١٣٢) من حديث ابن مسعود . وأحمد ٢٣٥/١ وأبو داود فى الأدب (٥١١٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(١٠٥) يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه ٦٦ .

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥١٤) ومسلم فى التوبة (٢٧٦٨) ، وابن ماجه فى المقدمة (١٨٣)، كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه .

(١٠٦) تفسير الألوسى ٦٤/٣ .

(١٠٧) يراجع فى هذا الموضوع كتاب الإنسان بين المادية والإسلام وكتاب معركة التقاليد لمحمد قطب .

(١٠٨) ظلال القرآن بقلم سيد قطب المجلد الأول ، طبعة دار الشروق . جـ ١ ص ٣٢٨ .

(١٠٩) نقلاً عن تفسير القاسمى جـ ٣ صفحة ٧٢٨ .

(١١٠) يسروا ولا تعسروا ٦٩ .

رواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) البخارى فى المغازى (٤٣٤١ ، ٤٣٤٢) عن أبى بردة ، والدارمى فى المقدمة ٧٣/١ عن ابن عمر بنحوه .

(١١١) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى صفحة ٣١٢ .

(١١٢) من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة ٧١ .

رواه البخارى فى المغازى (٤٠٠٨) وفى فضائل القرآن (٥٠١٠ ، ٥٠٤٠ ، ٥٠٥١) ومسلم فى صلاة المسافرين (٨٠٧ ، ٨٠٨) والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٨١) وأبو داود فى الصلاة (١٣٩٧) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٨ ، ١٣٩٦) من حديث أبى مسعود الأنصارى رضي الله عنه .

(١١٣) لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر ٧١ .

رواه مسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٨٠) ، والترمذى فى فضائل القرآن (٢٨٧٧) وقال : "هذا حديث حسن صحيح" ، وأحمد ٢٨٤/٢ ، ٣٣٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٨ ، ثلاثتهم عن أبى هريرة .

(١١٤) لكل شئ سنام ، وإن سنام القرآن ٧١ .

تقدم صفحة ١٣ .

(١١٥) انظر تفسير القاسمى : ٧٣٢/١ .

(١١٦) إن اسم الله الأعظم فى ثلاث سور ٨٠ .

رواه ابن ماجه فى الدعاء (٣٨٥٦) عن القاسم ؛ قال : اسمُ اللّه الأعظم ، الذى إذا دُعى به أجاب ، فى سور ثلاث : البقرة وآل عمران وطه .. وقال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن أبى الدنيا فى الدعاء والطبرانى وابن مردويه والهروى فى فضائله والبيهقى فى الأسماء والصفات عن أبى أمامة يرفعه قال : اسم اللّه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث سور : سورة البقرة ، وآل عمران ، وطه . قال أبو أمامة : فالتمستها فوجدت فى البقرة فى آية الكرسى ﴿اللّه لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ وفى آل عمران ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ (آل عمران الآية ٢) وفى طه ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾ (طه الآية ١١١) " وقال أيضًا : وأخرج ابن جريج وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله ﴿ الم ﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿طس﴾ قال : هى اسم اللّه الأعظم . وقال أيضًا : وأخرج عثمان بن سعيد الدارمى وابن ماجه وابن جرير ، عن فاطمة بنت على قالت : كان ابن عباس يقول فى ﴿كهيعص﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿يس﴾ وأشباه هذا ، هو اسم اللّه الأعظم . قال المناوى فى فيض القدير : وقد اختلف فى الاسم الأعظم على نحو أربعين قولاً أفردها المنصف وغيره بالتأليف . قال ابن حجر وأرجحها من حيث السند اللّه لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا احد .

(١١٧) تفسير القاسمى جـ ٤ صفحة ٧٤٩ .

(١١٨) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية الأزهر الحزب الخامس صفحة ٥١٣ .

(١١٩) هى التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية .

(١٢٠) هى إنجيل متى وإنجيل مرقس وإنجيل لوقا وإنجيل يوحنا .

(١٢١) أبو الأعلى المودودى تفهم القرآن الجزء الأول من الفاتحة إلى آل عمران تعريب أحمد إدريس ٢٠١ .

(١٢٢) قال أبو السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١هـ فى تفسيره ج ٢ صفحة ٦ ما يأتى :-

(والجملة المنفية خبر لأن وتكرير الإسناد لتقوية الحكم وكلمة فى متعلقة بمحذوف وقع صفة لشئ مؤكدة لعمومة المستفاد من وقوعه فى سياق النفى ، أى لا يخفى عليه شئ ما كان فى الأرض ولا فى السماء ، أعم من أن يكون ذلك بطريق الاستقرار فيها أو الجزئية منها وقيل متعلقة بيخفى ، وإنما عبر بهما عن كل العالم لأنهما قطران وتقديم الأرض على السماء لإظهار الاعتناء بشأن أحوال أهلها وتوسيط حرف النفى بينهما للدلالة على الطريق من الأدنى إلى الأعلى باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا) .

(١٢٣) نص الآيات هو : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ . (الأنعام ١٥١-١٥٣) .

(١٢٤) تفسير المنار : ٢/١٣٦ وهذه الأربعة ذكرها الرازى فى تفسيره .

(١٢٥) تفسير المراغى : ٣/١٠٠ .

(١٢٦) وهو التفكير العقلى والتدبر فى الآيات .

(١٢٧) د . عبد الله شحاتة ، علوم القرآن ، والتفسير ، دار الاعتصام : صفحة ٢٨٥ .

(١٢٨) الملل والنحل : ١/١١٨ .

(١٢٩) إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله ٨٨ .

رواه مسلم فى العلم (٢٦٦٦) ، وأحمد ٢/١٨٥ .

(١٣٠) يا مقلب القلوب ثبت قلبى ٨٩ .

الترمذى فى القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٣٤) كلاهما عن أنس ، وأحمد ٤/١٨٢ عن النواس بن سمعان والحاكم فى المستدرك ٢/٢٨٨ .

(١٣١) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب مرجع النبى صلى الله عليه وسلم من الأحزاب ومخرجه إلى بنى قريظة ومحاصرته إياهم .

(١٣٢) ورد ذلك فى البخارى ، فى كتاب المغازى ، وفى كتاب السير .

(١٣٣) الولد مجبنة مبخلة ٩٤ .

رواه ابن ماجه فى الأدب (٣٦٦٦) من حديث يعلى العامرى فى الزوائد : إسناده صحيح. رجاله ثقات .. وقال الهيثمى فى المجمع : الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة مبخلة محزنة رواه أبو يعلى والبزار وفيه عطية العوفى وهو ضعيف . إن الولد مبخلة مجهلة مجبنة رواه البزار ورجاله ثقات . إن الولد مبخلة مجبنة وإن آخر وطأة وطئها الله بوج . قلت رواه ابن ماجه غير ذكر بوج . رواه أحمد والطبرانى إلا أنه قال آخر وطأة وطئها رب العالمين ، ورجالهما ثقات .

(١٣٤) لو كان لابن آدم واديان ٩٤

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم فى الزكاة (١٠٨٤) والترمذى فى الزهد (٢٣٣٧) وأحمد (١١٨١٩) عن أنس . ومسلم فيما تقدم (١٠٥٠) من حديث أبى الأسود .

(١٣٥) تفسير القاسمى : ٤/٨٠٦ .

(١٣٦) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة هل رضيتم ٩٧ .

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم فى الجنة (٢٨٢٩)

(١٣٧) إن ثلاثة آواهم المبيت إلى غار - حديث أصحاب الغار - ٩٧ .

رواه البخارى فى الإجارة (٢٢٧٢) ، ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٤٣) وأبو داود فى البيوع (٣٣٨٧) وأحمد فى مسنده (٥٩٣٧) من حديث ابن عمر .

(١٣٨) ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة ٩٨ .

رواه البخارى فى الجمعة (١١٤٥) ، وفى الدعوات (٦٣٢١) ، وفى التوحيد (٧٤٩٤) ، ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٥٨) ، ومالك فى الموطأ كتاب النداء إلى الصلاة (٤٩٦)، وأبو داود فى الصلاة (١٣١٥) وفى السنة (٤٧٣٣)، والترمذى فى الصلاة (٤٤٦)، وفى الدعوات (٣٤٩٨) ، والدارمى فى الصلاة (١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٤)، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٣٦٦) ، وأحمد (٧٤٥٧ ، ٧٥٣٨ ، ٧٥٦٧ ، ٣٧٣٣، ٨٧٥١ ، ٩٩٤٠ ١٠١٦٦ ، ١٠٣٧٧ ، ١٠٩٠٢ ، ١١٤٨٢ ، ٢٧٦٢٠) من حديث أبى هريرة ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٠) ، وأحمد (١٦٣٠٣ ، ١٦٣٠٥) من حديث جبير بن مطعم . ورواه أحمد (١٥٧٨٢ ، ١٥٧٨٥) من حديث رفاعة الجهنى ورواه أحمد (٣٦٦٤ ، ٣٨١١ ، ٤٢٥٦) من حديث ابن مسعود . ورواه الدارمى فى الصلاة (١٤٨٣) من حديث على رضي الله عنه.

(١٣٩) تفسير القاسمى : ٨٠٩/٤ .

(١٤٠) تفسير القاسمى : ٨١١/٤ .

(١٤١) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٣٦.

(١٤٢) تفسير أبى السعود : ١٨/٢ .

(١٤٣) أعطيت خمسًا .. جعلت لى الأرض ١٠٣

رواه البخارى فى التيمم ح ٣٢٣ ، وفى الصلاة ح ٤١٩ ، ومسلم فى المساجد ح ٨١٠، وأحمد ح ٢٦٠٦ ، والنسائى فى الغسل والتيمم ح ٤٢٩ ، والدارمى فى الصلاة ح ١٣٥٣ ، وفى السير ح ٢٣٥٨ .

(١٤٤) رجلاً قتل نبيا ١٠٣ .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج أحمد عن ابن مسعود . أن رسول الله ﷺ قال " أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتل نبيا أو قتله نبى، وإمام ضلالة وممثل من الممثلين" أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح قال "قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال : رجل قتل نبيا ، أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ويقتلون النبين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ إلى قوله ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من عباد بنى إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، فقتلوا جميعًا من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله " ذكره فى المجمع من حديث ابن مسعود: رواه الطبرانى فى الكبير وفى الصحيح منه قصة المصور وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف ، وقال فى موضع آخر : رواه الطبرانى وفيه ليث بن أبى سليم وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات . ورواه البزار إلا أنه قال وإمام ضلالة، ورجاله ثقات ، وكذلك رواه أحمد . وذكره من حديث أبى عبيدة وقال : رواه البزار وفيه ممن لم أعرفه اثنان .

(١٤٥) تفسير أبى السعود : ١٩/٢ .

(١٤٦) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب ٣٨٢/١ مطبعة دار الشروق .

(١٤٧) تفسير أبى السعود : ٢٠/٢ .

(١٤٨) أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ١٠٤ .

رواه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤٤) والترمذى فى الفتن (٢١٧٤) وابن ماجه فى الفتن (٤٠١١) وأحمد فى مسنده (١٠٧٥٩) من حديث أبى سعيد . وقال الترمذى : حديث غريب . ورواه النسائى فى البيعة (٤٢٠٩) وأحمد فى مسنده (١٨٣٤٩ ، ١٨٣٥١) من حديث طارق بن شهاب. ورواه ابن ماجه فى الفتن (٤٠١٢) وأحمد فى مسنده (٢١٦٥٤) من حديث أبى أمامة.

(١٤٩) على ملة إبراهيم ودينه ١٠٥ .

قال السيوطى فى الدر : أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : جاء رافع بن حارثة، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن حرملة ، فقالوا : يا محمد ألست تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، وتؤمن بما عندنا من التوراة، وتشهد أنها من حق الله ؟ فقال النبى ﷺ "بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ عليكم من الميثاق ، كتمتم منها ما أمرتم أن تبينوا للناس فبرئت من أحداثكم . قالوا : فإنا نأخذ مما فى أيدينا فإنا على الهدى والحق ولا نؤمن بك ولا نتبعك . فأنزل الله فيهم ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شئ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ إلى قوله ﴿ القوم الكافرين ﴾ . أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال " دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله فقال له النعمان بن عمرو، والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد؟ قال : على ملة إبراهيم ودينه قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما إلى التوراة فهى بيننا وبينكم ، فأبيا عليه ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ﴾ إلى قوله ﴿وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ﴾.

(١٥٠) جاء فى مختار الصحاح مادة ح م م .

(حممه تحميمًا) سخم وجهه بالفحم .

والحميم الماء الحار ، وقد (استحم) أى اغتسل بالحميم هذا هو الأصل، ثم صار كل اغتسال استحمامًا بأى ماء كان .

(١٥١) كيف تفعلون بمن زنا .. رجم اليهوديين ١٠٥

ذكره الهندى فى الكنز (١٣٥٤٩) ونسبه لعبد الرزاق .

(١٥٢) أَوَقد رأيت يا سلمان .. أضاءت لى ملها قصور الشام ١٠٨

رواه فى المجمع من حديث ابن عباس وقال : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبرى وهما ثقتان . وقال السيوطى فى الدر : وأخرج ابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى فى الدلائل من طريق كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده .. فذكره.

(١٥٣) أى أعطاهم مالاً قليلاً فى مقابل معونتهم .

(١٥٤) كان عبادة بن الصامت بدريا نقيبًا ، وكان له حلف من اليهود فلما خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب ، قال عبادة يا نبى الله، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو ، فأنزل الله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء ... ﴾ الآية .

(١٥٥) ورد هذا المعنى فى تفسير الزمخشرى للآية .

(١٥٦) نكشر : نبش ، ونتبسم .

(١٥٧) إنا لنكشر فى وجوه أقوام ١١٢ .

ذكره البخارى تعليقًا فى الأدب باب المداراة مع الناس قال : ويذكر عن أبى الدرداء : إنا لنكشر فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم .

(١٥٨) لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ١١٤ .

البغوى فى شرح السنة (٢١٣/١) والخطيب فى تاريخ بغداد ٣٦٩/٤ ، وذكر ، ابن رجب الحنبلى حديث ٤١ ، وقال : حسن صحيح ، واستشهد بها المناوى فى فيض القدير وقال : خرجه الحسن بن سفيان وغيره قال ابن حجر ورجاله ثقات وصححه النووى فى الأربعين وذكره الهندى فى كنز العمال (١٠٨٤) ونسبه للحكيم وأبو نصر السجزى فى الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو .

(١٥٩) من عمل عملاً ليس عليه أمرنا ١١٤ .

رواه مسلم فى الأقضية (١٧١٨) ، وأحمد (٢٤٦٠٤ ، ٢٤٩٤٤ ، ٢٥٦٥٩) من حديث عائشة . وذكره البخارى فى باب النجش ومن قال لا يجوز ذلك البيع وقال ابن أبى أوفى الناجش آكل ربا خائن وهو خداع باطل لا يحل قال النبى ﷺ : الخديعة فى النار ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد . تعليقًا .

(١٦٠) ثلاث من كن فيه وجد ١١٤ .

البخارى فى الإيمان (١٦ ، ٢١) ، ومسلم فى الإيمان (٤٣) ، والنسائى فى الإيمان (٤٩٨٨) ، كلهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١٦١) إن الله إذا أحب عبدًا دعا جبريل ١١٤ .

البخارى فى بدء الخلق (٣٢٠٩) ومسلم فى البر والصلة (٢٦٣٧) .

(١٦٢) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب السادس صفحة ٥٥٤ بتصرف واختصار .

(١٦٣) أنا دعوة أبى إبراهيم ١١٦ .

رواه أحمد فى مسنده (١٦٧٠٠ ، ١٦٧١٢) من حديث عرباض بن سارية . ورواه (٢١٧٥٨) من حديث أبى أمامة .

(١٦٤) ولد لى ولدًا سميته باسم أبى إبراهيم ١١٧ .

أخرجه مسلم فى الفضائل (٢٣١٥) وأبو داود فى الجنائز (٣١٢٦) وأحمد (١٢٦٠٢).

(١٦٥) كل بنى آدم يمسه شيطان يوم ولادته ١١٧ .

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٣١) ومسلم فى الفضائل (٢٣٦٦) وأحمد (٧٨١٩ ، ٧٨٥٥ ، ٨٠٥٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه .

(١٦٦) تفسير القاسمى : ٨٤٢/٤ .

(١٦٧) الاستهام : إجراء القرعة .

(١٦٨) كان إذا أراد السفر أقرع ١٢٣ .

البخارى فى الهبة (٢٥٩٣) وفى الشهادات (٢٦٦١ ، ٢٦٦٨) وفى الجهاد (٢٨٧٩) وفى المغازى (٤١٤١) وفى التفسير (٤٥٧٠) وفى النكاح (٥٢١١) ومسلم وفى فضائل الصحابة باب فى فضل عائشة (٢٤٤٥) وفى التوبة (٢٧٧٠) . وأبو داود فى النكاح باب فى القسم بين النساء (٢١٣٨) وابن ماجه فى النكاح (١٩٧٠) وفى الأحكام باب القضاء بالقرعة (٢٣٤٧) والشافعى فى مسنده (٧٨) والدارمى فى النكاح (٢٢٠٨) وفى الجهاد (٢٤٢٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١٦٩) هذه الأفكار مستقاة من تفسير فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٠٠/١ بتصرف وتلخيص .

(١٧٠) "رب أعنى ولا تعن على" ١٣١ .

الترمذى فى الدعوات (٣٥٥١) وأبو داود فى الصلاة (١٥١٠) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٣٠) وأحمد (١٩٩٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(١٧١) القلاص : جمع قلوص ، وهى الناقة الشابة .

(١٧٢) "واللّه لينزلن ابن مريم حكمًا" ١٣٢ .

رواه مسلم فى الإيمان (١٥٥) وأحمد (١٠٠٣٢) من حديث أبى هريرة ﷺ .

(١٧٣) "كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم" ١٣٢ .

والحديث رواه البخارى فى البيوع (٢٢٢٢) ومسلم فى الإيمان (١٥٥)

أى أن عيسى لن يأتى بشرع جديد ينسخ به شريعتنا بل ينزل داعيًا للإسلام الذى نزل على محمد - صلى اللّه عليه وسلم - وهو دعوة جميع الأنبياء . ومعنى وإمامكم منكم أن قبلة المسلمين ستكون بأيديهم وقائدهم واحد منهم .

(١٧٤) انظر تفسير المنار : ١٦١/٣ ، وقد نقل هذا الكلام أحمد مصطفى المراغى فى تفسير المراغى : ٣/ ١٦٩ ، ولم ينسبه إلى المنار .

(١٧٥) تفسير المنار ٢٦١/٣ .

(١٧٦) التفسير الواضح د . محمد محمود حجازى : ٦٤/٣ .

(١٧٧) اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات ١٣٤ .

رواه مسلم فى البر (٢٥٧٨) من حديث أبى هريرة . وأحمد (٥٦٢٩ ، ٦١٧١) من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(١٧٨) انظر القرطبى ، وابن كثير ، وقد ورد هذا المعنى فى رواية أحمد والترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى ٢٨٩/١ ، كما روى فى صحيح ومسلم وغيرهما .

(١٧٩) انظر مختصر تفسير ابن كثير للصابونى : ٢٨٩/١ .

(١٨٠) راجع سفر الخروج فقرة ٦ ، ١٦ ، وراجع سفر أشعيا فقرة ٩ .

(١٨١) أما كانوا يحلون لهم الحرام ١٣٩ .

رواه الترمذى فى التفسير (٣٠٩٥) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف فى الحديث .

(١٨٢) من محمد رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم ١٣٩ .

رواه البخارى فى بدء الوحى (٧) وفى الجهاد (٢٩٤١) وفى التفسير (٤٥٥٣) وفى الاستئذان (٦٢٦١) ومسلم وفى الجهاد (١٧٧٣) وأبو داود فى الأدب (٥١٣٦) والترمذى فى الاستئذان (٢٧١٧) وأحمد (٢٣٦٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه .

(١٨٣) تفسير المراغي : ١٨١/٣ .

(١٨٤) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٢٧٤ .

(١٨٥) تفسير المنار جـ ٣ صفحة ٢٧٤ .

(١٨٦) تفسير المنار وانظر لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ففيه روايات أخرى في سبب نزول الآية .

(١٨٧) تفسير ابن كثير .

(١٨٨) " كذب أعداء الله " ١٤٦ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ﴾ .. فذكره .

(١٨٩) " أد الأمانة إلى من ائتمنك " ١٤٦ .

أبو داود في البيوع (٣٥٣٥) والترمذي في البيوع (١٢٦٤) وقال : «هذا حديث حسن غريب» .

(١٩٠) " لا إيمان لمن لا أمانة له " ١٤٧ .

رواه أحمد في مسنده (١١٩٧٥ ، ١٢١٥٧ ، ١٢٧٨٧ ، ١٣٢٢٥) من حديث أنس بن مالك .

(١٩١) "أربع من كن فيه " ١٤٧ .

رواه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٥٨) عن عبد الله بن عمرو .

(١٩٢) " ثلاث من كن فيه كان منافقًا .. آية المنافق ثلاث " ١٤٧ .

يشير إلى رواية : آية المنافق ثلاث ، أخرجها البخاري في الإيمان (٣٣) وفي الشهادات (٢٦٨٢) وفي الوصايا (٢٧٤٩) وفي الأدب (٦٠٩٥) ومسلم في الإيمان (٩٥) والترمذي في الإيمان (٢٦٣١) وأحمد (٨٤٧٠) .

(١٩٣) " من حلف على يمين هو فيها فاجر " ١٤٧ .

رواه البخاري في المساقاة (٢٣٥٧) وفي الخصومات (٢٤١٧) وفي الرهن (٢٥١٦) وفي الشهادات (٢٦٦٧ ، ٢٦٧٠ ، ٢٦٧٣ ، ٢٦٧٧) وفي التفسير (٤٥٥٠) وفي الأيمان والنذور (٦٦٥٩ ، ٦٦٧٦) ، ومسلم في الأيمان (١٣٨) وأبو داود في الأيمان (٣٢٤٣) والترمذي في البيوع (١٢٦٩) وفي التفسير (٢٩٩٦) وابن ماجه في الأحكام (٢٣٢٣) وأحمد (٣٥٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ .

(١٩٤) "إنكم تختصمون إليّ " ١٤٨ .

رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأقضية (١٧١٣) ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٨٣) ، والترمذي في الأحكام (١٣٣٩) وقال : « حديث حسن صحيح » وابن ماجه في الأحكام (٣١٧) ، ومالك في الموطأ ٧/٢.

(١٩٥) "معاذ الله أن نعبد غير الله " ١٥٠ .

قال السيوطي في الدر : أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى .. فذكره .

(١٩٦) " لا ولكن أكرموا نبيكم " ١٥١ .

قال السيوطي في الدر : وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : " بلغني أن رجلاً " .

(١٩٧) أي بنو ضرات .

(١٩٨) الأنبياء بنو علات ١٥٢ .

رواه مسلم في السلام باب فضائل عيسى عليه السلام (٢٣٦٥) وأبو داود في السنة (٤٦٧٥) بلفظ : الأنبياء أولاد علات ، وليس بيني وبينه نبي ، ورواه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢) ، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥) عن أبي هريرة ﷺ .

(١٩٩) كلا الفريقين برىء من دين إبراهيم ١٥٣ .

ذكره القرطبى فى الجامع .

(٢٠٠) والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ١٥٤ .

رواه أحمد (١٥٤٣٧ ، ١٧٨٧١) من حديث عبد الله بن ثابت . وذكره الهندى فى الكنز (١٠١١) ونسبه لابن سعد وأحمد والحاكم فى الكنى والطبرانى والبيهقى فى الشعب عن عبد الله بن ثابت الأنصارى . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن فيه جرير الجعفى وهو ضعيف .

(٢٠١) تفسير المنار : ٢٩٩/٢ .

(٢٠٢) أخرجه البزار ، قال ابن كثير فى إسناده جيد .

(٢٠٣) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ١٥٧ .

الترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) وقال : "حديث حسن غريب" ، وابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٣) وقال البوصيرى فى الزوائد : "فى إسناده الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه . وكذلك مكحول الدمشقى" ، وأحمد ١٣٢/٢ ، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢٠٤) تفسير القاسمى جـ ٤ صفحة ٨٨٥ بتصرف واختصار .

(٢٠٥) يقال للرجل يوم القيامة : أرأيت إن كان مالك ما على الأرض ١٥٨ .

رواه البخارى فى الأنبياء باب : قول الله تعالى (٣١٥٦) وفى الرقاق باب : من نوقش الحساب عذب (٦١٧٣) وباب : صفة الجنة والنار (٦١٨٩) ومسلم فى صفة القيامة باب طلب الكافر الفداء (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢٠٦) تفسير القاسمى : جـ ٤ صفحة ٨٨٨٨ بتصرف .

(٢٠٧) إنه لم يقل يومًا من الدهر : رب اغفر لى ١٥٩ .

رواه مسلم فى الإيمان باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل (٣٦٥) عن عائشة قالت " قلت يا رسول الله : إن ابن جدعان ، كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذاك نافعه ؟ قال " لا ينفعه ، إنه لم يقل يومًا : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين «وكذلك رواه أحمد» .

(٢٠٨) بخ بخ ذلك مال رابح ١٦٠ .

رواه البخارى فى الزكاة (١٤٦١) وفى الوصايا (٢٧٦٩) وفى التفسير (٤٥٥٥) وفى الأشربة (٥٦١١) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨) وأحمد (١٢٠٣٠) ومالك فى الجامع (١٨٧٥) والدارمى فى الزكاة (١٦٥٥) «وبير حاء» روى بكسر الباء وفتحها وفتح الراء وضمها مع المد والقصر وهو اسم حديقة بالمدينة . وفى الفائق أنها فيعلى من الرجاء وهو الأرض الظاهرة وفى كتاب فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب بير (حاء) وهو تصحيف وتحريف .

(٢٠٩) أحبس الأصل وأسبل الثمرة ١٦٠ .

رواه النسائى فى الأحباس (٣٦٠٣ ، ٣٦٠٤ ، ٣٦٠٥) وابن ماجه فى الأحكام (٢٣٩٧) وأحمد (٥٩١١ ، ٦٤٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهم جميعًا .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الثالث

محتويات الكتاب

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
	أولاً : سورة البقرة	
٢٥٣	﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾	٤٣٩
٢٥٤	﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ﴾	٤٤٥
٢٥٥	﴿ اللّه لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾	٤٤٧
٢٥٦	﴿ لا إكراه فى الدين ﴾	٤٥١
٢٥٧	﴿ اللّه ولى الذين آمنوا ﴾	٤٥٣
٢٥٨	﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربّه ﴾	٤٥٤
٢٥٩	﴿ أو كالذى مرّ على قرية ﴾	٤٥٧
٢٦٠	﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾	٤٥٧
٢٦١	﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٣
٢٦٢	﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٣
٢٦٣	﴿ قول معروف ومغفرة ﴾	٤٦٦
٢٦٤	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم ﴾	٤٦٦
٢٦٥	﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٦٩
٢٦٦	﴿ أيودّ أحدكم ﴾	٤٦٩
٢٦٧	﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ﴾	٤٧١
٢٦٨	﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾	٤٧٢
٢٦٩	﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾	٤٧٣
٢٧٠	﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾	٤٧٤
٢٧١	﴿ إن تبدوا الصدقات فنعمًا هى ﴾	٤٧٥
٢٧٢	﴿ ليس عليك هداهم ﴾	٤٧٧
٢٧٣	﴿ للفقراء الذين أحصروا ﴾	٤٧٧
٢٧٤	﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾	٤٧٧
٢٧٥	﴿ الذين يأكلون الربا ﴾	٤٨٤
٢٧٦	﴿ يمحق اللّه الربا ﴾	٤٨٤
٢٧٧	﴿ إن الذين آمنوا ﴾	٤٨٤
٢٧٨	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه ﴾	٤٨٤

رقم الآية	الآية المفســـــــرة	رقم الصفحـــــة
٢٧٩	﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب ﴾	٤٨٤
٢٨٠	﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾	٤٨٤
٢٨١	﴿ واتقوا يومًا ترجعون فيه ﴾	٤٨٤
٢٨٢	﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم ﴾	٤٩٥
٢٨٣	﴿ وإن كنتم على سفر ﴾	٥٠٣
٢٨٤	﴿ لله ما فى السموات ﴾	٥٠٤
٢٨٥	﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾	٥٠٧
٢٨٦	﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ﴾	٥٠٨
	أمهات المسائل الواردة فى سورة البقرة	٥١٢
	ثانيًا : تفسير سورة آل عمران	٥١٥
	سورة آل عمران	٥١٦
	من أهداف سورة آل عمران	٥١٧
١	﴿ الـمّ ﴾	٥١٨
٢	﴿ الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم ﴾	٥١٨
٣	﴿ نزَّل عليك الكتاب ﴾	٥١٨
٤	﴿ من قبل هدى للناس ﴾	٥١٨
	التوراة والإنجيل	٥٢١
٥	﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء ﴾	٥٢٢
٦	﴿ هو الذى يصوركم ﴾	٥٢٢
٧	﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾	٥٢٣
	المحكم والمتشابه	٥٢٤
	صفات الله	٥٢٧
٨	﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾	٥٢٨
٩	﴿ ربنا إنك جامع الناس ﴾	٥٢٨
١٠	﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ﴾	٥٢٩
١١	﴿ كدأب آل فرعون ﴾	٥٢٩
١٢	﴿ قل للذين كفروا ﴾	٥٣١

رقم الآية	الآية المفســـــــــرة	رقم الصفحــــــة
١٣	﴿ قد كان لكم آية ﴾	٥٣١
١٤	﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾	٥٣٣
١٥	﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾	٥٣٦
١٦	﴿ الذين يقولون ربنا ﴾	٥٣٦
١٧	﴿ الصابرين والصادقين ﴾	٥٣٦
١٨	﴿ شهد اللّه أنه لا إله إلا هو ﴾	٥٣٨
١٩	﴿ إن الدين عند اللّه الإسلام ﴾	٥٤٠
٢٠	﴿ فإن حاجوك ﴾	٥٤٠
٢١	﴿ إن الذين يكفرون ﴾	٥٤٤
٢٢	﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم ﴾	٥٤٤
٢٣	﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا ﴾	٥٤٥
٢٤	﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار ﴾	٥٤٥
٢٥	﴿ فكيف إذا جمعناهم ﴾	٥٤٥
٢٦	﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾	٥٤٨
٢٧	﴿ تولج الليل فى النهار ﴾	٥٤٨
٢٨	﴿ لا يتخذ المؤمنون ﴾	٥٥١
٢٩	﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم ﴾	٥٥٤
٣٠	﴿ يوم تجد كل نفس ﴾	٥٥٤
٣١	﴿ قل إن كنتم تحبون اللّه ﴾	٥٥٥
٣٢	﴿ قل أطيعوا اللّه ﴾	٥٥٥
٣٣	﴿ إن اللّه اصطفى آدم ﴾	٥٥٦
٣٤	﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾	٥٥٦
٣٥	﴿ إذ قالت امرأة عمران ﴾	٥٥٨
٣٦	﴿ فلما وضعتها قالت ﴾	٥٥٨
٣٧	﴿ فتقبلها ربّها ﴾	٥٥٩
٣٨	﴿ هنالك دعا زكريا ﴾	٥٦١
٣٩	﴿ فنادته الملائكة ﴾	٥٦١
٤٠	﴿ قال رب أنّى يكون لى غلام ﴾	٥٦١

رقم الآية	الآية المفسرة	رقم الصفحة
٤١	﴿ قال رب اجعل لى آية ﴾	٥٦١
٤٢	﴿ وإذ قالت الملائكة ﴾	٥٦٤
٤٣	﴿ يا مريم اقنتى لربك ﴾	٥٦٤
٤٤	﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾	٥٦٤
٤٥	﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم ﴾	٥٦٦
٤٦	﴿ ويكلم الناس فى المهد ﴾	٥٦٦
٤٧	﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ﴾	٥٦٦
٤٨	﴿ ويعلمه الكتاب ﴾	٥٦٩
٤٩	﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾	٥٦٩
٥٠	﴿ ومصدقا لما بين يدىّ ﴾	٥٦٩
٥١	﴿ إن اللّه ربىّ وربكم ﴾	٥٦٩
٥٢	﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر ﴾	٥٧٢
٥٣	﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾	٥٧٢
٥٤	﴿ ومكروا ومكر اللّه ﴾	٥٧٢
٥٥	﴿ إذ قال اللّه يا عيسى ﴾	٥٧٤
٥٦	﴿ فأمّا الذين كفروا ﴾	٥٧٤
٥٧	﴿ وأمّا الذين آمنوا ﴾	٥٧٤
٥٨	﴿ ذلك نتلوه عليك ﴾	٥٧٤
٥٩	﴿ إن مثل عيسى ﴾	٥٧٨
٦٠	﴿ الحق من ربّك ﴾	٥٧٨
٦١	﴿ فمن حاجّك فيه ﴾	٥٧٨
٦٢	﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾	٥٧٨
٦٣	﴿ فإن تولوا فإن اللّه ﴾	٥٧٨
٦٤	﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا ﴾	٥٨١
٦٥	﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون ﴾	٥٨١
٦٦	﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم ﴾	٥٨١
٦٧	﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ﴾	٥٨١
٦٨	﴿ إن أولى الناس بإبراهيم ﴾	٥٨١

رقم الآية	الآية المفســـــــــرة	رقم الصفحـــــة
٦٩	﴿ ودّت طائفة ﴾	٥٨٤
٧٠	﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون ﴾	٥٨٤
٧١	﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون ﴾	٥٨٤
٧٢	﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب ﴾	٥٨٦
٧٣	﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾	٥٨٦
٧٤	﴿ يختص برحمته من يشاء ﴾	٥٨٦
٧٥	﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه ﴾	٥٨٨
٧٦	﴿ بلى من أوفى بعهده ﴾	٥٨٨
٧٧	﴿ إن الذين يشترون بعهد اللّه ﴾	٥٩١
٧٨	﴿ وإن منهم لفريقا ﴾	٥٩٢
٧٩	﴿ ما كان لبشر ﴾	٥٩٣
٨٠	﴿ ولا يأمركم ﴾	٥٩٣
٨١	﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيين ﴾	٥٩٦
٨٢	﴿ فمن تولّى بعد ذلك ﴾	٥٩٦
٨٣	﴿ أفغير دين اللّه ﴾	٥٩٨
٨٤	﴿ قل آمنا باللّه وما أنزل علينا ﴾	٥٩٨
٨٥	﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ﴾	٥٩٨
٨٦	﴿ كيف يهدى اللّه قومًا كفروا ﴾	٦٠٠
٨٧	﴿ أولئك جزاؤهم ﴾	٦٠٠
٨٨	﴿ خالدين فيها ﴾	٦٠٠
٨٩	﴿ إلا الذين تابوا ﴾	٦٠٠
٩٠	﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ﴾	٦٠١
٩١	﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴾	٦٠١
٩٢	﴿ لن تنالوا البّر حتى تنفقوا ﴾	٦٠١
	ختام الجزء الثالث	٦٠٥
	تخريج أحاديث وهوامش الجزء الثالث	٦٠٧
	الفهرس	٦٢٢

تفسير القرآن الكريم

الجزء الرابع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



﴿ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

حِــــلا : أى حلالا، وهو مصدر نعت به ؛ ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، كما قال تعالى : (لا هنّ حِلٌّ).

إسرائيل : هو يعقوب عليه السلام ، وبنوه : ذريته.

افترى على الله الكذب : أى اختلقه، والفرية هى الكذب.

حنيفا : أى مائلا عن العقائد الباطلة، فالحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال.

المعنى الإجمالى :

اعترض اليهود على استباحة المسلمين بعض الأطعمة كلحوم الإبل وألبانها ، وادَّعوا أن ذلك حرمته شريعة إبراهيم ، فرد الله سبحانه دعواهم ببيان أن تناول كل المطعومات كان مباحاً لبنى يعقوب من قبل نزول التوراة إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لسبب يختص به فحرموه على أنفسهم.. وأمر الله نبيه أن يطلب منهم أن يأتوا من التوراة بدليل يثبت أن شريعة إبراهيم تحرم ذلك إن كانوا صادقين ، فعجزوا وأفحموا.

التفسير :

جاء فى تفسير النيسابورى [1] ما يأتى :

بعد أن قرر سبحانه الدلائل الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب فى هذا الباب أجاب عن شبهة للقوم ، وتقرير ذلك من وجوه :

أحدها : أنهم كانوا يعوّلون فى إنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ [٢] ، فأورد عليهم أن الطعام الذى حرّمه إسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراما عليه، وعلى أولاده وهو النسخ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراما من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزامًا لهم، وتفضيحا، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا، فامتنع أن يعرف هذه المسألة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء.

وثانيها : أن اليهود قالوا له إنك تدّعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل، وألبانها وتفتى بحلها مع أن ذلك كان حراما فى دين إبراهيم ، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة فى أولاده فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة .

وثالثها : لما نزل قوله تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ . (النساء : ١٦٠). وقوله : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ . (الأنعام : ١٤٦) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه إنما حرم عليهم كثير من الأشياء جزاء لهم على بغيهم وظلمهم غاظهم ذلك واشمأزوا وامتعضوا من قِبَل أن ذلك يقتضى وقوع النسخ [٣] ومن قِبَل أنه تسجيل عليهم بالبغى والظلم وغير ذلك من مساويهم فقالوا لسنا بأول من حرمت عليه وما هو إلا تحريم قديم فنزلت : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [٤].

من إشارات الآية :

يمكن أن نلحظ فى هذه الآية بيانا لخصال اليهود وعنادهم ولجاجتهم فى الخصومة، ويتضح ذلك من الآتى:

١ - لقد أنكروا النسخ وقالوا هو شبيه بالبداء وذلك لا يليق بالله تعالى ، والبداء هو أن تعمل عملا أو تقرر رأيا ثم يبدو لك أن الأفضل ترك هذا العمل، أو تغيير هذا الرأى، وهذا أمر يليق بالمخلوق لقصر رأيه وتبدل أفكاره وحكمه، ولا يليق بالخالق، ومن هنا أنكروا النسخ.

وقد بين القرآن أن من سنة الله التدرج فى التشريع ومراعاة مصالح الناس واختيار ما يناسب مراحل حياتهم ، فقد أمر المسلمين بالصبر فى مكة، ثم أمروا بالجهاد فى المدينة، وحرمت الخمر على مراحل، وأبيح زواج المتعة فى أول عهد المسلمين بالإسلام، وعند خروجهم للجهاد، ثم حرّم زواج المتعة وهو الزواج المؤقت.

وهكذا نجد أن من حكمة الله نسخ الأحكام وتبديلها بما هو أنسب لعباده ، قال تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ . (البقرة : ١٠٦).

٢ - نلحظ عناد اليهود ومكابرتهم حيث ادعوا أن تحريم لحوم الإبل وألبانها قديم من عهد الرسل السابقين، فكذبهم الله تعالى .

٣ - ادعى اليهود أن التوراة حرمت عليهم لحوم الإبل وألبانها اتباعا لطريقة إسرائيل حيث حرمها على نفسه ثم حرمت على ذريته وأبنائه متابعة لأبيهم ، فطلب الله منهم أن يأتوا بالتوراة إن كانوا صادقين.

(وبالرجوع إلى التوراة فى مظان هذا الموضوع، لم نجد فيها أساسا لدعواهم أن ذلك التحريم شرعه الله فى أى عهد من عهود النبوات، ولا لدعواهم أن التحريم انتقل إليهم من الشرائع السابقة، ولا لدعواهم أن الله حرمها عليهم بتحريم يعقوب لها على نفسه، ولقد كان اليهود يدّعون أن ذلك شرع قديم ، ولكن الرسول كشف الغطاء عن الحق فبهتوا وبان لهم - بذلك - أنهم فى ضلالهم يعمهون) [٥].

فى أعقاب الآية :

قد يقول إنسان : إن الله تعالى قد مدح اليهود وأثنى على إيمانهم ووصفهم بصفات طيبة، مثال ذلك آيات كثيرة وردت فى القرآن الكريم ومنها قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ . (البقرة : ٤٧). والجواب أن الله مدح اليهود عندما آمنوا بموسى واتبعوا تعاليم التوراة ودفعوا تكاليف الإيمان فكان كل هذا سببا فى مدحهم والثناء عليهم وتفضيلهم على أهل زمانهم، ثم لما حرفوا التوراة، واعتدوا فى السبت، واتهموا مريم فى شرفها، وظهر منهم العدوان والعناد وإنكار رسالة محمد صلى اللّه عليه وسلم فقد استحقوا عقاب السماء ؛ ولذلك لعنهم الله وغضب عليهم واستحقوا عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة.

ونجد آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشير إلى هذا ، مثل قوله تعالى : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ . (المائدة : ١٣). وقوله عز شأنه : ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

٢ - من مسند الإمام أحمد :

روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : حضرت عصابة من اليهود نبى اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنها لا يعلمهن إلاّ نبى ، قال سلونى ما شئتم. قالوا أخبرنا: أى الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه؟ فقال الرسول صلى اللّه عليه وسلم . [٦](أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيلَ مرض مرضا شديدا وطال سقمه، فنذر لله نذرا لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الأشياء إليه، وأحب الطعام إليه ، وكان أحب الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها فقالوا : اللهم نعم ، قال : اللهم اشهد عليهم [٧] .. إلى آخر الحديث.

وتفيد الآثار أن يعقوب عليه السلام اشتكى مرضا فنذر لله تعالى لئن شفاه الله من هذا المرض ليحرّمن على نفسه لحوم الإبل وألبانها أو عروقها .

قال ابن جرير الطبرى : وأولى هذه الأقوال بالصواب قول ابن عباس الذى رواه الأعمش عن حبيب عن سعيد عنه أن ذلك العروق ولحوم الإبل لأن اليهود مجمعة إلى اليوم على ذلك من تحريمها كما كان عليه من ذلك أوائلها.

ويرى الشيخ محمد عبده : أن المراد بإسرائيل فى قوله تعالى : إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ . هو شعب بنى إسرائيل.

وتابعه على هذا الرأى السيد رشيد رضا فى تفسير المنار حيث قال :

والمتبادر عندى أن المراد بما حرمه إسرائيل على نفسه : ما امتنعوا من أكله وحرموه على أنفسهم، بحكم العادة والتقليد لا بحكم من الله ، كما يعهد مثل ذلك فى جميع الأمم ، ومنه تحريم العرب للبحيرة والسائبة (٨) وغير ذلك مما حكاه القرآن عنهم . ا هـ.

وعند التحقيق ترى أيها القارئ أن رأى الشيخ محمد عبده مرجوح لا راجح ، و خصوصا إذا عرفنا أسباب نزول الآية وما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن سبب نزولها.

وفائدة قوله تعالى : مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . أنه لو كان الله شرع له ولبنى إسرائيل ذلك لذكر فى التوراة، لأنه سابق على نزولها على موسى .

٩٤ - فمن افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . فمن اختلق الكذب من بعد قيام الحجة وظهور البينة فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . لأنفسهم بالكفر، ولمن أضلوهم بالإغواء.

وما فى الآية من تهديد ينتظم كل من افترى الكذب على الله بعد ما تبين له الحق، واليهود داخلون فى ذلك بالأولى .

٩٥ - قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . أى يا محمد قل لليهود- بعد ظهور كذبهم فيما زعموا.

ظهر صدق الله فى كل ما أخبر به على لسان نبيه، وفيما شرعه القرآن ، وإن الله لصادق فى كل حين، ولكن المناسبة هنا حاضرة لتقرير هذه الحقيقة .

فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . فاتبعوا ملة إبراهيم فقد كان على الحنيفية السمحة. ودين إبراهيم هو الأصل ، وعليه كان يعقوب، وهو دين محمد فلئن أرادوا الصدق حقا فعليهم بدين إبراهيم، وعليهم إذن أن يدينوا بالإسلام الذى ترجع جذوره إلى ملة إبراهيم ، وأن يتوجهوا إلى البيت الذى بناه، والذى هو أول بيت خصص للعبادة.

لقد جاء إبراهيم برسالة الإسلام ، وجاء الرسل بهذه الرسالة السامية، ثم جاء القرآن بالرسالة الإسلامية واضحة بينة كاملة تامة.

كما قال تعالى : قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . (الأنعام : ١٦١).

وقال تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (النحل : ١٢٣).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

المفردات :

أول بيت : أول موضع لعبادة الله وحده.

وضع للناس : خصص لعبادتهم.

بكـــة : من أسماء مكة، وبكة علم على البلد الحرام، وقيل بكة : للبيت ، ومكة البلد، أصله من البَكّ وهو الازدحام.

آيات بينات : دلائل واضحات.

مقام إبراهيم : أى محل قيام إبراهيم، وهو الحجر الذى قام عليه لما ارتفع بناء البيت، أو هو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

آمنـــا : أى أوجب الله الأمان لمن يأوى إليه فلا يعتدى عليه بقتل أو أذى.

حـــج : بالكسرة هو لغة فى مصدر حج يحج.

سبب النزول :

روى عن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود : بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة، لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة، وقال المسلمون بل الكعبة أفضل فأنزل الله هذه الآية (٩).

التفسير :

إن أول بيت أقيم لعبادة الله وحده، هو البيت الحرام بمكة، فقد بناه إبراهيم عليه السلام – بأمر الله، وعاونه فى البناء ولده إسماعيل، وأمر الله أن يؤذن فى الناس بالحج إليه، قال تعالى : وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧).

قال النيسابورى فى تفسيره :

والبيت الحرام أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة.

واعلم أن الغرض الأصلى من ذكر هذه الأولية، بيان الفضيلة وترجيحه على بيت المقدس ، ولا تأثير لأولية البناء فى هذا المقصود و إن كان الأرجح ثبوت تلك الأولية أيضًا ..

ومن فضائل البيت الحرام أن الآمر ببنائه الرب الجليل والمهندس جبريل وبانيه الخليل، وتلميذه ابنه إسماعيل ، ومنها أنه محل إجابة الدعوات ومهبط الخيرات والبركات ومصعد الصلوات والطاعات.

ومن فضائل البيت الحرام أن الطيور تترك المرور فوق الكعبة وتنحرف عنها ألبتة إذا وصلت إلى محاذاتها.

ومنها أن الحيوانات المتضادة فى الطباع لا يؤذى بعضها بعضا عنده كالكلاب والظباء.

ومن فضائل البيت أمن سكانه فلم ينقل ألبتة أن ظالما هدم الكعبة أو خرب مكة بالكلية، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية، وقصة أصحاب الفيل الذين صدهم الله عن البيت الحرام معروفة مشهورة (١٠) .

ومن بركات البيت الحرام قدوم الناس إليه من مشارق الأرض ومغاربها ومعهم خيرات الأرض، استجابة لدعوة سيدنا إبراهيم : رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ . (إبراهيم : ٣٧).

ومن بركات البيت الحرام: أنه مكان لأكبر عبادة جامعة للمسلمين وهى فريضة الحج ، وإليه يتجه المسلمون فى صلاتهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأماكنهم.

الوضع والبناء :

أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن أبى ذر – رضى اللّه عنه – قال : سألت رسول الله صلى اللّه عليه وسلم عن أول بيت وضع فى الأرض ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة ، فصل (١١).

قال ابن القيم فى زاد المعاد تعقيبًا على هذا الحديث، قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به فقال : معلوم أن سليمان بن داود هو الذى بنى المسجد الأقصى ، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام ، وهذا من جهل القائل، فإن سليمان كان له من المسجد الأقصى تجديده لا تأسيسه، والذى أسسه هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام بعد بناء جده إبراهيم للكعبة بهذا المقدار أى بأربعين عاما (١٢).

أولية زمان شرف ومنزلة :

ذهب بعض المفسرين إلى أن أولية البيت الحرام زمانية بالنسبة إلى وضع البيوت مطلقًا. فقالوا إنّ الملائكة بنته قبل خلق آدم، وإن بيت المقدس بنى بعده بأربعين عاما. قال الشيخ محمد عبده : إذا صح الحديث فلا شيء فى العقل يحيله ولكن الآية لا تدل عليه ولا يتوقف الاحتجاج بها على ثبوته.

وبيت المقدس المعروف الذى انصرف إليه الإطلاق قد بناه سليمان بالاتفاق. والمعروف أنه تم بناؤه سنة ١٠٠٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام (١٣).

وذهب آخرون إلى أنه أول البيوت فى الشرف والرفعة ، (وعن على أن رجلاً قال له : هو أول بيت؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى والرحمة والبركة) (١٤).

(هذا وإن أخبار التاريخ ليست مما يُبْلَغ على أنه دين، والموضوعات المروية فى بناء الكعبة كثيرة، ولا حاجة إلى إضاعة الوقت فى ذكرها وبيان وضعها) (١٥).

من تفسير الفخر الرازى :

قال الفخر الرازى : فى اتصال هاتين الآيتين بما قبلهما وجوه ، الأول : أن المراد منهما الجواب عن شبهة أخرى من شبهات اليهود فى إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه لما حولت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود فى نبوته وقالوا : إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ، وقبلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلا، فأجاب الله عنه بقوله : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ .. فبين سبحانه أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان جعلها قبلة أولى .. (١٦).

والمراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله لعبادته فى الأرض، وقيل : المراد بها كونه أولا فى الوضع وفى البناء ، ورووا فى ذلك آثارًا ليس فيها ما يعتمد عليه (١٧).

لَلَّذِي بِبَكَّةَ بكة لغة فى مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيرا ومنه ضربة لازم وضربة لازب ، وقيل : مكة البلد، وبكة موضع المسجد، وفى الصحاح بكة اسم مكة.

وأما اشتقاق بكة فمن قولهم بكه إذا زحمه ودفعه، وعن سعيد بن جبير سميت بكة لأنهم يتباكُّون فيها أى يزدحمون فى الطواف ، وهو قول محمد بن على الباقر ومجاهد وقتادة، قال بعضهم : رأيت محمد بن على الباقر يصلى ، فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها، فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يَبُكُّ بعضهم بعضا، تمر المرأة بين يدى الرجل وهو يصلى ، والرجل بين يدى المرأة وهى تصلي، ولا بأس بذلك فى هذا المكان ، ويؤكد هذا قول من قال : بكة موضع المسجد لأن المطاف هناك وفيه الازدحام.

وقيل : سميت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة أى تدقها ، لم يقصدها جبَّار بسوء إلا اندقت عنقه ..) (١٨). مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ أى كثير الخير والبركة والنماء والزيادة لما يحصل لمن حجه واعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب .

قال : صلى الله عليه وسلم : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » (١٩).

وفى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال قتادة : إن الله بكَّ به الناس جميعًا ، فيصلى النساء أمام الرجل ولا يفعل ذلك ببلد غيرها، وقال شعبة عن إبراهيم : بكة البيت والمسجد، وقال عكرمة: البيت وما حوله بكة وما وراء ذلك مكة، وقال مقاتل بن حيان : بكة موضع البيت وما سوى ذلك مكة.

وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة : (مكة ، وبكة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأم القرى، والقادس لأنها تطهر من الذنوب، والمقدسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبنية ، والكعبة).

وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . أى هو بذاته مصدر هداية، لأنه قبلتهم ومتعبدهم وفى استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير، ولعله لا تمر ساعة من ليل أو نهار وليس فيه أناس يتوجهون إلى ذلك البيت يصلون ، فأى هداية للعاملين أظهر من هذه الهداية؟ [٢٠].

قال النيسابورى فى تفسيره :

(ولو استحضر العاقل فى نفسه أن الكعبة كالنقطة، وصفوف المتوجهين إليها فى الصلوات فى أقطار الأرض وأكنافها ، كالدوائر المحيطة بالمركز، ولاشك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية، علم أنه إذا توجهت تلك الأرواح الصافية إلى كعبة المعرفة، واستقبلت أجسادهم هذه الكعبة الحسية اتصلت أنوار أولئك الأرواح بنوره، وعظم لمعان الأضواء الروحانية فى سره) [٢١].

٩٧ - فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . . الآية ، أى فى البيت دلالات واضحات على أنه من بناء إبراهيم عليه السلام.

منها : مقام إبراهيم . وهو الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء البيت . أو المكان الذى كان يقوم فيه للصلاة والعبادة .

ومنها : وجوب الأمن لداخله استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ، بقوله : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. . (البقرة : ١٢٦).

ومنها : وجوب الحج إليه استجابة لنداء إبراهيم ، كما فى قوله تعالى : وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . (الحج : ٢٧).

وكما ثبت هذا بالقرآن، فهو ثابت أيضا تاريخيا. ومعروف بالتواتر لدى العرب جيلا بعد جيل.

ومع دلالة هذه الآيات البينات على أولية البيت الزمنية، فهى - كذلك - أدلة واضحة على فضله وعلو شأنه.

وقد عرضت الآية فرضية الحج بقوله تعالى : وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

والحج : أحد الأركان الخمسة للإسلام . فمن استطاعه لزمه، وندب إليه تعجيله. والاستطاعة: تكون بوجود الزاد والماء والراحلة، والقدرة البدنية، وأمن الطريق.

والمقصود من الزاد : ما يكفيه من الطعام مدة سفره فى حجه، زائدا على نفقة من تلزمه نفقته ممن يعول. والمراد من الراحلة: وسيلة الانتقال أيا كانت .

وَمَن كفر فإنَّ اللَّهَ غَنيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

أى ومن أنكر الفريضة أو تهاون فيها، فوبال ذلك عائد عليه وحده، لأن الله سبحانه غنى عن العالمين. فلا تنفعه طاعتهم ، ولا تضره معصيتهم وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ .(النمل : ٤٠).

وفى أسلوب الآية وختامها بقوله تعالى :

ومن كَفَرَ فإنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ما يدل على أهمية فريضة الحج وعظيم منزلتها عند الله، وأنه فريضة لا يحل لأحد أن ينكرها، وإلا كان كافرا بشريعة الله. كما لا يجوز له أن يتكاسل عنها، حتى لا يكون كافرًا بنعم الله عليه، غير شاكر له على أفضاله.

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

المفردات :

بآيات الله	: المراد بها، الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنها آيات القرآن الكريم.
شهيد	: مشاهد لما تعملون ، رقيب عليه.
تصدون عن سبيل الله	: تمنعون الناس عن طريقه، وهو الإسلام.
تبغونها عوجا	: تريدونها معوجة.
وأنتم شهداء	: تشهدون بأنها سبيل مستقيمة.
يعتصم بالله	: يستمسك بدينه.

التفسير :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. . الآية .

المعنى : أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، أن يوبِّخ كفار أهل الكتاب على كفرهم بما جاء به من الحق، فقال تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. . الآية .

وإنما دعاهم بقوله : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ للمبالغة فى تقبيح كفرهم، فإن من كان على بينة من كتاب الله : تَهدِى إلى الحق- يكون كفره أشد قبحاً من غيره. فقد جاء فى كتابهم من الأمارات الواضحة، ما يشهد بصدق محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وضحة نبوته، إذ كانوا يتحدثون بذلك قبل بعثته. فلما بعث ، تفرقوا واختلفوا.

وقد ختمت الآية بقوله عز وجل : وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُون . لتشديد التوبيخ، وتأكيد الإنكار عليهم، وتهديدهم على هذا الكفر القبيح :

٩٩ - قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ .. . الآية.

وهذا أمر آخر من الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم ، بتوبيخهم على الإضلال ، إثر أمره إياه بتوبيخهم على الضلال.

وتكرير الخطاب يَا أَهْلَ الْكِتَابِ . لتأكيد المبالغة فى التوبيخ، لأن ذلك العنوان- كما يستدعى منهم الإيمان بما هو مصدق لما معهم- يستدعى منهم كذلك، دعوة الناس إليه، وترغيبهم فيه. فصدهم عنه- بعد كفرهم به، وهم يعلمون أنه حق - فى أقصى مراتب القبح، وأبعد درجات الجحود ، إذ لم يكتفوا بكفرهم وضلالهم، بل أمعنوا فى الإضلال وأوغلوا فى الفتنة، فاحتالوا لفتنة المسلمين ، وصد من يريد الإسلام عن الدخول فيه. وادّعوا أن صفة محمد صلى اللّه عليه وسلم ليست فى كتبهم، ولا وجدت البشارة به عندهم.

ثم أفصح عن غايتهم من جحودهم وكفرهم، فقال سبحانه من قائل : تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ای تریدون أن تكون سبيل لله معوجة، وأنتم تشهدون أنها لا تحوم حولها شائبة اعوجاج.

ثم ختم الآية بقوله تعالى : وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ . وفى هذا من التهديد والوعيد ما لا يخفى.

ولما كان كفرهم صريحا ظاهرا، ختمت الآية الأولى بشهادة الله تعالى على ما يعملون.

ولما كان صدهم للمؤمنين ، بطريق السر والخفية، ختمت الآية الثانية بما يحسم حيلتهم من إحاطة علمه- سبحانه وتعالى - بأعمالهم.

١٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ .

كان اليهود فى المدينة يكوّنون طابورا خامسا يثيرون الفتن والقلاقل، ويشيعون الفرقة فى صفوف المسلمين ، وكان لليهود فى الجاهلية قوة وقدرة مالية، فكانت لهم زراعة وثروة ومنزلة فى المدينة المنورة ، وكانت تسمى (يثرب) فلما هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، ووحَّد صفوفهم وجمع كلمتهم وانتقلت سيادة المدينة وزعامتها إلى جماعة المسلمين ، وقد ألهب ذلك نيران الحقد والبغض فى نفوس اليهود، فأنكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم : وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا . (النمل : ١٤).

وكان شيوخ اليهود يضرمون نيران العداوة والفتنة بين الأوس والخزرج من أهل المدينة .

وقد ورد فى تفسير الطبرى والنيسابورى وغيرهما، كما ورد فى أسباب النزول للسيوطى، وأسباب النزول للواحدى أن سبب نزول هذه الآية محاولة اليهود تفريق صفوف المسلمين .

قال زيد بن أسلم : مر شاس بن قيس اليهودى وكان شيخا قد غبر (٢٢) فى الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم، فمر على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة (٢٣) بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شابا من اليهود كان معه، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم بعاث وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، وكان بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس، وجابر بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ، وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعا، وغضب الفريقان جميعا وقالا : ارجعا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ، وهى حرة، فخرجوا إليها فانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، أتدَّعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا ـ الله الله. فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين ، فأنزل الله عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا . يعنى الأوس والخزرج إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ . يعنى شاسا وأصحابه يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ . قال جابر ابن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إلينا بيده، وأصلح الله تعالى ما بيننا ، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيت يوما أقبح ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم (٢٤).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ

أى إن استمعتم إلى ما يلقيه بعض أهل الكتاب بينكم من دسائس ولنتم لهم، لا يكتفون بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم ، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولتهم إعادتكم إلى وثنيتكم القديمة وكفرهم بالله بعد إيمانكم.

وقد وصف - سبحانه - الذين يحاولون الوقيعة بين المؤمنين بأنهم فريق من الذين أوتوا الكتاب، إنصافا لمن لم يفعل ذلك منهم.

ونعتهم بأنهم أُوتُوا الْكِتَابَ . للإشعار بأن تضليلهم متعمد وبأن تآمرهم على المؤمنين مقصود، فهم أهل كتاب وعلم، ولكنهم استعملوا علمهم فى الشرور والآثام.

وقوله : يَرُدُّوكُم . أصل الرد الصرف والإرجاع، إلا أنه هنا مستعار لتغيير الحال بعد المخالطة فيفيد معنى التصيير ، كقول الشاعر :

فرد شعورهن السود بيضا

ورد وجوههن البيض سودا

أى يصيروكم بعد إيمانكم كافرين، والكاف مفعوله الأول وكافرين مفعوله الثانى .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . (البقرة : ١٠٩).

١٠١ - وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

أى : كيف يتصور منكم الكفر أو يسوغ لكم أن تسيروا فى أسبابه ، وآيات الله تقرأ على مسامعكم غضة طرية صباح مساء ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين ظهرانيكم ، يردكم إلى الصواب إن أخطأتم ، ويزيح شبهكم إن التبس عليكم أمر.

وهذا كقوله تعالى : وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . (الحديد : ٨).

قال ابن كثير : وكما جاء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوما : « أى المؤمنين أعجب إيمانا ؟ قالوا : الملائكة ، قال وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن، قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأى الناس أعجب إيمانًا ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا فيؤمنون بما فيها ».

وقوله : وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ . جملتان حاليتان من فاعل تَكْفُرُونَ . وهو ضمير الجماعة، وهاتان الجملتان هما محط الإنكار والاستبعاد.

أى أن كلا من تلاوة آيات الله وإقامة الرسول فيهم وازع لهم عن الكفر، ودافع لهم إلى التمسك بعرى الإيمان.

قال قتادة : أما الرسول فقد مضى إلى رحمة الله، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر.

ومن يعتصم بالله فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . أى ومن يستمسك بدين الله - وهو الإسلام ، ويلتجئ إلى الله فى كل أحواله ويتوكل عليه حق التوكل، فقد هدى إلى الطريق الذى لا عوج فيه ولا انحراف.

قال الطبرى ، وأصل العصم المنع، فكل مانع شيئا فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، ولذلك قيل للحبل عصام، وللسبب الذى يتسبب به الرجل إلى حاجته عصام، وأفصح اللغتين إدخال الباء كما قال عز وجل : واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .

وقد جاء اعتصمته كما قال الشاعر :

إذا أنت جازيت الإخاء بمثله

وآسيتنى ثم اعتصمت حباليا

فقال : اعتصمت حباليا ولم يدخل الباء، وذلك نظير قولهم تناولت بالخطام وتناولت الخطام، وتعلقت به وتعلقته (٢٥).

وفى ختام الآية نجد أنها محتملة لمعنيين :

المعنى الأول : أن الكفر بعيد عنكم ، ولا يتأتى منكم الكفر لأن الوحى ينزل عليكم والرسول بينكم. وفى هذاالمعنى ما يومئ إلى إلقاء اليأس فى قلوب هذا الفريق من اليهود من أن يصلوا إلى ما يبتغونه من تفريق المؤمنين ، لأن الوحى والنبى عصمة لهم.

المعنى الثانى : استفهام إنكارى عن احتمال كفرهم مع أن معهم أسباب الإيمان.

قال ابن جرير الطبرى : يعنى بذلك جل ثناؤه :

وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم بالله وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم وأنتم تتلى عليكم آيات الله يعنى حجج الله عليكم التى أنزلها فى كتابه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيكم رسوله حجة أخرى عليكم لله، مع آى كتابه ، يدعوكم جميع ذلك إلى الحق ويبصركم الهدى والرشاد ، وينهاكم عن الغى والضلال.

يقول لهم - سبحانه وتعالى - فما وجه عذركم عند ربكم فى جحودكم نبوة نبيكم وارتدادكم على أعقابكم ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم (٢٦).

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) ﴾

المفردات :

حق تقاته : أى حق تقواه.

بحبل الله : أى بالإسلام أو القرآن. استعار له كلمة الحبل حيث إن التمسك به سبب النجاة ، كما أن التمسك بالحبل سبب السلامة.

ولا تفرقوا : أى ولا تتفرقوا، حذفت إحدى التاءين تخفيفا.

فألف : أى فجمع.

شفا حفرة : الشفا طرف الشىء وحرفه مثل شفا البئر وشفا حفرة. ومنه يقال فلان أشفى على الشىء إذا أشرف عليه، كأنه بلغ شفاه أى حده وحرفه.

التفسير :

١٠٢ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ .

التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل التقوى : هى ذوبان الحشا لما سبق من الخطا.

وقيل تقوى الله : هى ألا يراك حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

ومعنى الآية : راقبوا الله تعالى، وأطيعوا أمره واجتنبوا مخالفته، بحيث يطاع ولا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر به.

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ . أى لا تقابلوا ربكم إلا وأنتم على حالة الإسلام الصحيح.

والمراد : داوموا على التخلق بأخلاق الإسلام لأن من شب على شىء شاب عليه، ومن شاب على شىء مات عليه، ومن مات على شىء بعث عليه.

قال الزمخشرى فى الكشاف : وَلَا تَمُوتُنَّ . معناه ولا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، وذلك كأن تقول لمن تستعين به على لقاء العدو: لا تأتنى إلا وأنت على حصان، فأنت لا تنهاه عن الإتيان، ولكنك تنهاه عن خلاف الحال التى شرطت عليه فى وقت الإتيان.

وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة نسختها الآية الكريمة : فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . (التغابن : ١٦). والجمهور على أنها غير منسوخة.

قال النيسابورى :

لما حذر الله المؤمنين من فتن أهل الكتاب أمرهم بمجامع الطاعات ومعاقد الخيرات فأولها لزوم سيرة التقوى.

وعن ابن عباس : لما نزلت يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ . هو أن يطاع فلا يعصى طرفة عين، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى، أو هو القيام بالواجبات كلها والابتعاد عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم، ويقوم بالقسط ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، شق ذلك على المسلمين فنزلت فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ . والجمهور على أنها غير منسوخة لأن معنى حق تقاته واجب تقواه، وكما يحق أن يتقى ، وهو أن يجتنب جميع معاصيه.. فلم يبق فرق بين الآيتين [٢٧].

والمراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ . هو عين المراد من قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ. (التغابن : ١٦). لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.

والاستثناء مفرغ فى قوله : وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ . أى لا تموتن على حالة من الأحوال إلا على هذه الحالة الحسنة التى هى حال المداومة على التمسك بالإسلام وتعاليمه وآدابه.

١٠٣ - وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا .. الآية.

أى : كونوا جميعًا مستمسكين بكتاب الله وبدينه وبعهوده، ولا تتفرقوا كما كان شأنكم فى الجاهلية.

ثم يذكر الله المسلمين بنعمته عليهم، نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع، والارتفاع على حزازات الصدور، والتفانى فى غاية أسمى من الشخصيات الزائلة والأمجاد الفارغة، والفخر بالعصبيات والأنساب.. وإنها لمعجزة تلك التى تحوّل شتات العرب إلى وحدة، وعداوتهم إلى مودة، وتربط على قلوبهم هذا الرباط الذى لم تشهد له البشرية من قبل أو من بعد نظيرا.

(والنص هنا يعمد إلى مكمن المشاعر والروابط (القلب) فلا يقول : فألف بينكم ، إنما ينفذ إلى المكمن العميق فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ . وهو تعبير مصور مقصود.

كذلك يرسم النص صورة لما كانوا عليه ، بل مشهدا حيا متحركا يتملاه الخيال ويتوقع فى كل لحظة حركة كانت ستكون لو لم تدركهم معجزة الإيمان وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا . . . فيتصور الخيال هؤلاء الأناس على شفا حفرة من النار، ويظل يتوقع حركة السقوط المتوقعه، حتى تتم حركة الإنقاذ المفاجئة) (٢٨).

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . أى بمثل هذا البيان الواضح ، يبين الله لكم سائر آياته ، لكى تثبتوا على الهدى، وتزدادوا فيه اعتصاما وقوة.

والقرآن حافل بالدعوة إلى الوحدة والاخوة والتماسك والتكافل والتراحم، والتحذير من الفرقة و العداوة والبغضاء والسخرية والاستهزاء.

وبمثل هذا الهدى الإلهى، والتوجيه النبوى رأينا وحدة لم يعرف التاريخ لها نظيرا، وحدة الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وحدة الألفة والمودة على الدين الجديد والنور الجديد والدعوة الإسلامية الخالدة .

قال تعالى : وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال : ٦٣).

روى البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »(٢٩).

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »(٣٠).

١٠٤ - وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التى تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والمراد بالخير ما فيه صلاح للناس دينى أو دنيوى.. والمراد بالمعروف ما حسنه الشرع وتعارف العقلاء على حسنه. والمنكر ضد ذلك.

والمعنى : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص، تبذل أقصى طاقتها وجهدها فى الدعوة إلى الخير الذى يصلح من شأن الناس، وفى أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التى توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، وفى نهيهم عن المنكر الذى يأباه شرع الله وتنفر منه الطباع الحسنة.

وقد دلت الآية على أن الأمة يجب عليها أن تخصص طائفة منها تقوم بالدعوة إلى الله ، كما قال سبحانه: فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . وهذا لا يعفى سائر أفراد الأمة،من القيام بهذا الواجب كل بحسب طاقته .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أى وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هم الكاملون فى الفلاح والنجاح.

(وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها وركن مشيد من أركانها وبه يرتفع سنامها ويكمل نظامها) [٣١].

وقد أورد الحافظ ابن كثير بعض الأحاديث النبوية الشريفة فى الدعوة إلى المحافظة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقيام كل فرد من الأمة بهذا الواجب بحسب قدرته وطاقته .

وهذان حديثان نبويان من تفسير ابن كثير :

١ - جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ». وفى رواية : «وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» [٣٢].

٢ - وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجب لكم » [٣٣].

وجاء فى كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ما يأتى :

(أ) روى الشيخان عن جرير بن عبد الله قال : بايعت النبى ﷺ على السمع والطاعة، فلقننى : فيما استطعت والنصح لكل مسلم [٣٤].

(ب) روى أبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى : عن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - قال: « يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . (المائدة : ١٠٥) وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده ».[٣٥].

(جـ) روى الترمذى عن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قال : سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله [٣٦].

★ ★ ★

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

حثت الآيات السابقة على لزوم الوحدة والجماعة ، ودعت إلى الاعتصام بحبل الله، وتخصيص طائفة من الهداة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهنا تحذر الآيات من الفرقة ، وتدعو إلى الاعتبار بالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، وما ينتظرهم من عذاب عظيم ، فى ذلك اليوم الذى تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه .

التفسير :

١٠٥ - وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

احذروا الفرقة والاختلاف ، واعتبروا بمن سبقكم من الأمم ، وهم اليهود والنصارى، حيث تفرق كل منهما فرقا مختلفة يكفِّر بعضها بعضا، واختلفوا باستخراج التأويلات الزائغة، وكتم الآيات الناطقة، بسبب ما أخلدوا إليه من حطام الدنيا، ولقد كان تفرقهم هذا واختلافهم مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ . أى الآيات والحجج والبراهين الدالة على الحق، والداعية إلى الاتحاد والوئام لا إلى التفرق والاختلاف.

والاختلاف المنهى عنه فى هذه الآية، إنما هو الاختلاف فى الأصول، أما الاختلاف فى الفروع ، الناشئ عن الاجتهاد فى فهم النصوص ، فأمر ثبت فى عهد رسول الله ﷺ وأقره ، ومن ثم كان للمجتهد المخطئ أجر كما أن للمصيب أجرين، لأن الاختلاف فى الفروع أفسح المجال للرخص ، والمسلمون بحاجة إليها (٣٧).

ومن الأحاديث التى ذمت الخلاف، ما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبى عامر (عبد الله بن لُحى) قال: حججنا مع (معاوية بن أبى سفيان) ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعنى الأهواء - كلها فى النار إلا واحدة - وهى الجماعة - وأنه سيخرج فى أمتى أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب (٣٨) بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » (٣٩).

ثم ختم الله سبحانه الآية ببيان سوء عاقبة المتفرقين والمختلفين فى الحق فقال : وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى وأولئك الموصوفون بتلك الصفات الذميمة لهم عذاب أليم بسبب تفرقهم واختلافهم الباطل.

(فأنت ترى القرآن الكريم قد نهى عن التفرق والاختلاف بأبلغ تعبير وألطف إشارة، وذلك بأن بيَّن لهم حسن عاقبة المعتصمين بحبل الله دون أن يتفرقوا ، وما بشر به- سبحانه - المواظبين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أنهم هم المفلحون الفائزون .

ثم بين لهم سوء عاقبة التفرق والاختلاف الذى وقع فيه من سبقهم من اليهود والنصارى، وكيف أنه ترتب على تفرقهم واختلافهم أن كفَّر بعضُهم بعضاً، وقاتل بعضهم بعضا، ورمى بعضهم بعضا بالزيغ والضلال، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فلهؤلاء المتفرقين والمختلفين العذاب العظيم) [٤٠].

١٠٦ - يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

المراد ببياض الوجوه ، بهجتها وسرورها وبسواد الوجوه حزنها وكآبتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ . (القيامة :٢٢-٢٥).

وقوله سبحانه : وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ . (الزمر : ٦٠).

وقوله عز شأنه : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ . (عبس : ٣٨ - ٤٢).

قال الزمخشرى فى تفسيره : (البياض من النور والسواد من الظلمة : فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه ، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده، واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب، نعوذ بالله وبسعة رحمته من ظلمة الباطل وأهله) [٤١].

وذهب بعض العلماء إلى أن السواد والبياض محمولان على حقيقتهما ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيهما، ولا دليل يوجب ترك هذه الحقيقة، فوجب الحمل على ذلك .

جاء فى تفسير النيسابورى :

وفى أمثال هذه الألوان للمفسرين قولان :

أحدهما : وإليه ميل أبى مسلم أن البياض مجاز عن الفرح والسواد عن الغم وهذا مجاز مستعمل قال تعالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل : ٥٨) .

ولما سلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية قال له رجل : يا مسوِّد وجوه المؤمنين.

ولبعض الشعراء فى الشيب قوله :

يا بياض القرون سودت وجهى

عند بيض الوجوه سود القرون

وثانيهما : أن السواد والبياض محمولان على ظاهرهما، وهما النور والظلمة إذ الأصل فى الإطلاق الحقيقة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكمده واسودت صحيفته وأحاطت به الظلمة من كل جانب.

قالوا والحكمة فى ذلك أن يعرف أهل الموقف كل صنف فيعظمونهم، أو يصغرونهم بحسب ذلك، ويحصل لهم بسببه مزيد بهجة وسرور أو ويل وثبور.

وقد اختار الفخر الرازى أن التعبير القرآنى فى الآية محمول على المجاز لا على الحقيقة . فقال

وهذا مجاز مشهور،قال تعالى: وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . (النحل: ٥٨).

ويقال لفلان عندى يد بيضاء، وتقول العرب لمن نال بغيته وفاز بمطلوبه: ابيض وجهه ومعناه الاستبشار والتهلل.. ويقال لمن وصل إليه مكروه: أربد وجهه واغبرّ لونه، وتبدلت صورته ، وعلى هذا فمعنى الآية : أن المؤمن يرد يوم القيامة على ما قدمت يداه، فإن رأى ما يسره ابيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله، وعلى ضد ذلك اذا رأى الكافر أعماله القبيحة محصاة عليه اسود وجهه بمعنى أنه يشتد حزنه وغمه [٤٢].

ومن الطرائف ما روى أن شخصين أحدهما أبيض والآخر أسود تقابلا، فقال الاسود:

ألم تر أن ســواد العين لا شك نورها

وأن بيــاض العين لا شىء فــاعلم

وأن ســواد المسك لا شىء مــثله

وأن بيــاض اللفت حــمل بدرهم

فقال الأبيض :

ألم تـر أن بيــاض البـدر لا شيء مــثله

وأن ســـواد الفـــحم حـــمل بدرهم

وأن رجـــال الله بيض وجـــوههم

وأن ســـود الوجـــوه مـــأواهم جـــهنم

وهى مغالطة من الأبيض لأن سواد أهل النار ليس سواد الخلقة ولكنه سواد الظلمة والمعصية.

وفى الأثر (كم من وجه صبيح ولسان فصيح وجسم مليح غدا بين أحشاء النار يصيح).

وكان زعيم المنافقين حسن الهيئة جميل الصوت ، يجيد تزويق الكلام فقال فيه القرآن : وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . (المنافقون : ٤).

وقد ورد فى هدى النبوة « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

ومما تقدم يتضح أن الراجح فى سواد الوجوه وبياضها ، هو أنهما محمولان على المجاز لا على الحقيقة، وأن بياض الوجه لا يقرّب صاحبه إلى الله، وأن سواد الوجه لا يبعد صاحبه عن الله ، وإنما يقرّب الإنسان من الله العمل الصالح ، ويبعده عن الله العمل الطالح.

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ .

أى أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم – على سبيل التوبيخ أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بسبب كفركم.

والاستفهام فى قوله تعالى : أَكَفَرْتُم . للتوبيخ والتعجب من حالهم . قال الآلوسى : والظاهر من السياق أن هؤلاء هم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد إيمانهم ، هو كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد الإيمان به قبل مبعثه، وقيل هم جميع الكفار لإعراضهم عما وجب عليهم من الإقرار بالتوحيد حين أشهدهم على أنفسهم أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ . (الأعراف : ١٧٢). ويحتمل أن يراد بالإيمان ، الإيمان بالقوة والفطرة ، وكفر جميع الكفار كان بعد هذا الإيمان لتمكنهم بالنظر الصحيح، والدلائل الواضحة، والآيات البينة من الإيمان بالله– تعالى– وبرسوله صلى الله عليه وسلم [٤٣].

وقوله : فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . أى فادخلوا جهنم وذوقوا مرارة العذاب وآلامه بسبب استمراركم على الكفر وموتكم عليه.

١٠٧ – وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى وأما الذين ابيضت وجوهم بركة إيمانهم وعملهم الصالح فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ ، أى ففى جنته ونعيمها لأنها محل الرحمة ومكانها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. أى خلودا أبديا سرمديا فى نعيم لا يحد بحد ولا تبلغ العقول مداه.

ومما تقدم نجد أن الناس فريقان يوم القيامة.

كفار اسودت وجوههم ، ومؤمنون ابيضت وجوهم. وقد ذكر بعض العلماء أن الذين اسودت وجوههم يوم القيامة هم الخوارج لأنهم كفروا بعد إيمانهم .

وقال آخرون : عنى بذلك كل من كفر بالله بعد الإيمان.

وقال آخرون بل الذين عنوا بقوله أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ . هم المنافقون ، كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم.

قال ابن جرير الطبرى – بعد أن ذكر هذه الآراء.

وأولى الأقوال التى ذكرناها فى ذلك بالصواب القول الذى ذكرناه على أبى بن كعب، أنه عنى بذلك جميع الكفار، وأن الإيمان الذى يوبخون على ارتدادهم عنه هو الإيمان الذى أقروا به يوم قيل لهم : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شهدنا . (الأعراف : ١٧٢). وذلك أن الله جل ثناؤه جعل جميع أهل الآخرة فريقين أحدهما سوداء وجوهم، والآخر بيضاء وجوهم ، فمعلوم إذا لم يكن هنالك إلا هذان الفريقان أن جميع الكفار داخلون فى فريق من اسود وجهه، وأن جميع المؤمنين داخلون فى فريق من ابيض وجهه.

١٠٨ – تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . هذه الحقائق التى تتصل بعذاب الكافرين ونعيم المؤمنين أو هذه الآيات البينات والحجج الواضحات نَتْلُوهَا عَلَيْكَ . يا محمد بِالْحَقِّ . أى محقين عادلين فيما بيناه من جزاء للعباد حسب أعمالهم وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ . أى ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور، لأنه القادر على كل شىء، العالم بكل شىء، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحدا من خلقه.

١٠٩ – وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ .

أى الجميع ملك له وحده : خلقا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيبا.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ . يئول التصرف فى شئون الدنيا والآخرة فيحكم بالحق والعدل، والحق يقتضى أن يكون لكل عمل جزاؤه، وأن يكون لكل شىء وزنه، وألا يترك الناس سدى، وألا يكون الخير والشر سواء.

★ ★ ★

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾

المفردات :

أمة	: الأمة : الجماعة .
الفاسقون	: الخارجون عن طاعة الله .
يولوكم الأدبار	: يعطوكم ظهوركم منهزمين .
ضربت عليهم الذلة	: أحيطوا بالذلة كما تحيط الخيمة بمن ضربت عليه، والمراد بالذلة: الهوان والصغار .
ثقفوا	: وجدوا .
بحبل	: بعهد .
باءوا	: رجعوا .
المسكنة	: الضعف والحاجة الناشئة عن فطرة فيهم .

١١٠ - كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. الآية.

والمعنى :

وجدتم خير أمة أخرجت للناس لأنكم تأمرون بالمعروف أى بالقول أو الفعل الجميل المستحسن فى الشرائع والعقول وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . أى كل قول أو فعل قبيح تستنكره الشرائع ويأباه أهل الإيمان القويم، والعقل السليم (٤٤).

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .. أُخْرِجَتْ .. إنه لتعبير يلفت النظر، لفظ أخرج، وبناؤه للمجهول.. وهو يكاد يشى باليد الخفية المدبرة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب، ومن وراء الستار السرمدى الذى لا يعلم ما وراءه إلا الله .

إنها للفظة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الدبيب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة .. فيا لها من يد قادرة مدبرة، تشى بها لفظه مصورة معبرة (٤٥).

والخطاب فى هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ﴾ للمؤمنين الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم ولمن أتى بعدهم واتبع تعاليم الإسلام إلى يوم الدين .

جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ .قال : هم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، والصحيح أن هذه الآية عامة فى جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كما قال فى الآية : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ . أى خيارا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .. (البقرة : ١٤٣).

وفى مسند أحمد وجامع الترمذى من رواية حكيم بن معاوية عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل» (٤٦) وهو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذى.

وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات ، بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبى قبله ولا رسول من الرسل (٤٧).

وقد ساق ابن كثير فى تفسيره أحاديث كثيرة فى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ونقل منها الأستاذ محمد على الصابونى خمسة عشر حديثا نبويا شريفا فى كتاب (مختصر تفسير ابن كثير) منها ما رواه البخارى ومسلم، ومنها ما رواه الإمام أحمد ومنها ما روى فى كتب السنن. وسننقل منها هذا الحديث الشريف :

روى مسلم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عرضت علىَّ الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى ومعه الرجل والرجلان والنبى وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فظننت أنهم أمتى فقيل : هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت، فإذا سواد عظيم ، فقيل : انظر إلى الأفق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئا، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فأخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكّاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم، قال : (أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم ، قال : سبقك بها عكّاشة) (٤٨).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

لقد بين الحق سبحانه وتعالى سبب أفضلية هذه الأمة فقال : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ . وهم ثلاث ركائز :

الأمر بالمعروف : والدعوة إلى الخير والكمال والسير على الصراط المستقيم .

والنهى عن المنكر : والتحذير من الفعل القبيح والسلوك المستهجن والنهى عن ارتكاب الفواحش ، واقتراف المعاصى.

والإيمان بالله : اليقين الجازم بوجوده وطاعته ، وإخلاص العبادة له، والتمسك بأمره والبعد عما نهى عنه.

والآية الكريمة وسام علوى لهذه الأمة إذا قامت بدورها وأدت واجبها وأطاعت خالقها واهتدت بسنة نبيها ورسولها .

فهل وعت الأمة الإسلامية هذا التنويه ؟.

إن واقع المسلمين الملىء بالضعف والهوان والفسوق والعصيان، والأثرة والتنازع والاختلاف، والتخلف والتأخر، وضعف الهمم والعزائم . كل هذا يدمى قلوب المؤمنين الصادقين .

ولا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : (إيمان صادق وعمل مخلص وتحمل تبعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).

قال ابن كثير : بعد أن ساق طائفة من الأحاديث النبوية فى فضل الأمة المحمدية - : فهذه الأحاديث فى معنى قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .

فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم فى هذا المدح. كما قال قتادة : بلَّغنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فى حجة حجها رأى من الناس دعة فقرأ هذه الآية : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ . ثم قال : (من سره أن يكون من هذه الأمة فيؤد شرط الله فيها) رواه ابن جرير.

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم .

أى وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ . بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم : أى لكان إيمانهم خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم، ولنالوا الخيرية التى ظفرت بها الأمة الإسلامية، ولكنهم لم يؤمنوا فامتنع الخير فيهم، لامتناع الإيمان الصحيح منهم .

مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ أى قليل منهم من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، كعبد الله ابن سلام وأضرابه.

وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ . أى المتمردون فى الكفر، الخارجون عن الحدود.

١١١ - لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ .

سيقت هذه الآية لتطمئن المؤمنين الصادقين ، بأن هؤلاء الفاسقين من أهل الكتاب لن يستطيعوا إلحاق أى ضرر بالغ بهم، ما داموا معتصمين بدينهم ، وكل ما يستطيعون أن يلحقوه بهم لا يتعدى أن يكون ضررا يسيرا كالطعن، والشتم ، والسخرية والتهديد والوعيد.

وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ .

بشرت الآية المسلمين بثلاث بشارات :

الأولى : أنهم فى مأمن من الضرر البليغ من جهة أهل الكتاب .

الثانية : أن أهل الكتاب لو قاتلوهم، فإن المؤمنين سيكون لهم النصر عليهم .

الثالثة : أن أهل الكتاب لن يحرزوا نصرا على المؤمنين، ولن تكون لهم شوكة أو قوة للأخذ بثأرهم بعد هزيمتهم أمام المؤمنين .

جاء فى تفسير ابن كثير ، وهكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة : (بنى قينقاع) (وبنى النضير) (وبنى قريظة) ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام ، كسرهم الصحابة فى غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين. ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم بملة الإسلام ، وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام .

١١٢ - ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ...

إن هؤلاء اليهود أحاطت بهم الذلة فى جميع أحوالهم أينما وجدوا وحيثما حلوا إلا فى حال اعتصامهم بعهد من الله أو بعهد من الناس.

وقال الشيخ محمد عبده : إن حالهم معكم أن يكونوا أذلاء مهضومى الحقوق رغم أنوفهم، إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ . وهو ما قررته شريعته لهم، إذا دخلوا فى حكمكم من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم إيذائهم وهضم شىء من حقوقهم ، وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ . هو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور، أى فهذا القدر المستثنى من عموم الذلة لم يأتهم من أنفسهم وإنما جاءهم من غيرهم (٤٩) .

وأجاز بعض المفسرين : أن يراد من حبل الناس، لجوءهم إلى قوة غالبة فى الأرض من غير المسلمين، يستظلون بحمايتهم ، ويستمدون منهم العون والقوة، كما هو شأنهم فى هذا الزمان (٥٠).

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ . أى رجعوا به مستحقين له : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ . أى فرضت عليهم والصقت بهم، فاليهودى يشعر فى نفسه - دائماً- بالفقر، وإن كان موسرا غنيا، وبالضعف وإن كان قويا.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ .

(يكشف القرآن الكريم عن سبب هذا القدر المكتوب على أهل الكتاب، فإذا هو الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء بغير حق، المنبعثان بدورهما عن العصيان والاعتداء، وإذن فهو الجزاء العادل، إنه الذلة فى مقابل التمرد، والمسكنة فى مقابل التطاول، والهزيمة فى مقابل الاعتداء .. جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد) (٥١).

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . أى ذلك الكفر، والقتل للأنبياء ، كائن بسبب عصيانهم واعتدائهم المستمر على حدود الله.

وتلك طبيعة اليهود دائمًا: تمرد على الدين، واعتداء على حرمات الله وحقوق عباده.

وقد ارتكب اليهود هذه القبائح وهم عالمون بجرمهم مخالفون لشرع الله عن تعمد وإصرار.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره هنا . قلت : معناه أنهم قتلوهم بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا، ولا أفسدوا فى الأرض فيقتلوا، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجها يستحقون به القتل عندهم (٥٢).

خاتمة :

إن الله تعالى لا يحابى أمة من الأمم ولا شعبا من الشعوب، لقد نصر المؤمنين عندما كانوا أهلا للنصر، لقد مكنهم الله فى الأرض وأورثهم عروش الأكاسرة والقياصرة، وأذل لهم اليهود وهم شعب غليظ الرقبة، وفتح لهم البلاد ومكنهم من العباد، فلما أعرض المسلمون عن هدى الله وشرعه، مكن منهم عدوهم جزاء وفاقا لأعمالهم.

ومن هنا نعلم أن الشرط فى نفى ضرر اليهود الذى يؤثر فى الأمة الإسلامية هو أن تكون مؤمنة بربها حق الإيمان، متبعة لهدى رسولها محمد صلى الله عليه وسلم .

جاء فى تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :

فإن قال قائل : ولكن اليهود قد انتصروا على المسلمين، وأقاموا لهم دولة فى بقعة من أعز بقاع البلاد الإسلامية وهى فلسطين، فهل تخلف وعد الله ؟.

والجواب على ذلك أن وعد الله – تعالى – ما تخلف ولن يتخلف، وقد حققه – سبحانه – لأسلافنا الصالحين الذين آمنوا به حق الإيمان ، ولكن المسلمين فى هذا العصر هم الذين تغيرت أحوالهم، فقد فرَّطوا فى دينهم. وأضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات وتفرقوا شيعا وأحزابا، وتنكبوا الطريق القويم، ولم يباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى لبلوغ النصر، ولم يحسنوا الشعور بالمسئولية .. فلما فعلوا ذلك تبدل حالهم من الخير إلى الشر ، ومن القوة إلى الضعف، وسلَّط الله عليهم من لا يخافهم ولا يرحمهم (٥٣). لأن الله تعالى : لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ. (الرعد : ١١) . وإذا عاد المسلمون

إلى أمر ربهم وتعاليم دينهم عاد إليهم المجد والعز والرفعة والنصر. وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. (الحج : ٤٠).

★ ★ ★

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) ﴾

المفردات :

قائمة : مستقيمة عادلة، من أقمت العود فقام، على معنى : استقام.

آناء الليل : ساعاته وأوقاته .

ويسارعون فى الخيرات : يبادرون إليها، ويتنافسون فيها .

فلن يكفروه : فلن يحرموا ثوابه، وحسن الجزاء عليه، والأصل فى الكفر: الستر ، أى : لن يحجب عنهم ذلك الأجر .

١١٣ - لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى ليس أهل الكتاب متساوين فى الكفر وسوء الأخلاق بل منهم طائفة قائمة بأمر الله مطيعة لشرعه مستقيمة على طريقته ثابتة على الحق ملازمة له، لم تتركه كما تركه الأكثرون من أهل الكتاب وضيعوه.

والمراد بهذه الطائفة من أهل الكتاب، أولئك الذين أسلموا منهم واستقاموا على أمر الله وأطاعوه فى السر والعلن.

(كعبد الله بن سلام) و (وأسد بن عُبيد) و (ثعلبة بن شعبة) و (النجاشى ومن آمن معه من النصارى)، فهؤلاء قد آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، ولم يفرقوا بين أنبياء الله ورسله ، فمدحهم الله على ذلك وأثنى عليهم.

روى عن قتادة أنه كان يقول فى الآية : (ليس كل القوم هلك قد كان لله فيهم بقية) وروى عن ابن عباس أنه قال فى الأمة القائمة (أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه) (٥٤).

قال الإمام محمد عبده : هذه الآية من العدل الإلهى فى بيان حقيقة الواقع وإزالة الإبهام السابق، وهى

دليل على أن دين الله واحد على ألسنة جميع الأنبياء، وأن كل من أخذه بإذعان وعمل فيه بإخلاص فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فهو من الصالحين [٥٥].

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ.

أى مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام.

واختار ذلك الزمخشرى فى الكشاف.

ورجح بعض المفسرين أن معناها موجودة ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة فى التمسك به.

كما فى قوله تعالى : إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .

أى ملازمًا لمطالبته بحقك.

ومنه قوله تعالى : شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . أى ملازما له [٥٦].

وفى ذلك تعريض بالمنحرفين عن الحق، بأنهم لا يعدّون من أهل الوجود ، وإنما حكمهم حكم العدم، وفى مثلهم قال الشاعر :

خلقوا وما خلقوا لمكرمـــة	فكأنهم خلقـوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سمــاح يد	فكأنهم رزقوا وما رزقــوا

يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ .

أى يقرءون القرآن حال صلاتهم من الليل.

والمعنى الإجمالى للآية : ليس أهل الكتاب متساوين فى الاتصاف بما ذكر من القبائح، بل منهم قوم سلموا منها، وهم الذين استقاموا على الحق ولزموه وأكثروا من تلاوة آيات الله فى صلاتهم التى يتقربون بها إلى الله آناء الليل وأطراف النهار .

وآناء الليل أى أوقاته وساعاته ، والمراد بها صلاة العشاء، أو الصلاة بين المغرب والعشاء، أو الصلاة فى منتصف الليل، وهو الوقت الذى غارت فيه النجوم ونامت العيون وبقى الله الواحد القيوم .

قال الطبرى فى تفسير الآية ، وهذه الأقوال التى ذكرتها على اختلافها متقاربة المعانى ، وذلك أن الله تعالى ذكره وصف هولاء القوم بأنهم يتلون آيات الله فى ساعات الليل وهى آناؤه ، وقد يكون تاليها فى صلاة العشاء تاليا لها آناء الليل، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومن تلاها جوف الليل، فكل تال له ساعات الليل غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال : عنى بذلك تلاوة القرآن فى صلاة العشاء لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب [٥٧].

وقد نقل الفخر الرازى فى هذه الآية قولين :

(**الأول**) : أن المراد بهذه الأمة القائمة عبد الله بن سلام وأصحابه من المسلمين.

(**الثانى**) : كل من أوتى الكتاب من أهل الأديان ، أى يتلون ما عندهم من مناجاة الله ودعائه والثناء عليه عز وجل وهى كثيرة فى كتبهم ، وقد رجح الرأى الثانى الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا فى تفسير المنار.

ونقل صاحب المنار نقلاً من زبور (مزامير) داود عليه السلام:

كقوله فى المزمور السادس والثلاثين (٥ - يارب فى السموات رحمتك، أمانتك إلى الغمام ٦ - عدلك مثل جبال الله وأحكامك لجة عظيمة ، ٧ - ما أكرم رحمتك يا الله، فبنو البشر فى ظل جناحيك يحتمون ٨ - يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم، ٩ - لأن عندك ينبوع الحياة بنورك نرى نورا، ١٠ - أدم رحمتك للذين يعرفونك وعدلك للمستقيمى القلب).

وقوله فى المزمور الخامس والعشرين : (١ - إليك يا رب أرفع نفسى . ٢ - يا إلهى عليك توكلت، فلا تدعنى أخزى، لا تشمت بى أعدائى. ٣ - أيضا كل منتظريك لا يخزون، ليخز الغادرون بلا سبب. ٤ - طرقك يارب عرّفني، سبلك علمنى ، ٥ - دربنى فى حقك علمنى، لأنك أنت إله خلاصى ...).

وأمثال هذه الأدعية والمناجاة كثيرة جدا ، وإذا رآها العربى البليغ غريبة الأسلوب، فليذكر أنها ترجمة ضعيفة وأن قراءتها بلغة أهل الكتاب أشد تأثيراً فى النفس من قراءة ترجمتها هذه [٥٨].

أما السجود الذى أسنده إليهم ، فهو إما عبارة عن صلاتهم ، وإما استعمال له بمعناه اللغوى وهو التطامن والتذلل كما فى قوله تعالى فى خطاب مريم : وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ . (آل عمران : ٤٣) .

١١٤ - يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

تستمر هذه الآية فى رسم صورة وضيئة لمن آمن من أهل الكتاب.

فقد آمنوا إيمانا عميقا بالله وباليوم الآخر ، وعملوا بمقتضى هذا الإيمان فأمروا بالمعروف وأرشدوا الناس إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونهوا عن المنكر، وحذروهم من الكفر، وسارعوا إلى فعل الخيرات، منتقلين فى كل أعمالهم من خير إلى خير، وهم بسبب إيمانهم وأفعالهم الحميدة قد خرجوا من صفوف المذمومين إلى صفوف الممدوحين.

قال الفخر الرازى : واعلم أن وصفهم بالصلاح فى غاية المدح، ويدل عليه القرآن والمعقول.

أما القرآن فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء فقال بعد ذكر إدريس وإسماعيل وذى الكفل وغيرهم : وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ . (الأنبياء : ٨٦).

وذكر حكاية عن سليمان أنه قال : وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ . (النمل : ١٩).

وأما المعقول ، فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغى أن يكون فهو فساد سواء كان ذلك فى العقائد أو فى الأعمال، فإذا كان الصلاح معناه الأمثل والأفضل، كان الصلاح دالا على أكمل الدرجات (٥٩).

من تفسير الطبرى :

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ .

يعنى بقوله عز وجل : يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ : يصدقون بالله وبالبعث بعد الممات ويعلمون أن الله مجازيهم بأعمالهم، وليسو كالمشركين الذين يجحدون وحدانية الله ويعبدون معه غيره، ويكذبون بالبعث بعد الممات، وينكرون المجازاة على الأعمال والثواب والعقاب، وقوله: وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ . أى يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وتصديق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . أى وينهون الناس عن الكفر بالله وتكذيب محمد وما جاءهم به من عند الله، يعنى بذلك أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما أتاهم به من عند الله. وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ . أى يبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك. ثم أخبر جل ثناؤه أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب، هم من عداد الصالحين ، لأن من كان منهم فاسقا فقد باء بغضب من الله لكفره بالله وآياته، وعصيانه بربه، واعتدائه فى حدوده (٦٠).

١١٥ - وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٦١).

أى : ما يقدمونه من أفعال الخير، لن يضيع عند الله ثوابه، ولا ينقص جزاؤه، وإنما سيجازيهم الله عليه بما هم أهل له من ثواب جزيل وأجر كبير بدون أى نقصان أو حرمان .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . أى لا يخفى عليه عمل الأتقياء ، ولا يذهب لديه أجر من أحسن عملا.

(فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد أنصفت المؤمنين الصادقين من أهل الكتاب، ووصفتهم بجملة من الصفات الطيبة. وصفتهم بأنهم طائفة ثابتة على الحق، وأنهم يتلون آيات الله آناء الليل وأطراف النهار، وأنهم مكثرون من التضرع إلى الله فى صلواتهم وسجودهم ، وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأنهم يأمرون بالمعروف، وأنهم ينهون عن المنكر وأنهم يسارعون فى الخيرات ، وأنهم من الصالحين.

ثم بشرهم سبحانه ، بحسن الجزاء، لأن الله عليم بأحوال عباده ولن يضيع أجر من أحسن عملا) (٦٢).

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

سياج الأمم ، وأساس رفعتها وتفوقها، وقانون بقائها التناصح والتواصى بالحق والصبر، وقد مدح الله أمة الإسلام بأنها خير أمة إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة : الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والإيمان

بالله، ومدح طائفة من أهل الكتاب بثباتهم على الحق، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد استحق بنو إسرائيل اللعنة من أجل ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

أخرج أبو داود فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - : إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول له : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد على حالة فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال - صلى الله عليه وسلم - : لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (المائدة : ٧٨، ٧٩). ثم قال : كلا والله : لتأمرن ، ولتنهن عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرا - أى ولتحملنه على اتباع الحق حملا - أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم [٦٣].

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

المفردات :

حرث قوم : زرعهم .

صِـــرٌّ : برد شديد .

التفسير :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

اختلف المفسرون فى المراد بالذين كفروا، فقيل : هم بنو قريظة والنضير من اليهود ، وقيل : هم مشركو قريش عامة، وقيل : هم أبو سفيان ورهطه خاصة، وقيل : إن الكلام فى الكفار عامة لعموم اللفظ فهو على إطلاقه ويدخل فيه اليهود وكذا مشركو مكة دخولاً أوليا، قالوا: إنهم كلهم كانوا يعتزون بكثرة الأموال ويعيِّرون النبى ﷺ وأتباعه بالفقر ويقولون: لو كان محمد على الحق ما تركه ربه فى هذا الفقر، وقيل: هم المنافقون [٦٤].

والمعنى :

إن الذين كفروا بما يجب الإيمان به ، واغتروا بأموالهم وأولادهم فى الدنيا، لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا - ولو يسيرا - من عذاب الله، الذى سيحيق بهم يوم القيامة بسبب كفرهم وجحودهم.

وليس المراد : خصوص الأموال والأولاد، بل كل ما يعتبره الإنسان وسيلة قوة ومنعة، وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان- فى الغالب - يدفع عن نفسه بالفداء بالمال ، أو الاستعانة بالأولاد.

وقد حكى القرآن غرور المترفين بالأموال والأولاد فقال سبحانه : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . (سبأ : ٣٤-٣٥) . فأخبرهم الله تعالى بأن الكافر لا ينفعه شىء من ذلك فى الآخرة، ولا مخلص له من العذاب ولا محيص عنه.

وَأُوْلَئِكَ المتصفون بالكفر أَصْحَابُ النَّارِ أهلها الملازمون لها هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ لا يبرحونها أبدا.

قال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. (فاطر : ٣٦).

وقال سبحانه : وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . (المائدة : ٣٧).

١١٧ - مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

قال أكثر المفسرين : الصر : البرد الشديد.

وفى الصحاح : الصِّر بالكسر برد يضر بالنبات والحرث.

وقيل : الصِّرُّ : السموم الحارة، وعن ابن عباس فِيهَا صِرٌّ أى نار. وعلى القولين الغرض من التشبيه حاصل سواء كان بردا مهلكا أو حرا محرقا (٦٥).

وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا . . شَيْئًا منصوب على أنه مفعول أى لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا من الإغناء والدفع، وتنكير شَيْئًا للتقليل .

وفى تفسير ابن كثير صِرٌّ أى برد شديد، وقال عطاء : برد وجليد، أو فِيهَا صِرٌّ . أى نار ، وهو يرجع إلى القول الأول، فإن البرد الشديد، ولاسيما الجليد يحرق الزرع والثمار كما يحرق الشىء بالنار .

وترسم الآية مشهدًا حسيا ينبض بالحركة، يصور ضياع أعمال الكافرين، وذهاب ما ينفقون فى حياتهم الدنيا من أموال.

قال النيسابورى : والظاهر أن الضمير فى ينفقون عائد إلى جميع الكفار ، وذلك أن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا فلا يبقى له أثر فى الآخرة، فى حق المسلم فضلاً عن الكافر ، وإما أن يكون لمنافع الآخرة؛ فالكفر مانع عن الانتفاع به، ولعلهم كانوا ينفقون فى الخيرات كالإحسان إلى الضعفاء والأرامل راجين خيرا كثيرا فى المعاد لكنهم إذا قدموا الآخرة رأوا كفرهم مبطلا لآثار تلك الخيرات، فكان كمن زرع زرعا وتوقع منه نفعا كبيرا فأصابته جائحة فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف.

ولعلهم كانوا ينفقون فيما ظنوه خيرا وهو معصية كإنفاق الأموال فى إيذاء الرسول ﷺ وفى تخريب ديار المسلمين.

ولا يبعد أيضا تفسير الآية بخيبتهم فى الدنيا فإنهم أنفقوا أموالا كثيرة فى تجهيز الجيوش والإغارة على المسلمين ، وتحملوا المتاعب ، ثم انقلب الأمر عليهم وأظهر الله الإسلام وأعز أهله، فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الحيرة والحسرة، وقيل: المراد بالإنفاق ههنا هو جميع أعمالهم التى يرجون الانتفاع بها فى الآخرة (٦٦).

وجاء فى ظلال القرآن :

(ونَنظر فإذا نحن أمام حقل تهيأ للإخصاب ، ثم إذا العاصفة تهب ، إنها عاصفة باردة ثلجية، تحرق هذا الحرث بما فيها من صر - واللفظة ذاتها كأنما هى مقذوف يلقى بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ - وإذا الحرث كله مدمر خرب.

إنها لحظة تمّ فيها كل شىء، تم فيها الدمار والهلاك، وإذا الحرث كله يباب.. ذلك مثل ما ينفق الذين كفروا فى هذه الدنيا، ومثل ما بأيديهم من نعم الأموال والأولاد.. كله إلى هلاك وفناء دون ما متعة حقة ، ودون ما جزاء (٦٧).

وقوله تعالى : أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ . أى أصابت زرع قوم ظلموا أنفسهم بالكفر وارتكاب المعاصى فدمرته ، وأهلكت ما فيه من ثمار، وهم أحوج ما يكونون إلى هذا الزرع وتلك الثمار.

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ . بإحباط الأجر وذهاب الثواب على ما أنفقوا وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان أو بترك النظر فى الآيات البينات بعد ما ظهرت لهم، أو بالجحود بعد النظر ونهوض الحجة (٦٨).

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

المفردات :

بطانة : بطانة الرجل، خاصته وموضع سره. مأخوذ من بطانة الثوب . من دونكم: من غير ملتكم.

لا يألونكم خبالا : لا يقصرون ولا يدخرون وسعا فى إنزال الخبال بكم . والخبال: الشر والفساد .

ودوا ما عنتم : العنت : المشقة . والمعنى : هم تمنوا ما يشق عليكم .

البغضاء : الحقد والكراهية.

بذات الصدور : بما انطوت عليه القلوب من الأسرار. فإنه سبحانه يعلم السر وأخفى.

التفسير :

١١٨ - **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ...** الآية .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين والكافرين ، حذَّر المؤمنين من موالاة الكافرين، وجعلهم موضع ثقتهم، باطلاعهم على بواطن أمورهم فقال :

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً .

أى : لا تتخذوا من غير المسلمين أصفياء: تجعلونهم مواضع سركم ومشورتكم، لأنهم لا يدخرون وسعا فى إلحاق الشر والفساد بكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ . أى : أحبوا أن يقع بكم ما يشق عليكم من أنواع المحن والبلاء فى شئون دينكم ودنياكم.

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . أى : قد ظهرت الكراهية من أفواههم، على فلتات ألسنتهم . **وما تخفي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ** . وما تنطوى عليه صدورهم من الحقد والكراهية لكم أكبر مما ظهر على أفواههم.

قد أوضحنا لكم الآيات الدالة على شديد بغضهم لكم. فلا توالوهم إن كنتم من ذوى العقول الواعية، فإن مقتضى العقل السليم: ألا يتخذ الإنسان أحدا من غير ملته صفيا له ومحل ثقة.

وفى هذا البيان ما يقطع عذرهم ، إذا ما خالفوا عن أمر ربهم، واتخذوا أولياءهم من أعدائهم.

١١٩ - ها أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ... الآية .

لما نهى الله المؤمنين عن موالاة الكافرين ، وبين أنهم يبغضونهم ولا يدخرون وسعا فى خبالهم، عقب ذلك بما يؤكد وجوب الانتهاء عن موالاتهم. فقال :

هَا أَنتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ .

أى : أنكم تخلصون لهم، وتودونهم ، وترجون لهم الخير. ولكنهم لا يحبونكم ، ولا يرغبون إلا فى خبالكم وفسادكم ، ثم إنكم - إلى جانب حبكم لهم - تؤمنون بكل ما أنزل من الكتب السماوية ، وبالرسل الذين أنزلت عليهم.

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا . نفاقا لكم وخداعا حتى تستبطنوهم وتخبروهم بأسراركم، فيستغلوا مودتكم فيما ينفعهم ، وفيما يجلب الخبال فيكم .

وإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ :

أى : إذا فارقوكم ، وخلصوا إلى أنفسهم، عضوا أناملهم من الغيظ حسرة وأسفا، حيث لم يجدوا إلى التشفى والنيل منكم سبيلا.

وعض الأنامل فى الآية، كناية عن شدة الغيظ.

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : موتوا بغيظكم من بقائنا على الإسلام ، فإن الله متم نعمته ومكمل دينه، ومعلِ كلمته، ولو كره الكافرون.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . فيعلم ما تنطوى عليه ضمائرهم، وتكنه سرائرهم من البغضاء والحسد. ويكفى المسلمين شره، ويجازيكم عليه.

١٢٠ - إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... الآية.

المعنى : إن نالكم خير- ولو كان قليلا - أحزنهم ، وإن نزلت بكم مصيبة فادحة يفرحوا بها ويشمتوا بكم.

وَإِن تَصْبِرُوا . على عداوتهم وكيدهم . وَتَتَّقُوا . الله فى كل أموركم : بفعل الواجبات وترك المنهيات. ومن ذلك ترك محبتهم وإطلاعهم على أسراركم.

لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا . أى لا ينال منكم مكرهم وحيلهم التى يدبرونها لكم شيئا قليلا من الضرر، بحفظ الله الذى وعد به، ما دمتم تتقون الله وتخشون عقابه.

إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ . من الكيد لكم ، ومحاولة إلحاق الأذى بكم.

مُحِيطٌ . لا يعزب عنه من ذلك شىء .

ومقتضى علمه تعالى بما يعملون : أن يحاسبهم ويجزيهم عليه.

وقرئ بتاء الخطاب تَعْمَلُونَ . والخطاب للمؤمنين.

والمعنى : إن الله محيط بما تعملونه، أيها المؤمنون ، من الصبر والتقوى وسائر الطاعات. والإذعان لما نهاكم عنه من مودة من ليس على دينكم ، وإطلاعهم على أسراركم .

وفيه إشارة إلى أن الامتثال مدعاة للغلب والفوز والانتصار، وأن المخالفة عن أوامر الله، سبيل الندامة والهلاك (٦٩).

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

المفردات :

غدوت : أصل الغدو، الذهاب أول النهار، ثم استعمل فى مطلق الخروج .

همت طائفتان منكم ان تفشلا : أشرفتا على الهزيمة .

تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال : تنزلهم الأماكن المناسبة للقتال.

ببـدر : بدر، اسم لمكان بين مكة والمدينة كانت به الغزوة المعروفة باسمه .

وأنتم اذلة : قليلو العدد والعدة .

من فورهم : أى من ساعتهم.

مسوِّمين : مسومين بكسر الواو المشددة، متخذين سمة، أى علامة تميزهم، وبفتحها، بمعنى معلَّمين من الله تعالى.

١٢٠ آية :

نلحظ أن سورة آل عمران تحدثت عن وحدانية الله وجلاله وعن مظاهر قدرته ورحمته، وعن جوانب من قصة آل عمران، وعن الشبهات التى ساقها اليهود وألوان الحرب النفسية وساقت للمؤمنين من التوجيهات والعظات ما يهدى قلبوهم ويصلح بالهم ويكفل لهم النصر على أعدائهم من خلال ١٢٠ آية فى بداية السورة .

٦٠ آية :

ثم تحدثت سورة آل عمران ، عن جوانب متعددة من غزوة أحد فى حوالى ٦٠ آية من الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠.

قصة غزوة أُحد

كانت غزوة بدر من الغزوات المشهورة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد انتصر أتباعها انتصارا مؤزرا على كفار قريش...

وصمم المشركون على أن يأخذوا بثأرهم من المسلمين، فجمعوا جموعهم، وخرجوا فى جيش كبير، ومعهم بعض نسائهم حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال فى القتال ..

ووصل مشركو قريش ومعهم حلفاؤهم إلى أطراف المدينة فى أوائل شوال من السنة الثالثة ، وكان عددهم يربو على ثلاثة آلاف رجل.

واستشار النبى – صلى الله عليه وسلم – أصحابه فى شأن هؤلاء المشركين الزاحفين إلى المدينة .

فكان رأى بعضهم – ومعظمهم من الشباب – الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة

وكان من رأى فريق آخر من الصحابة ، استدراج المشركين إلى أزقة المدينة ومقاتلتهم بداخلها، وكان النبى – صلى الله عليه وسلم – يميل إلى رأى هذا الفريق إلا أنه آثر الأخذ برأى الفريق الأول الذى يرى أصحابه الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة، نظرا لكثرة عدد القائلين بذلك.

ثم دخل النبى – صلى الله عليه وسلم – بيته ، ثم خرج منه وقد لبس آلة حربه، وشعر بعض المسلمين أنهم قد استكرهوا النبى – صلى الله عليه وسلم – على القتال ، فأظهروا له الرغبة فى النزول على رأيه، إلا أنه لم يستجب لهم ، وقال كلمته التى تعلم الناس الحزم وعدم التردد : « ما ينبغى لنبى لبس لأمَته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه. لقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج. فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس. وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه ... » (٧٠).

ثم خرج النبى - صلى الله عليه وسلم - فى ألف مقاتل من المسلمين حتى نزل قريبا من جبل « أحد » إلا أن « عبد الله بن أبى بن سلول » انسحب فى الطريق بثلث الناس محتجا بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يأخذ برأيه، بل أخذ برأى غيره.

وعسكر المسلمون بالشعب من أحد ، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبى - صلى الله عليه وسلم - الخطبة لكسب المعركة، فجاءت خطة محكمة رائعة. فقد وزع الرماة على أماكنهم وكانوا خمسين راميا، وقال لهم: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم ».

وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لهم : «احموا ظهورنا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا. وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا» [٧١].

وأخيرا التقى الجمعان، وأذن النبى - صلى الله عليه وسلم - لأتباعه أن يجالدوا أعداءهم، وأظهر المسلمون أسمى صور البطولة والإقدام، وكان شعارهم فى هذا الالتحام « أمت أمت ».

وما هى إلا جولات فى أوائل المعركة، حتى ولى المشركون المسلمين الأدبار، ولم يغن عن المشركين شيئاً ما كانت تقوم به نسوتهم من تحريض واستنهاض للعزائم.

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله - تعالى - نصره ، وصدق وعده، فحثوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

ورأى الرماة الهزيمة وهى تحل بقريش ، فتطلعت نفوسهم إلى الغنائم، وحاول أميرهم « عبد الله بن جبير» أن يمنعهم عن ترك أماكنهم عملاً بوصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أن معظمهم تركوا أماكنهم ونزلوا إلى ساحة المعركة ليشاركوا فى جمع الغنائم والأسلاب ...

وأدرك خالد بن الوليد - وكان مشركا - أن ظهور المسلمين قد انكشفت بترك الرماة لأماكنهم، فاهتبل الفرصة على عجل، واستدار بمن معه من خيل المشركين خلف المسلمين فأحدق بهم، وأخذ فى مهاجمتهم من مكان ما كانوا ليظنوا أنهم سيهاجمون منه، فقد كانوا يعتمدون على الرماة فى حماية ظهورهم ..

وعاد المشركون المنهزمون إلى مقاتلة المسلمين، بعد أن رأوا ما فعله « خالد » ومن معه.

واضطربت صفوف المسلمين للتحول المفاجئ الذى حدث لهم، إلا أن فريقا منهم أخذ يقاتل ببسالة وصبر.. واستشهد عدد كبير منهم وهم يحاولون شق طريقهم ..

وأصيب النبى - صلى الله عليه و سلم - خلال ذلك بجروح بالغة، وأشيع أنه قد قتل إلا أنه - صلى الله عليه وسلم - جعل يصيح بالمسلمين : إلىَّ عباد الله، إلىّ عباد الله .. فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا، ودافعوا عنه دفاع الأبطال المخلصين ..

ومرت على المسلمين ساعة من أحرج الساعات فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فقد كان المشركون يهاجمون النبى - صلى الله عليه وسلم - بعناد وحقد، وكان المسلمون مستميتين فى الدفاع عن رسولهم وعن أنفسهم.

وكان لهذه الاستماتة آثارها فى تراجع المشركين ، وقد ظنوا أنهم قد أخذوا بثأرهم من المسلمين ..

وخشى النبى – صلى الله عليه وسلم – أن يكون تراجع المشركين من أجل مهاجمة المدينة، فقال لعلى بن أبى طالب: اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ، فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة. فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها.

قال على : فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة.

وعندما انصرف أبو سفيان نادى : إن موعدكم بدر العام المقبل . فقال الرسول – صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه – : قل له : نعم بيننا وبينك موعد.

وانتهت غزوة أُحد باستشهاد حوالى سبعين صحابيا من بينهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع ... وغيرهم من الأبطال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

التفسير :

١٢١ – وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

واذكر لهم يا محمد ليعتبروا ويتعظوا وقت خروجك مبكرا من حجرة زوجك عائشة إلى غزوة أحد.

تبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال . أى تنزلهم وتسوّى لهم بالتنظيم والترتيب مواطن وأماكن للقتال بحيث يكونون فى أحسن حال وأكمل استعداد لملاقاة أعدائهم.

وتشير الآية إلى ما فعله النبى – صلى الله عليه وسلم – مع أصحابه قبل أن تبدأ المعركة، فقد اهتم بتنظيم صفوفهم، وبرسم الخطة الحكيمة التى تكفل لهم النصر.

فجعل للجيش ميمنة وميسرة، وجعل الرماة على ظهر الجبل، وأمر الجيش كله ألا يتحرك للقتال إلا عندما يأذن له بذلك.

والله سميعٌ عليمٌ . أى سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم ونياتكم وأعمالكم، فيجازى كل إنسان على حسب قوله ونيته وعمله. والمقصود من هذه الجملة غرس الرهبة فى قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا إلى مثل ما حدث من بعضهم فى غزوة أحد، حيث خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

١٢٢ – إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

(الهم) : هو حديث النفس واتجاهها إلى شىء معين دون أن تأخذ فى تنفيذه، فإذا أخذت فى تنفيذه صار إرادة وعزما وتصميما.

تَفْشَلا : من الفشل وهو الجبن والخور والضعف، يقال فشل يفشل فشلا فهو فشل أى جبان ضعيف القلب.

والمعنى : اذكر يا محمد حين همت طائفتان – وهما بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج، أن تفشلا وتضعفا وتجبنا عن القتال، وتتبعا عبد الله بن أُبى ابن سلول عندما انخذل بثلث الناس وقال : يا قوم علام نقتل أنفسنا وأولادنا؟ فعصمهم الله فمضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧٢).

وعن ابن عباس قال : أضمروا أن يرجعوا فعزم الله لهم الرشد فثبتوا .. والظاهر أنها ما كانت إلا همة وحديث نفس ، كما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردّها صاحبها إلى الثبات والصبر، ويوطنها على احتمال المكروه ... ولو كانت عزيمة لما ثبتت معها ولاية الله (٧٣).

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

التوكل هو الاعتماد على الله تعالى بعد الأخذ فى الأسباب ، فإذا لم يأخذ الإنسان فى الأسباب كان تواكلا لا توكلا.

أى وعلى الله وحده لا على غيره فليكل المؤمنون أمورهم، بعد اتخاذ الأسباب التى أمرهم- سبحانه - باتخاذها ، فإنهم متى فعلوا ذلك تولاهم سبحانه بتأييده ورعايته .

إن حديث القرآن فى سورة آل عمران عن غزوة أحد استمر قرابة ستين آية، ولم يسر القرآن فى أحداث الغزوة حسب ترتيب خروجها وأحداثها. بل حسب مشيئة الحق سبحانه فى أن ينتزع منها العبرة والعظة، ويصوّر الجوّ الذى صاحبها، وبذلك تتحول الغزوة إلى نقطة ارتكاز لثروة ضخمة من المشاعر والسمات، والنتائج والاستدلالات، يبدأ السياق منها، ثم يستطرد حولها ثم يعود إليها ثم يجول فى أعماق الضمائر، وفى أغوار الحياة، ويكرر هذا مرة بعد مرة، والقرآن بهذا يأسو جراح المؤمنين ويثبت إيمانهم ، ويشحذ عزائمهم ، ويتخلل ذلك تربية وتعليم وبيان لسنن الله ونواميسه، وبهذا كان القرآن كتاب الحياة، أنشأ أمة وأقام دولة وربَّى آجيالاً، وصنع ضمائر وحرّك همما وعزائم ، صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ . (النمل : ٨٨).

١٢٣ – وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

تشير الآية إلى معركة بدر وكانت يوم الجمعة ١٧ رمضان سنة ٢هـ، وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الإسلام وأهله، وأذلّ الشرك وأهله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فارسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف، فى سوابغ الحديد والعدة الكاملة، والخيول المسوَّمة (٧٤)، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله.

وقرية بدر لا تزال إلى الآن فى الطريق بين مكة والمدينة، وهى أقرب إلى المدينة منها إلى مكة، وقد زرت هذه القرية وشاهدت مكان المعركة، واستشعرت فضل الله وعونه ومدده الذى أمدَّ به المؤمنين فى غزوة بدر، فنصرهم على عدوِّهم ، مع قلة المسلمين وقلة عدتهم، وكثرة عدوهم واستكمال عدته، ولو تمت أمور هذه الغزوة بمقاييس القوة والاستعداد - دون التوكل على الله - لكان النصر لقريش دون المسلمين، ولكن النصر جرى على سنة الله من نصر المؤمنين المتقين الصابرين المتوكلين على الله ، قال تعالى : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ .

وليس المراد بالذل أنهم كانوا ضعاف النفوس، أو كانوا راضين بالهوان.. وإنما المراد أنهم كانوا قليلى العدة والعدد، فقراء فى الأموال وفى وسائل القتال.

قال تعالى فى آية أخرى : لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا . (التوبة : ٢٥).

وقال الإمام أحمد عن سماك قال : سمعت عياضاً الأشعرى قال : شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء، وقال عمر : إذا كان قتالا فعليكم أبو عبيدة، فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا أنه قد جاء فى كتابكم تستمدوني، وإنى أدلكم على من هو أعز نصرا، وأحصن جندا، الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمد صلى الله عليه وسلم قد نصر فى يوم بدر فى أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى. قال : فقاتلناهم فهزمناهم، أربع فراسخ، وأصبنا أموالا كثيرة (٧٥).

فَاتَّقُوا اللَّهَ . فى الثبات والصبر وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . أى لعل الله أن ينعم عليكم بالنصر فتشكروه عليه.

١٢٤ - إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ .

المعنى : اذكر يا محمد إذ تقول للمؤمنين يوم بدر : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف منزلين من الله، لتثبيتكم وتقوية قلوبكم على أعدائكم ، وإن أنتم توكلتم عليه وصبرتم .

قال ابن كثير: اختلف المفسرون فى هذا الوعد هل كان يوم بدر أو يوم أُحد على قولين أحدهما أن قوله تعالى : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ . متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ .

والقول الثانى : يرى أصحابه أن هذا الوعد متعلق بقوله تعالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ... . وذلك يوم أحد.

(والقول الأول قول أكثر المفسرين لأن الكلام متصل بقصة بدر ، ولأن العدة والعدد يوم بدر كانا أقل وكان الاحتياج إلى المدد أكثر » (٧٦).

١٢٥ - بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ .

بَلَىٰ . أى نعم ، يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من الله، ولكنه سبحانه يعدكم بأنكم إن تَصْبِرُوا . على قتال أعدائكم، وعلى كل ما أمركم الله بالصبر عليه وَتَتَّقُوا . الله وتخشوه وتجتنبوا معاصية ويأتوكم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا . أى ويعاجلكم المشركون مسرعين ليحاربوكم، وقد أعددتم أنفسكم لقتالهم، إذا فعلتم ذلك - يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلمين أنفسهم أو خيلهم بعلامات مخصوصة.

فى أعقاب الآية :

إذا كان الله تعالى قد أمد المؤمنين بالملائكة فى بدر فهل كانت وظيفتهم القتال مع المؤمنين؟ أو كانت وظيفتهم تثبيت المؤمنين فقط ؟.

يرى كثير من العلماء أن الملائكة قد قاتلت مع المؤمنين .

قال القرطبى : تظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت .

ويرى فريق آخر من العلماء أن الملائكة ما قاتلت مع المسلمين يوم بدر، وإنما أمد الله المؤمنين بالملائكة لتثبيت نفوسهم وتقوية قلوبهم، ولتخذيل المشركين وإلقاء الرعب فى قلوبهم.

قال صاحب تفسير المنار :

ليس فى القرآن الكريم نص ناطق بأن الملائكة قاتلت بالفعل، وإنما جاء ذكر الملائكة فى سياق الكلام عن غزوة بدر فى سورة الأنفال، على أنها وعد من الله تعالى بإمداد المؤمنين بألف من الملائكة.

وفسر هذا الإمداد بقوله عز وجل :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . (الأنفال : ١٢) .

قال ابن جرير الطبرى فى معنى التثبيت :

« يقول قووا عزمهم، وصححوا نياتهم، فى قتال عدوهم من المشركين ».

وقيل : كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم.

ونقل صاحب المنار نقولاً كثيرة فى تفسير هذه الآية، وفى تفسير سورة الأنفال رجح فيها أن معونة الملائكة للمؤمنين كانت معنوية وأن الملائكة لم تباشر القتال [٧٧].

وقال النيسابورى :

أجمع أهل التفسير وأرباب السير أنه تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، وعن ابن عباس أنه لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر، وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضربون، ومنهم من قال : إن نصر الملائكة بإلقاء الرعب فى قلوب الكفار، وبإشعار المؤمنين بأن النصر لهم.

هل هذه مناقشة مجدية :

فى كتب التفسير الكبرى مثل تفسير الطبرى والنيسابورى وفخر الدين الرازى وتفسير المنار، نجد نقاشا قويا بحجج وأسانيد وأدلة عقلية ونقلية حول موضوعين :

الأول : هل أمدّ الله تعالى المؤمنين فى غزوة بدر بهذا العدد المذكور فى الآية ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة آل عمران ؟.

فبعض المفسرين يرى أن الله أمدّ المؤمنين فى بدر بخمسة آلاف من الملائكة، وقال آخرون : لم يزد المدد على ألف من الملائكة.

الموضوع الثانى : هل باشرت الملائكة القتال بنفسها، أم اقتصرت مهمتها على تثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب فى قلوب المشركين ؟ .

والذى يطمئن إليه القلب أن الله تعالى أمد المؤمنين، وإن ذلك كان من أسباب النصر.

أما النقاش فى عدد الملائكة يوم بدر وهل كان ألفا أو خمسة آلاف؟ والنقاش فى عمل الملائكة يوم بدر، فهو لون من ألوان التّرف العقلى. إنّ الملائكة من عالم الغيب ويكفينا كتاب الله، ويكفى المسلم أن يعتقد بأن الله أوحى للملائكة بأن تثبت المؤمنين وتساعدهم فى اكتساب النصر، ولا يضير المسلم أن يجهل عدد الملائكة التى تنزّلت، ولا يزيد فى يقينه أن يعتقد أن الملائكة باشرت القتال ، أو اقتصرت مهمتها على التثبيت ، وآراء الفريقين تحتملها النصوص ، ولا نريد أن نرجح رأى فريق ، بل نحن أقرب إلى التسليم والتفويض وقولنا : آمنّا به كُلٌّ من عند ربّنا .

★ ★ ★

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المفردات :

فينقلبوا خائبين : فيرتدوا منقطعى الآمال.

يكبتهم : الكبت : شدة الغيظ، أو وهن يقع فى القلب.

ليقطع طرفا : لينقص فريقا من الكافرين بالقتل والأسر.

التفسير :

١٢٦ - وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

أى وما جعل الله الإمداد بالملائكة ولا الوعد به ، إلا بشارة لكم بالنصر، وتطمينا لقلوبكم حتى تثبتوا أمام عدوكم ، وليس النصر إلا من الله وحده فهو العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم الذى يفعل كل ما يريد فعله حسبما تقتضيه حكمته ، فالمدد بالملائكة أو غيرها سبب ظاهر ، والسبب الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

(ولقد حرص القرآن فى كثير من آياته على تثبيت هذا المعنى فى قلوب المؤمنين ، حتى لا يعتمدوا على الأسباب والوسائل التى بين أيديهم ويغتروا بها دون أن يلتفتوا إلى قدرة خالق الأسباب والوسائل، فإنهم إذا اغتروا بالأسباب والوسائل، ونسوا خالقها أتاهم الفشل من حيث لم يحتسبوا وكان أمرهم فرطا) [٧٨].

والمؤمن الحق قويّ الإيمان بربه، واثق بقدرة خالقه، فهو سبحانه يقول للشىء كن فيكون ، لكنه سبحانه جعل للنصر أسبابا، وجعل لهذا الكون نواميس وقوانين، وأمرنا أن نأخذ بالأسباب مع اليقين الجازم بقدرة القادر، فعلينا بطاعة الله وامتثال أمره واجتناب نهيه، فمن أطاعَ الله أطاعه كل شىء يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . (محمد : ٧).

١٢٧ - لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ .

إن النصر من عند الله ، وقد نصر الله المؤمنين فى بدر، وهو سبحانه حكيم فى إنزاله النصر ، وحكمة هذا النصر أن ينقص جانبا من الذين كفروا ويستأصلهم بالقتل ، وينقص من أرضهم بالفتح ، ومن سلطانهم بالقهر ، ومن أموالهم بالغنيمة.

أَوْ يَكْبِتَهُمْ ويذلهم ويغيظهم غيظا شديدا بسبب ما نزل بهم من هزيمة، فيعودوا إلى ديارهم منكسرين مدحورين، فقد كانوا يقصدون إطفاء نور الإسلام فخاب قصدهم ، وطاش سهمهم ، وعادوا وقد فقدوا الكثيرين من وجوههم وصناديدهم ، أما الإسلام فقد ازداد نوره تألقا، وازداد أتباعه إيمانا على إيمانهم ، ورزقهم الله النصر المبين.

١٢٨ - لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

كانت الحرب سجالا بين المؤمنين والكافرين ، وأرسل النبى ﷺ سبعين قارئا لتعليم القرآن لبعض القبائل ، فقتلهم المشركون ، وقد اشتد حزن الرسول ﷺ لموت القراء ودعا على المشركين (٧٩).

وقد حدث مثل ذلك فى غزوة أحد، عندما لحقت الهزيمة بالمسلمين وأصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بجراح فى وجهه الشريف، وسال الدم منه فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل » فأنزل الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (٨٠).

وتفيد الأحاديث الصحيحة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو فى صلاة الصبح بعد الركوع، إذا قال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، فيدعو بنجاة المستضعفين فى مكة، وربما دعا على المشركين الذين يقتلون المسلمين ويعذبونهم ، روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسميهم بأسمائهم ، حتى أنزل الله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

والآية تشير إلى حكمة إلهية عليا يريد الله تحقيقها فى هذا الكون، وهى أن يدفع المؤمنون ضريبة الإيمان بالجهاد والكفاح واحتمال الابتلاء ، قال تعالى : وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ . (هود : ١١٨، ١١٩).

وقال عز شأنه أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . (العنكبوت : ٢، ٣).

أو تشير الآية إلى أن وظيفة الرسول البلاغ ، قال تعالى : إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ . (القصص :٥٦). وقال سبحانه : فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ . (الرعد : ٤٠).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق فى قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . أى ليس لك من الحكم شىء فى عبادى إلا ما أمرتك به فيهم.

والمعنى : أن مالك أمرهم على الإطلاق هو الله عز وجل ، وله حكمة يريد تحقيقها ، وليس لك يا محمد من التصرف فى أمر عبادى شىء، بل الأمر لله، فإما أن يتوب عليهم بالإيمان، أو بتوجيههم للاعتبار ، فإن انتصار المسلمين قد يكون فيه للكافرين عظة وعبرة، فيقودهم إلى الإيمان والتسليم، فيتوب الله عليهم من كفرهم ويختم لهم بالإسلام والهداية.

أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ .

أو يعذبهم بنصرة المسلمين عليهم أو بأسرهم، أو يعذبهم بالقتل والخزى والعذاب يوم القيامة، لأنهم ظلموا أنفسهم حين حرموها من النظر والاعتبار والهداية، وأصروا على الكفر واستحبوا العمى على الهدى وما ظلمهم الله ولكن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣).

وذكر بعض المفسرين أن قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . جملة معترضة بين المتعاطفات فى الآيتين ١٢٧ ، ١٢٨ وتقدير الآيتين هكذا :

(ولقد نصركم الله ببدر ليهلك طائفة من الذين كفروا بالقتل والأسر، أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة، أو يتوب عليهم إن أسلموا ، أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة بسبب ظلمهم ، وليس لك من أمرهم شىء إنما أنت رسول من عند الله تعالى مأمور بإنذارهم وجهادهم).

وقد رجَّح هذا الوجه صاحب الكشاف فقال :

وقوله : لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ . اعتراض، والمعنى : أن الله مالك أمرهم، فإما أن يهلكهم أو يهزمهم، أو يتوب عليهم إن أسلموا، أو يعذبهم إن أصروا على الكفر، وليس لك من أمرهم شىء، إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم.

وقيل إن أَوْ . بمعنى (إلا أن) كقولك : لألزمنك أو تقضينى حقي. على معنى : ليس لك من أمرهم شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بحالهم، أو يعذبهم فتشفى منهم (٨١).

١٢٩ - وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

سيقت هذه الآية لتأكيد ما تقدم ، من أن الأمر كله بيد الله وحده .

ومعنى الآية :

إن لله جميع ما فى السماوات وما فى الأرض ملكا وتصرفا وتدبيرا، لا ينازعه فى ذلك منازع ولا يعارضه معارض ، وهو سبحانه يغفر لمن يشاء أن يغفر له من المؤمنين فلا يعاقبه على ذنبه، فضلاً منه وكرما، ويعذب من يشاء أن يعذبه عدلا منه؛ ومغفرته أقرب ورحمته أرجى لأنه كثير المغفرة والرحمة.

وتلحظ أن الآيات السابقة من الآية ١٢٢ إلى الآية ١٢٩ ، قد افتتحت الحديث عن غزوة أحد باستحضار بعض أحداثها، وبتذكير المؤمنين بما همَّ به بعضهم قبل أن تبدأ المعركة، ثم بتذكيرهم بمعركة بدر وما تم لهم فيها من نصر مؤزَّر، منحه الله لهم مع قلتهم وضعفهم، حتى يعرفوا أن النصر ليس بكثرة العَدَد والعدة ، وإنما النصر يأتى مع صفاء النفوس ونقاء القلوب ومضاء العزائم، والطاعة التامة لله ورسوله ، ثم تحدثت الآيات عن حكمة إلهية عليا فى هذا الكون ، وبينت أن بيد الله سبحانه وتعالى الخلق والأمر وهو على كل شىء قدير .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

المفردات :

الربا : هو ربح المال ، يقال ربا المال يربو رباء أى زاد، وأربى الشىء على الشىء أى زاد عليه.

أضعافا مضاعفة : أى زيادات مكررة، وأضعافا جمع ضعف، وضعف الشىء: مثله الذى يصير به اثنين.

مضـاعفة : فيه إشارة إلى تكرار التضعيف مرة بعد مرة.

التفسير :

١٣٠ - يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا تأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّه لعلَّكُمْ تفْلحُون .

من شأن القرآن أن يعنى بتربية المؤمنين وإرشادهم وتعليمهم ، وفى الآية السابقة دروس وعبر من غزوة أحد وغزوة بدر ، وفى الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ دروس فى تحريم الربا وتحذير من عقاب آكله.

وهى سنة القرآن فى تخوّن المؤمنين بالموعظة، والأمر والنهى والترغيب والترهيب، والانتقال بالنفس البشرية من خبر إلى أمر إلى نهى .. رغبة فى حمل النفس على تقبل الأوامر ، واجتناب النواهى ، والتزام الطاعة.

قال الإمام الرازى :

لما شرح الله عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب ، فقال : يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعافًا مُّضَاعفةً .. (٨٢).

وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلاً - إلى أجل فإذا حل الأجل، ولم يكن المدين واجدا لذلك المال، قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله : أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً (٨٣).

(وكان يهود المدينة من أشهر المتعاملين بالربا، فنهى الله سبحانه المؤمنين أن يرتكبوا هذه الفعلة النكراء، فإن الربا يجتث مال الفقير ، ويضيع جهده ، ويزيد فى ثراء الأغنياء مع الدعة والراحة.. وهو الذى يقطع أواصر المودة والتعاطف بين الناس) (٨٤).

وقد سبق الحديث عن الربا فى الآية ٢٧٥ ، ٢٧٦ من سورة البقرة . وفيهما ما يدل على تحريم الربا قليله وكثيره ، عاجله وآجله وأن ليس للدائن سوى رأس ماله .

قال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ . (البقرة :٢٧٥، ٢٧٦).

وقد ابتدأ سبحانه الآية التى نفسرها بقوله :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا .. .

لبيان أن الربا ليس من شأن المؤمنين وإنما هو من سمات الكافرين الفاسقين .

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم .

وخصه بالنهى لأنه كان شائعا فى ذلك الوقت ، ولأنه - كما يقول القرطبى - هو الذى أذن فيه بالحرب فى قوله تعالى : فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم (٨٥).

والمراد من الأكل الأخذ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد به ، ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع.

والربا معناه الزيادة، والمراد بها هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين.

قال الإمام ابن جرير: عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية، فإذا حل الأجل قالوا: نزيدكم وتؤخرون .

وقال ابن زيد : كان أبى - زيد بن ثابت - يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف. يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له « تقضينى أو تزيدنى »[٨٦].

وقوله : أَضْعَافًا. حال من الربا، وقوله : مُضَاعَفَةً . صفة له .

والأضعاف جمع ضعف. وضعف الشىء مثله ، وضعفاه مثلاه، وأضعافه أمثاله.

وهذا القيد وهو قوله : أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً . ليس لتقييد النهى به، أى ليس للنهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة .

وقد حرم الله - تعالى - أصل الربا ومضاعفته ، ونفر منه تنفيرا شديدا، فقال تعالى : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ...

وهذا النوع من الربا الذى نهى الله تعالى عنه هنا بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، هو الذى يسمى عند الصحابة والفقهاء بربا النسيئة، أو ربا الجاهلية ، وقد حرمه الإسلام تحريمًا قاطعًا، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « ألا إن ربا الجاهلية موضوع - أى مهدر - وأول ربا آبدأ ربا عمى العباس بن عبد المطلب » [٨٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل : إن ربا النسيئة يكفر من يجحد تحريمه .

ويقابل هذا النوع من الربا، ربا البيوع وهو الذى ورد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى يقول فيه : « البر بالبر مثلا بمثل يدا بيد ، والذهب بالذهب مثلا بمثل يدا بيد والفضة بالفضة مثلا بمثل يدا بيد ، والشعير بالشعير مثلا بمثل يدا بيد. والتمر بالتمر مثلا بمثل يدا بيد. والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى » [٨٨].

وقد اتفق العلماء على أن بيع هذه الأصناف لابد أن يكون بغير زيادة إذا كانت بمثلها كقمح بقمح، ولابد من قبضها. وإذا اختلف الجنس كقمح بشعير جازت الزيادة، ولابد من القبض فى المجلس، والتأخير يسمى ربا النساء، والزيادة المحرمة تسمى ربا الفضل.

وللفقهاء فى هذا الموضوع مباحث طويلة؛ ليرجع إليها من شاء فى مظانها. ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بأمر المؤمنين بخشية الله وتقواه فقال : وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

أى: واتقوا الله بأن تجعلوا بينكم وبين محارمه ساترا ووقاية، لعلكم بذلك تنالون الفلاح فى الدنيا والآخرة.

ثم حذرهم – سبحانه – من الأعمال التى تفضى بهم إلى النار فقال :وَاتَّقُوا النَّار الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين

أى: صونوا أنفسكم ، واحترزوا من الوقوع فى الأعمال السيئة كتعاطى الربا وما يشابه ذلك ، لأن فى هذه الأعمال السيئة ما يؤدى بكم إلى دخول النار التى هيئت للكافرين .

وفى التعقيب على النهى عن تعاطى الربا بتقوى الله وباتقاء النار، إشعار بأن الذى يأكل الربا يكون بعيدا عن خشية الله وعن مراقبته ، ويكون مستحقاً لدخول النار التى أعدها الله تعالى للكافرين والفاسقين عن أمره.

قال صاحب الكشاف :كان أبو حنيفة إذا قرأ هذه الآية :وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين . يقول : هى آخوف آية فى القرآن ، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتقوه فى اجتناب محارمه [٨٩].

ثم بعد هذا التحذير الشديد للمؤمنين من ارتكاب ما نهى الله عنه، أمرهم – سبحانه – بطاعته وطاعة رسوله فقال : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ.

أى أطيعوا الله فى كل ما أمركم به ونهاكم عنه، وأطيعوا الرسول الذى أرسله إليكم ربكم لهدايتكم وسعادتكم ، لعلكم بهذه الطاعة تكونون فى رحمة من الله ، فهو القائل وقوله الحق : إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . (الأعراف : ٥٦).

وفى ذكر طاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم – مقترنة بطاعة الله تعالى تنبيه إلى أن طاعة الرسول طاعة لله . فقد قال تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا . (النساء : ٨٠).

★ ★ ★

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

المفردات :

أعدت : هيئت.

السراء : الرجاء واليسر.

الضراء : الشدة والعسر.

الكاظمين الغيظ : الممسكين عند امتلاء نفوسهم به. فلا ينتقمون ممن غاظهم. وأصل الكظم: شد فم القربة عند امتلائها. والغيظ: هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر .

فاحشة : الفاحشة ، كل ما عظم قبحه من الذنوب.

يصروا : يقيموا.

التفسير:

١٣٣ - وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. الآية .

لما حذر الله فى الآيات السابقة ، من الأفعال المستتبعة للعقاب ، عقبه بالحث على الأفعال المستتبعة للثواب، فقال : وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ . أى : بادروا وسابقوا إلى كل ما يحقق لكم مغفرة ربكم لذنوبكم، ويوصلكم إلى نيل مرضاته، ودخول جنته الواسعة. وذلك يكون بإقبالكم على طاعته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ . أى : كعرضها . وليس المراد التحديد، وإنما هو كناية عن غاية سعتها، وعظيم رحبها بما هو - فى تصور المخاطبين - أوسع الأشياء وأرحبها. وخص العرض بالذكر- مع أنه دون الطول - للمبالغة فى البسط والسعة، ويطلق العرض أيضًا على السعة.

ويجوز أن يراد منه هذا المعنى هنا .

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . أى هيأها الله لعباده الذين يتقون عذابه، بامتثال أوامره واجتناب محارمه.

ثم وصف الله عباده المتقين ، ببعض صفاتهم التى تؤهلهم لمغفرته، ودخول جنته فقال:

١٣٤ - الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ .. الآيـــة .

أى فى اليسر والعسر ، والفرح والحزن، والمنشط والمكره.

والمراد : أنهم ينفقون فى كل أحوالهم، فهى دائرة بين السراء والضراء. وهذه هى الصفة الأولى.

وإنما ابتدئ بالإنفاق ، لأن الجود بالمال - وبخاصة فى حال العسرة والشدة - من أشق الأمور على النفوس.

وفيه أقوى الأدلة على الإخلاص ، لأن حاجة المسلمين إلى الإنفاق - آنذاك بل وكل آن - كانت أشد، لمجاهدة العدو، ومواساة المسلمين .

ولأن النهى عن الربا يستدعى بديلا عنه . ولذلك يقترن النهى عن الربا - فى القرآن - بالحث على الصدقة.

وحذف مفعول يُنفِقُونَ . ليعم كل ما يصلح للإنفاق ، أو لأن المراد وصفهم بالإنفاق دون نظر إلى ما ينفقون كما تقول : فلان يعطى ويمنع . لا تقصد إلاّ وصفه بالإعطاء والمنع.

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ.

صفة ثانية . وكظم الغيظ : حبسه وكتمه مع القدرة على إمضائه. والغيظ : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر . والفرق بينه وبين الغضب - على ما قيل - أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام ألبتة، ولا كذلك الغيظ. والغيظ أصل الغضب. وكثيراً ما يتلازمان .

وكظم الغيظ من أجمل الأخلاق وأنبلها وأحبها إلى الله.

وفى الحديث الشريف : « من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه، ملأ الله جوفه أمنا وإيمانا»(٩٠).

وعبر فى الصفة الأولى بالفعل المضارع يُنفِقُونَ. قصد الإرادة أن يجحدوا الإنفاق من آن لآخر.

وعبر بالكاظمين وهو اسم فاعل : لقصد الثبات والاستمرار على ضبط النفس.

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .

هذه صفة ثالثة، جاءت على اسم الفاعل، للدلالة على الثبات والدوام أيضًا .

والعفو : ترك عقوبة من يستحق العقوبة من الناس ، لذنب جناه. وهو أكمل من كظم الغيظ ، لأن الغيظ، مجرد ضبط النفس، ولا يلزمه الإغضاء عن الإساءة.

أما العفو ، فيقتضى تناسى الإساءة واعتبارها كأن لم تكن .

وفى الحديث الصحيح : « .. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا »(٩١).

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

أى كل المحسنين، ويدخل فيهم ، من تقدم ذكرهم .

والحب : ميل القلب إلى المحبوب . .

والمراد به - فى الآية - ما يلزم عنه من الثواب والرضوان.

والمعنى : أن الله يرضى عن المحسنين جميعا، ويجازيهم على إحسانهم أحسن الجزاء.

والإحسان يشمل : إتقان العمل ، والإتيان به على الوجه الأكمل.

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سئل عن الإحسان :

« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٩٢).

ويشمل أيضًا : إيصال النفع إلى الغير، ودفع الضرر عنه .

ولا يكمل الإحسان حتى يكون خالصا لوجه الله : لا ينتظر المحسن مكافأة عليه ، ولا يكون مكافأة على إحسان سابق وصل إليه .

وفى الحديث الشريف : « ليس الواصل بالمكافئ » (٩٣). والمراد بالواصل : المحسن .

وقال الثورى : الإحسان : أن تحسن إلى من أساء إليك . فأما من أحسن إليك ، فإنه متاجرة كنقد السوق: خذ منى وهات .

ولمكانة الإحسان عند الله، أثاب عليه بأعلى أنواع الثواب ، وهو محبته سبحانه وتعالى - كما قال فى ختام الآية : واللَّهُ يحبُّ المُحْسنين .

١٣٥ - والَّذين إذَا فَعَلُوا فاحشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسهُمْ ذَكَرُوا اللَّه فاستَغْفَرُوا لذُنوبهمْ ومن يَغْفرُ الذُّنُوب إلاَّ اللَّهُ ولم يصروا علىٰ ما فعلُوا وهُمْ يعْلَمُون .

هذه هى الصفة الرابعة من صفات المتقين . عطفت على ما قبلها . وقوله تعالى : وَاللَّهُ يحبُّ المحسنين . جملة متوسطة بين المعطوف والمعطوف عليه : مشيرة إلى ما بينهما من التفاوت فى الفضل. فإن درجة الأولين من التقوى أعلى، وحظهم أوفى.

ويجوز أن يكون والَّذينَ إذا فعلُوا فاحشةً . معطوف على الَّذينَ يُنفقُونَ في السَّرَّاء والضَّرَّاء . فكأنه لما ذكر الصنف الأعلى من المتقين وهم : المتصفون بتلك الأوصاف الجميلة - ذكر من دونهم فقال : وَالَّذين إذا فعلوا فاحشةً .

أى أتوا بمعصية تفاقم قبحها، وعظم شرها وخطرها.

أوْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ .

أى جنوا على أنفسهم بارتكاب أى ذنب من الذنوب الكبائر أو الصغائر.

ذكَرُوا اللَّه .

أى تذكروا عظمته وجلاله، وحقه فى أن يعبد ولا يعصى ، وأنه الذى يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات .

فاسْتغْفرُوا لذُنُوبِهِمْ . عقب تذكرهم لله.

والمراد بالاستغفار : الإقلاع عن الذنب ، والندم على فعله ، والعزم على عدم معاودته ، ورد المظالم لأصحابها.

أما التوبة بمجرد اللسان ، فتلك توبة الكذابين.

وفى مثل هذه التوبة الكاذبة، يقول بعض العارفين : استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ .

أى لا أحد يقبل توبة التائبين ، ويعفو عن العاصين، غيره سبحانه .

وفى هذا دعوة منه تعالى إلى الالتجاء إليه، وطلب عفوه ومغفرته، لأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، ولا حيلة للمذنب إلا طلب فضله سبحانه والتماس رحمته .

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا . هذا عطف على فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ .

وجملة : وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ . متوسطة بين المتعاطفين .

ومعنى وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا . أنهم لا يقيمون على معصية من المعاصي: كبيرة كانت أم صغيرة. بل يرجعون إلى الله ويتوبون إليه من قريب.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أن من تاب تاب الله عليه ، وأن إقامتهم على الذنب - ولو كان صغيرًا- قبح ، لا يليق بمؤمن ، لأن الصغيرة لا تبقى صغيرة مع الإصرار كما أن الإصرار على الذنب يتنافى مع الاستغفار.

قال صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر » (٩٤).

١٣٦ - أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

أُولَٰئِكَ. أى الموصوفون بما تقدم من الصفات .

جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ . أى جزاؤهم على هذه الصفات التى تحلوا بها : ستر خطاياهم ، وعدم مؤاخذتهم عليها.

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . أى تجرى من تحت قصورها الأنهار المختلفة التى ذكرها الله فى قوله: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (محمد : ١٥).

وهذه الجنات ، ضمن تلك الجنة : ألتى أخبر سبحانه ، أن عرضها السموات والأرض.

خالدين فيها .أي ماكثين فيها ، لا يخرجون منها أبدا . كما قال سبحانه : وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ .(الحجر : ٤٨).

ونِعْم أجْرُ الْعاملين . ذلك المذكور من المغفرة والجنات .

★ ★ ★

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

المفردات :

خلت : مضت.

سنن : السنن، الطرائق ، والمراد منها عقوبات الأمم المكذبة.

موعظة : الموعظة ، التذكير بما يرقق القلب من : مرغبات فى الطاعة، ومنفرات عن المعصية.

تهنوا : تضعفوا .

الأعلون : المتفوقون بالدين، الظاهرون على العدو.

مس : المس ، الإصابة.

قرح : القرح ، الجرح ، أو ألمه.

نداولها : نجعلها متبادلة. فنجعل الغلبة لهؤلاء مرة، ولهؤلاء مرة أخرى.

وليمحص : لينقى ويخلص .

ويمحق : يسحق ويهلك.

التفسير :

١٣٧ - قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

يشبه أن تكون هذه الآيات فى التعقيب على غزوة أحد، ولعل إنساناً يتساءل عن سر هزيمة المؤمنين أو

تعرضهم للبلاء ، وعن سر انتصار الكفار أو حصولهم على المال والغنى والسلطان فى هذه الدنيا. فبين سبحانه فى هذه الآية ما يجيب على هذا التساؤل:

والمراد بالسنن هنا : وقائع فى الأمم المكذبة أجراها الله تعالى على حسب عادته، وهى الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وفسوقهم عن أمره .

والمعنى : أنه قد مضت من قبل زمانكم طرائق سنها الله تعالى ، فالحق يصارع الباطل، وينتصر أحدهما على الآخر بما سنَّه – سبحانه – من سنة فى النصر والهزيمة .

وقد جرت سننه فى خلقه أن يجعل العاقبة للمؤمنين الصادقين، وأن يملى للكافرين ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فإن كنتم فى شك من ذلك : فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

أى فسيروا فى الأرض متأملين متبصرين ، فسترون الحال السيئة التى انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم وبقايا آثارهم .

قالوا : وليس المراد بقوله فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ . الأمر بذلك لا محالة ، بل المقصود تعرف أحوالهم، فإن حصلت هذه المعرفة بغير المسير فى الأرض، كان المقصود حاصلاً (٩٥).

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

المقصود بهذا التعبير ، تصوير حالة هؤلاء المكذبين التى تدعو إلى العجب وتثير الاستغراب وتغرس الاعتبار والاتعاظ فى قلوب المتأملين.

لأن هؤلاء المكذبين مكَّن الله لهم فى الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم الله بسبب طغيانهم.

فهذه الآية وأشباهها من الآيات، تدعو الناس إلى الاعتبار بأحوال من سبقوهم، وإلى الاتعاظ بأيام الله، وبالتاريخ وما فيه من أحداث، وبالآثار التى تركها السابقون فإنها دليل واضح وشاهد يتحدث كما قال الشاعر :

تلك آثارنا تدل علينا

فانظروا بعدنا إلى الآثار

١٣٨ – هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

اختار الطبرى وبعض المفسرين أن تكون الإشارة فى هذه الآية راجعة إلى ما تقدم ذكره من بيان سنن الله وقوانينه فى النصر والهزيمة . والمعنى : هذا الذى أوضحت لكم وعرفتكم به من أخبار هلاك الأمم السابقة ، فيه بيان للناس من العمى ، وهدى من الضلالة وموعظة للمتقين (٩٦).

أما ابن كثير فقد ذهب إلى أن اسم الإشارة يعود إلى القرآن الكريم فقال :

هذا بيانٌ لّلناس . يعنى القرآن فيه بيان الأمور على جليَّتها .

وهُدى وموعظةٌ لّلمتَّقين . يعنى القرآن فيه خبر ما قبلكم وهدى لقلوبكم .

وَموعظةٌ . أى زاجر عن المحارم والمآثم (٩٧).

لّلمتَّقين . الذين طلبوا الحقَّ وسلكوا طريقه.

وقد رجح الأستاذ سيد قطب أن المراد بهذه الآية هو القرآن الكريم فيقول :

والسنن التى يشير إليها السياق فى الآية السابقة هى :

عاقبة المكذبين على مدار التاريخ ، ومداولة الأيام بين الناس حتى لا تدوم على حال ، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان مدى الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكافرين » إن القرآن ليربط ماضى البشرية بحاضرها ، وحاضرها بماضيها ... وهؤلاء العرب الذين وجَّه إليهم القول أوّل مرة لم تكن حياتهم ولم تكن معارفهم – قبل القرآن – لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشّاملة لولا هذا القرآن الذى أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا، إن النظام القبلى الذى كانوا يعيشون فى ظله، ما كان ليقود تفكيرهم إلى الربط بين سكان الجزيرة، فضلا عن الربط بين سكان هذه الأرض، فضلاً عن الربط بين السنن التى تجرى وفقها الحياة جميعا ... فها هو ذا القرآن ينقلهم من عزلة القبيلة، وارتجال الفكرة، إلى رابطة البشرية واطراد السنَّة، وهى نقلة بعيدة، لم تنبع من عوامل البيئة، إنما حملتها إليهم هذه العقيدة، بل حملتهم إليها، وارتقت بهم إلى مستواها فى نصف جيل ، على حين أن غيرهم من معاصريهم لم يرتفعوا إلى هذا الأفق من التفكير إلا بعد قرون وقرون .

هذا بيانٌ لّلنَّاس وَهُدًى وموعِظةٌ لِّلْمُتَّقِينَ .

أجل هذا بيان للناس ، للناس كافة، فهو نقلة بشرية بعيدة ما كانوا ببالغيها لولا هذا البيان الهادي، الذى لا يهتدى به ولا يتعظ إلا الذين تفتحت أرواحهم، وأرهفت مداركهم ، بذلك الشعور العميق الهادى المنير : شعور التقوى فى نفوس المتقين (٩٨).

١٣٩ – وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

(الوهن) هو الضعف وأصله ضعف الذات، قال تعالى حكاية عَن زكريا : قال ربِّ إِنِّي وهن العظمُ مني ... (مريم : ٤) . أى ضعف جسمى ، وهو هنا مجاز عن خور العزيمة، وضعف الإرادة، وانقلاب الرجاء يأسا والشجاعة جبنا واليقين شكا ؛ ولذلك نهوا عنه.

و الحزن ألم نفسى يصيب الإنسان عند فقد ما يحبّ أو عدم إدراكه، أو عند نزول أمر يجعل النفس فى هم وقلق.

والقرآن هنا يأسو جراحهم ويمسح أحزانهم، ويبعث فى نفوسهم القوة والعزيمة والأمل والرجاء فيقول لهم:

لا تضعفوا ولا تجبنوا ولا تيأسوا من رحمة الله وفضله، ولا تحزنوا لما أصابكم من جراح وآلام وقتلى.

وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ. عقيدتكم أعلى من عقيدتهم ، ومكانكم فى الأرض أعلى من مكانهم، فلكم وراثة الأرض التى وعدكم الله.

إن كُنتُم مُّؤْمنين . جملة شرطية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله .

أى إن كنتم مؤمنين حقا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم، ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء، فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة ، والصمود فى وجه الأعداء ، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هى العليا.

١٤٠ - إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ... الآية.

القرح بالفتح والضمّ الجراح والآلام.

والمعنى :

إن تكونوا - أيها المؤمنون - قد أصابتكم الجراح من المشركين فى غزوة أحد فأنتم قد أنزلتم بهم من الجراح فى غزوة بدر مثل ما أنزلوا بكم فى أحد، ومع ذلك فإنهم بعد بدر قد عادوا لقتالكم، فأنتم أولى أن تتماسكوا بسبب إيمانكم ويقينكم، وقيل : إن المعنى إن كانت قد أصابتكم الجراح فى أحد فقد أصيب القوم بجراح مثلها فى المعركة ذاتها .

قال الزمخشرى : والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى ألا تضعفوا . ونحوه وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . (النساء : ١٠٤).

وقيل : كان ذلك يوم أحد فقد نالوا منهم قبل أن يخالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم [٩٩].

وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ .

نُدَاوِلُهَا من المداولة وهى نقل الشىء من واحد إلى آخر.

والمعنى : إن الدنيا هى دول بين الناس ، لا يدوم سرورها ولا غمُّها لأحد، ومن أمثال العرب : الحرب سجال ، والأيام دول.

إن الشدة بعد الرخاء، والرخاء بعد الشدة، هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس، فيتبين المؤمنون ويمتازون من المنافقين المستورين .

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

والله يعلم هؤلاء وهؤلاء ، ولكن انكشافهم يجعل هذا العلم متعلقًا بأعمالهم بعد أن كان متعلقاً بنواياهم ، والإسلام يعتبر العمل دائماً ويحاسب عليه فهو هنا يجرى على قانونه.

ومداولة الأيام وتوالى الشدة والرخاء وسيلة عملية لا تخطئ، ومحك صادق لا يظلم ، والرخاء فى هذا كالشدة، فكم من نفوس تصبر للشدة وتتماسك ولكنها تتراخى بالرخاء وتنحلّ، والنفس المؤمنة حقا، تصبر للضراء، ولا تستخفها السراء ، ويقينها أن ما أصابها من خير أو شر فبإذن الله.

جاء فى التفسير الوسيط :

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .

أى وتلك الأيام نداولها بين الناس لوجوه من المصالح وضروب من الحكم، وليعلم الله المؤمنين المتميزين، علما مقترنا بالواقع .

والمراد بالعلم هنا : العلم التنجيزى بالواقع، وهذا لا ينافى علمه بهم قديما. والمقصود أنه يبرز – فى الواقع – ما سبق فى علمه عنهم قديمًا من تمييزهم بإيمانهم عن سواهم ، ليجزى كل بما عمل، لا بما علمه الله أزلا فى شأنه (١٠٠). وذلك هو المقصود بقوله تعالى : مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ ما أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الخبيث من الطَّيِّبِ . (آل عمران : ١٧٩) .

وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ . بيان لحكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس. والشهداء جمع شهيد . أى وليختار أناسا منكم يكرمهم بالشهادة فى الدفاع عن الدين. قال القرطبى : وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ . أى يكرمكم بالشهادة، أى ليقتل قومًا منكم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم.

وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء المختارين يختارهم الله من بين المجاهدين ، ويجعلهم كذلك شهداء على الناس . قال تعالى : إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ . (التوبة : ١١١) . وجميع المؤمنين الصادقين سيكونون شهداء على الأمم السابقة يوم القيامة، كما قال تعالى : وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . (البقرة : ١٤٣).

وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . أى والله لا يحب الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم وتخاذلهم عن نصرة الحق، وإنما يحب المؤمنين الثابتين على الحق، المجاهدين بأنفسهم وأموالهم فى سبيل إعلاء دين الله ونصرة شريعته .

١٤١ - وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ .

التمحيص : الاختبار والابتلاء، والتطهير ، والمعنى : ولقد فعل سبحانه ما فعل فى غزوة أحد، لكى يظهر المؤمنين ويصفيهم من الذنوب ويخلصهم من المنافقين المندسين بينهم، ولكى يهلك الكافرين ويمحقهم بسبب بغيهم ويطردهم.

فالآيات قد ذكرت أربع حكم لما حدث للمؤمنين فى غزوة أحد ، وهى تحقق علم الله وإظهاره للمؤمنين . وإكرام بعضهم بالشهادة ، وتطهير المؤمنين وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين ، ومحق الكافرين واستئصالهم رويدا رويدا.

١٤٢ - أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .

أمْ . هنا أفادت الانتقال من الكلام السابق إلى الكلام اللاحق ، واستبعاد أن يظنوا دخول الجنة بدون جهاد وصبر عليه.

والمعنى : بل أظننتم أن تدخلوا الجنة، ولما يتحقق جهاد المجاهدين منكم، وصبر الصابرين عليه ، فيعلم الله ذلك واقعًا دالاً على صدق الإيمان ، مستتبعا لدخول الجنان ..

وكلمة لَمَّا وإن أفادت نفى ما بعدها من الجهاد والصبر، ولكنها تفيد توقع حصولهما منهم ، وقد وقعا فعلا فى الغزوات التى تلت أحد (١٠١).

قال الطبرى : المعنى : أظننتم يا معشر أصحاب محمد أن تنالوا كرامة ربكم ولما يتبين لعبادى المؤمنين، المجاهدون منكم فى سبيل الله والصابرون عند البأس على ما ينالهم فى ذات الله من ألم ومكروه (١٠٢).

ويصح أيضًا أن يكون العلم هنا بمعنى التمييز ، ويكون المعنى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة جميعا ولما يميز الله المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم (١٠٣).

والآية الكريمة تشير إلى أن الطريق إلى الجنة ليس سهلاً يسلكه كل إنسان ، وإنما هو طريق محفوف بالمكاره والشدائد، ولا يصل إلى غايته إلا الذين جاهدوا وصبروا وصابروا (١٠٤).

وجاء فى تفسير المنار : والجهاد هنا أعم من الحرب للدفاع عن الدين وأهله وإعلاء كلمته، ومن الجهاد جهاد النفس الذى روى عن السلف التعبير عنه بالجهاد الأكبر، ومن أمثلته مجاهدة الإنسان لشهواته ولا سيما فى سن الشباب ، وجهاده بماله وما يبتلى به من مدافعة الباطل ونصرة الحق.

قال الإمام محمد عبده : .. إن لله فى كل نعمة عليك حقا، وللناس عليك حقا، وأداء هذه الحقوق يشق على النفس ، فلابد من جهادها يسهل عليها أداؤها ، وربما يفضل بعض جهاد النفس، جهاد الأعداء فى الحب فإن الإنسان إذا أراد أن يبث فكرة صالحة فى الناس أو يدعوهم إلى خيرهم من إقامة سنة أو مقاومة بدعة أو النهوض بمصلحة فإنه يجد أمامه من الناس من يقاومه ويؤذيه إيذاء قلما يصبر عليه أحد، وناهيك بالتصدى لإصلاح عقائد العامة وعاداتهم ، وما الخاصة فى ضلالهم إلا أصعب مراسا من العامة.

★ ★ ★

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

المفردات :

تمنون	: أى ترغبون.
المـوت	: المراد به هنا، القتال . وقيل : وهو على حقيقته ، طلبا للشهادة.
تلقـوه	: أى تلقوا سببه، وهو القتال.
رأيتموه	: أى رأيتم الموت، برؤية من يموت فى الحرب.
خلت	: مضت.
ومن ينقلب على عقبيه	: من يرتد عن دينه أو ينهزم.

التفسير :

١٤٣ - وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ .. الآية.

هذا خطاب من الله تعالى ، عاتب فيه الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الخروج من المدينة إلى أحد للقاء المشركين، الذين نزلوا عنده قادمين من مكة، لقتال المسلمين انتقاماً ليوم بدر.

ولما التقى الجمعان انهزم فريق منهم ، ولم يثبتوا أمام المشركين. وكان هؤلاء هم الذين ألحوا فى الخروج ، ممن لم يشهدوا بدرا، وتمنوا أن يحضروا مع النبى صلى الله عليه وسلم لينالوا به شرف الشهادة إن ماتوا ، أو أجر الجهاد وكرامة المجاهدين إن رجعوا كأصحاب بدر.

وقد عرف مما جاء فى غزوة أحد : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان - أول الأمر - يميل إلى البقاء فى

المدينة، حتى إذا هاجمها كفار مكة، صدهم المسلمون متحصنين بها .. الرجال يضربونهم بالسيوف والسهام. والنساء والصبيان يقذفونهم بالحجارة ، وبكل ما تصل إليه أيديهم ، لولا موقف الملحّين.

والمعنى : ولقد كنتم تحبون الموت فى سبيل الله، وترغبون فى الشهادة من قبل أن تلقوه، وأنتم بالمدينة.

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ . أى فقد تحققت أمنيتكم ، إذ استجاب الرسول صلى الله عليه وسلم لرغبتكم وأذن لكم بلقاء عدوكم، فرأيتم الموت الذى تمنيتموه حين سقط شهداؤكم.

وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ. فما بالكم لم تثبتوا فى قتال عدوكم ، ولو صبرتم لما هزمتم .

١٤٤ - وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. الآية.

لما التقى الجمعان فى أحد، ظهر المسلمون على المشركين فى أول اللقاء وجعلوا يتعقبونهم ويجمعون الغنائم فى إثرهم، ولكن الرماة الذين أمرهم الرسول بحماية ظهور المسلمين - أثناء قتالهم - رأوا المسلمين منتصرين على المشركين: يتعقبونهم ويجمعون غنائمهم. فتركوا أماكنهم ليشاركوا إخوانهم فى جمع الغنائم مخالفين أمر الرسول فيما فعلوا . فانتبه المشركون لما فعل الرماة، فاحتلوا مكانهم فوق الجبل، وجعلوا ينضحون المسلمين بالنبل. واستطاعوا بذلك أن ينالوا من المسلمين ، حتى رمى ابن قميئة الرسول عليه السلام بحجر فشج رأسه، وكسر رباعيته . ثم أقبل يريد قتله، فدافع عن النبى مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة - وهو يرى أنه قتل رسول الله - فصاح قائلاً. قتلت محمدا، وصرخ بها صارخ، فسمعها المسلمون، فسرى الوهن فى نفوس كثير منهم، حتى قال بعض المستضعفين : ليت عبد الله بن أُبى يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان.

وقال ناس من المنافقين : لو كان نبيا - حقا - لما قتل .. ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

والتقى أنس بن النضر ، بالمنهزمين من المسلمين، فقال لهم : يا قوم إن كان محمد قتل فإن رب محمد حى لا يموت ، فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا كراما على ما مات عليه .

وشاء الله أن يحفظ رسوله لأمته، وأن يظهر كذب ابن قميئة .

فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلىَّ عباد الله . وكان حوله - حينئذ - أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، وطلحة بن عبيد الله ، وجماعة من المسلمين ، فأقبل المنهزمون بعد ما سمعوا صوته عليه السلام ، فأنزل الله عتابًا للمنهزمين وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ .. إلى نهاية الآية فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . (آل عمران : ١٤٨).

والمعنى : وما محمد إلاّ رسول كسائر من مضى قبله من الرسل : مهمته التبليغ وإلزام الحجة. وسيمضى إلى ربه كسائر من مضى من الأنبياء سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً . (الأحزاب : ٦٢) . إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ . (الزمر : ٣٠) .

أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .

أى توليتم مدبرين من القتال ، منهزمين أمام الكفار، أو ارتددتم عن دينكم، كما وقع من بعض المنافقين.

وعلى كل : فالمراد ، أنه لا ينبغى أن تجعلوا وفاة الرسول - بموت أو قتل - سببا فى توليكم منهزمين عن قتال الكفار وجهادهم، استبعادًا لقتله . فقد مضى من قبله أمثاله من الرسل. وما كان موتهم أو قتلهم سببا فى ارتداد أتباعهم عن دينهم ، ولا فى تخليهم عن جهاد أعدائهم.

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا . هذا وعيد من الله لكل من تهتز عقيدته ، أو يفر من المعركة أمام أعداء الإسلام.

والمعنى : ومن يدبر عن دينه لأى سبب ، أو ينهزم أمام الكافرين ولا يستبسل فى الدفاع عن دينه ووطنه. فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ . بما فعل من توليه مدبرا شَيْئًا . أى أقل ضرر . وإنما يضر نفسه : بتعرضها لسخط الله ، وازدراء الناس له، كما يضر قومه، فإن الله سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين.

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . أى وسيجزى الله من شكروه بصبرهم على دينهم ولقاء عدوهم، جزاء يليق بكرمه. ومن ذلك النصر على الأعداء وحسن ثواب الآخرة.

والتعبير بقوله : وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ . يفيد أن جزاءهم متوقع قريبًا ، فإن السين للتقريب ، وقد حقق الله وعده، ونصرهم فيما استقبلوه من غزوات. وما عند الله فى الآخرة أعظم وأكرم .

★ ★ ★

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

المفردات :

بإذن الله : أمره وقضائه.

مؤجـــلا : مؤقتا بوقت معلوم.

وكأين من نبى : وكثير من الأنبياء.

ربيـــون : منسوبون إلى الرب بالتقوى والصلاح مفرده ربىّ.

وهنـــوا : الوهن، شدة الضعف فى القلب.

استكانوا : ذلوا وخضعوا لما يريد بهم عدوهم.

وإسرافنا فى أمرنا : أى تجاوزنا الحد فى ارتكاب الكبائر.

التفسير :

١٤٥ - وما كانَ لنفْسٍ أن تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلا ومن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنيا نُؤته مِنهَا ومَن يُرِدْ ثوابَ الآخرة نؤْته منْها وسنَجْزي الشَّاكرِين .

الحيـاة بيد الله ، والموت بيد الله ، وفى الآية تعريض بمن خارت قواهم يوم أحد، وضعفت عزائمهم . وانكسرت نفوسهم حين أشيع أن النبى قد مات. فبين القرآن أن النبى بشر يبلغ عن الله الرسالة، ويؤدى الأمانة ويدركه الموت .

قال ابن كثير : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أن تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللَّه (١٠٥). اى لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له، ولهذا قـــال : كتابًا مُّؤَجَّلاً . كقوله : وَمَا يُعمَّرُ من مُعمَّرٍ ولا يُنقصُ مِنْ عُمُرِه إلا في كتاب . (فاطر : ١١) . وكقوله : هُو الَّذي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قضَىٰ أجَلاً وأَجَلٌ مُّسمًّى عِندهُ . (الأنعام:٢).

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام لا ينقص من العمر والإحجام لا يزيد فيه ، كما قال ابن أبى حاتم عن حبيب بن ظبيان : قال رجل من المسلمين وهو (حجر بن عدى): ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدو هذه النطفة - يعنى دجلة - وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّه كِتَابًا مُّؤَجَّلاً . ثم أقحم فرسه دجلة، فلما أقحم الناس ، ورآهم العدو قالوا : ديوان .. فهربوا.

كتابا مّؤجلا . أى كتب لكل نفس أجلها، كتابا مؤقتا بوقت معلوم ، لا يتقدم ولا يتأخر، والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم فى لقاء العدو، فالجبن لا يزيد فى الحياة، والشجاعة لا تنقص منها، والحذر لا يدفع القدر، والإنسان لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . أى من أراد بعمله أجر الدنيا أعطيناه منها ، وليس له فى الآخرة من نصيب.

وفيها تعريض بمن خالفوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة، الذين تركوا أماكنهم جريا وراء الغنائم ، فلم يحصلوا منها شيئا، بل فقدوها وفقدوا أرواحهم وعزتهم وكرامتهم ، وكان فعلهم هذا من أسباب هزيمة المسلمين فى غزوة أحد.

وحصول الدنيا للإنسان ليس بموضع غبطة، لأنها مبذولة للبر والفاجر.

قال تعالى من كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ . (الشورى : ٢٠).

وقال تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . (الإسراء : ١٨).

وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا . ومن يرد بعلمه وجهاده ثواب الآخرة، وما ادخره الله فيها لعباده المتقين من أجر جزيل، أعطيناه الأجر كاملاً، مع ما قسمنا له فى الدنيا.

وسنجزي الشّاكرين .أى سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا فى الدنيا والآخرة، بحسب شكرهم وعملهم.

جاء فى تفسير المنار : ولا تسين التقاليد الشائعة، قارئ هذه الآيات عن سنن الله التى أثبتها فى كتابه، فيظن أن عطاءة تعالى ، وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافا، بل الإرادة تجرى على السنن التى اقتضتها الحكمة وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ . (الرعد : ٨) . ولإرادة الإنسان دخل فى تلك السنن والمقادير ، ولذلك

قال : مَن كَانَ يُرِيدُ . وَمَنْ أَرَادَ . فاعرف قيمة إرادتك واعرف قبل ذلك قيمة نفسك، فلا تجعلها كنفوس الحشرات التى تعيش زمنا محدودا، ثم كأن لم تكن شيئا مذكورا (١٠٦).

* * *

الإرادة تصغر الكبير ، وتكبر الصغير، وترفع الوضيع وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص، حتى تحيط بكرة الأرض، بل تكون أكبر من ذلك بما يتبوأ من منازل الكرامة، فى عالم العقول والأرواح، وإذا كان يريد بعلمه دار البقاء فإن وجوده يكون كبيرًا بحسب كبر إرادته، وواسعًا بسعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من أخذوا إلى الشهوات ، وكان حظهم من علمهم كحظ الحشرات، وغيرها من الحيوات: أكل وشرب وفساد وبغى من القوى على الضعيف (١٠٧).

وهذه الآية الكريمة : يجوز أن تكون خاصة بأهل أحد، وأن تكون عامة لهم ولغيرهم، وهو أرجح، فإنها من القواعد العامة فى الدين.

١٤٦ - وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

إن كثيرًا من النبيين الذين خلوا قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم، المنتسبين إلى الرب تعالى فى وجهة قلوبهم وفى أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون ، لا أرباب معبودون.

فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . أى ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح، وبعضهم من القتل، وإن كان المقتول هو النبى نفسه، لأنهم يقاتلون فى سبيل الله وهو ربهم ، لا فى سبيل شخص نبيهم .

وَمَا ضَعُفُوا . عن الجهاد

وَمَا اسْتَكَانُوا . أى ما ذلوا ولا خضعوا لعدوهم .

قال قتادة : وَمَا ضَعُفُوا . أى : وما تضعضعوا لقتل نبيهم وَمَا اسْتَكَانُوا. أى ما ارتدوا عن نصرتهم ولا دينهم (١٠٨).

* * *

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .أى يحب الصابرين على مقاساة الشدائد والأهوال فى سبيل الله.

جاء فى ظلال القرآن :

(كم من نبى قاتل معه أبرار أتقياء كثيرون ، فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والقتل والجراح، وما ضعفت قواهم عن الاستمرار فى الكفاح، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء.. وهذا هو اللائق بالمؤمن التقى البار، الذى يكافح عن عقيدة، ويكافح فى سبيل الله.

واللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ .

الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون ولا يستسلمون للشدائد و الأعداء (١٠٩).

* * *

وتلحظ أن ترتيب الأوصاف جاء فى نهاية الدقة، بحسب حصولها فى الخارج ، فإن الوهن الذى هو خور فى العزيمة، إذا تمكن من النفس أنتج الضعف الذى هو لون من الاستسلام والفشل، ثم تكون بعدهما الاستكانة، -التى يكون معها الخضوع لكل مطالب الأعداء، وإذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة فى حياته ، كان الموت أكرم له من هذه الحياة .

* * *

وجاء فى تفسير الكشاف :

(الربيون) : هم الربانيون ، منسبون إلى الرب سبحانه وتعالى ، وقرئ بالحركات الثلاث فالفتح على القياس والضم والكسر من تغييرات النسب : ربيون وربُيون ، وربيون . والرِّبيون نسبة إلى الربّ، وزيادة الألف والنون فيه كزيادتها فى جسمانى.

وقال الزجاج : الربيون الجماعات الكثيرة واحدها ربى .

١٤٧ - وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدامنا وانصُرْنا على الْقومِ الْكافِرِينَ .

ما كان قولهم - فى حال الشدة وملاقاة الأعداء- مع ثباتهم وقوتهم فى الدين ، إلا طلب المغفرة من الله.

وإِسْرَافنا في أَمْرِنَا . أى وتفريطنا وتقصيرنا فى واجب طاعتك.

وثَبِّتْ أَقْدَامنَا . أى ثبتنا فى مواطن الحرب، وثبتنا على الصراط المستقيم ، حتى لا تزحزحنا الفتن.

وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ . بك ، الجاحدين لآياتك ، المعتدين على أهل دينك .

* * *

والدعاء هنا يعبر عن قلب خاشع ويقين صادق، ورجاء مخلص فى غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام، والنصر على القوم الكافرين.

قال الزمخشرى فى الكشاف :

وقوله : وما كَانَ قَوْلَهُمْ .(١١٠) ... إلخ . هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم ، مع كونهم ربانيين هضما لها واستقصارا ، والدعاء بالاستغفار منها مقدما على طلب تثبيت الأقدام فى مواطن الحرب والنصرة على العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وخضوع، هو أقرب إلى الاستجابة .

١٤٨ - فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

والفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أى أن هؤلاء الربانيين الذين أخلصوا فى الجهاد والدعاء، أعطاهم الله أجر الدنيا ، من النصر والغنيمة وقهر الأعداء، كما أعطاهم حُسْن ثَواب الآخرةِ . بأن منحهم رضوانه ورحمته ومثوبته ، والنعيم بدار كرامته ، وهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

قال الشيخ محمد عبده - وخص الله ثواب الآخرة بالحسن، لمزيد فى تعظيم أمره، وتنبيه على أنه ثواب لا يشوبه أذى فليس مثل ثواب الدنيا عرضة للشوائب والمنغصات.

* * *

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآيات نزلت تأديباً للمؤمنين ،وتوبيخاً لمن فرط منهم، وتربية وتعليما وتهذيبًا لهم.

* * *

وفى ختام تفسير هذه الآيات الكريمة يمكن أن نستخلص منها الحقائق الآتية :

١ - محمد صلى الله عليه وسلم بشر من البشر، وسيموت كما يموت سائر البشر.

٢ - رسالة محمد (ﷺ) عالمية خالدة لا تموت بموته ، وعلى أتباعه أن يحملوا عبء تبليغ الإسلام رسالة الله إلى البشر .

٣ - الآجال بيد الله، والحذر لا يمنع القدر ، ولن يموت إنسان قبل انتهاء أجله، فلا داعى للجبن والتخاذل، فالجهاد فريضة، والشهيد يبلغ أرفع مراتب الجنات.

٤ - الحق له رجاله على مر التاريخ ، وكثير من الربانيين جاهدوا مع أنبيائهم ، وتحملوا تبعات الإيمان فى ثبات وصدق، ودعاء صادق لله، وقد حقق الله لهم الرجاء فأعطاهم النصر فى الدنيا والجنة فى الآخرة .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

المفردات :

يردوكم على أعقابكم	: أى يردوكم إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية.
ومأواهم	: المأوى، المكان الذى يرجعون إليه.
مثوى	: مثوى الإنسان ، مكان إقامته الدائمة.
تحسونهم	: أصل معناه ، تبطلون حسهم، والمراد : تستأصلونهم قتلا.
فشلتم	: جبنتم وضعف رأيكم ، وأصابكم الخور فهزمتم.
وتنازعتم	: افترقت كلمتكم ، واختلفتم.
ليبتليكم	: ليختبركم.

التفسير :

١٤٩ - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِين

* * *

عندما عاد المسلمون من غزوة أحد ، ولم يكتب لهم فيها النصر، حاولت جهات كثيرة أن تثبط عزيمتهم ، وأن تشككهم فى الإسلام.

* * *

قال ابن عباس : هم المنافقون قالوا للمؤمنين لما رجعوا من أحد، لو كان نبيا ما أصابه فارجعوا إلى إخوانكم، واطلبوا الأمان منهم، وادخلوا فى دينهم، وابعثوا فئة تطلب الأمان لكم من أبى سفيان رأس المشركين يومئذ.

* * *

وقيل : نزلت بسبب قول أهل الكتاب للمؤمنين : لو كان محمد نبيا حقا لما غُلب، ولما أصاب أصحابه ما أصابهم.

جاء فى تفسير الألوسى :

والمراد من الذين كفروا: إمَّا المنافقون لأنهم هم الذين قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم فى أحد، ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا فى دينهم ... وإمَّا أبو سفيان وأصحابه، فالمراد بإطاعتهم الاستكانة لهم وطلب الأمان منهم .. وإمَّا اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا يلقون الشبه فى الدين ويقولون : لو كان محمد نبيا لما غلبه أعداؤه... وإمَّا سائر الكفار (١١١).

وخصوص السبب لا يمنع إرادة العموم من اللفظ.

قال الطبرى فى التفسير :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا. يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، فى وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا . يعنى الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ، من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه ، فتقبلوا رأيهم ونصحهم.

يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ . يحملوكم على الردة بعد الإيمان ، والكفر بالله وآياته وبرسوله.

فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ . فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذى هداكم الله له ، خَاسِرِينَ . هالكين قد خسرتم أنفسكم ، وضللتم عن دينكم وذهبت دنياكم وآخرتكم (١١٢).

وتلتقى كتب التفسير هنا ، على أن الهزيمة الجزئية التى أصابت المسلمين فى غزوة أحد، كانت مجالا لطمع الطامعين ودسائس الكفار والمنافقين فى المدينة، ممن انتهزوا الفرصة ليثبطوا من عزائم المسلمين، ويخوفوهم عاقبة السير مع محمد، ويصوروا لهم مخاوف القتال وعواقب الجهاد، لذلك نزل القرآن ينصح المؤمنين بالتماسك والتآزر والصمود، والاستغناء بالإسلام وبالقرآن عن نصيحة الكافرين والمنافقين، وهى قاعدة لا تختص بزمانها ولا مناسبتها ، بل تمتد فى الزمان والمكان ما دام الإنسان .

ثم فتح القرآن لهم باب الأمل والرجاء، وشدد من عزائمهم بتذكيرهم أن الله هو مولاهم وناصرهم ، وهو القوى الذى لا يخذل أولياءه.

١٥٠ - بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

بل الله ناصركم إن امتثلتم أمره، واجتنبتم نهيه، وأعددتم لعدوه ما استطعتم من قوة، وكنتم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

جاء فى تفسير المنار :

بل اللهُ مولاكُم . فلا ينبغى أن تفكروا فى ولاية أبى سفيان وحزبه، ولا عبد الله بن أُبى وشيعته ، ولا أن تصغوا لإغواء من يدعونكم إلى موالاتهم ، فإنهم لا يستطيعون لكم نصرا، ولا أنفسهم ينصرون ، وإنما الله هو المولى القادر على نصركم (١١٣).

وهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ . أى هو سبحانه خير ناصر وخير معين فلا تستنصروا بغيره.

١٥١ - سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ .

تبين هذه الآية سبيلا من سبل النصر ، التى يمنحها الله لعباده المؤمنين ، عندما يأخذون بالأسباب ويستحقون عناية السماء ، فعند الله جنود كثيرة ، وأسلحة متنوعة ، يساعد بها من يستحق المساعدة. منها سلاح الريح ، آرسله على المشركين فى غزوة الأحزاب ، ومنها سلاح الرعب ألقاه فى نفوس المشركين فى أعقاب معركة أحد، حين عزموا أن يعودوا ليستأصلوا شأفة المسلمين ، فقذف الله الرعب فى قلوبهم فانهزموا (١١٤).

ومنها ما يشبه الصواريخ ، ألقاها على أصحاب الفيل فجعلهم كعصف مأكول، أى هالكين كزرع أكلته الماشية. ومن أسلحة الله الملائكة ، أنزلها على المسلمين يوم بدر، وعند الله أسلحة كثيرة وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ . (المدثر : ٣١) .

والرعب : هو الخوف والفزع.

والسلطان : الحجة والبرهان .

والمعنى : سنملأ قلوب المشركين خوفا وفزعًا، بسبب إشراكهم مع الله آلهة أخرى ، ليس لهم حجة على صحة ألوهيتها ، ومرجعهم الذى يرجعون إليه يوم القيامة هو النار ، وساء هذا المثوى والمستقر للكافرين (١١٥).

وهل هذه الآية خاصة بيوم أُحد، أو هى عامة فى جميع الأزمان، ذكر كثير من المفسرين أنها خاصة بيوم أحد لأن سياق الكلام فى غزوة أحد.

فالكفار فى غزوة أحد قد انتصروا على المسلمين وهزموهم ، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم، فتركوهم وفروا منهم من غير سبب ، وسار المشركون إلى مكة (فلما كانوا فى بعض الطريق قالوا ما صنعنا شيئاً، قتلنا

الأكثرين منهم ثم تركناهم ونحن قادرون ، ارجعوا حتى نستأصلهم بالكلية ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله الرعب فى قلوبهم) (١١٦).

وقال بعض المفسرين : الآية غيز خاصة بيوم أُحد، بل هى عامة فى كل معركة، يتقابل فيها المؤمنون مع الكافرين ، فيحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين .

فالآية بيان لسنة إلهية عامة :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين .

قال الإمام محمد عبده :

إذا كان المؤمنون يتمسكون بمطالب الإيمان ومقتضياته كالمؤمنين السابقين ، وإذا كان الكافرون قد جحدوا وعاندوا وكابروا الحق كما فعل الكافرون فى عهد البعثة المحمدية (١١٧).

وبهذا يندفع قول من يقول : ما بالنا نجد الرعب كثيرا ما يقع فى قلوب المسلمين ، ولا يقع فى قلوب الكافرين؟ فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أسلافهم، من الثبات والصبر وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، وتمنى الموت فى الدفاع عن الحق، فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم . وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين، وما يكون له من آثار ، فحال المسلمين اليوم لا يقع حجة على القرآن ، لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق.

فالقرآن باق على وعده ، ولكن هات لنا المؤمنين ولك من إنجاز وعد الله ما تشاء (١١٨) قال تعالى : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . . . (النور : ٥٥) .

١٥٢ - وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

تحسونهم : أى تقتلونهم ، يقال حسسته أحسه أى قتلته. وفى المختار، إذ تحسونهم أى تستأصلونهم قتلا . وفى حاشية الجمل : تحسونهم : أى تقتلونهم قتلا كثيرا فاشيا، من حسه إذا أبطل حسه.

وكان ذلك فى مطلع المعركة حيث بدأ المسلمون يقتلون المشركين ويخمدون حسهم قبل أن يلهيهم الطمع فى الغنيمة عن الطاعة للقائد.

حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخرة . وهو تقرير لحال الرماة، وقد ضعف، فريق منهم عن صد إغراء الطمع فى الغنائم ووقع النزاع بينهم وبين

من يرون الطاعة المطلقة لأمر رسول الله . وانتهى الأمر إلى العصيان ، بعد ما شاهدوا بأعينهم طلائع النصر منقسمين إلى فريقين : فريق يريد غنيمة الدنيا وفريق يريد ثواب الآخرة .. وما كان لجيش ينقسم على نفسه فى ميدان المعركة هكذا أن يظل فى انتصاره ، وبخاصة أن الخلاف كان على عرض من أعراض الدنيا ، والمعركة معركة عقيدة أولا وأخيرا .

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ . أى صرف قوتكم وبأسكم عن المشركين فانهزمتم وفررتم ، ليكون فى هذا ابتلاء لكم وامتحان بما أصابكم منهم من الكر عليكم والإيقاع بكم .

وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . عفا عما وقع منكم من ضعف أمام شهواتكم ، وعصيان لأمر رسولكم ، وخروج على النظام الذى وضعه لكم ، ثم ما وقع كذلك من فرار وانقلاب عن ميدان المعركة حين قيل إن محمدا قد مات، ومَن يأس من جدوى المقاومة بعد محمد .. وكلها زلات تحسب على المؤمنين ، عفا الله عنكم، فضلاً منه ومنَّة تجاوزا عن ضعفكم البشرى الذى لم تصاحبه نية سيئة ولا إصرار وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

★ ★ ★

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

المفردات :

تصعدون	: تشتدون فى العدو منهزمين.
ولا تلوون على أحد	: ولا تلتفتون إليه لجدكم فى الهرب ، فرارا من الطلب.
اخراكم	: مؤخرة جيشكم.

اثابكم غما بغـــم	: جزاكم الله غما بالهزيمة بسبب غمكم للرسول بالمخالفة ، أو غما متصلا بغم.
امـنـة	: أمنا وسلاما.
يغشى	: يغطى.
اهمتهم أنفسهم	: شغلهم الاهتمام بها.
لبرز	: لخرج ولظهر.
مضاجعهم	: المراد بها مصارعهم فى أرض الموقعة.
وليبتلى	: ليختبر وهو العليم.
وليمحص ما فى قلوبكم	: وليطهرها من الشبهات وينقيها.

التفسير :

١٥٣ – إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

والصعود : الارتفاع على الجبال والدرج، والصعود أيضًا الذهاب فى صعيد الأرض والإبعاد فيه.

أى اذكروا – أيها المؤمنون – وقت أن كنتم مصعدين تهرولون بسرعة فى بطن الوادى بعد أن اختلت صفوفكم، واضطرب جمعكم، وصرتم لا يعرج بعضكم على بعض، ولا يلتفت أحدكم إلى غيره من شدة الهرب، والحال أن رسولكم – صلى الله عليه وسلم **يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ** . أى يناديكم فى آخركم أو فى جماعتكم الأخرى أو من خلفكم ، والمراد أن الرسول ﷺ كان يدعو المنهزمين إلى الثبات ، وإلى ترك الفرار من الأعداء، وإلى معاودة الهجوم عليهم، وهو ثابت لم يتزعزع ومعه نفر من أصحابه.

جاء فى نور القرآن ما يأتى :

والعبارة ترسم صورة حركتهم الحسية وحركتهم النفسية فى ألفاظ قلائل فهم مصعدون هربا فى اضطراب ورعب ودهشة، لا يلتفت أحد إلى أحد من الهول، ولا يجيب أحد داعى أحد من الذعر– والرسول يدعوهم وهم مصعدون، إنه.مشهد كامل فى ألفاظ قلائل.

وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذى تركوه فى نفس الرسول بفرارهم غمًّا يملأ صدورهم على ما كان منهم ، وعلى تركهم رسولهم يصيبه ما أصابه وهو ثابت دونهم ، وهم عنه فارون . ذلك كى يتعلموا ألا يحفلوا بشيء يفوتهم، ولا يحزنوا لأذى يصيبهم . فهذه التجربة التى مرت بهم ، وذلك الندم الذى ساور نفوسهم، وذلك الغم الذى استشعروه فيما فعلوه .. كل أولئك سيصغر فى نفوسهم كل ما يفوتهم من عرض، وكل ما يصيبهم من مشقة ، ويجعلهم أدق تقديرا للأمور كلها خيرها وشرها، بعد هذه التجربة الأليمة **لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ** . والله المطلع على الخفايا يعلم حقيقة أعمالكم ودوافعكم وتأثراتكم **وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** .

وفى تفسير الجلالين فَأَثَابَكُمْ فجازاكم . غمًّا الهزيمة. بغَمٍّ بسبب غمكم للرسول . وقيل الباء بمعنى على أى مضافا على غم .

قالت المعتزلة : وليس الغرض تسليط الكفار على المسلمين ولكن الغرض ألا يبقى فى قلوب المؤمنين اشتغال بغير الله ، ولا يحزنوا بالإدبار ولا يفرحوا بالإقبال.

وقال النيسابورى (١١٩) : (المراد أنكم قلتم لو بقينا فى هذا المكان وامتثلنا وقعنا فى غم فوت الغنيمة، فاعلموا أنكم لما خالفتم أمر الرسول وطلبتم الغنيمة وقعتم فى غموم أخر كل واحد منها أعظم من ذلك، فيصير هذا مانعا لهم من أن يحزنوا على فوات الغنيمة من وقعة أخرى. ثم كما زجرهم على تلك المعصية بزاجر دنيوى زجرهم بزاجر أخروى فقال : وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . عالم بجميع أعمالكم وقصودكم ودواعيكم فيجازيكم بحسب ذلك) (١٢٠).

١٥٤ - ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ .. الآية.

الأمنة - بفتحتين - مصدر كالأمن ، يقال أمن أمنا وأمانا وأمنة. والنعاس ، هو الفتور فى أول النوم .

المعنى الإجمالى :

ثم أسبغ الله عليكم بعد الغم نعمة الأمن ، وكان مظهرها نعاسا يغشى فريق الصادقين فى إيمانهم ، وتفويضهم لله ، أما الطائفة الأخرى فقد كان همهم أنفسهم لا يعنون إلا بها ، ولذلك ظنوا بالله الظنون الباطلة كظن الجاهلية ، ويقولون مستنكرين : هل كان لنا من أمر النصر الذى وعدنا به شىء ؟. قل - أيها النبى - الأمر كله فى النصر والهزيمة لله ، يصرف الأمر فى عباده إن اتخذوا أسباب النصر، أو وقعوا فى أسباب الهزيمة ، وهم إذ يقولون ذلك يخفون فى أنفسهم أمرًا لا يبدونه، إذ يقولون فى أنفسهم : لو كان لنا اختيار لم نخرج فلم نغلب، قل لهم : لو كنتم فى منازلكم وفيكم من كتب عليهم القتل لخرجوا إلى مصارعهم فقتلوا ، وقد فعل الله ما فعل فى أحُد لمصالح جمَّة، وليختبر ما فى سرائركم من الإخلاص ، وليطهر قلوبكم ، والله يعلم ما فى قلوبكم من الخفايا علما بليغا.

النوم فى المعركة :

عندما اشتد خوف المسلمين فى غزوة بدر أرسل الله عليهم النوم فهدأت أعصابهم ، واطمأنت نفوسهم، واشتد يقينهم برعاية الله لهم، ثم أنزل الله المطر فى غزوة بدر فكان نعمة على المؤمنين، حيث ثبتت الأرض من تحتهم ، وتطهروا ، وكان المطر وبالا على المشركين . قال تعالى :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . (الأنفال : ١١) .

وكان النوم فى غزوة بدر فى ليلة المعركة قبل أن تبدأ.

أما فى غزوة أحد فالراجح أنه كان فى أعقاب المعركة، بعد أن انتهت وأصاب المؤمنين فيها جراح وآلام، فأرسل الله عليهم النوم فهدأ روعهم واستعدوا لملاحقة المشركين فى غزوة حمراء الأسد، ولما علم المشركون بذلك أسرعوا بالعودة إلى مكة .

قال الإمام محمد عبده :

اختلف المفسرون فى وقت هذا النعاس ، فقال بعضهم : إن ذلك كان فى أثناء المعركة، وإن الرجل كان ينام تحت ترسه كأنه آمن من كل خوف وفزع، إلا المنافقين فإنهم أهمتهم أنفسهم فاشتد جزعهم. وحمل بعضهم هذه الآية على آية الأنفال ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ . وإنما هذه فى غزوة بدر . وقد مضت السنة فى الخلق بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولاً كبيرا ومصابا عظيما- فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه، ويبيت بليلة الملسوع فيصبح خاملا ضعيفا، وقد كان المؤمنون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك إذ بلغهم أن جيشا يزيد على ثلاثة أضعاف جيشهم سيحاربهم غدا، وهو أشد منهم قوة وأعظم عدة، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ، يضربون أخماسا فى أسداس ، ويفكرون بما سيلاقون فى غدهم من الشدة والبأس، ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس، غشيهم فناموا واثقين بالله تعالى مطمئنين لوعده، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم، فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها .

وأما النعاس يوم أحد فقد قيل : إنه كان فى أثناء الحرب ، وقيل إنه كان بعدها . وقد اتفق المفسرون وأهل السير على أن المؤمنين قد أصابهم يوم أحد شىء من الضعف والوهن، لما أصابهم يوم أحد من الفشل والعصيان وقتل طائفة من كبارهم وشجعانهم ، فكانوا بعد انتهاء المعركة قسمين :

أقوياء الإيمان : الذين حزنوا وتألموا من التقصير فى أسباب النصر، فأرسل الله عليهم النعاس، راحة لأجسامهم وبلسما لجراحهم، وما من أمة إلا وفيها الأقوياء والضعفاء.

وضعفاء الإيمان : اشتد هلعهم ، ويئسوا من النصر، وسلب الله عنهم عنايته ، فلم يرسل عليهم النوم ، بل شغلهم بأنفسهم فذلك قوله تعالى : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ . فهذه الطائفة من المؤمنين الضعفاء ولا حاجة إلى جعلها من المنافقين كما قيل (١٢١).

وقال السيد رشيد رضا :

هذا وإن جمهور المفسرين قد جروا على خلاف ما اختاره الأستاذ الإمام فى هذه الطائفة. فقالوا : إن المراد بها المنافقون منهم الذين كانت تهمهم أنفسهم، إذ كان هم المؤمنين محصورا فيما أصاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما وقع لبعضهم من التقصير، وكان فى غشيان النعاس ونزول الأمنة على المؤمنين من دونهم معجزة ظاهرة (١٢٢).

وتحرير الكلام فى هذه المسألة أن الله تعالى بين لنا فى كتابه ثلاث حقائق :

(الحقيقة الأولى) أنه تعالى هو خالق كل شىء والذى بيده ملكوت كل شىء، وبمشيئته يجرى كل شىء، فلا قاهر له على شىء ، وهو القاهر فوق كل شىء.

(الحقيقة الثانية) أن خلقه وتدبيره إنما يجرى بحسب مشيئته .

وحكمته على سنن مطردة ومقادير معلومة قال تعالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ .

(الحقيقة الثالثة) أن من جملة سننه فى خلقه وقدره فى تدبير عباده أن الإنسان خلق ذا علم ومشيئة وإرادة وقدرة ، فيعمل بقدرته وإرادته ما يرى بحسب ما وصل إليه علمه وشعوره أنه خير له، والآيات الناطقة بأن الإنسان يعمل وبعلمه تناط سعادته وشقاوته فى الدنيا والآخرة كثيرة جدا .

وإننا نرى الكتاب العزيز يذكر بعض هذه الحقائق الثلاث فى بعض الآيات ويسكت عن الأخرى، لأن المقام يقتضى ذلك – ولكل مقام مقال – ولكنه ينكر على من يجحد شيئًا منها ، ويبين للناس خطأه .

وكذلك الآية التى نحن بصدد تفسيرها تشير إلى بعض هذه الحقائق فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّه .(١٢٣)

أى بيده مقاليد الأشياء يقدرّ ويدبر كيف يشاء ، وقد قضى بأن يخرج المسلمون فى أحد، وأن ينهزموا لحكم يعلمها سبحانه، وليستفيدوا من دروس الهزيمة فلا يفعلوا ما يؤدى إلى مثلها .

لقد كانت غزوة أحد ابتلاء وامتحانًا تميز به طوائف الناس أمام هذا النوع من البلاء.

فمنهم أقوياء الإيمان، وضعفاء الإيمان، والمنافقين.

قال تعالى : وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .

أى نزل بكم ما نزل من الشدائد فى أحد لتتعوَّدوا تحمل الشدائد والمحن، وليعاملكم – سبحانه – معاملة المختبر لنفوسكم ، فيظهر ما تنطوى عليه من خير أو شر ، حتى يتبين الخبيث من الطيب، وليخلص ما فى قلوبكم من المحن والأدران، فإن القلوب يعتريها بحكم العادة أدران وأمراض من الغفلة وحب الشهوة ، فاقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل بها من المحن والبلاء، ما يكون بالنسبة لها كالدواء لمن عرض له داء .

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أى عليم بأسرارها وضمائرها الخفية التى لا تفارقها ، قال تعالى : إِنَّ اللَّه لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ . (آل عمران : ٥). وقال سبحانه : وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى . (طه : ٧) .

ومع معرفته سبحانه بكل شىء وإحاطة علمه بالظاهر والباطن فقد اقتضت حكمته أن يمتحن عباده ، وان يختبرهم ليظهر الخبيث من الطيب، ويتبين المؤمن من المنافق. وتظهر الخفايا المستكنة واضحة ظاهرة فى سلوك الناس وتصرفاتهم ، ثم يكون الجزاء من جنس العمل. أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) ﴾

المفردات :

استزلهم : أوقعهم فى الزلل بما زينه لهم.

ضربوا فى الأرض : أوغلوا فيها.

غزى : جمع غاز. وهو المقاتل.

التفسير :

١٥٥ - إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم .

المعنى الإجمالى :

إن الذين انصرفوا منكم عن الثبات فى أماكنهم - يا معشر المسلمين - يوم التقى جمعكم وجمع الكفار للقتال فى غزوة أحد ، إنما جرّهم الشيطان إلى الزلل والخطأ بسبب ما ارتكبوا من مخالفة الرسول . ولقد تجاوز الله عنهم ، لأنه كثير المغفرة واسع الحلم.

الفرار من المعركة :

حذرت آيات القرآن ، وأحاديث النبى صلى الله عليه وسلم من التولى يوم الزحف أى الفرار يوم القتال.

قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار (١٥) ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . (الأنفال : ١٥، ١٦).

* * *

كما أمر القرآن بالثبات والاحتمال والاستعانة بذكر الله ليكون كل ذلك مددا وقوة لنفسية المحارب . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . (الأنفال : ٤٥-٤٦).

* * *

وفى غزوة أحد . خالف الرماة أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتركوا أماكنهم فاضطرب نظام المعركة، وهجم المشركون على بقية الرماة فقتلوهم، وأصابوا المسلمين إصابات بالغة، وقد فرّ بعض المسلمين من المعركة متوجهاً نحو المدينة ، كما أن بعض المسلمين لم يثبت بجوار النبى صلى الله عليه وسلم ، بل فرّ إلى الجبل أو إلى غيره عندما اضطربت الصفوف.

« ولقد حكى لنا التاريخ أن هناك جماعة من المسلمين ثبتت إلى جانب النبى صلى الله عليه وسلم بدون وهن أو ضعف ، وقد أصيب ممن كان حوله أكثر من ثلاثين، وكلهم كان يفتدى النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه ويقول وجهى لوجهك الفداء، ونفسى لنفسك الفداء، وعليك السلام غير مودّع »(١٢٤).

قال صاحب المنار :

وهناك وجه آخر فى تفسير هذه الآية ، وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم، كالذين انهزموا عندما جاءهم العدوّ من خلفهم ، واستدل القائلون بهذا الوجه بما روى من أن عثمان بن عفان عوتب فى هزيمته يوم أحد، فقال : إن ذلك خطأ عفا الله عنه .

* * *

ولقد قال المفسرون فى صدد جملة بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا . إنها تعنى عصيان رسول الله ، وحب الغنيمة ، وكراهية الموت.

* * *

وهذه الآية فيها تحذير للمسلمين من التولى يوم الزحف، وتحذير لهم من طاعة الشيطان ، والاستماع إلى وسوسته ، لأن طاعة الشيطان طريق إلى المعصية والوهن والضعف، ومن سنَّة الله أن يعاقب الإنسان حينا فى الدنيا للتعليم والتأديب ، وأن يصفح عنه أحيانا لمعرفته سبحانه بضعف البشر قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ . (الشورى : ٣٠).

قال الأستاذ محمد عزة دروزة :

ولقد علم الله إخلاصهم وما أصابهم من خسائر فى الأرواح وجروح فى الأجساد ، وحزن وجزع، فاقتضت حكمته أن يغفر لهم زلتهم، وأن يبشرهم بهذه البشرى تهدئة لروعهم، وتضميدا لجراحهم، وأن يكتفى بما وجهه إليهم فى الآيات من عتاب ، وتحذير وتنبيه ، وفى ذلك ما فيه من معالجة ربانية جليلة، للموقف العصيب ، وتأميل فى عفو الله وحلمه وغفرانه فى كل موقف مماثل ، إذا لم تشبه شائبة من سوء نية وخبث طوية (١٢٥).

١٥٦ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا .. الآية.

هذه الآية تحذير للمؤمنين بأن لا يكونوا كالكفار ، الذين ينسون الله وقضاءه وحكمته ، ويقولون لمن يخرج غازيًا أو سائحًا أو تاجرًا فيموت أو يقتل ، إنه لو لم يخرج لما مات أو قتل.

وذلك جهل منهم بأن الله قدّر الآجال، وأن الضرب فى الأرض أو الغزو، لا يكون سبباً فى الموت أو القتل .

قال الفخر الرازى : وذلك لأن فى الطباع محبة الحياة، وكراهية الموت والقتل، فإن قيل للمرء: إذا تحررت من السفر والجهاد، فأنت سليم طيب العيش، وإن اندفعت إلى أحدهما وصلت إلى الموت والقتل - فالغالب أن ينفر طبعه عن ذلك ، ويرغب فى ملازمة البيت ، وكان ذلك من مكايد المنافقين فى التنفير من الجهاد .

* * *

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ . أى قالوا ذلك ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد حسرة فى نفوسهم ، قال ابن كثير : أى خلق الله هذا الاعتقاد فى نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم.

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ . فالموت يأتى للقاعد فى بيته متى جاء أجله، كما يأتى المجاهد فى حربه كذلك، وربما أصابت المنية القاعد ولم تنزل بالغازى.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أى علمه وبصره نافذ فى جميع خلقه، لا يخفى عليه من أمورهم شىء.

* * *

« ولقد احتوت الآية على قوة نافذة ، من شأنها أن تمد المؤمن بالصبر والرضا والتسليم لحكم الله، والجرأة والإقدام، وإيثار ما عند الله على حطام الدنيا، وعدم الاستماع لوسوسة المنافقين ، ومرضى القلوب المماثلة فى كل زمان ومكان » (١٢٦).

١٥٧ - وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

ولئن قتلتم أيها المؤمنون فى الجهاد، أو متم فى أثنائه على فراشكم بدون قتل ، فإن مغفرة الله لكم ورحمته بكم خير من حياة أولئك الكفار المقطوعة صلتهم بالله، الهابطة إلى الأرض، ومما يجمعون فيها من مال ومتاع.

١٥٨ - وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ .

وإنكم لمحشورون إلى الله على كل حال سواء متم ميتة عادية ، أو قتلتم فى الجهاد، فخير إذن أن تلقوا الله وقد نهضتم بتكليف الإيمان، وجاهدتم فى سبيله حتى وافاكم الأجل الموعود ، الذى لا ينقص منه الجهاد.

* * *

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أبلغ ألوان الترغيب فى الجهاد ، من أجل إعلاء كلمة الله ، لأنها قد بينت أن الحياة والموت بيد الله وحده ، وأنه سبحانه قد يكتب الحياة للمسافر وللغازى، مع اقتحامهما لموارد الحتوف، وقد يميت المقيم والقاعد فى بيته مع حيازته لأسباب السلامة.

وإن الذين يموتون على الإيمان الحق، أو يقتلون وهم يجاهدون فى سبيل الله ، فإن لهم من مغفرة الله ورحمته ما هو خير مما يجمعه الكافرون من حطام الدنيا ، وأن كل من مات أو قتل فمرجعه إلى الله عز وجل وهو سبحانه مطلع وشاهد ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ . (الزلزلة : ٧ ، ٨) .

★ ★ ★

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)﴾

المفردات :

لنت لهم : رفقت بهم.

فظا : الفظ، سيئ الخلق.

غليظ القلب : قاسيـــــه.

يخذلكم : يمنع عنكم النصر.

التفسير :

١٥٩ - ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ ... الآية.

بيان لعظم حلم النبى صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله به وبهم ، بعد ما كان منهم من مخالفة أمر الرسول وفرارهم ، كما سبق بيانه .

أى : فبسبب رحمة واسعة من الله بك وبهم - وفقك الله للصفح عنهم : فلنت لهم ورفقت بهم ، ولم تغلظ عليهم فى الملام . مع أنهم فعلوا ما يقتضى أشد التعنيف . إذ ترك أكثر الرماة أماكنهم فوق الجبل ، واشتغلوا بجمع الغنيمة . فمكّنوا المشركين من صعوده مكانهم ، وقلب ميزان المعركة لصالحهم. وترتب عليه أن أكثر الجيش فرّ، وترك الرسول فى قلة من أصحابه، فناله من أذى المشركين ما ناله، حتى أرجفوا بقتله.. فكان لين

الرسـول مـعهم – بعد ذلك – رحـمـة من رحـمات الله به وبهم . إذ كـان سـببـا فى بقـاء الإسـلام ، وجمـع قلوب المسلمين.

ولذا قال سبحانه وتعالى :

وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفضُّوا مِنْ حَوْلِكَ.

أى : ولو كنت جافى الطبع، قاسى القلب ، فعاملتهم بقسوة، وعنفتهم على ما كان منهم ، وأشحت عنهم غضبا عليهم – لنفرت قلوبهم منك، فتفرقوا عنك ، ولم تستطع أداء رسالتك، وتبليغ دعوتك على وجهها الأكمل.

فلينه صلى الله عليه وسلم معهم – على خطئهم وعفوه عنهم – لم يكن عن ضعف وإنما كان ناشئا عن الرحمة التى فطره الله عليها .

فاعفُ عَنهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ .

قال صاحب الكشاف : اعف عنهم فيما يتعلق بحقك ، واستغفر لهم فيما يتعلق بحق الله .

وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ .

أى : فى أمر الحرب وغيره ، من كل أمر له خطر ولم ينزل فى شأنه وحى ، استظهارا برأيهم ، وتطييبا لنفوسهم ، ورفعاً لأقدارهم ، وتقريرا لسنة التشاور فى الأمة الإسلامية .

وقد جاء فى الكشاف : وعن الحسن رضى الله عنه : قد علم الله ما به إليهم حاجة، ولكنه أراد أن يستن به من بعده .

وقيل : كانت العرب ، إذا لم يشاوروا فى الأمر ، شق عليهم ذلك . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه، لئلا يثقل عليهم استقلاله بالرأى دونهم . وكان صلى الله عليه وسلم ، يدرك – تمام الإدراك– ما للمشاورة من أثر فى الوصول إلى الصواب .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : « ما تشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم » [١٢٧].

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .

أى : فإذا استقر رأيك ، وسكنت نفسك – بعد المشاورة ، فامض الأمر ولا تتردد ، وتوكل على الله فى تنفيذها ما عزمت عليه فإنه هو المعين لك فى أمور الدين والدنيا .

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ . عليه فى جميع أمورهم . وإنما يحبهم لأنهم أخلصوا نفوسهم له، وطردوا عنها ما سواه ، إذ لم يروا فى غيره غناء.

وحب الله لهم ، مجاز عن توفيقه وإرشاده لهم فى الدنيا ، وحسن المثوبة فى الآخرة .

والمراد أنه لا ناصر لكم سواه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الأمر كله لله .

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . أمر للمؤمنين بأن يخصوا الله تعالى بالتوكل عليه ، والثقة به ، فى جميع الأخذ فى الأسباب .

والمراد بالتوكل ، غير التواكل الذى هو ترك الأخذ بالأسباب ، مما يقع فيه كثير من المسلمين ، بناء على خطئهم فى فهم المراد من التوكل . وهذا التواكل محرم شرعا ..



﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

يغل : يخون . فالغلول : الخيانة وأخذ الشىء خفية. وخص – فى الشرع – بالسرقة من المغنم قبل القسمة. وفى قراءة (يُغَل) بضم الياء وفتح العين ، أى ينسب إلى الغلول.

باء بسخط : رجع بغضب شديد من الله.

التفسير :

١٦١ – وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ .. الآية.

أى ما صح وما استقام – عقلا وشرعا – لنبى من الأنبياء أن يخون فى المغانم وغيرها ، أو ينسب إلى الخيانة.

وفى هذا تنزيه لمقامه صلى الله عليه وسلم ، عن جميع وجوه الخيانة فى أداء الأمانة ، ومنها قسمة الغنائم، وتنبيه على عصمته عليه السلام . فإن النبوة تنافى ذلك .

والمراد : تنزيه ساحته صلى الله عليه وسلم ، عما ظنه الرماة الذين تركوا أماكنهم يوم أحد ، حرصًا على الغنيمة، وخوفا من أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أخذ شيئًا فهو له .. فيحرموا – فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم معاتبًا متعجبًا « ظننتم أنا نغل ؟؟» فنزلت الآية (١٢٨).

وعن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « اتهم المنافقون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بشىء فقد ، فأنزل الله الآية ».

وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. الآية.

أى ومن يخن يأت بما خان فيه يوم القيامة ، يحمله أمام أهل المحشر، ليفتضح أمره.

وقد وردت أحاديث كثيرة فى عاقبة الغلول وجزائه ، وأنه من الكبائر.

فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كان على ثقل (١٢٩) النبى – صلى الله عليه وسلم – رجل يقال له كركرة فمات فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هو فى النار ، فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غلها » (١٣٠).

وقد امتنع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من صلاة الجنازة على من غل (١٣١).

ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .

أى : تعطى كل نفس مكلفة جزاء ما عملت – من خير أو شر – وافيًا تاما، قليلاً كان أو كثيرا.

والغال داخل فى هذا العموم دخولا أوليا.

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ .

أى : وكل الناس لا يظلمون بنقص فى ثواب ما عملوه من الخير، أو زيادة فى العقاب على ما اقترفوه من الشر إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا . (النساء : ٤٠) .

١٦٢ – أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ .. الآية.

المعنى : أغفلتم عن عدل الله ، فحسبتم أن من اتبع رضوان الله وسعى فى تحصيله : بفعل الطاعات وترك المنهيات ، كمن رجع بغضب شديد من الله عليه ، بسبب الكفر والمعاصي، ومنها الغلول ؟.

أى : لا يستوى من اتبع رضوان الله – بالتزام شريعته ، فاستحق ثواب الله ونعيمه – ومن حاد عنه، فاستحق غضبه وشديد عقابه ، فلا محيد له عنه .

وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ .

أى : مقره ومثواه جهنم : يلقى فيها عذاب الهون ، جزاء تفريطه فى أوامر الله تعالى ونواهيه.

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ .

أى : وبئس مآله ومرجعه السيىء : جهنم .

١٦٣ – هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ .. الآية .

أى : المتبعون رضوان الله والذين باءوا بسخطه ، ذوو درجات ومنازل متفاوتة فى الثواب والعقاب .

فأصحاب الثواب متفاوتون فى الدرجات . والمستحقون لغضب الله وعذابه، متفاوتون كذلك . والدرجات تكون فى النعيم ، وتكون فى العذاب . يدل على ذلك قوله تعالى :﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ . (الأنعام : ١٣٢) . بعد قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ . (الأنعام : ١٣١) .

والمراد بقوله تعالى : عِندَ اللَّهِ . فى علمه تعالى وحكمه.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

أى : بصير بالأعمال التى عملوها من خير أو شر . سيجازيهم عليها : كلا بحسبه من ثواب أو عقاب.

★ ★ ★

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

المفردات :

مَنَّ : المن، التفضل والإنعام من غير مقابل.

من أنفسهم : من جنسهم.

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة.

أنَّى هذا : من أين هذا ؟.

التفسير :

١٦٤ – لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. الآية.

أى : أنعم الله تعالى وتفضل على المؤمنين ببعثه الرسول فيهم من جنسهم : عربيا مثلهم : نشأ بينهم ، وعرفوا أخلاقه وصفاته.

وإذا كان الرسول إليهم من جنسهم ، كان ذلك أبلغ فى الامتنان . حيث يسهل عليهم مخاطبته ومجالسته ، ومعرفة أمور الدين منه.

وبعثته صلى الله عليه سلم فيهم - وهو منهم - شرف للعرب ، وفخر عظيم لهم . وإن كانت رسالته عامة للعالمين أجمعين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . (الأنبياء : ١٠٧) .

يتلو عليهم آياته . وهو القرآن ، بعد أن كانوا أهل جاهلية . لم يطرق أسماعهم شيء من الوحى .

ويزكيهم . أى ويطهرهم مما كانوا فيه من دنس الجاهلية ، وخبيث المعتقدات . حيث دعاهم إلى العقيدة الصحيحة ، والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة .

ويعلمهم الكتاب والحكمة .

أى : ويعلمهم القرآن وشرائعه ، وحكمه وأحكامه ، والسنَّة وما اشتملت عليه من بيان لمبهم الكتاب ، وتفصيل لمجمله .

وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

أى : وإنهم كانوا - من قبل بعثته - لفى ضلال ، وإضلال ، واضح الدلالة على الجهالة ، ظاهر لكل من طلع على عاداتهم وأخلاقهم وعقائدهم .

١٦٥ - أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا .. الآية.

كلام مستأنف ، سيق لإبطال بعض ما نشأ من الظنون الفاسدة بعد معركة أحد ، إثر إبطال بعض آخر منها .

والمعنى : أفعلتم ما فعلتم من أسباب الهزيمة ولما أصابتكم مصيبة يوم أحد بقتل سبعين شهيدًا منكم قد أصبتم مثليها . يوم بدر بقتل سبعين من كفار قريش وأسر سبعين منهم - لما حدث هذا - قلتم : من أين هذا الذى أصابنا وقد وعدنا الله النصر ؟!

قل هو من عند أنفسكم . بسبب عصيانكم أمر رسول الله ، حيث أمركم بالثبات فى مكانكم فعصيتم

إن الله على كل شيء قدير . فهو ينصركم حين تستحقون النصر، ويكتب عليكم الغلبة حين تقصرون فى التزام أسبابه.

وفى ختام الآية بما ذكر : ما يرشد إلى أن الأمر كله بيده جلَّت قدرته ، سبحانه وتعالى .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

المفردات :

يوم التقى الجمعان : أى يوم أحد، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

وليعلم : وليظهر ويميز.

نافقوا : النفاق ، إظهار الإيمان وإبطان الكفر.

فادرءوا عن انفسكم الموت : أى يوم أحد، حيث التقى جمع المؤمنين وجمع المشركين.

التفسير :

١٦٦ - وما أصابكُم يومَ الْتقى الْجمْعَان .. الآية.

أى : وما نزل بكم من استشهاد بعضكم ، يوم التقى الجمعان : جمع المؤمنين بقيادة رسول الله ، وجمع المشركين بقيادة أبى سفيان فَبِإِذْنِ اللَّهِ . أى فكائن بقضاء الله وقدره ، حسبما جرت به سنته فى خلقه وتلك الأيَّامَ نُداولُها بيْنَ النَّاسِ . (آل عمران : ١٤٠) .

وفى ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، ومواساة لهم فيما أصابهم. فالمؤمن إذا عرف ذلك ، يرضى ويسلم بما قضاه الله وقدره .

وليَعْلم الْمُؤْمنينَ .

أى : وليظهر المؤمن الصادق من غيره ، وليميز الخبيث من الطيب.

١٦٧ - وليَعْلَمَ الَّذينَ نَافقُوا ... الآية.

أى : وليظهر غير الصادقين فى إيمانهم .

وَقِيلَ لَهُمْ تعَالَوْا قَاتلُوا في سَبيلِ اللَّه أَوِ ادْفَعُوا .

أى : قيل للمنهزمين مع عبد الله بن أُبىّ - رأس المنافقين - تعالوا قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء دينه ونصرة نبيه ، أو دافعوا عن أنفسكم وأموالكم ، إن لم تقاتلوا لوجه الله . وممن قال لهم ذلك : عبد الله بن عمرو ابن حرام .

قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ .

هذا استئناف بيانى ، أى قالوا : لو كنا نعلم أنكم تلقون قتالاً لاتبعناكم وسرنا معكم . أو قالوا استهزاء: لو نعلم فنون الحرب وأساليبها لاتبعناكم .

ثم كشف الله حقيقة أمرهم فقال :

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ .

أى هم - يوم قولهم ذلك - أقرب للكفر منهم للإيمان، حيث تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وقالوا ذلك كاذبين .

وإنما لم يصرح القرآن بحقيقة كفرهم ، لنطقهم بالشهادتين . وهم- فى الواقع - لا إيمان فى قلوبهم .

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ .

هذه جملة - تبين حال المنافقين الدائمة ، لا فى هذا اليوم فقط. أى أنهم يتكلمون بكلمة التوحيد وليس فى قلوبهم منه شىء، لإضمارهم الكفر والعداوة والبغضاء لأهل الإسلام .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ .

أى : والله سبحانه عليم بما انطوت عليه صدورهم من الشر والفساد، وبأن ما قالوه بأفواههم ، ليس كائنا فى قلوبهم ، بل مخالفًا له .

١٦٨ - الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا .. الآية.

أى : الذين قالوا فى حق إخوانهم فى الدين ، أو ذوى قرابتهم الذين خرجوا مع المؤمنين وقاتلوا ، وقد قعدوا هم عن مشاركتهم والجهاد معهم .

لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا . أى لو أطاعونا فى ترك السير مع الرسول والمؤمنين ، ما قتلوا . كما أننا لم نقتل.

وفى ذلك ما يدل على أن المنافقين ، حرضوا المؤمنين على التخاذل والقعود عن الجهاد.

قُلْ فَادْرَءُوا . أى قل لهم يا محمد : إن كان القعود ينجى من الموت كما تزعمون . فادفعوا عن أنفسكم الموت الذى كتب عليكم .

إن كُنتُم صادقين . فيما تزعمون من أن الموت لم يقع بكم ، لأنكم قعدتم وجبنتم . قال تعالى : قل لن ينفعكُمُ الفِرارُ إن فررتُم مِّنَ المَوْتِ أَوِ القَتْلِ وإذًا لاَّ تُمَتَّعُونَ إلاَّ قليلاً * قُلْ مَن ذَا الَّذي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إن أراد بكُم سوءًا أو أراد بكُم رحمةً ولا يجِدُون لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ولِيًّا ولا نَصيرًا . (الأحزاب : ١٦ ، ١٧).



﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

كانت حياة المسلمين فى المدينة مفعمة بالجهاد والاستشهاد ، كان للمسلمين شهداء فى بئر معونة ، وشهداء فى غزوة بدر ، وشهداء فى غزوة أحد ، وفى غيرها من الغزوات [١٣٢].

وكان المنافقون يثبطون المسلمين عن الجهاد ، ويدعونهم إلى القعود فى المدينة خوفاً من الموت أو القتل. فبينت هاتان الآيتان فضل الشهادة ، ومنزلة الشهداء.

قال الواحدى : الأصح فى حياة الشهداء ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أن أرواحهم فى أجواف طيور خضر وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة حيث قال سبحانه :

ولا تقُولُوا لمن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ . (البقرة : ١٥٤).

ولقد روى المفسرون أحاديث عديدة فى سياق هذه الآيات ، كتفسير وتوضيح ، وأورد الحافظ ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى الحث على الجهاد، ومن أحاديث فضل الجهاد ما يأتى :

روى البخارى عن ابن المنكدر أنه سمع جابرًا يقول : لما قتل أبى جعلت أبكى وأكشف الثوب عن وجهه، فجعل أصحاب رسول الله ينهوننى والنبى ﷺ لم ينه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (لا تبكيه – أو ما تبكيه – ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفع) [١٣٣].

وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا من يبلغ إخواننا أننا

فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد، ولا ينكلوا فى الحرب (١٣٤)، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم . فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عند رَبِّهِمْ يُرْزَقُون ﴾ (١٣٥).

(قال أبو الضحى نزلت هذه الآية فى أهل أُحد خاصة ، وقال جماعة من أهل التفسير : نزلت الآية فى شهداء بئر معونة . وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق فى المغازى. وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة أو سرور تحسروا وقالوا : نحن فى النعمة والسرور وآباؤنا وأبناؤنا فى القبور ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم) (١٣٦).

والآية تبين منزلة الشهداء فهم فى حياة سارة ونعيم لذيذ ورزق حسن عند ربهم . وهذه الحياة الممتازة ترفعهم عن أن يقال فيهم كما يقال فى غيرهم : أموات ، وإن كان المعنى اللغوى للموت - بمعنى مفارقة الروح للجسد فى ظاهر الأمر - حاصلاً للشهداء كغيرهم من الموتى ، إلا أن هذه الحياة البرزخية التى أخبر الله بها عن الشهداء نؤمن بها كما ذكرها الله تعالى ، ولا ندرك حقيقتها لأنها من شؤون الغيب .

قال القرطبى فى تفسير الآية :

(فقد أخبر الله تعالى - فى هذه الآيات عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون ، والذى عليه الكثيرون أن حياة الشهداء محققة ، ثم منهم من يقول : ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون . كما يحيا الكفار فى قبورهم فيعذبون ، وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة ، وقال آخرون أرواحهم فى أجواف طير خضر وأنهم يرزقون فى الجنة ويأكلون ويتنعمون ، وهذا هو الصحيح من الأقوال ، لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف ..) (١٣٧).

والآية تثبت للشهداء حياة على نحو ما ، نؤمن بها ونفوض معرفة حقيقتها لله ، جاء فى المنتخب فى تفسير القرآن الكريم :

١٦٩ - ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾ ... ولا تظنن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلمها يرزقون عند ربهم رزقاً حسنا .

١٧٠ - ﴿ فرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ ﴾ ... يتألق السرور بالبشر من وجوههم ، بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا أحياء مقيمين على منهج الإيمان والجهاد ، وبأنه لا خوف عليهم من مكروه، ولا هم يحزنون لفوات محبوب .

ويقول الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى:

(أى أن هؤلاء الشهداء فرحون بما آتاهم الله من فضله ، من شرف الشهادة ومن الفوز برضا الله . ويسرون بما تبين لهم ، من حسن مآل إخوانهم ، الذين تركوهم من خلفهم على قيد الحياة، لأن الأحياء عندما يموتون شهداء مثلهم، سينالون رضا الله وكرامته ، وسيظفرون بتلك الحياة الأبدية الكريمة كما ظفروا هم بها .

فالمراد بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم : رفقاؤهم الذين كانوا يجاهدون معهم فى الدنيا ولم يظفروا بالشهادة بعد ، لأنهم ما زالوا على قيد الحياة) (١٣٨).

والآيتان من أروع ما يتلى للحث على الجهاد وبيان فضل الشهادة ، وبيان منزلة الشهداء ، وجلال ثوابهم وطيب مقامهم ، ورفعة منزلتهم ، وهى منزلة يتمناها المؤمن الصادق، حياة الشهيد فى جوار ربه يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليقتل فى سبيل الله مرة ومرة ومرة ، لما يرى من فضل الشهادة . إن الشهيد قد قدم روحه ، وضحى بنفسه . فكان له الجزاء الأوفى من جنس عمله ، وكان له حق على الله أن يحفظه من النار وأن يدخله الجنة ، وأن يسكنه فى أعلى منازل الجنان .

جاءت أم حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقول : يا رسول الله : إن حارثة قد قتل فى الجهاد فأخبرنى أهو فى الجنة أم فى النار ؟ فإن كان فى الجنة صبرت وإن كان فى النار بكيت ، فقال ﷺ : اتق الله يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى منها (١٣٩) .

وقد تمثل المؤمنون المعانى الكريمة لهذه الآيات والأحاديث ، فحملوا راية الجهاد فى سبيل الله ، وكان العباد والزهاد والمنقطعون للعبادة فى المساجد يرون أن لهم ثوابا عظيما على عبادتهم ، وكانت هناك مساجلات أدبية بين المتعبدين فى المساجد ، والمجاهدين فى ميادين الحرب .

روى الحافظ ابن عساكر عن محمد بن إبراهيم بن أبى سكينة قال : أملى علىَّ عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس ، وأرسلها إلى الفضيل بن عياض سنة ١٧٠ هـ :

يا عابد الحرمين لو ابصرتنا
لعلمت أنك فى العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه
فنحورنا بدمائنا تتخضب

أو كان يتعب خيله فى باطل
فخيولنا يوم الصبيحة تتعب

ريح العبير لكم ونحن عبيرنا
وهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا
قول صحيح صادق لا يكذب

لا يســـتـــوى غـــبـــار خـــيل الله فى
أنف امـــــرئ ودخـــــان نـار تـلـهـب

هـذا كـــتـــاب الـلـه يـنـطـق بـيـنـنـا
لـيس الشـــهـــيـــد بميت لا يـكـذب

فلما قرأ هذه الأبيات الفضيل بن عياض ذرفت عيناه فى المسجد الحرام وقال : صدق أبو عبد الرحمن، فقد صح فى الحديث عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله ، فقال له الرسول ﷺ : « هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر ؟ » فقال يا رسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « فو الذى نفسى بيده لو طوقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله » رواه البخارى (١٤٠).



﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

المعنى الإجمالى :

تتألق وجوه الشهداء بما من الله به عليهم من نعمة الشهادة ، ونعيم الجنة وعظيم الكرامة، وبأنه لا يضيع آجر المؤمنين .

فهذه الآية استئناف مبين لما هم عليه من سرور يتعلق بذواتهم بعد أن بين سبحانه سرورهم بحال الذين لم يلحقوا بهم .

أى أن هؤلاء الشهداء يستبشرون بحال إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، كما أنهم يستبشرون أيضًا لأنفسهم بسبب ما أنعم الله عليهم به من نعم جزيلة - وبسبب ما تفضل به عليهم من زيادة الكرامة وسمو المنزلة، وهذا يدل على أن هؤلاء الشهداء لا يهتمون بشأن أنفسهم فقط ، وإنما يهتمون أيضًا بأحوال إخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا ، وفى ذلك ما فيه من صفاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم حيث أحبوا الخير لغيرهم كما أحبوه لأنفسهم .

والآية وإن نزلت فى شهداء غزوة أحد ، إلا أن حكمها عام فى جميع شهداء المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله.



﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤ ﴾

المفردات :

القرح : الجـــــرح.

حسبنا الله : كافينا وحافظنا.

الوكيل : المتصرف ، أو الكافى، أو الكافل.

قصة الآيات :

ورد فى كتب التفسير [١٤١] عدة روايات عن أسباب نزول هذه: منها أنها نزلت فى غزوة حمراء الأسد، ومنها أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى، وتلتقى الروايات على أن حربا نفسية كانت فى أعقاب غزوة أحد، حاول المشركون منها تثبيط همم المسلمين ليكسبوا جولة بدون معركة عسكرية ، ولكن المسلمين المخلصين لبوا نداء الرسول وخرجوا فى طلب المشركين ثم عادوا ظافرين غانمين إذ لم يجدوا عدوا وإنما سجلوا نصرا معنويا.

قال الفخر الرازى :

اعلم أن الله مدح المؤمنين على غزوتين تعرف إحداهما بغزوة حمراء الأسد، والثانية : بغزوة بدر الصغرى، وكلتاهما متصلة بغزوة أحد.

أما غزوة حمراء الأسد فهى المرادة من هذه الآية ، فإن الأصح فى سبب نزولها أن أبا سفيان وأصحابه بعد أن انصرفوا من أحد ، وبلغوا الروحاء ندموا ، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق إلا القليل فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع نستأصلهم ، فهموا بالرجوع .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يرهب الكفار ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة ، فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان ، وقال : لا أريد أن يخرج الآن معى إلا من كان معى فى القتال فى أحد.

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع قوم من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد، وهى مكان على بعد ثمانية أميال من المدينة، فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فانهزموا . ا هـ.

١٧٢ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ .

أى هؤلاء المؤمنون هم الذين أجابوا دعوته، ولبوا نداءه ، وأتوا بالعمل على أكمل وجوهه ، واتقوا عاقبة تقصيرهم ، على ما هم عليه من جراح وآلام أصابتهم يوم أحد، لهم أجر عظيم على ما قاموا به من جليل الأعمال.

١٧٣ - الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

أى هم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعى، ومن وافقه وأذاع قوله : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم ، فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم.

روى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة أن الآية نزلت فى غزوة أحد الصغرى، ذلك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد ، يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : ذلك بيننا وبينك إن شاء الله ، وهذا مما اعتاده العرب فى حروبهم .

فلما جاء الموعد خرج النبى على رأس فريق من أصحابه حتى بلغ بدرًا فلم يجدوا قريشا ، وشهدوا سوق بدر، وكان لهم فيها ربح تجارى عظيم ، ولم يلقوا كيدا أو سوءا . وابن سعد يذكر وقوع الغزوتين وأسبابهما التى ذكرها المفسرون (١٤٢).

روى أن أبا سفيان خرج فى العام التالى لغزوة أحد، فى جيش من أهل مكة حتى نزل (مجنة) ، من ناحية (مر الظهران) ، فألقى الله الرعب فى قلبه فبدا له الرجوع ، فلقى نعيم بن مسعود وقد قدم معتمرا فقال له أبو سفيان : إنى واعدت محمدا وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر، وأن هذا عام جدب، ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن، وقد بدا لى أن أرجع ، وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج فيزيدهم ذلك جرأة ، فاذهب إلى المدينة فثبطهم ، ولك عندى عشرة من الإبل ، أضعها فى يدى سهيل بن عمرو فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان ، فقال لهم : أتوكم فى دياركم ، فلم يفلت منكم أحد إلا شريد، أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ فكان لكلامه وقع شديد فى نفوس قوم منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لأخرجن ، ولو لم يخرج معى أحد » فخرج ومعه سبعون راكبًا يقولون (حسبنا الله ونعم الوكيل) حتى وافى بدرًا الصغرى فأقام بها ثمانية أيام ، ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحدا، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة ، وكان معه ألفا رجل، فسماه أهل مكة جيش السويق، وقالوا لهم : إنما خرجتم لتشربوا السويق.

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات ، فباعوا واشتروا أدما وزبيبا فربحوا ، وأصابوا بالدرهم درهمين - وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين.

وفى ذلك يقول الله تعالى : فَزَادَهُمْ إِيمَانًا . أى فزادهم هذا التخذيل إيمانًا بالله ورغبة فى الجهاد ، واستعدادا للتضحية، وقالوا فى يقين صادق : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . الله كافينا ، يرد عنا أعداءنا وينصرنا، ونعم الكفيل الله تعالى .

١٧٤ - فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ .. .

فعاد المسلمون من بدر الثانية بنعمة السلامة مع الرغبة فى الجهاد وفوزهم بثوابه. وقد تظاهرت عليهم نعم الله ، فسلموا من تدبير عدوهم ، وأطاعوا رسولهم ، وربحوا فى تجارتهم ، ونالوا فضل الله عليهم فى إلقاء الرعب فى قلوب عدوهم فلم ينلهم أذى.

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ. أى حرصوا على فعل ما يرضى الله تعالى عنهم ، من المبادرة إلى فعل الطاعات، ومنها خروجهم لبدر الصغرى، وترك المنهيات ففازوا برضوان الله وتأييده ونصره .

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أى ذو إحسان عظيم على العباد .

فى أعقاب الآيات :

من المفسرين من ذكر أن الآيات نزلت فى غزوة حمراء الأسد، فى أعقاب غزوة أحد.

ومنهم من ذكر أنها نزلت فى غزوة بدر الصغرى، وهى بعد غزوة أحد بسنة كاملة.

وهناك احتمال أن الآيات نزلت بعد الحادثتين كلتيهما . وقد رجح الأستاذ محمد عزة دروزة أن الآيات نزلت فى غزوة حمراء الأسد الأسد لأنها متكاملة مع ما سبقها.

والمتبادر أن الآيات لم تنزل مستقلة ، وليست منفصلة عن سابقاتها، وكلمة الَّذِين متصلة نظما بكلمة الْمُؤْمنِين التى كانت خاتمة الآيات السابقة ، وأن السلسلة كلها نزلت دفعة واحدة ، عقب أحداث وقعة أُحد ومشاهدها.

والآيات تحتوى صورة رائعة لاستغراق النبى صلى الله عليه وسلم فى دعوته والجهاد فى سبيلها، وعمق إيمان الفئة المؤمنة التى كانت حوله ، وصبرها وتفانيها وقوة روحها واستغراقها فى تأييد النبى وطاعته.. وبخاصة فى الحالة التى نزلت فيها الآيات، حيث خرجوا إلى عدو يزيد عليهم أضعافا كثيرة، ويفوقهم فى الوسائل ، وكانت جراحهم دامية وأجسادهم متعبة بما فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان مجروحا فى وجهه مشجوجا فى جبهته ، مكسورة رباعيته مكلومة شفته السفلى متوهنا منكبه الأيمن من ضربة أصابته وركبتاه مشجوجتان (١٤٣) . ويزيد فى روعة الصورة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يندب معه إلا الذين شهدوا معركة أحد وقاتلوا فيها ولم ينهزموا . وقد روى أن عددهم كان سبعين (١٤٤) . ومما رواه المفسرون من واقع هذه الصورة خروج الجرحى حرصا على ثواب غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك أن شابا (١٤٥) استشهد أبوه فى المعركة ولم يكن شهدها بنفسه لأن أباه آلى عليه أن يتخلف إلى جانب سبع أخوات له، فجاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم وطلب منه الإذن بالانضمام إليه بعد أن أخبره بعذره الذى منعه من شهود المعركة ، وفى كل هذا عظيم الأسوة والتلقين لكل مسلم فى كل ظرف ومكان(١٤٦).

وفى معنى هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ . (الأحزاب : ٢٢).

★ ★ ★

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾

المفردات :

الشيــطان : الشيطان هنا هو شيطان الإنس الذى غش المسلمين ليخذلهم وهو نعيم بن مسعود .

يخوف أولياءه : أى يخوفكم أنصاره من المشركين.

يسارعون فى الكفر : أى يسارعون فى نصرته والاهتمام بشئونه والتهوين من شأن المؤمنين وتخويفهم.

حظًا فى الآخرة : أى نصيبا من الثواب فيها.

اشتروا الكفر بالإيمان : أى أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان كما يفعل المشترى من إعطاء شىء وأخذ غيره بدلاً منه.

نملى لهم : الإملاء : الإمهال والتخلية بين العامل وعمله ليبلغ أقصى مداه ، من قولهم : أملى لفرسه إذا أرخى له الطول ليرعى كيف شاء، منه الملأ للأرض الواسعة، والملوان : الليل والنهار.

سياق الآيات :

انتهت غزوة أحد بفوز المشركين ، وأصيب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بجراح وآلام وانكسار.

عندئذ أظهر بعض المنافقين كفرهم وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم ، ويقولون لهم إن محمدا طالب ملك، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولا من عند الله ما غلب، إلى نحو هذه المقالة مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ويسرف فى الحزن، فنزلت هذه الآيات تسلية للرسول الأمين وتربية للمؤمنين.

التفسير :

١٧٥ - إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

بين الله سبحانه للمؤمنين أن أولئك الذين يخوفونكم بأعدائكم لتجبنوا عن لقائهم ليسوا إلا أعوانا للشيطان الذى يخوف أتباعه فيجعلهم جبناء ولستم منهم ، فلا تحفلوا بتخويفهم وخافوا الله وحده إن كنتم صادقى الإيمان قائمين بما يفرضه عليكم هذا الإيمان .

وجاء فى التفسير الحديث :

فى هذه الآية تنبيه وتثبيت للمؤمنين ، فالشيطان يثير فى نفوسهم الخوف من أوليائه، ليقعدهم عن القتال، فعليهم ألا يستمعوا لوساوسه، ولا يخافوهم بل يخافوا الله وحده إن كانوا مؤمنين حقا . ا هـ.

وتفيد الآية أن المؤمن لا يكون جبانا ولا ذليلا ، لأن الموت والحياة بيد الله ، وإذا عرضت للإنسان أسباب الخوف فليستحضر فى نفسه قدرة الله الذى بيده كل شىء، وهو يجير ولا يجار عليه .

إن فى استطاعة الإنسان أن يقاوم أسباب الخوف، ويعوِّد نفسه الاستهانة بها بالتمرين والتربية.

إذا عرضت للإنسان أسباب الخوف، فعليه أن يغالبها بصرفها عن ذهنه، وشغله بما يضادها ويذهب بآثارها، وهذا يدخل فى اختيار الإنسان ، وهو الذى نيط به التكليف.

١٧٦ - وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا .

كان للمنافقين مواقف شائنة فى غزوة أُحد ، فقد عاد عبد الله بن أُبى بثلث الناس ، ولما دارت الدائرة على المسلمين فى أحد ، بسبب موقف المنافقين أولا، وبسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل لحماية ظهور المسلمين ثانيا ، ورجعوا إلى المدينة ، أظهر المنافقون كثيرا من الشماتة والبغضاء، وقالوا فى حق الذين قتلوا فى المعركة .. لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا . (آل عمران : ١٥٦) .

ولما استعرض الرسول الأمين هذه المواقف الشائنة حزن وتألم، فأنزل الله هذه الآية لتسليته ، أى لا ينبغى يا محمد أن تحزن لمسارعة هؤلاء الضالين فى الكفر ، فإنهم لن يضروا أوليائى بشىء من الضرر . وقد استفاد المسلمون من هذه الغزوة ، إذ عرفوا أعداءهم ، المنبثين فيما بينهم من المنافقين ، فأخذوا حذرهم . يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يجعل لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ . أى حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته ألا يجعل لهم نصيبا فى الآخرة بسبب ما أبدوه من أسباب الفرقة والتخذيل والشماتة وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . وعقاب أليم فوق عذاب الحرمان من نعيم الجنة .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفواههم وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا . . . (المائدة : ٤١) .

١٧٧ - إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

والاشتراء فى الآية الكريمة بمعنى الاستبدال ، على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فقد شبه - سبحانه - الكافر الذى يترك الحق الواضح ، الذى قامت الأدلة على صحته ، ويختار بدله الضلال الذى قامت الأدلة على بطلانه بمن يكون فى يده سلعة ثمينة جيدة فيتركها، ويأخذ فى مقابلها سلعة رديئة فاسدة.

والمعنى إن الذين استبدلوا الكفر بالإيمان، لن يضروا دين الله ولا رسوله، ولا أولياءه بشىء من الضرر، وإنما يضرون بفعلهم هذا أنفسهم ضررا بليغا ، ولهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد الإيلام، بسبب إيثارهم الغى على الرشد ، والكفر على الإيمان والشر على الخير.

١٧٨ - وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ . .

أى لا يعتقدون الذين كفروا أن إمهالنا لهم ، وعدم تعجيلنا بعقوبتهم ، على كيدهم للإسلام - خير لأنفسهم ، فإن الله يمهلهم ويؤخر عقوبتهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

أى يستدرجهم الله تعالى ويرخى لهم الحبل على الغارب ، ليرتعوا فى مراعى الشر، ثم يستحقون العذاب المهين فى الآخرة مقابل اعتزازهم فى الدنيا بالكفر والمعاصي، والكيد للإسلام والمسلمين والبادئ أظلم.

وفى معنى الآية قوله تعالى : يَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ. (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦) .

وقوله سبحانه : فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ . (القلم : ٤٤).

وقوله عز شأنه : فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ . (التوبة : ٥٥) .

★ ★ ★

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

المفردات :

ليذر : ليترك.

يميز : يفرق ويعزل.

يجتبى : ليترك.

التفسير :

١٧٩ - مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب وَلَكِنَّ اللَّهَ يجتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ . . .

أى : ليس من شأن الله تعالى ، ولا من حكمته وسنته فى خلقه ، أن يترككم أيها المؤمنون على ما أنتم عليه، من اختلاط المؤمن بالمنافق، بل الذى من شأنه وسنته أن يبتليكم ويمتحنكم ، بألوان المصائب والشدائد، حتى يظهر المؤمن الطيب المخلص، ويستبين أمر المنافقين الذين هتكت أستارهم وعرفت أسماؤهم ، وحقيقة نواياهم.

ولم تجر سنة الله بإطلاع أحد من خلقه على شىء من غيبه . قال تعالى : عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أحداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً. (الجن : ٢٦ ، ٢٧) .

فالله تعالى يصطفى من رسله من يريد اصطفاءه فيطلعه على ما يشاء من غيبه ، كما حدث للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد أطلعه الله على ما دبره له اليهود حين هموا باغتياله، وأطلعه على حال تلك المرأة التى أرسلها حاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى قريش لتخبرهم باستعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لحربهم، وأطلعه على أحوال بعض المنافقين فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ . أى أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ، أو داوموا على ما أنتم عليه من الإيمان بالله ورسوله.

وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ . وإن تصدقوا فى إيمانكم وتتقوا ربكم بالتزام طاعته ؛ يدخلكم الجنة جزاء، ونعم الجزاء إذ هى جزاء عظيم.

★ ★ ★

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

المفردات :

ما آتاهم : أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه.

سيطوقون ما بخلوا به : أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة ، وقد جاء فى أمثالهم: تقلدها طوق الحمامة ، إذا جاء بما يسب به ويذم.

ميراث السموات والأرض : أى ما يتوارثه أهلهما من مال غيره.

سنكتب ما قالوا : أى سنعاقب عليه ولا نهمله.

ونقول ذوقوا عذاب الحريق : أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك المحسوسات، والحريق المحرق المؤلم ، وعذاب الحريق أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم.

عهد إلينا : أى أمرنا فى التوراة وأوصانا.

القربان : ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من (النار): التى تنزل من السماء.

البينات : هى المعجزات الواضحة.

الزبر : واحدها زبور، وهو الكتاب.

المنير : الواضح.

تمهيد :

كان الكلام فيما مضى فى التحريض على بذل النفس فى الجهاد فى سبيل الله بذكر ما يلاقيه المجاهدون من الكرامة عند ربهم فى جنات النعيم .

وهنا شرع يحث على بذل المال فى الجهاد – والمال شقيق الروح – فذكر أشد أنواع الوعيد لمن يبخل بماله فى هذه السبيل ، وأرشد إلى أن المال ظل زائل ، وأن مدى الحياة قصير، وأن الوارثين والموروثين سيموتون ويبقى الملك لله وحده.

ثم ذكر مقالة لليهود قد قالوها ، ثم كذبهم فيها ثم سلَّى رسوله وأبان له أن تكذيبهم لك ليس ببدع منهم بل سبقوا من قبل بمثله من الأنبياء السابقين .

* * *

التفسير :

١٨٠ – وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ... .

أى ولا يظنن أحد أن بخل الباخلين بما أعطاهم الله من فضله ونعمه هو خيرًا لهم ، لأنهم مطالبون بشكران النعم ، والبخل بها كفران لا ينبغى أن يصدر من عاقل.

والمراد من البخل بالفضل البخل به فى أداء الزكاة المفروضة ، وفى الأحوال التى يتعين فيها بذل المال كالإنفاق لصد عدو يجتاح البلاد ويهدد استقلالها، ويصبح أهلها أذلة بعد أن كانوا أعزة، أو إنقاذ شخص من مخالب الموت جوعا .

ففى كل هذه الأحوال يجب بذل المال ، لأنه يجرى مجرى دفع الضرر عن النفس.

وليس الذم والوعيد على البخل بما يملك الإنسان من فضل ربه ، إذ إن الله أباح لنا الطيبات لنستمتع بها، ولأن العقل قاض بأن الله لا يكلف الناس بذل ما يكسبون ويبقون عراة جائعين ، ومن ثم قال فى حق المؤمنين المهتدين وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . (البقرة : ٣) .

وجاءت الآية بطريق التعميم ترغيبًا فى بذل المال بدون تحديد ولا تعيين ، ووكل أمر ذلك إلى اجتهاد المؤمن الذى يتبع عاطفة الإيمان التى فى قلبه ، وما تحدثه فى النفس من أريحية بذل الواجب والزيادة عليه، إذا هو تذكر أن فى ماله حقا للسائل والمحروم .

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ . أى هو شر عظيم لهم ، وقد نفى أولا أن يكون خيرا ثم أثبت كونه شرا، لأن المانع للحق إنما يمنعه لأنه يحسب أن فى منعه خيرا له ، لما فى بقاء المال فى يده من الانتفاع به فى التمتع باللذات، وقضاء الحاجات ودفع الغوائل والآفات.

سَيُطَوَّقُون ما بخلوا به يوم القيامة . أى سيجعل ما بخلوا به من المال طوقا فى أعناقهم ، ويلزمهم ذنبه وعقابه، ولا يجدون إلى دفعه سبيلا، كما يقال : طوقنى الأمر أى ألزمنى إياه .

وخلاصة هذا – أن العقاب على البخل لازم لابد منه .

وقال مجاهد : إن المعنى : سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به من أموالهم يوم القيامة عقوبة لهم فلا يستطيعون ذلك ، ويكون ذلك توبيخاً لهم على معنى : هلا فعلتم ذلك حين كان ممكنًا ميسورا، ونظير هذا قوله تعالى : ويُدْعَوْن إلى السُّجُود فلا يَسْتَطِيعُونَ . (القلم : ٤٢).

ويرى بعضهم أن التطويق حقيقي، وأنهم يطوقون بطوق يكون سببا لعذابهم فتصير تلك الأموال حيات تلتوى فى أعناقهم . فقد روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة قال : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاع (ثعبان) أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه (شدقيه) يقول أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا الآية » (١٤٧) .

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . أى لله وحده لا لأحد سواه، ما فى السماوات والأرض ما يتورث من مال وغيره ، فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر فى يد ، ولا يسلم التصرف فيه لأحد، إلى أن يفنى الوارثون والموروثون . ويبقى مالك الملك، وهو الله رب العالمين.

فما لهؤلاء القوم يبخلون عليه بملكه، ولا ينفقونه فى سبيله ، وابتغاء مرضاته.

وفى الآية إيماء إلى أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل، وصاحبه فان غير باق، فلا ينبغى أن يستبقى الفانى ما هو مثله فى الفناء، بل عليه أن يضع الأشياء فى مواضعها التى لها ، وبذا يكون خليفة الله فى أرضه محسنا للتصرف فيما استخلف.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . أى والله لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، ولا ما تنطوى عليه جوانحكم، فيجازى كل عامل بما عمل بحسب تأثير عمله فى تزكية نفسه أو تدسيتها ، ونيته فى فعله كما جاء فى الحديث: « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ».

١٨١ – لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .

أى قد سمع الله قول هؤلاء الكافرين الذين قالوا هذه المقالة، ولم يخف عليه ، وسيجزيهم عليه أشد الجزاء.

وهذا أسلوب يتضمن التهديد والوعيد، كما يتضمن البشارة والوعد بحسن الجزاء فى نحو « سمع الله لمن حمده » ويضمن مزيد العناية وإرادة الإغاثة وإزالة الشكوى فى نحو قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا

وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما . (المجادلة : ١) . إذ سمع الله لعباده يراد به مراقبته لهم فى أقوالهم ، ويلزم من ذلك المعانى التى ذكرناها آنفا.

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى : من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا. (البقرة : ٢٤٥) . فقالوا : يا محمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ونحن أغنياء؟ فأنزل الله لقد سمع الله . الآية .

سنكتب ما قالوا . أى سنعاقبهم على ذلك عقابا لا شك فيه ، إذ يلزم من كتابة الذنب وحفظه العقوبة عليه، وهذا استعمال شائع فى اللغة.

وقتلهم الأنبياء بغير حق . أى قتل سلفهم لهم ، وإنما نسبه إليهم للإشارة إلى أنهم راضون بما فعلوه.

وهذا يدل على أن الأمم متكافلة فى الأمور العامة، ويجب على أفرادها الإنكار على من يفعل المنكر وتغييره أو النهى عنه ، لئلا يفشو فيها ، فيصير خلقا من أخلاقها وعادة مستحكمة فيها ، فتستحق العقوبة فى الدنيا بالضيق والفقر، والعقوبة فى الآخرة بتدنيس نفوسها، وأن المتأخر إذا لم ينظر إلى عمل المتقدم ويطبقه على أحكام الشريعة فيستحسن منها ما تستحسنه ، ويستهجن ما تستهجنه - عد شريكا له فى إثمه ومستحقا لمثل عقوبته.

ونقول ذوقوا عذاب الحريق . أى سننتقم منهم ونقول لهم هذه المقالة.

ذلك أنهم لما قالوا ما قالوا وقتلوا من الأنبياء من قتلوا، فقد أذاقوا المسلمين وأتباع الأنبياء ألوانا من العذاب، وأحرقوا قلوبهم بلهب الإيذاء والكرب، فجوزوا بهذا العذاب الشديد وقيل لهم : ذوقوا عذاب الحريق، كما أذقتم أولياء الله فى الدنيا ما يكرهون .

والخلاصة - ذوقوا ما أنتم فيه ، فلستم بمتخلصين منه، وهذا قول يلقى للتشفى الدال على كمال الغيظ والغضب.

١٨٢ - ذلك بما قدمت أيديكم . أى أن هذا العذاب المحرق الذى تذوقون حرارته بسبب أعمالكم فى الدنيا كقتل الأنبياء، ووصف الله بالفقر، وجميع ما كان منكم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان .

وأضاف العمل إلى الأيدى ، من قبل أن أكثر أعمال الإنسان تزاول باليد، وليفيد أن ما عذبوا هو من عملهم على الحقيقة، لا أنهم أمروا به ولم يباشروه .

وأن الله ليس بظلام للعبيد . أى أن ذلك العذاب أصابكم بعملكم ، وبكونه تعالى عادلا فى حكمه وفعله، لا يجور ولا يظلم، فلا يعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين ، والكافرين كالمؤمنين كما قال : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما

يحكمون . (الجاثية : ٢١). وقال : أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . (القلم : ٣٥،٣٦).

وقـال: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ . (ص : ٢٨) .

والخلاصة - أن ترك عقاب أمثالكم مساواة بين المحسن والمسيء وضع للشيء فى غير موضعه، وهو ظلم كبير لا يصدر إلا ممن كان كثير الظلم مبالغا فيه .

١٨٣ - الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى كعب بن الأشرف ومالك بن الضيف وفنحاص بن عازوراء وفى جماعة آخرين، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد تزعم أنك رسول الله ، وأنه تعالى أوحى إليك كتابا، وقد عهد إلينا فى التوراة ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، ويكون للنار دوى خفيف حين تنزل من السماء فإن جئتنا بهذا صدقناك ، فنزلت الآية .

وروى ابن جرير أن الرجل منهم كان يتصدق بالصدقة، فإذا تقبل منه نزلت عليه نار من السماء فأكلت ما تصدق به.

ودعواهم هذا العهد من مفترياتهم وأباطيلهم ، وأكل النار للقربان لم يوجب الإيمان إلا لكونه معجزة ، فهو وسائر المعجزات سواء، وما مقصدهم من تلك المفتريات إلا عدم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يأت بما قالوه ، ولو أتى به لآمنوا فرد عليهم بقوله :

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أى قل موبخا لهم ومكذبا: قد جاءكم كثيرون من قبلى كزكريا ويحيى وغيرهما بالمعجزات الدالة على صدق نبوتهم، وبما كنتم تقترحون وتطلبون ، وأتوا بالقربان الذى تأكله النار ، فما بالكم لم تؤمنوا بهم ، بل اجترأتم على قتلهم ؟ وهذا دليل على أنكم قوم غلاظ الأكباد (وبذلك وصفوا فى التوراة) قساة القلوب لا تفقهون الحق ولا تذعنون له ، وأنكم لم تطلبوا هذه المعجزة استرشادا، بل تعنيتا وعنادا.

وقد نسب هذا الفعل إلى من كان فى عصر التنزيل وقد وقع من أسلافهم لأنهم راضون عما فعلوه، معتقدون أنهم على حق فى ذلك ، والأمة فى أخلاقها العامة وعاداتها كالشخص الواحد، وقد كان هذا معروفا عند العرب وغيرهم، فتراهم يلصقون جريمة الشخص بقبيلته ويؤاخذونها بها.

والخلاصة : أن أسلافكم كانوا متعنتين ، وما أنتم إلا كأسلافكم، فلم يكن من سنة الله إجابتكم إلى ملتمسكم بالإتيان بالقربان، إذ لا فائدة منه.

١٨٤ - فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . أى فإن كذبوك بعد أن جئتهم بالبينات الساطعة، والمعجزات الواضحة والكتاب الهادى إلى سواء السبيل ، مع استنارة الحجة والدليل - فلا تأس عليهم ، ولا تحزن لعنادهم وكفرهم، ولا تعجب من فساد طويتهم ، وعظيم تعنتهم ، فتلك سنة الله فى

خليقته . فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بمثل ما جئت به من باهر المعجزات ، وهزوا القلوب بالزواجر والعظات، وأناروا بالكتاب سبيل النجاة فلم يغن ذلك عنهم شيئًا، فصبروا على ما نالهم من أذى وما نالهم من سخرية واستهزاء.

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لأن طباع البشر فى كل الأزمنة سواء ، فمنهم من يتقبل الحق ويقبل عليه بصدر رحب ونفس مطمئنة ، ومنهم من يقاوم الحق والداعى إليه، ويسفه أحلام معتنقيه .

فليس بالعجيب منهم أن يقاوموا دعوتك، ولا أن يفندوا حجتك، فإن نفوسهم منصرفة عن طلب الحق، وتحرى سبل الخير.



﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

المفردات :

توفون أجوركم : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة.

زحزح عن النار : نحى عنها .

فاز : سعد ونجا .

متاع : المتاع : ما يتمتع به مما يباع ويشترى.

الغرور : إصابة الغرة والغفلة ممن تخدعه وتغشه.

التفسير :

١٨٥ - كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . الآية .

كل نفس سيدركها الموت لا محالة ، قال تعالى : كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . (الرحمن : ٢٦) . وإنما تعطون جزاء أعمالكم وافيا يوم القيامة، فمن نحى عن النار وأبعد عنها وأدخل الجنة فقد فاز بالسعادة السرمدية، والنعيم المخلد، وليست الدنيا إلا دار الفناء يستمتع بها الأحمق المغرور.

قال ابن كثير : وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت النطفة التى قدر الله وجودها من صلب آدم، وانتهت البرية ، أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحد مثقال ذرة .

(وليس فى هذه الآية ما يدعو إلى نفض اليد من الدنيا ومتعها وطيباتها والنشاط فيها فى مختلف المجالات ، وإنما هدفها هو التذكير بحتمية الموت ، وحث الناس والمسلمين بخاصة على الاستمساك بحبل الله وتقواه ، والقيام بواجبهم نحوه ونحو الناس ، والاستكثار من العمل الصالح الذى هو وحده النافع المنجى لهم فى الحياة الأخروية) [١٤٨].

★ ★ ★

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

المفردات :

لتبلون فى اموالكم وانفسكم	: لتختبرن فيها بالإصابة ببعض البلايا.
من عزم الأمور	: من الجد فى الأمور. مأخوذ من عزم الأمر، أى جد فيه.
ميثاق	: الميثاق : العهد.
فنبذوه وراء ظهورهم	: أى طرحوه خلفها. والمقصود : أنهم أهملوه ولم يعملوا به.
واشتروا به ثمنا قليلا	: واستبدلوا بهذا الميثاق ، مقابلا قليلا، من أعراض الدنيا.

التفسير :

١٨٦ - لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ .

أى والله لتختبرن وتمتحنن فى أموالكم بالفقر والمصائب وفى أنفسكم بالشدائد والأمراض والجراح والآلام ، ولتسمعن من اليهود والنصارى وكفار العرب والمشركين أعدائكم الأذى الكثير كالطعن فى دينكم والاستهزاء بعقيدتكم والتفنن فيما يضركم.

وإن تصبروا على تلك الشدائد، وتقابلوها بضبط النفس وقوة الاحتمال ، وتتقوا الله فى الأقوال والأعمال، فإن الصبر والتقوى منكم من عزم الأمور والجد فيها ، وهو فضيلة يتنافس فيها المتنافسون ، وأنتم بها أحق وأولى.

وقد ورد فى القرآن والسنة ما يوضح حقيقة هذه الحياة، ويبين أن الله يمتحن المؤمن بالبلاء والاختبار ، رفعا لدرجته وتكفيرا لسيئاته، وتمييزا للمؤمن من المنافق، قال تعالى : وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . (البقرة : ١٥٥ - ١٥٧).

وقال سبحانه : وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . (محمد : ٣١).

وروى الترمذى عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : (قلت : يا رسول الله أى ، الناس أشد بلاء ؟ قال: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة) (١٤٩).

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، ويصبرون على الأذى. فهى سنة الدعوات تحتاج إلى بلاء وصبر ومقاومة وصمود ، قال تعالى : وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . (البقرة : ١٠٩) .

وفى تفسير ابن كثير حديث طويل رواه البخارى ، عن عروة بن الزبير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، فمر على مجلس فيه (عبد الله بن أُبى ابن سلول) فدعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء ، إنه لا أحسن مما تقول ، إن كان حقا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبدالله بن رواحة : بلى يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا ، فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود ، فلم يزل النبى ﷺ بخفضهم حتى سكتوا، ثم سار النبى ﷺ حتى دخل على سعد بن عبادة فأخبره بما فعل عبد الله بن أبى ابن سلول، فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك، ولقد اصطلح أهل المدينة على أن يتوجوه ملكا، فلما ظهر الإسلام غص به ، فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه النبى صلى الله عليه وسلم (١٥٠).

١٨٧ - وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ .

بشرت التوراة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الإنجيل، وفى الآية تقرير بأن الله قد أخذ عهدا من أهل الكتاب بأن يبينوا للناس ما فى كتبهم ، ويظهروا ما فيها من أحكام الله ، ولا يكتموا ما فيها من الحقائق.

ولكن أهل الكتاب لم يعملوا بذلك العهد بل نبذوه خلف ظهورهم واستبدلوا به شيئًا حقيرًا من حطام الدنيا ، هو الرياسة الدينية والجاه والمال الحرام ، فبئس هذا الشراء وبئست تلك الصفقة الخاسرة.

قال ابن كثير : هذا توبيخ من الله ، وتهديد لأهل الكتاب ، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء، أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وأن ينوهوا بذكره فى الناس، فيكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوّضوا عما وعدوا عليه من الخير فى الدنيا والاخرة. بالدون الطفيف، والحظ الدنيوى السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم (١٥١).

والآية ، وإن نزلت توبيخا وتهديدا ووعيدا لأهل الكتاب على كتمانهم العلم، وعدم بيان الحق لأغراض دنيوية، ففيها تحذير ضمنى للعلماء عن أن يسلكوا سبيلهم ، فيحل بهم مثل عقابهم، وقد جاء ذلك صراحة فى قوله صلى الله عليه وسلم :

« من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار » (١٥٢) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه.

★ ★ ★

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

المفردات :

يفرحون بما أتوا	: يفرحون بما جاءوا به نفاقا أو رياء من الأقوال أو الأفعال.
بمفازة من العذاب	: بمنجاة منه.
ملك السموات والأرض	: سلطانه عليهما خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا.

التفسير :

١٨٨ - لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

لا يزال الكلام موصولا مع أهل الكتاب : فالآية نازلة فيهم :

أخرج الإمام أحمد، عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن مروان بن محمد ، قال : اذهب يا رافع «بوّابه» إلى ابن عباس رضى الله عنه ، فقل له : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل- معذباً، لنعذبن أجمعون . فقال ابن عباس : وما لكم وهذه، إنما نزلت هذه فى أهل الكتاب.

ثم تلا ابن عباس : وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ . وتلا ابن عباس لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وقال ابن عباس : سألهم النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه ، وأخبروه بغيره ، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا كتمانهم ما سألهم عنه .

وروى نحوه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم ..

وقيل: نزلت فى المنافقين : لما رواه البخارى ومسلم وغيرهما - واللفظ للبخارى عن أبى سعيد الخدرى : أن رجالا من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانوا إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم . خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الغزو ، اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا الآية.

وعلى هذا ، فالمراد من حب المنافقين أن يحمدوا بما لم يفعلوا : أنهم أرادوا أن يحمدهم المؤمنون بسرورهم الذى أظهروه نفاقا بنصر المؤمنين ، ولم يكن سرورا نابعا من قلوبهم . فاعتبره الله تعالى فى حكم المنفى.

وقد جاء التصريح بسرورهم الظاهر بالنصر، فى رواية طويلة ، لابن مردويه، فى تفسيره ، جاء فيها : وإن كان لهم نصر وفتح ، حلفوا لهم ليرضوهم. ويحمدوهم على سرورهم بالنصر والفتح.

ولا منافاة بين ما قاله ابن عباس ، وما قاله أبو سعيد الخدري، فى سبب النزول، فالآية عامة فى جميع ما ذكر . وهى - وإن نزلت لهذا السبب الخاص ، أو ذاك ، أو لهما معا - فهى بعموم لفظها، عامة لكل من يأتى بشىء من الحسنات: بظاهره أو بحقيقته ، فيفرح به فرح إعجاب، ويود أن يمدحه الناس بما هو عار عنه من الفضائل. كأن يقولوا فيه : هو صادق فيما قال . أو مخلص فيما فعل. أو عظيم الإحسان والمبرات، أو نحو ذلك مما ليس فيه.

ويدخل فى هذا العموم : من نزلت فيهم الآية ، دخولاً أوليا.

والخطاب فى قوله تعالى : لا تَحْسَبَنَّ للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب.

والمعنى : لا تظنن الذين يفرحون - فرح إعجاب - بما جاءوا به مما ظاهره الخير، وباطنه النفاق أو العجب، أو التجرد عن النية الصالحة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، بأن يقال : إنهم صادقون، أو مخلصون، أو محسنون ، أو غير ذلك من الصفات الجميلة : التى أرادوا أن تقال فى شأنهم على وجه الحمد والثناء ، وهم منها براء .

فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ فلا تظننهم بمنجاة من العذاب الأخروى، وإن أفلتوا من المؤاخذة الدنيوية.

والمقصود من نهيه صلى الله عليه وسلم : أن يظنهم ناجين من العذاب، هو التنبيه على أنهم معذبون حتما على نياتهم الخبيثة، ونفاقهم الممقوت ، وليس المقصود نهيه حقيقة عن ظنه نجاتهم. فهو « عليه السلام » عليم باستحقاقهم العذاب، ما داموا مصرين على ما هم عليه من الطوية الخبيثة ، طبقًا لما نزل عليه من شرع الله تعالى.

وذكر قوله : فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ . بعد قوله : لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ لتأكيد الوعيد ، لطول الكلام .

أما قوله : بِمَفَازَةٍ فهو المفعول الثانى لـ تَحْسَبَنَّ الأول .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هذه الجملة قصد بها : أن العذاب الذى لا ينجو منه هؤلاء ، وليسوا منه بمفازة ، هو عذاب بليغ الإيلام فى شدته ومدته ونوعه. وليس عذابا هينا ، يمكن احتماله .

١٨٩ - وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

أى : له تعالى « وحده » السلطان فيهما خلقا وتدبيرا، وإحياء لمن فيهما وإماتة ، وتعذيبا وإثابة.

ومن كان كذلك ، لا يقال : إنه فقير ، وبعض عباده أغنياء، كما زعم اليهود ، إذ قالوا : إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ . (آل عمران : ١٨١).

ولا يفلت من عقابه من أحب أن يحمد بما لم يفعل، كما فعلوا هم وغيرهم.

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ : فكما قدر على خلق السموات والأرض، يقدر على بعث الخلائق وجزائهم على أقوالهم وأفعالهم ونياتهم : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ . (الأنبياء : ١٠٤).

★ ★ ★

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

المفردات :

الذين يذكرون الله قياما : فى صلاتهم.

وقعودا : فى تشهدهم وفى غير صلاتهم.

وعلى جنوبهم : نياما ، وهى حالات ابن آدم كلها.

ما خلقت هذا باطلا : عبثا ولا لعبا، إلا لأمر عظيم.

التفسير :

١٩٠ – إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .

ذكر الله سبحانه هنا آيتين فقط هما خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار ، لأن المقصود إثارة الانتباه ولفت القلوب والأفئدة إلى بديع صنع الله.

(والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح، الذى لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى فى كل صفحة منه آية موحية تستجيش فى الفطرة السليمة إحساسًا بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب وفى (تصميم) هذا البناء ، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق ، مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان (وأولو الألباب) : أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته ، وقوام فطرته ، بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود .. (ومشهد السموات والأرض ، ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة ، لو استنقذنا أنفسنا من همود الإلف وخمود التكرار، لاهتزت له مشاعرنا ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلف.. وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعًا، ولا يمكن أن يكون جزافًا، ولا يمكن أن يكون باطلاً [١٥٣]. (ولا ينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ، ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ، ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكز إلى (الجاذبية) أو غير الجاذبية ، هذه فروض تصح أو لا تصح ، وهى فى كلتا الحالتين لا تقدم ولا تؤخر فى استقبال هذه العجينة الكونية ،

واستقبال النواميس الهائلة الدقيقة التى تحكمها وتحفظها.. وهذه أيا كان اسمها عند الباحثين من بنى الإنسان هى آية القدرة وآية الحق، فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار).

(والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا، وهو فى الوقت ذاته تصوير إيمانى ، يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون ، وفى التخاطب معه بلغته، والتجاوب مع فطرته وحقيقته ، والانطباع بإشاراته وإيحاءاته، ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب (معرفة) للإنسان المؤمن الموصول بالله ، وبما تبدعه يد الله) (١٥٤).

عبادة النبى صلى الله عليه وسلم :

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ الآيات العشر من آخر سورة آل عمران إذا قام من الليل لتهجده. قال البخارى رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنه قال : بت عند خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ، ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : إِنَّ فِي خلق السَّموات والأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ . الآيات ، ثم قام فتوضأ واستن، ثم صلى إحدى عشرة ركعة ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح (١٥٥).

والآيات واردة فى الأذكار والدعاء، فمن شأن المؤمنين أن يتأملوا فى خلق السموات وارتفاعها واتساعها وجلالها وجمالها ، وفى خلق الأرض وانخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيها من بحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزرع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع . وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . أى فى تعاقبهما وكون كل منهما خلفة للآخر، أو فى تفاوتهما بازدياد كل منهما بانتقاص الآخر ، وانتقاصه بازدياده.

لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ لأدلة واضحة على الصانع وعظيم قدرته وباهر حكمته.

لأُوْلِي الأَلْبَابِ أى لأصحاب العقول التامة ، والأفئدة المتفتحة .

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ . فهم يستغرقون فى تذكر خالقهم ، ويذكرونه فى جميع أحوالهم ، وإنما خص الأحوال المذكورة لأنها الأحوال المعهودة التى لا يخلو عنها الإنسان غالبًا ، وليس ذلك لتخصيص الذكر بها (١٥٦).

وقيل المراد بالذكر هنا الصلاة، كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنبك » (١٥٧).

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ . يتأملون فى كتاب الكون وفى يد الله المبدعة وهى تحركه وتقلب صفحاته وتبدع نظامه، وهو أمر لا يتيسر إلاّ لأصحاب الفطرة السليمة ، وفى لحظة تمثل صفاء القلب وشفافية الروح وتفتح الإدراك واستعداده للتلقي، كما تمثل الاستجابة والتأثير والانطباع.. إنها لحظة العبادة، وهى بهذا الوصف لحظة اتصال ولحظة استقبال.

فلا عجب أن يكون الاستعداد فيها لإدراك الآيات الكونية أكبر، وأن يكون مجرد التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، ملهما للحقيقة الكامنة فيها ، ولإدراك أنها لم تخلق عبثا ولا باطلا.

وقد ذم الله الغافلين ومدح أهل الفكر والعبادة بالقلب والتأمل القائلين : رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً . أى ما خلقت هذا الخلق عبثا بل بالحق لتجزى الذين أساءوا بما عملوا وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، قال تعالى : أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (المؤمنون : ١١٥، ١١٦).

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن أن تخلق هذا الكون باطلاً.

سُبْحَانَكَ . تنزهت عن العبث وأن تخلق شيئًا بغير حكمة.

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . إن قلوبهم المتدبرة، وأفئدتهم المستبصرة، انطلقت مع ألسنتهم بذلك الدعاء الطويل، الخاشع الواجف الراجف المنيب، ذى النغم العذب، والإيقاع المناسب ، و الحرارة البادية فى المقاطع والأنغام.

وقد رأيت أدبهم فى الدعاء فقد بدأوا بتسبيح الله وتنزيهه ثم عقبوا بالدعاء، وفى الحديث الصحيح : إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه سبحانه ، والثناء عليه، ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يدعو بعد بما شاء . رواه أبو داود (١٥٨).

واعلم أنه لما حكى تعالى عن هؤلاء العباد المخلصين أن ألسنتهم مستغرقة بذكر الله تعالى، وأبدانهم فى طاعة الله وقلوبهم فى التفكر فى دلائل عظمة الله ، ذكر أنهم مع هذه الطاعات يطلبون من الله الوقاية من عذاب النار، ويسألونه المغفرة لذنوبهم ، والنجاة يوم القيامة.



﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ (١٩٢) ﴾

المفردات :

أخزيته : أهلكته أو فضحته، أو أهنته.

التفسير :

١٩٢ - رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ... الآية .

أى أبعدنا يا ربنا عن عذاب النار فإنك من تدخله النار تكون قد أخزيته أى أهنته وفضحته على رءوس الأشهاد :

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . أى ما لظالم من الظالمين نصير من الأنصار.

★ ★ ★

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

المفردات :

الأبرار : جمع بر . والبر والبار ، هو كثير البر والإحسان.

لا تخزنا : لا تهنا، ولا تفضحنا.. أو لا تهلكنا.

فاستجاب : بمعنى أجاب.

هاجروا : تركوا الشرك أو تركوا الأوطان والعشائر.

التفسير :

١٩٣ – رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ .

المنادى : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال محمد بن كعب المنادى : هو القرآن .

والمعنى ربنا إننا سمعنا داعيا : يدعو الناس للإيمان بأن آمنوا بربكم فاستجبنا لدعائه وبادرنا إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفرها وتوفنا مع الأبرار ، طلبوا من الله ثلاثة أشياء : غفران الذنوب المتقدمة، وتكفير السيئات المستقبلة ، وأن تكون وفاتهم مع الأبرار بأن يموتوا على مثل أعمالهم حتى يكونوا فى درجاتهم يوم القيامة ، قال تعالى : وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . (النساء : ٦٩) .

١٩٤ - رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا من حسن الجزاء كالنصر فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، جزاء على تصديق رسلك واتباعهم .

أو ربنا وأعطنا من الثواب ما وعدتنا به على ألسنة رسلك.

ولا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . لا تفضحنا ولا تهتك سترنا يوم القيامة ، بإدخالنا النار التى يخزى من دخلها.

إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . أى لا تخلف ما وعدت به على الإيمان وصالح العمل، فقد وعدت بسيادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ . (النور : ٥٥) .

وقال عزّ شأنه وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . (التوبة : ٧٢).

١٩٥ - فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ... .

أى فاستجاب لهم ربهم دعاءهم ، لصدقهم فى إيمانهم ، فأجابهم إلى ما طلبوا ووعدهم بتحقيق ما سألوا .

أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم . أى لا أزيل ثواب عمل أى عامل منكم ، بل أكافئه عليه بما يستحقه ، وأعطيه من ثوابى ورحمتى ما يشرح صدره .

مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ . بيان لعامل وتأكيد لعمومه، أى لا أضيع عمل أى شخص عامل، سواء أكان هذا العامل ذكرًا أم أنثى.

بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ . جملة معترضة، لبيان سبب اشتراك النساء مع الرجال ، فى الثواب وجزاء الأعمال الصالحة، فالذكر مفتقر فى وجوده إلى الأنثى ، والأنثى مفتقرة فى وجودها إلى الرجل، ويجوز أن يكون **المعنى** : بعضكم من بعض فى الطاعة والعمل الصالح ، أى أنتما متماثلان فلا وجه للتفرقة بينكما فى الثواب ، فإن المماثلة فى العمل ، تستدعى المماثلة فى الأجر.

قال ابن كثير : أى جميعكم فى ثوابى سواء .

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا . بأن تركوا أوطانهم إلى أماكن أخرى من أجل إعلاء كلمة الله.

وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ . أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى خرجوا فرارًا من ظلم الظالمين أو اعتداء المعتدين.

وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي . من أجل دينى قال تعالى : وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. (البروج : ٨).

وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا . وجاهدوا المشركين واستشهدوا . وقد ثبت فى الصحيحين أن القتل فى سبيل الله يكفر كل شىء إلا الدين (١٥٩).

لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ . لأغفرنها لهم ، ولأسترنها عليهم .

وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ . أى تجرى فى خلالها الأنهار، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن، وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ . أى لأثيبنهم ثوابا عظيما من عندي، لا يقدر عليه غيري، والله تعالى عنده خير الجزاء، وهذه الجملة تأكيد لشرف ذلك الثواب. ولبيان اختصاصه بالثواب الحسن، كأنَّ كل جزاء للأعمال فى الدنيا لا يعد حسنا ، بجوار ما أعده سبحانه فى الآخرة لعباده المتقين .

والآية كما ترى تعرض نماذج بشرية مخلصة فى الدعاء والعمل، لقد هاجروا من وطنهم، وتحملوا الأذى فى سبيل عقيدتهم ، وأقبلوا على الجهاد والشهادة، فاستحقوا مغفرة لذنوبهم ، وثوابا عظيما من خالقهم ورازقهم.

وقد ذكر المؤرخون أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج من مكة مهاجرًا ، التفت إليها وقال : «يامكة لأنت أحب بلاد الله إلىَّ، ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت » . (١٦٠).

النساء فى القرآن

تفيد الآيات السابقة إخلاص الدعاء من المؤمنين، واشتراك الرجال مع النساء فى الهجرة والإخراج والأذى والقتل والقتال وأن الجنسين متضامنان تضامنًا وثيقًا، ولعل قرن المرأة بالرجل فى هذا المقام وبهذا الأسلوب من أقوى مؤيدات مساواتهما فى الشريعة الإسلامية فى الحقوق والواجبات العامة، ومن أقوى مؤيدات أهلية المرأة فى نظر الشريعة لكل واجب عام، ولقد قرنت الأنثى بالذكر فى مواضع عديدة من القرآن المكى والمدنى.

ففى سورة البروج المكية يقول سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . (البروج : ١٠).

وفى سورة الأحزاب المدنية يقول سبحانه : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٣٥).

وقد روى الترمذى عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، لا أسمع الله تعالى ذكر النساء فى الهجرة [١٦١].

فأنزل الله تعالى : فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ [١٦٢].

★ ★ ★

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

تقلب الذين كفروا فى البلاد : التقلب : التنقل . والمراد هنا : تنقلهم للتكسب بالاتجار والزراعة وغيرها، وتقلبهم فى النعمة.

متاع قليل : تمتع يسير.

ثم مأواهم : المأوى، محل الإقامة.

المهاد : المكان الممهد.

نزلاً : النزل، ما يقدم للضيف عند نزوله ، أو المنزل. ومنه قول الله تعالى : . . . كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً . (الكهف : ١٠٧) .

التفسير :

١٩٦ - لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ .

الخطاب فى لا يَغُرَّنَّكَ . إما للنبى صلى الله عليه وسلم ، لتثبيته على ما هو عليه من عدم اغتراره بنعمتهم . فكأنه قال له : دم على ما أنت عليه من عدم الاغترار بتقلبهم فى النعمة، وتبسطهم فى المكاسب والمتاجر والمزارع . وهذا كقوله تعالى للرسول : فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . (القلم : ٨) . أى استمر على ما أنت عليه من عدم طاعتهم.

وقيل : الخطاب « وإن كان له صلى الله عليه وسلم » فالمراد به : نهى المؤمنين عن الاغترار بما فيه الكفار من النعيم ، كما يوجه الخطاب إلى رئيس القوم ، والمراد به أتباعه.

وقيل : هو خطاب لكل من يصلح له من المؤمنين.

ذكر المفسرون بأسانيدهم : أن بعض المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش، فيقولون : إن أعداء الله « تعالى » فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع والجهد ... فنزلت الآية .

والمعنى : لا يخدعك ما هم عليه من سعة الرزق، وإصابة الربح، ورخاء العيش، فتظنه خيرًا متصلاً، ومتاعًا دائمًا .

١٩٧ - مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ .

أى هو مَتَاعٌ قَلِيلٌ . مهما عظم ، فى جانب ما ذكر من ثواب الله للمؤمنين فعما قريب يؤتون ، فينقضى نعيمهم الذى استدرجهم الله به ، ويمسون مرتهنين بأعمالهم السيئة .

ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . ثم إنهم - بعد ذلك التمتع اليسير والتنعم القليل - صائرون إلى عذاب جهنم التى مهدوها وهيئوها لأنفسهم بكفرهم، وساء ما يمهدون لأنفسهم : جهنم.

والتعبير بالمهاد عن النار ، للتهكم بسوء اختيارهم . فإن العاقل لا يهيئ لنفسه مكان عذاب وهوان يقيم فيه.

١٩٨ - لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ .

لما حذر الله المؤمنين من الاغترار بما فيه الكافرون من نعيم فان ، أتبعه بيان حسن عاقبة المؤمنين ، ليزدادوا صبرًا على ما هم فيه من شظف العيش، انتظارا لهذا النعيم المقيم.

والمعنى : هذا حال الذين كفروا ومآلهم الفظيع لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ . بالإيمان والعمل الصالح، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها لا يبرحونها أبدا .

نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ . رزقا كريما من عند الله ، أو منزلا عظيما من عنده .

وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ . أى ما أعده الله لمن أطاعه من النعيم الكثير الدائم، خير للأبرار ، وأبقى مما يتقلب فيه الكفار ، من قليل زائل ، ونعيم حائل ، وحطام فان .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بمَ يرجع ؟ » (١٦٣).

★ ★ ★

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾

المفردات :

خاشعين لله : خاضعين له.

لا يشترون : لا يستبدلون.

اصبروا : الصبر، حبس النفس على المكاره.

ورابطوا : المرابطة، الملازمة فى سبيل الله.

التفسير :

١٩٩ - وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أى وإن من اليهود والنصارى لفريقا يؤمن بالله إيمانا حقا، منزها عن الإشراك بكل مظاهره، وما أنزل إليكم من القرآن، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل، ولا يزالون مع هذا الإيمان خاضعين لله، خائفين من عقابه طالبين رضاه ، لا يستبدلون بآيات الله ، التى أنزلها فى التوراة والإنجيل عوضا قليلاً، هو عرض من أعراض الدنيا الفانية، لأن هذا الثمن المأخوذ قليل حتى ولو بلغ القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

فالآية وصفتهم بخمس صفات هى :

١ - الإيمان بالله .

٢ - الإيمان بالقرآن .

٣ - الإيمان بالتوراة والإنجيل.

٤ - الخشوع والخضوع لأمر الله .

٥ - عدم التفريط فى أحكام الله، وعدم بيعها بأى عرض من أعراض الدنيا.

وقد ذكر القرآن ما يشبه هذه الآية فى كثير من سوره ، وذلك من إنصاف القرآن، فهو كتاب حق أنزله الله الحق ، وقد نزل بالحق، ليحق الحق ويبطل الباطل.

ويتبادر للذهن أن هذه الآية استهدفت الاستدراك على ما جاء فى الآيتين ١٨٦، ١٨٧ من التنديد بأهل الكتاب، الذين يناوئون الدعوة النبوية، ويؤذون المسلمين ويكتمون ما عندهم من البيّنات.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى : لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . (آل عمران : ١١٣،١١٤) .

وفى تفسير الطبرى والطبرسى والخازن وابن كثير ، وغيرهم من المفسرين ، روايات عديدة فى مناسبة نزول هذه الآية وفيمن عنته، منها أنها نزلت فى النجاشى ملك الحبشة ، ومن آمن من قومه بالرسالة النبوية، فإن النبى لما بلغه موت النجاشى دعا إلى الصلاة عليه ، فقال المنافقون : إنه يصلى على رجل من غير دينه، فنزلت هذه الآية ، ومنها أنها نزلت فى عبد الله بن سلام ، أحد أحبار اليهود وغيره من أفراد اليهود، الذين آمنوا بالرسالة المحمدية، ومنها أنها نزلت فيمن آمن بهذه الرسالة من أهل الكتاب عامة .

وذكر المفسرون أن من أسلم من أحبار اليهود لم يبلغ عددهم عشرة وفيهم عبد الله بن سلام وزيد بن سعنة.

وأما النصارى فكانوا كثيرين ، فقد أسلم أربعون من أهل نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الروم.

٢٠٠ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا . أى على المشقات والطاعات ، وما ينالكم من المكاره والشدائد.

وَصَابِرُوا . أى غالبوا أعداء الله فى الصبر على شدائد الجهاد، لا تكونوا أقل منهم صبرا وثباتا ، والمصابرة باب من الصبر.

وَرَابِطُوا. أى أقيموا على مرابطة الغزو فى نحر العدو بالترصد ولاستعداد لحربهم ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ . (الأنفال : ٦٠) .

والرباط مأخوذ من ربط الخيل وشدّها .

وليس بلازم أن يكون الرباط بالخيل فى كل حال أو زمان أو مكان ، إذ المقصود رصد حركات العدو، والتأهب لصده عن البلاد الإسلامية ، وليس بلازم أن يكون فى أطراف الإقليم فحسب ، بل فى أى مكان منه، يمكن أن يصل إليه العدوّ، ولو فى قلب الوطن ، ففى هذا الزمان يمكن أن يصل العدوّ بطائرته إلى أماكن متعددة فى وطن عدوّه، فالرباط فى هذه الحالة ، يكون بالإقامة فى كل مكان يظنّ أن يقصده العدوّ، مع التأهب بكافة أنواع الأسلحة المضادة لهجومه أو استطلاعه، واستعمال أحدث أنواع الأجهزة لرصده: أرضا أو بحرًا ، أو جوا.

وجمهور المفسرين (١٦٤) على أن المراد بالرباط فى الآية هو الجهاد فى سبيل الله ، وبعض المفسرين ذهب الى أن المراد بالرباط والمرابطة هو المكث فى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

روى مسلم [١٦٥] والنسائى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » [١٦٦].

وعند التأمل نجد أن الرباط يشمل الجهاد فى سبيل الله – وعلى وجه الخصوص حراسة الثغور وحماية الأماكن التى نتوقع فيها هجوم العدوّ عليها – كما يشمل عمارة المسجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة .

على أن إطلاق الرباط على الجهاد أمر معروف مألوف كثير الورود وخاصة أن سياق السورة يرشح هذا المعنى ، لكن من إعجاز القرآن أن الكلمة تشير إلى معنى ، وتستتبع معنى .

* * *

وقد أورد المفسرون طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة فى فضل الجهاد والرباط . منهم ابن كثير فقد ساق ثمانية أحاديث نبوية شريفة عن فضل الجهاد وثواب المجاهدين عند تفسير الآية ، وقريب من ذلك ورد فى تفسير القاسمى ، والتفسير الحديث .

فضل الجهاد

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله – ﷺ – قال :

تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة [١٦٧] إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش [١٦٨] طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة [١٦٩] وإن كان فى الساقة كان فى الساقة وإن استأذن لم يؤذن له [١٧٠].

* * *

وروى مسلم عن سلمان الفارسى عن رسول الله – ﷺ – قال :

« رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه وأمن الفتّان » [١٧١] .

* * *

وقال ﷺ : « حرّمت النار على عين سهرت فى سبيل الله » [١٧٢]

فضل سورة آل عمران

سورة آل عمران تسمى الزهراء أى المضيئة ، وتسمى سورة البقرة الزهراء الأولى وآل عمران الزهراء الثانية.

روى مسلم (١٧٣) والترمذى أن رسول الله - ﷺ - قال : « يؤتى بالقرآن يوم القيامة ، وأهله الذين كانوا يعملون به ، تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما ضياء ونور، أو كأنهما حزقان (١٧٤) تحاجان عن صاحبهما (١٧٥).

* * *

قافية السورة

إن كل سورة من سور القرآن تغلب فيها قافية معينة للآيات . والقارئ فى كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، يجد أنه يتحدث فى كل لطيفة عن سورة من السور ويقدم للقارئ إحصاء بعدد الحروف الواردة فى ختام آياتها .

والقوافى فى القرآن غيرها فى الشعر ، فهى ليست حرفا متحدا، ولكنها مدّ متشابه مثل (بصير ، حكيم، مبين مريب) أو (أولو الألباب ، الأبصار، النار ، قرار) أو (خفيا، شقيا ، شرقيا ، شيئا).

وتغلب القافية الأولى فى مواضع التقرير، والثانية فى مواضع الدعاء ، والثالثة فى مواضع الحكاية.

وسورة آل عمران ، تغلب فيها القافية الأولى ، ولم تبعد عنها إلا فى موضعين: أولهما فى أوائل السورة وفيه دعاء ، والثانية جوّ الدعاء المنغم المرتَّل .

* * *

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى أن رسول الله ﷺ قام من الليل فرفع رأسه إلى السماء، فقال : «سبحان الملك القدوس » (ثلاث مرات) ثم تلا هذه الآيات من آخر سورة آل عمران حتى ختمها (١٧٦).

وإن السورة تشتمل على أصول العقيدة، وفضائل الجهاد، ومنازل الشهداء، وثواب الصابرين ، وتختم بهذا النشيد السماوىّ فى التأمل والدعاء المنيب الرخىّ، وفى ختام السورة وصية بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى، وهو ختام مناسب لسورة آل عمران وفيها غزوة أحد وحكمة الابتلاء والاختبار .

* * *

والحمد لله رب العالمين




سورة النساء



أولاً
الأهداف العامة لسورة النساء

الأهداف العامة

لســورة النســاء

سورة النساء سورة مدنية وتسمى سورة النساء الكبرى تمييزًا لها عن سورة النساء الصغرى، وهى سورة الطلاق.

وقد عنيت سورة النساء ببيان أحكام النساء واليتامى، والأموال والمواريث والقتال، وتحدثت عن أهل الكتاب وعن المنافقين ، وعن فضل الهجرة ووزر المتأخرين عنها ، وحثت على التضامن والتكافل والتراحم، وبينت حكم المحرمات من النساء. كما حثت على التوبة ودعت إليها كوسيلة للتطهر ، ودليل إلى تكامل الشخصية، واستعادة الثقة بالنفس والشعور بالأمن والاطمئنان.

وعدد آيات سورة النساء (١٨٦) آية ، وعدد كلماتها (٣٧٤٥) كلمة.

* * *

الوصية بالنساء واليتامى

بينت سورة النساء أن الزواج شركة تعاونية أساسها المودة والرحمة والوفاء والألفة. وسوت السورة بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات، ثم بينت أن للرجال درجة على النساء وهى درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه على الزوجة والأسرة ، وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد أو التسخير وإنما هى زيادة فى المسئولية الاجتماعية.

وقد حث القرآن الزوجة على طاعة زوجها، فيما يجب فيه الطاعة، والاحتفاظ بالأسرار المنزلية والزوجية التى لا ينبغى أن يطلع عليها أحد غير الزوجين، كما أمر الرجل أن يقوم بحق الأسرة وأن ينفق عليها ، وأن يفى بالتزامه نحوها ، وجعل نفقة الرجل على أولاده ورعايته لهم نوعا من الكفاح والجهاد السلمى يثاب المؤمن على فعله ويعاتب على تركه.

اليتامى :

أمرت السورة بعد ذلك برعاية اليتامى والمحافظة على أموالهم وإكرام اليتيم لصغره وعجزه عن القيام بمصالحه. وحذرت السورة من إتلاف أموال اليتامى أو تبديدها، وحثت على القيام بحقوقهم واختبارهم فى المعاملات قبيل سن البلوغ حتى يكون اليتيم متمرنا على أنواع المعاملات والبيع والشراء عندما يتسلم أمواله.

وقد توعدت السورة آكل مال اليتيم بالنار والسعير، والعذاب الشديد، وقد مهدت لهذه الأحكام فى آياتها الأولى فطلبت تقوى الله وصلة الرحم ، وأشعرت أنهم جميعاً خلقوا من نفس واحدة، أى أن اليتيم وإن كان من غير أسرتكم فهو رحمكم وأخوكم فقوموا له بحق الأخوة وحق الرحم، واعلموا أن الله الذى خلقكم من نفس واحدة وربط بينكم بهذه الرحم الإنسانية العامة رقيب عليكم يحصى عليكم أعمالكم، ويحيط بما فى نفوسكم ويعلم ما تضمرون من خير أو شر فيحاسبكم عليه. وبعد هذا التمهيد الذى من شأنه أن يملأ القلوب رحمة، يأمرهم الله بحفظ أموال اليتامى حتى يتسلموها كاملة غير منقوصة ، ويحذرهم من الاحتيال على أكلها عن طريق المبادلة أو عن طريق المخالطة قال تعالى :

وَلا تَأْكُلوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرا . (النساء : ٢) .

أى لا تخلطوا مال اليتيم بمالكم ليكون ذلك وسيلة تستولون بها على مال اليتيم تحت ستار الإصلاح بالبيع أو الشراء باسم أنه منفعة لليتيم أو بالخلط والشركة باسم أنه أفضل لليتيم .

وقد تحرج أتقياء المسلمين من مخالطة اليتيم فأباح الله مخالطة اليتامى مادام القصد حسنا والنية صادقة فى نفع اليتيم ، والله سبحانه مطلع على السرائر ومحاسب عليها.

وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (النساء : ٦)

* * *

المال والميـــراث

عنيت سورة النساء وغيرها بشأن المال ، وقد أمرت السورة بالمحافظة على المال واستثماره ، ونهت عن الإسراف والتبذير وأمرت بالتوسط فى النفقة والاعتدال فيها ، ذلك لأن المال عصب الحياة ولأن كل ما تتوقف عليه الحياة فى أصلها وكمالها وسعادتها وعزها من علم وصحة وقوة واتساع عمران ، لا سبيل للحصول عليه إلا بالمال . وقد نظر القرآن إلى الأموال هذه النظرة الواقعية فحذر من تركها فى أيدى السفهاء الذين لا يحافظون عليها ولا يحسنون التصرف فيها ، كما أمر بتحصيلها من طرق فيها الخير للناس ، فيها النشاط والحركة، وفيها عمارة الكون ، أمر بتحصيلها عن طريق التجارة ، وعن طريق الصناعة والزراعة، وسمى طلبها ابتغاء من فضل الله ، كما وصفها نفسها بأنها زينة الحياة الدنيا ومتاعها ، وبلغ من عناية القرآن بالأموال أنه طلب السعى فى تحصيلها بمجرد الفراغ من أداء العبادة المفروضة . قال تعالى :

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ . (الجمعة : ١٠) .

وتحدثت سورة النساء عن المواريث ونصيب كل وارث ، فأمرت أن نبدأ أولاً بتنفيذ وصية الميت وتسديد ديونه، ثم وضعت المبادئ الأساسية للميراث ونستخلص منها ما يأتى :

أولاً : أن مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية .

ثانياً : أنه متى اجتمع فى المستحقين ذكور وأناث أخذ الذكر ضعف الأنثى.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أن بعض خصوم الإسلام قد اتخذوا التفاوت بين نصيبى الذكر والأنثى مطعنا على الإسلام وقالوا : إن هذا من فروع هضم الإسلام حق المرأة، وهى إنسان كالرجل، وفاتهم أن الذكر تتعدد مطالبه وتكثر تبعاته فى الحياة فهو ينفق على نفسه، وعلى زوجة، وعلى أبنائه. ومن أصول الشريعة أنه يدفع المهر لمن يريد أن يتزوجها ، أما الأنثى فإنها لا تدفع مهرا ويلزم زوجها بنفقتها فى مأكلها ومشربها ومسكنها وخدمها ، وذلك فوق تبعاته العائلية التى لا يلحق الأنثى مثلها.

وبينما نرى بعض التشريعات الوضعية تقضى بحرمان الأنثى بتاتا أو حصر الميراث فى أكبر الأبناء وحده كما كان الحال فى بعض البلاد إلى وقت قريب ، نجد تشريعًا آخر يقضى بمساواتها بالذكر.

ونقارن ذلك بالإسلام فنجد أن منهجه فى التوريث وسط لا إفراط فيه ولا تفريط فهو لم يحرم الأنثى من الميراث بل أعطاها نصيبا مناسبا لظروفها فى الحياة وأعطى أخاها نصيبا مناسبًا لتبعاته فى الحياة ، وهذا هو شأن الإسلام فى أحكامه وشرائعه، فهو يعتمد على الحكمة والعدل لأنه تشريع الحكيم العليم .

* * *

تعدد الزوجات

تحدثت سورة النساء عن تعدد الزوجات فأباحته بشرط العدل بينهن، فإذا خاف الإنسان من عدم العدل فعليه الاقتصار على زوجة واحدة ، فإن ذلك أدعى إلى صفاء الحياة ويسرها وتحقيق الهدف من الزواج وهو المودة والرحمة.

ويرى الإمام محمد عبده أن تعدد الزوجات أمر مضيق فيه كل التضييق فكأن الله – سبحانه – قد نهى عن التعدد.

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا . (النساء : ٣).

أى إن خفتم ألا تعدلوا فى نكاح اليتيمات اللاتى تحت وصايتكم، كأن يكون الدافع لكم على الزواج بهن هو الطمع فى مالهن، لا الحب والرغبة فى معاشرتهن، أو كأن تكون فوارق السن بينكم وبينهن كبيرة أو كأن تهضموهن حقوقهن فى مهر أمثالهن.. إن خفتم ألا تعدلوا فى اليتيمات فاطلبوا الزواج من سواهن من النساء.

وبمناسبة الحديث عن الزواج امتد السياق إلى بيان حدود المباح من الزوجات فإذا هو مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ولكن بشرط العدل بينهن، العدل فى المعاملة، وفى الحقوق الظاهرة، أما العدل فى الشعور الباطن فلا قبل به

لإنسان ولا تكليف به لإنسان، ما اتقى فى إظهاره فى المعاملة، وتأثيره على الحقوق المتعادلة ، فإن وجد فى نفسه ضعفا عن ذلك العدل، وخاف ألا يقدر على تحقيقه ، فالحلال واحدة فقط وما سواها محظور.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً .

والنص الشرطى يحتم هذا المعنى هنا ويعلله بأن ذلك التحديد بواحدة فى هذه الحالة أقرب إلى اجتناب الظلم والجور.

ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا . أى لا تجوروا وتظلموا .

والظلم حرام فالوسيلة إليه حرام ، واجتناب الظلم واجب وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فإذا كان العدل يتم بترك التعدد ، فالاقتصار على الزوجة الواحدة واجب.

وفى ختام الآية وصية جديدة بالاقتصار على الزوجة الواحدة لأنه أدعى إلى العدل والاستقرار، والبعد عن الظلم وكثرة العيال.

* * *

شبهة تفتضح ، وحجة تتضح

تكلم الأوروبيون بكثير من الكلام المعسول ، فمثلاً (كانتى) يقول : « إن شرف الإنسان أسمى من أن يمتهن أو أن يجعل أداة متعة ».

وفى الواقع هم الذين جعلوا الأخدان أداة متعة فقط ومنعوهن حقوق الزوجية فى النفقة أو الميراث أو إلصاق الولد، بينما الإسلام يحرم اتخاذ الأخدان والخليلات يقول تعالى :

مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . (النساء : ٢٥).

ويقول الرسول ﷺ :

« إن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات فإذا تزوجتم فلا تطلّقوا ».

نشأ عن كثرة الأخدان وانتشارهن فى أوروبا انتشار الأمراض السرية الفظيعة ، وقلة النسل لأن النسل إما أن يخنق أو تجهض الحامل أو يمنع الحمل، وهل غفل الأوروبيون عن المصير السيئ الذى ينتظرهم إذا استمر الحال، فالكبير يموت والنشء يقتل ؟. تنبهوا لذلك ، فصدرت قوانين تقول مثلا : أبناء الزواج الحر إذا اعترف بهم أبوهم ألحقناهم به فتأخذ الأولاد كل حقوق الأبناء، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط، والأبناء منها يتمتعون بكل الحقوق.

وقد ذكر لنا أستاذنا المرحوم محمد عبد الله دراز، أنه شاهد أثر الحروب فى ألمانيا ورأى النساء يطالبن هناك بتعدد الزوجات لتجد المرأة التى مات زوجها فى الحرب من يكفلها وينفق عليها وعلى ما ينجب منها. وذكر لنا أن جمعية تألفت فى ألمانيا تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية فى الزواج والطلاق.

ومع ذلك فالإسلام لم يحرص على تعدد الزوجات بل قال :

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا

وإذا استلهمنا روح النص ومراميه وجدنا أن التعدد رخصة ، وهى رخصة ضرورية لحياة الجماعة فى حالات كثيرة، وهى صمام أمن فى هذه الحالات، ووقاية ليس فى وسع البشرية الاستغناء عنها . ولم تجد البشرية حتى اليوم حلا أفضل منها سواء فى حالة إخلال التوازن بين عدد الذكور وعدد الإناث عقب الحروب والأوبئة التى تجعل عدد الإناث فى الأمة أحيانا ثلاثة أمثال عدد الذكور أو حالات مرض الزوجة أو عقمها، ورغبة الزوج فى الإبقاء عليها أو حاجتها هى إليه ، أو فى الحالات التى توجد فى الرجل طاقة حيوية فائضة لا تستجيب لها الزوجة، أو لا تجد كفايتها فى زوجة واحدة.. وكلها حالات فطرية وواقعية لا سبيل إلى تجاهلها . وكل حل، فيها غير تعدد الزوجات يفضى إلى عواقب أوخم خلقيا واجتماعيا، ضرورة تواجه ضرورة. ومع هذا فهى مقيدة فى الإسلام، باستطاعة العدل والبعد عن الظلم و الجور، وهو أقصى ما يمكن من الاحتياط.

★ ★ ★

التضامن الاجتماعى

حثت سورة النساء على صدق العقيدة والإخلاص لله فى العبادة، كما حثت على الإحسان إلى الوالدين وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين ، والإحسان إلى الجار ورحمة الفقير، والمحتاج ، ومساعدة الخدم والضعفاء، وحذرت من البخل والكبر والرياء، ونهت عن الكفر والجحود ومعصية الله والرسول . وذلك فى جملة آيات تبدأ بقوله تعالى :

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا . (النساء : ٣٦).

وهذه الآية وما بعدها دعوة عملية إلى « الضمان الاجتماعى » ، وتحذير من البخل والشح ، وبيان أن المال مال الله وأن الغنى مستخلف عن الله فى إدارته وتثميره وإنفاقه فى نواحى الخير والبر، وقد فرض الله حقوقًا للفقراء من مال الأغنياء ، فأوجب الزكاة والصدقة وحث على الإنفاق فى سبيل الله. وجعل طرق البر متعددة، منها صدقة الفطر فى عيد الفطر، والأضحية فى عيد الأضحى ، و الهدى فى موسم الحج. وجعل الله موردا لا ينقطع لصلة الفقراء ألا وهو الكفارات التى أوجبها مثل كفارة الظهار، وكفارة اليمين ، وكفارة

صوم رمضان . وفى كثير من الأحيان تكون هذه الكفارات إطعام المساكين أو كسوتهم. كما أوجب الله الوفاء بالنذر ، ولم يجعل الزكاة تطوعا بل جعلها فريضة لازمة يثاب فاعلها ويعاقب جاحدها. ونلحظ أن الزكاة تتفاوت فى نسبتها فتبدأ من ٢,٥٪ وهى زكاة المال وتصل إلى ٢٠٪ وهى زكاة الركاز والمعادن والبترول . وكلما كان عمل العبد أظهر كانت نسبة الزكاة أقل كما فى زكاة المال . وزكاة التجارة ، وكلما كان عمل القدرة الإلهية أظهر كانت نسبة الزكاة أكثر كما فى زكاة الزراعة وزكاة الركاز.



المحرمات من النساء

انفردت سورة النساء بكثير من أحكام المجتمع ، ولا سيما أحكام الأسرة والزوجية ، كما انفردت ببيان مفصل للمحرمات من النساء، وبدأت ذلك بقوله تعالى :

وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً . (النساء : ٢٢).

ولاشك أن توارد رجل وابنه على امرأة واحدة ، أمر ممقوت تنفر منه الفطر السليمة ، وتمجه الأذواق السليمة .

ثم جاءت بقية السورة ببقية المحرمات فحرمت زواج الإنسان بأمه وبابنته وبأخته من الرضاعة ومن النسب، وحرمت زواج الرجل من بنات الأخ وبنات الأخت والأم من الرضاعة، وحرمت أم الزوجة التى دخل بها زوجها، كما حرمت زواج الإنسان من زوجة ابنه وحرمت الجمع بين الأختين .

الحكمة في هذا التحريم :

إن الزواج وسيلة مشروعة لإمتاع النفس وإنجاب الذرية وتكوين الأسرة ، فإذا أبيح تزوج الإنسان من أقرب الناس إليه كالأم والبنت ، اصطدمت حقوق هؤلاء الأقارب بحقوق الزوجية ، فالأم مثلاً لها حق الطاعة والاحترام ، فلو اتخذها الإنسان زوجة لكان له عليها حق القوامة وحق الطاعة والخضوع . هذا إلى ما هو غنى عن البيان من نفور الإنسان من هذا اللون من المتاع ، فهى بهيمية أى بهيمية أن يتمتع الرجل بأمه، ومثل هذا يقال فى درجات القرابة الأخرى . فالخالة لها ما للأم ، والعمة لها ما للأب، والأخت وبنتها وبنت الأخ ، وابنة الإنسان التى هى قطعة منه ، كل هؤلاء تستقبح الأذواق نكاحهن وافتراشهن، ولا يمكن أن يتصور فى هذا الوضع لو أبيح إلا المفارقات والصعاب، وضعف النسل وسوء المنقلب.

ومثل هذا يقال أيضًا فى نكاح من حرمن من جهة الرضاع، فإن المرضع أم فى الكرامة ولها حق الأم فى وجوب الرعاية ، وليس من شأن الإنسان أن يلتمس منها ما يلتمسه الرجل بالزوجة.

وقد حرمت السورة الجمع بين الأختين ، والجمع بين الأم وابنتها حتى لا تقطع الأرحام، فإن المرأة تغار من ضرتها ، وتفعل الكثير فى سبيل إبعادها عن زوجها . ولو أبيح الجمع بين الأقارب لتشككت المرأة فى أختها

وفى أمها. ولأدركها نوع من الغيرة الشديدة فانقطعت بذلك صلاتها من النسب ، وتعرضت بذلك الأمر إلى خطر شديد. قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دخلتم بهنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ . (النساء : ٢٣) .

* * *

مصادر التشريع فى الإسلام (١٧٧)

أمرت سورة النساء بالعدل فى الحكم وأداء الأمانات إلى أهلها. وبيَّنت أن الأمانة والعدالة من أسباب الرقى والتقدم والسعادة فى الدنيا والآخرة .

وبهذه المناسبة ذكرت السورة مصادر التشريع التى يجب أن يرجع إليها المسلمون فى تصرفاتهم وأحكامهم وهى :

(**أولاً**) القرآن الكريم ، والعمل به هو طاعة الله .

(**ثانيًا**) سنة الرسول قولية كانت أم فعلية ، والعمل بها هو طاعة الرسول.

(**ثالثًا**) رأى أهل الحل والعقد فى الأمة من العلماء وأرباب النظر فى المصالح العامة كالجيش، والزراعة، والصناعة ، والتعليم ، كل فى دائرة معرفته واختصاصه، والعمل به هو طاعة أولى الأمر.

وهذه المصادر فى الرجوع إليها مرتبة على هذا النحو ، فلا نرجع إلى السنة إلا بعد عدم العثور على الحكم فى القرآن، فترجع إلى السنة حينئذ : إما لمعرفة الحكم الذى لم يرد فى القرآن ، أو لبيان المراد مما ورد فى القرآن، ولا نلتجئ إلى رأى أولى الأمر إلا بعد عدم العثور على الحكم فى السنة، وعندئذ نرجع إليهم ليجتهدوا رأيهم، وهذا الاجتهاد هو عنصر « الشورى » الذى عليه أمر المسلمين ، ومتى حاز الاتفاق وجب العمل به ولا يصح الخروج عنه ما دامت وجوه النظر التى أدت إليه قائمة، وهو أساس فكرة الإجماع فى الشريعة الإسلامية، وقد أنتفع به المسلمون كثيرًا ، واتسع به نطاق الفقه الإسلامى ، وبخاصة فيما ليس منصوصا عليه فى كتاب الله وسنة الرسول ، وهو يشمل إعطاء حكم لحادثة مثل حادثة سابقة للاشتراك بينهما فى المعنى الموجب لذلك الحكم، وهذا هو المعروف فى لسان الفقهاء والأصوليين باسم « القياس » وقد بحثوه بحثا مستفيضًا ، بينوا فيه أركانه، وشرائطه، وعلته ، وما ينقضه وما لا ينقضه وما يجرى فيه وما لا يجرى فيه ، وقد تكفلت به كتب الأصول فليرجع إليها من شاء.

الاجتهاد من مصادر التشريع وبابه مفتوح أبدا :

ويشمل أيضًا النظر فى تعريف حكم الحادثة عن طريق القواعد العامة وروح التشريع التى عرفت من جزئيات الكتاب ، وتصرفات الرسول ، وأخذت فى نظر الشريعة مكانة النصوص القطعية التى يرجع إليها فى تعرف الحكم للحوادث الجديدة ، وهذا النوع هو المعروف بالاجتهاد عن طريق الرأى وتقدير المصالح. وقد رفع الإسلام بهذا الوضع جماعة المسلمين عن أن يخضعوا فى أحكامهم وتصرفاتهم لغير الله ، ومنحهم حق التفكير والنظر والترجيح واختيار الأصلح ، فى دائرة ما رسمه من الأصول التشريعية، فلم يترك العقل وراء الأهواء والرغبات ، ولم يقيده ، فى كل شىء بمنصوص قد لا يتفق مع ما يجد من شئون الحياة، كما لم يلزم أهل أى عصر باجتهاد أهل عصر سابق دفعتهم اعتبارات خاصة إلى اختيار ما اختاروا. وهنا نذكر بالأسف هذه الفكرة الخاطئة الظالمة التى ترى وقف الاجتهاد وإغلاق بابه ، ونؤكد أن نعمة الله على المسلمين بفتح باب الاجتهاد لا يمكن أن تكون عرضة للزوال بكلمة قوم هالهم- أو هال من ينتمون إليهم من أرباب الحكم والسلطان - أن يكون فى الأمة من يرفع لواء الحرية فى الرأى والتفكير ، فالشريعة الإسلامية شريعة عامة خالدة صالحة لكل عصر ولكل إقليم .

وما على أهل العلم إلا أن يجتهدوا فى تحصيل الوسائل التى يكونون بها أهلا للاجتهاد فى معرفة حكم الله الذى وكل معرفته - رأفة منه ورحمة - إلى عباده المؤمنين .

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ . (النساء : ٨٣) .

واقرأ فى هذا الموضوع كله قوله تعالى من السورة :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . (النساء : ٥٨ ، ٥٩).



القتال وأسباب النصر

عنيت سورة النساء بتنظيم شئون المسلمين الداخلية وحفظ كيانهم الخارجى ، وقد حثت السورة على القتال ودعت إليه حيث يقول الله تعالى : فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٧٤) .

وبينت السورة أهداف القتال فى الإسلام، وهذه الأهداف تنحصر فى رد العدوان وإشاعة الأمن والاستقرار، وحماية الدعوة ، والقضاء على الفتن التى يثيرها أرباب المطامع والأهواء، ومن ذلك نعلم أن الإسلام

حينما شرع القتال نأى به عن جوامح الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء، واتخذه طريقا إلى السلام العام بتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة. وليصل المسلمون بالقتال إلى الغاية السامية التى أمر بها الله ، ولفت القرآن أنظار المؤمنين إلى أن للنصر أسبابا ووسائل هى :

١ - **تقوية الروح المعنوية للأمة** فقد نزل القرآن روحا وحياة ومنهجا ورسالة . وتحول العرب بالقرآن إلى أمة عزيزة متمسكة بالحق ثابتة عليه متحملة صنوف الأذى وألوان الاضطهاد . فلما أذن الله لها بالجهاد كانت لها راية النصر فى أكثر معاركها، لأن لها من يقينها وإيمانها ما يكفل لها النصر والغلبة .

٢ - **إعداد القوة المادية وتنظيمها** ، قال تعالى : وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . (الأنفال : ٦٠). ويشمل ذلك فنون الحرب وأساليبها ، ومعرفة أحدث أدواتها وكيفية استعمالها.

٣ - **الشكر على النعماء ثقة بأن النصر من عند الله ، فلا ينبغى أن تأخذ المحارب** نشوة النصر فيخرج عن اتزانه بل عليه أن يزداد تواضعًا وخشوعًا لعظمة الله ، ويزيد فى طاعة الله ونصره ، لقوله سبحانه : إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ . (محمد : ٧).

٤ - **الصبر على البأساء ثقة والتزامًا** بأن مع اليوم غدا ، وبأن الأيام دول يوم لك ويوم عليك ، وأن الشجاعة صبر ساعة ، وليس الصبر هنا صبر الذليل المستكين بل صبر المطمئن إلى قضاء الله وقدره والمؤمن بحكمته والمستعد ليوم آخر ينتصف فيه من عدوه . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران : ٢٠٠).

٥ - ومن أسباب النصر **ثقة المؤمن بأن الأجل محدود وأن الرزق محدود** فالشجاعة لا تنقص العمر ، والجبن لا يزيده . ومن أسباب النصر طاعة الله والتزام أوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى : وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ. (آل عمران : ١٢٦).

٦ - ومن أسباب النصر **أخذ الحذر والحيطة والابتعاد عن اتخاذ** بطانة مقربة من المنافقين والملحدين والخونة، قال تعالى : فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (النساء : ٨٨).

٧ - **تذكر فضل الجهاد ثواب البذل والتضحية، وعقوبة التثاقل** والفرار من الجهاد، وتذكر ما أعده الله للمجاهدين والمكافحين فى سبيل الحق من عز الدنيا وشرف الآخرة، قال تعالى :

وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . (النساء : ١٠٠) .

★ ★ ★



ثانيًا
تفسير سورة النساء
١ - ٢٣

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:



﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

المفردات :

بث : نشر وفرّق ، ومنه وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . (الغاشية : ١٦) .

الأرحام : جمع رحم وهو فى الأصل مكان تكوُّن الجنين فى بطن أمه ثم أطلق على القرابة.

رقيبا : الرقيب : الحفيظ المطلّع على الأعمال.

المعنى الإجمالى :

يا أيها الناس اتقوا الله ربكم الذى خلقكم وأوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها ، ومنهما نشر فى الوجود رجالا كثيرا ونساء، فأنتم جميعا تنتهون إلى تلك النفس الواحدة ، واتقوا الله الذى تستعينون به فى كل ما تحتاجون ، ويسأل باسمه بعضكم بعضا فيما تتبادلون من أمور ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها قريبها وبعيدها، إن الله دائم الرقابة على أنفسكم لا تخفى عليه خافية من أموركم (١٧٨).

فى أعقاب الآية :

١ - الناس جميعًا من أصل واحد ، تجمعهم رحم عامة تربط بين البشر جميعًا ، قال تعالى : يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا .. . (الحجرات : ١٣).

٢ - ينتهى نسب الناس إلى آدم، وآدم من تراب ، فقد خلق الله آدم من تراب ، ثم خلق حواء من ضلع آدم ليسكن إليها وتكون له سكنًا وأمنا . قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . (الروم : ٢١).

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيرًا فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما فى الضلع أعلاه، وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها، فاستمتع بها وفيها عوج واستوصوا بالنساء خيرا » (١٧٩).

والحديث يكرر الوصية بالنساء ، ويوصى بالصبر والاحتمال والمداراة، لأن المرأة مجموعة من العواطف ، فقد شاء الله أن تكون عاطفة المرأة أكثر من عاطفة الرجل ، لتتحمل المرأة آلام الحمل والولادة والرضاع والكفالة، وأن يكون جانب العقل فى الرجل أكثر ، ليتحمل البحث فى سبيل الرزق ورعاية الأسرة، وبالعقل والعاطفة تتم رعاية الأسرة ، وتلبى حاجة الرجل إلى المرأة ، وحاجة المرأة إلى الرجل.

٣ – جمهور المحدثين والفقهاء على أن الناس جميعًا تناسلت من نفس آدم – عليه السلام – وليس هناك سوى آدم واحد، وقد خلقت حواء من آدم وخلق الناس من آدم وحواء.

٤ – قال الفخر الرازى فى تفسير . وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . والمراد من هذا الزوج هو حواء ، وفى كون حواء مخلوقة من آدم قولان :

الأول : وهو الذى عليه الأكثرون ، أنه لما خلق الله – تعالى – آدم ألقى عليه النوم ، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه، فلما استيقظ رآها ومال إليها وألفها، لأنها كانت مخلوقة من جزء من أجزائه، واحتجوا عليه بقول النبى ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن تركتها وفيها عوج استمتعت بها ».

والقول الثانى : وهو اختيار أبى مسلم الأصفهانى – أن المراد من قوله تعالى : وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . أى من جنسها وهو كقوله تعالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا . (النحل : ٧٢).

وكقوله : إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ . (آل عمران : ١٦٤).

وقوله : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ... . (التوبة : ١٢٨).

قال القاضى : والقول الأول أقوى ، لكى يصح قوله : خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ . إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة [١٨٠].

٥ – قال صاحب الكشاف : ومعنى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ... أراد بالتقوى تقوى خاصة، وهى أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله ، فقيل : اتقوا ربكم الذى وصل بينكم ، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة ، فيما يجب على بعضكم لبعض ، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه، وهذا المعنى مطابق لمعانى السورة [١٨١].

٦ – من سألك بالله شيئًا فأعطه ما دمت تجد سبيلاً للعطاء، أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان عن ابن عمر قال : قال رسول الله – ﷺ – : « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بالله فأعطوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه به فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه » [١٨٢].

والحديث فى معنى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ . أى يسأل بعضكم بعضا بالله ، فيقول أسألك بالله كذا.

٧ - حثت الآية على صلة الرحم ، والإحسان إلى الأقارب، وقد تكررت هذه الوصية فى القرآن والسنة ، قال تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ . (النساء : ٣٦).

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من سره أن يبسط له فى رزقه، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » (١٨٣).

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ قال : « الرحم معلَّقة بالعرش تقول : من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله » (١٨٤).

وأخرج البخارى أن رسول الله ﷺ قال : «ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» .

وهذه الأحاديث تلتقى مع الاية فى تأكيد الوصية بالأرحام ، قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ . أى اتقوا الأرحام أن تقطعوها ، فمن وصل رحمه وصله الله ، ومن قطع رحمه قطعه الله.

قال تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ . (محمد : ٢٢).

فصلة الرحم سبب البركة وهدوء النفس ، واستقامة الذرية وصلاحها، أما قاطع الرحم فهو مطرود من رحمة الله.

ارحم عباد الله يرحمك الذي
عم البرية فضله ونواله
فالراحمون لهم نصيب وافر
من رحمة الرحمن جل جلاله

★ ★ ★

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢)﴾

المفردات :

وآتوا : المراد بإتيانها أن يحافظوا عليها ولا يتعرضوا لها بسوء، حتى يسلموها لليتامى عند البلوغ والرشد كاملة ، إلا ما صرف منها فى ضرورات اليتامى وحاجاتهم .

اليتامى : جمع يتيم ، وهو من مات أبوه ، واليتامى جمع ذكرا أم أنثى، أما الأيتام فجمع للذكران فقط وخصه الشرع بالصغير دون البلوغ.

ولا تتبدلوا : أى لا تستبدلوا ، يقال تبدل الشىء بالشىء واستبدل به إذا أخذ الأول بدل الثانى ، فالباء داخلة على المتروك.

الخبيث : الحرام .

بالطيب : بالحلال.

حوبا كبيرا : إثمًا عظيما .

التفسير :

٢ - وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا .

المعنى الإجمالى :

وملّكوا اليتامى ما يستحقون من مال واحفظوه لهم ولا تعطوهم الردىء وتحرموهم الجيد، ولا تأخذوا أموالهم وتضيفوها إلى أموالكم إن ذلك كان إثمًا كبيرا .

من تفسير الآية للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ .. .

أمرنا الله بتوصيل مال اليتيم إليه بعد بلوغه ، وبعد أن أمرنا بإعطاء اليتامى أموالهم أكد هذا الأمر تأكيد العليم الخبير بطبائع النفوس الإنسانية وجميع حيلها ، ولو كان القرآن من عند محمد لوجب أن يكون إنسانا عالميا يحيط بكل ما فى الأرض والسماء ، ويغوص إلى خفايا النفوس، ويصل إلى أدق طبائع البشر، وما خفى واستتر من غرائزهم ، وهو الأمى الذى لم يتل من قبله الكتاب ولا خطه بيمينه . ففى هذا التحليل القادم دليل على أن القرآن من عند الله ، وإليك هذا التحليل والتنويع .

قد يتحايل الإنسان على أكل مال اليتيم بأربع حيل :

١ - **الأولى الاستبدال :** بأن يأخذ قطعة أرض من مال اليتيم ويعطيه بدلها، زاعما أن ذلك له أصلح، وهو فى الواقع قد أخذ لنفسه الأحسن ، وهنا يبدو جمال التسمية فى قوله تعالى : وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ فجعل الكثير الحسن من مال اليتيم خبيثًا لأنه حرام ، وحَق الغير ، وأخْذُه ظلم ، فكان خبيثا لا تألفه نفس المؤمن الطاهر ، وجعل القليل من ماله الحلال طيبًا طاهرًا ، لأنه حقه الحلال ، أى ولا تأخذ الكثير الخبيث ، الذى يؤول إلى النار من مال اليتيم ، بدل القليل الطيب الحلال من مالك.

٢ - **الحيلة الثانية أن يقول الوصى :** إنى لا أريد أن أشعره بالوحدة، والانقطاع، فلن أترك ماله على حدة، بل سأضمه إلىَّ ليجد فىَّ أبا رحيما، وفى أبنائى إخوة ، وفى رعايتى لماله شركة ومواساة. ثم يأخذ من مال اليتيم بذلك ما لا حق له فيه أما إذا أردت ضمه إليك مواساة وتعويضا عن أهله ، وكنت صادق النية فى ذلك ، فالله هو الذى يتولى جزاءك. قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ . (البقرة : ٢٢٠).

٣ - **الحيلة الثالثة : أن يتزوج اليتيمة ذات المال** ، للاستيلاء على مالها بحجة أنها تحت رعايته فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ . أى إن خفتم الجور على اليتيمة فتزوجوا من الآخرين بعدا عن الظلم.

٤ - **والحيلة الرابعة :** هى الإسراف والتبذير في مال اليتيم قبل أن يكبر حقدا عليه أن يسترد ماله عند البلوغ فيصير غنيا والوصى فقير ، فقال سبحانه ﴿ فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ﴾ .

هذا هيكل تقريبى أو صورة واضحة عن اليتيم ، وكل ما يمكن من صور التحايل على أكل ماله نهى عنها القرآن وحذرنا منها.

وأحب أن تسيروا فى طريق التفسير بهذا المنوال التربوي، والمنهاج العلمي، والنظر إلى الفكرة ككل، وإلى ما يقصده القرآن كجسم كامل لا يصح بتر أجزائه، بل تتأملوا تفصيلها وتنسيقها (١٨٥).



تعدد الزوجات

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) ﴾

المفردات :

الا تقسطوا : أى ألا تعدلوا ، من أقسط أى عدل، وأما قسط فمعناه ظلم وجار ، قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ . (الجن : ١٥).

فى اليتامى : المراد اليتيمات.

فانكحوا : تزوجوا.

ما طاب لكم : ما حل : أو ما مالت إليه نفوسكم.

مثنى وثلاث ورباع : أى اثنتين اثنتين ، وثلاثا ثلاثا، وأربعا أربعا.

ألا تعولوا : ألا تجوروا وتظلموا.

التفسير :

٣ - وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا .

المعنى الإجمالى :

وإن أحسستم من أنفسكم الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة، فعليكم ألا تتزوجوا بها ، فإن الله جعل لكم مندوحة عن اليتامى ، بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن، واحدة أو اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، إذا وثقتم بالقدرة على العدل، ولكن إن خفتم ألا تعدلوا بين الزوجين أو الزوجات فعليكم أن تلزموا واحدة فقط، أو استمتعوا بما ملكت أيديكم من الإماء ، وإن زواج الواحدة أقرب إلى العدل، وأبعد عن الظلم والجور.

سبب نزول الآية :

روى البخارى وغيره : « عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - : أنه سألها عن هذه الآية ، فقالت : يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها، تشركه فى حاله ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينحكوهن إلا أن يسقطوا لهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن» . الحديث، رواه البخارى فى كتاب التفسير.

آراء فى تفسير الآية :

١ - **روى الطبرى عن ابن عباس وعكرمة :** أن قريشا كان الرجل منهم يتزوج العشر من النساء والأكثر والأقل، فإذا صار معدما مال على مال يتيمه الذى هو فى حجره فأنفقه أو تزوج به ، فنهوا عن التزوج فوق الأربع.

٢ - **وقال آخرون معنى الآية :** فكما خفتم فى اليتامى أن تجوروا عليهم فكذلك فتخوفوا فى النساء أن تزنوا بهن، ولكن انكحوا ما طاب منهن مثنى وثلاث ورباع ، إذا اطمأننتم إلى تحقيق العدل بينهن وإلا فاقتصروا على الواحدة.

٣ - **وقال آخرون :** وإن خفتم ألا تعدلوا فى اليتامى ، فكذلك فخافوا فى النساء ، فلا تنكحوا منهن إلا مالا تخافون أن تجوروا فيه منهن من واحدة إلى الأربع . وقد أجاز السيد رشيد رضا أن تكون الآراء السابقة كلها مقصودة للآية فقال : « وقد يصح أن يقال إنه يجوز أن يراد بالآية مجموع تلك المعاني، من قبيل رأى الشافعية الذين يجيزون استعمال اللفظ المشترك فى كل ما يحتمله الكلام من معانيه، واستعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه معا » [١٨٦].

ويقول الأستاذ الدكتور محمد بلتاجى :

« .. ومن هنا معنى الآية يتضمن أمرا إلى أولياء الفتيات اليتامى بالإقساط فيهن عند إرادة التزوج بهن، ثم هو فى نفس الوقت أمر إلى هؤلاء الأولياء بألا يسرفوا على أنفسهم بكثرة الزوجات، فيحملهم ذلك على التعدى على أموال اليتامى ، الذين هم فى رعايتهم وتحت وصايتهم- وقد كان هذا وما سبقه موجودًا عند نزول القرآن الكريم – ثم هو أيضًا أمر إلى المسلمين باتقاء الله فى النساء ، وتجنب الزنا بهن لأن الله – تعالى – أباح التزوج منهن ، فلم يعد بالمسلم حاجة مقبولة إلى الزنا ، ثم هو فى الوقت نفسه أمر إلى المسلمين بوجوب اتقاء الله فى العدل فى النساء عند إرادة التزوج منهن والخشية من ظلمهن فى ذلك ، كما يخاف كل منهم أن يظلم اليتيم إذا كان تحت رعايته، ثم إن الآية بعد كل هذا تشتمل على إباحة تعدد الزوجات بشرط العدل » (١٨٧).

مذاهب فى تفسير الآية

١ – قال بعض أئمة الشيعة والظاهرية : يجوز جمع تسع نساء حيث اعتبروا كلمات (مثنى وثلاث ورباع) معدولة عن اثنين وثلاث وأربع وجمعوا هذه الأرقام ٢+٣+٤= ٩. وهو كلام مرفوض مخالف لما يفيده النص العربى البليغ فإن الطفل هو الذى إذا أراد أن يقول تسعة قال ٢+٣+٤ = ٩، أما القرآن فهو أبلغ أسلوب.

والعمل متواتر من العهد النبوى والخلفاء الراشدين بعدم جواز جمع أكثر من أربع فى عصمة رجل فى وقت واحد ، وهذا العمل مؤيد بالكتاب والسنة والإجماع، وهو الحق الذى يجب الالتزام به والوقوف عنده (١٨٨).

حكمة التعدد

الإسلام دين وسط، وهو شريعة الله العليم الخبير ، وقد كان العرب فى بيئة ذاع فيها التفاخر بالأنساب ، والاعتزاز بكثرة الأبناء، وإهمال شأن المرأة وهضم حقوقها ، فلم يقفوا فى تعدد الأزواج عند حد.

« وقد سلك الإسلام طريقا وسطا هو إباحة التعدد إلى حد محدود (١٨٩) ، لما فى هذا من منافع ، لا ينبغى لمشرع أن يغض الطرف عنها ، ومنها :

١ – أن طبيعة الرجل الجنسية قد تقوى فلا يقنع بامرأة واحدة، فإذا سددنا عليه باب التعدد فتح لنفسه باب الزنا والمخالّة الداعرة، فتنتهك الأعراض وتضيع الأنساب، وذلك شر عظيم . وفى فتح باب التعدد تمهيد لكثرة النسل الذى تعتز به الأمة ، وإن دينا يحرم الزنا ، ويعاقب عليه أقسى العقوبات ، جدير به أن يفتح باب التعدد، إشباعًا للغريزة ودفعًا للشر ، ورغبة فى كثرة النسل الحلال.

٢ – وقد تكون المرأة عقيما لا تلد ، أو تصاب بما يمنعها من مزاولة الحياة الجنسية ، ويرى الزوج من الوفاء لها ألا يتخلى عنها فى محنتها ، وألا يمنعها عطفه وأنسه ورعايته ، أفليس من الحكمة أن نمكنه من هذا الوفاء، بإباحة التزوج عليها حتى لا نلجئه إلى سلوك طريق آخر ؟.

٣ - ولما كان الرجال أكثر من النساء تعرضًا لأسباب الفناء - كان عددهم أقل من عددهن، وخاصة فى أعقاب الحروب ، فإذا لم نبح للرجل أن يعول بالزواج أكثر من واحدة، كانت النساء عرضة للفاقة ، وللاتجار بالأعراض ، والعمل للتخلص من النسل فتقل الأيدى العاملة.

وليس بعجيب أن يكون عدد النساء فى العالم أكثر من عدد الرجال، وأن يباح للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة، ضماناً لبقاء النوع ، فقد جرت عادة الخالق - سبحانه - أن يخلق من بذور النبات وبويضات الحيوان ملايين البذور والبويضات ضمانا لبقاء أنواعها ، ويكون استئثار المرأة بالرجل حينئذ أثرة ممقوتة ضارة بالجماعة(١٩٠)

فهم خاطئ

ذهب بعض الناس إلى منع تعدد الزوجات مدعيا أن آيتين فى سورة النساء ترشدان إلى ذلك .

الآية الأولى تقول : فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . (النساء : ٣).

والآية الثانية تقول : وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ. (النساء : ١٢٩).

بل إنهم عند الاستشهاد بالآية ١٢٩ من سورة النساء هذه استشهدوا بالجزء الأول منها وهو وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . وقالوا : إن التعدد ممنوع فى القرآن لأن الآية رقم ٣ من سورة النساء اشترطت العدل لإباحة التعدد.

والآية رقم ١٢٩ بينت أن العدل غير مستطاع حتى لمن حرص على تحقيقه بين النساء.

قال الأستاذ أحمد شاكر .. (وزاد الأمر وطم، حتى سمعنا أن حكومة من الحكومات التى تنتسب للإسلام، وضعت فى بلادها قانوناً منعت فيه تعدد الزوجات جملة ، بل صرحت تلك الحكومة بأن تعدد الزوجات- عندهم - صار حراما، ولم يعرف رجال تلك الحكومة أنهم بهذا اللفظ الجرىء صاروا مرتدين خارجين من دين الإسلام ، بل إن أحد الرجال الذين ابتلى الأزهر بانتسابهم إلى علمائه ، تجرأ مرة وكتب بالقول الصريح إن الإسلام يحرم تعدد الزوجات ، جرأة على الله وافتراء على دينه (١٩١).

مناقشة :

العلاقات الزوجية متداخلة ، منها ما هو مادى ، ومنها ما هو معنوى ، فالمحبة والهوى القلبى أمور معنوية لا يتحكم فيها الإنسان ، وهى المشار إليها بقول النبى - ﷺ : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » (١٩٢).

أما الأمور المادية مثل الأكل والنفقة والكسوة والمسكن وأشباهها فيمكن العدل فيها بين النساء . وهى التى عناها القرآن ، حين أرشد الرجال إلى العدل فيها ، وبين أن العدل فى ميل القلب أمر غير مستطاع لأن القلوب متقلبة ، وما يسمى القلب قلبا إلا لأنه يتقلب ، ولأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

فإذا اتبع الإنسان هوى قلبه ، مال إلى الزوجة التى يحبها ، وأعطاها حظوظًا مادية زائدة . وترك الأخرى لا تستمتع بمثل هذه الحظوظ المادية . ولذلك وجه القرآن المسلم بأن يعدل فى قسمته بين النساء فى المسكن والمأكل والملبس ، وأمر بالتسوية بينهما ، ونهى عن محاباة المحبوبة، وهجر ضرتها حتى تصير كالمرأة المعلقة، وهى التى هجرها زوجها وتركها بدون طلاق ، فلا هى مطلقة تنتظر الأزواج ، ولا هى متزوجة زوجاً يقر عينها ، ويحسن عشرتها ، ويوفى لها حقها ، ويعدل بينها وبين ضرتها أو ضرائرها ، فى الأمور المادية التى يمكن العدل فيها.

وقد روى الإمام أحمد وغيره أن رسول الله – ﷺ – قال : « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » (١٩٣).

والمراد بالميل هنا الظلم فى القسمة بين الزوجتين ، وتفضيل إحداهما على الأخرى فى النفقة والمسكن والملبس، وهى التى عناها القرآن بقوله : فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ . (النساء : ١٢٩).

وفى ختام الآية فتح القرآن الباب أمام الأزواج ليحاولوا العدل ولينصفوا الزوجة الأخرى ويحسنوا إليها مراعاة لأمر الله واتقاء عقابه وحسابه ، فقال – سبحانه – : وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا . (النساء : ١٢٩).

قال الطبرى شيخ المفسرين : وَإِن تُصْلِحُوا أعمالكم – أيها الناس – فتعدلوا فى قسمتكم بين أزواجكم، وما فرض الله لهن عليكم من النفقة والعشرة بالمعروف فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا يستر عليكم ما قد يكون سلف منكم فى ذلك رحيما بكم يقبل توبتكم فيه .

رشيد رضا والتعدد :

يقول الأستاذ رشيد رضا فى موضوع : الإصلاح الإسلامى فى تعدد الزوجات ما يأتى :

قال تعالى : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا . (النساء : ٣).

العول : الجور ، أى ذلك الاقتصار على امرأة واحدة، أو ملك اليمين أقرب الوسائل لعدم وقوعكم فى الجور والظلم، المانع من تعدد الزوجات لمن خاف الوقوع فيه .

والآية تدل على تحريم التعدد على من يخاف على نفسه ظلم زوجة محاباة لأخرى، وتفضيلاً لها عليها، وعلى تحريمه بالأولى إذا كان عازمًا على هذا الظلم بأن كان يريد أن يضارها لكرهه لها ، ثم قال فى الآية ١٢٩ من سورة النساء أيضًا وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ . فإذا قرنت هذه القضية بقضية فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً . أنتجتا وجوب الاقتصار على امرأة واحدة ، ولكنه قال بعدها : فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ .

فعلم به أن غير المستطاع هو العدل فى الحب وأثره من ميل النفس ، فيجب ضبط النفس فى أثـره، وما يترتب عليه من المعاملة المستطاعة ، فى النفقة والمبيت وغيرها ، وهو العدل المشروط فى الأولى .

وهناك ثلاث مسائل قطعية :

الأولى : أن الإسلام لم يوجب تعدد الزوجات ، ولم يندب إليه ، وإنما ذكره بما يدل على أنه قلما يسلم فاعله من الظلم المحرم ، وحكمة هذا وفائدته أن يتروى فيه الرجل الذى تطالبه نفسه به ، ويحاسبها على قصده وعزمه ، وما يكون من مستقبل أمره فى العدل الواجب .

الثانية : انه لم يحرمه تحريما قطعيا لا هوادة فيه ؛ لما فى طبيعة الرجال وعاداتهم الراسخة بالوراثة فى جميع العالم من عدم اقتصارهم فى الغالب على التمتع بامرأة واحدة - ومن حاجة بعضهم إلى النسل فى حال عقم المرأة أو كبرها أو علة أخرى مانعة من الحمل ، ومن كثرة النساء فى بعض الأزمنة والأمكنة، ولا سيما أعقاب الحرب بحيث تكون الألوف الكثيرة منهن ، أيامى لا يجدن رجالا يحصنونهن وينفقون عليهن، مع وجود الأقوياء الأغنياء القادرين على إحصان امرأتين أو أكثر.

الثالثة : أنه لهذا وذلك تركه مباحا، إلا أنه قيده بالعدد فلا يتجاوز أربعة ، وبالقدرة على العدل والرغبة فيه ، وبهذه الشروط نتقى ضرره ونرجو خيره.

وقد رأينا بأعيننا وسمعنا بآذاننا من أهل عصرنا ، أن من المتدينين المتقين رجلا لم يرزق ولدا من زوجته الأولى ، فخطب زوجة ثانية رزق منها أولاداً وعاش الجميع كعيشة الأخوات فى حجر والدهن، وقد كان هذا هو أكثر حال المسلمين ، فى قرون الإسلام الأولى، ولكنه قل فى هذا الزمن ، بما طرأ على أكثر الشعوب الإسلامية من الجهل بالإسلام، وبحكمه وآدابه فى الزواج. وقد حمل شيخنا الأستاذ الإمام محمد عبده فى سياق تفسيره للآية فى الأزهر ، حملة منكرة شديدة على هذه المفسدة فى مصر ، وقرر أنه يستحيل تربية الأمة تربية صحيحة، مع كثرة هذا التعدد الإفسادى ، الذى صار يجب منعه عملاً بقاعدة « لا ضرر ولا ضرار » الثابتة فى الحديث [١٩٤] ، وقاعدة تقديم درء المفاسد على جلب المصالح، وهى متفق عليها ، وقد نشرنا أنه أفتى فتوى غير رسمية بأن للحكومة منع التعدد، لغير ضرورة مبيحة لا مفسدة فيها [١٩٥].

ملحق بالتفسير

- ١ -

قام المستشار محمد الدجوى ببحث عن الحالة المدنية لمن تولى مشيخة الأزهر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٩٦٠م.

وأسفر البحث عن أولئك المشايخ الأجلاء ، وعدتهم بضعة عشر شيخا، لم يتزوج واحد منهم بزوجة ثانية، بل اقتصروا على زوجة واحدة، وذلك لأنهم فهموا أحكام الدين ووعوا تعاليمه وتشربوا بروحه.

- ٢ -

يرى الدكتور محمد عبد الله دراز أن أوروبا أباحت تعدد الخليلات والعشيقات ، ثم أباحت للإنسان ان يعترف بنسب أولاده من عشيقته ، فهم تفادوا اسم الزوجة فقط.

ولكن الإسلام حارب اتخاذ الأخدان والخليلات ، فقال سبحانه : مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ . (النساء : ٢٥).

وقال عز شأنه مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ . (النساء : ٢٤).

- ٣ -

ذهب فريق من العلماء إلى أن التعدد مباح ، لا يتوقف جوازه على شىء وراء أمن العدل، وعدم الخوف من الجور، والقدرة على القيام بواجبات الأسرة القديمة والجديدة، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ الشيخ محمود شلتوت، والأستاذ أحمد شاكر، والأستاذ على عبد الواحد وافي، والدكتور محمد بلتاجي.

ومن العلماء من يرى أن الأصل في الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تتحقق بها المودة والرحمة، ويباح التعدد عند الضرورة مثل عقم الزوجة، أو مرضها مرضا شديدا يمنعها من أداء وظيفتها ، ويمكن أن يفهم هذا الرأى من كلام الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا والشيخ محمد المدنى.

ومن العلماء من يرى أن يكون تعدد الزوجات بإذن القاضي، ومنهم من يرى ترك الناس إلى ضمائرهم ودينهم مع العناية بالتربية الدينية ، وإرشاد الناس إلى آدب الإسلام.



﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

وآتوا : الإيتاء : الإعطاء والمناولة ، أو الالتزام.

صدقاتهن : جمع صدقة بضم الدال ، وهو المهر .

نحلة : أى عطية من غير عوض ، من نحله ينحله نحلة.

هنيئا : أى سائغا من هنأه الطعام يهنؤه أى ساغ له.

مريئا : أى سائغا، الهنىء ما يلذ للآكل ، والمرىء ما سهل هضمه وحسنت عاقبته ، والمراد أنه لا تبعة ولا عقاب عليه ، أى حلالا طيبًا.

التفسير :

٤ - وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا .

هناك حقوق للمرأة على زوجها، وحقوق للرجل على زوجته ، فمن حقوق المرأة ، المهر وهو الصداق، والنفقة ، والعشرة بالمعروف.

ومن حقوق الزوج الطاعة أو القوامة ، والأمانة أو المحافظة على المال والعرض، وحسن العشرة أيضًا.

والآية تأمر الأزواج بإعطاء النساء مهورهن عن طيب خاطر ، فإذا طابت نفس المرأة وتنازلت لزوجها عن شيء من صداقها فلا مانع من أخذه والانتفاع به.

وعلاقة الآية بالحديث عن اليتامى، أنها استطراد فى بيان حق المرأة، وسواء أكانت يتيمة أو غير يتيمة، واحدة أو أكثر ، فيجب أن تأخذ حقها فى الصداق.

والصداق دليل المصادقة، وتحمل المسئولية ، وآية المودة وتوثيق عرى الصلة بين الزوجين كى تدوم الألفة وتعظم المحبة.

والصداق ليس شراء للمرأة ، فمعنى قول الإنسان لفتاة هل ترضين أن تكونى زوجتي؟ أى هل ترضين أن نكوّن شركة أكون أنا مديرها والمسئول عنها ؟ فتقول له جدا أو مزاحا ؟ أو هل أنت صادق فى عرضك؟.

فالصداق دليل مادى على تحمل المسئولية.

ثم أتبع القرآن ذلك بقوله : نِحْلَةً . أى عطية عن طيب نفس وصدق رغبة بدون مقابل أو عوض.

وأهل اللغة يقولون إن النحل بدون مقابل :

وبعض الفقهاء يقول : إن الصداق ثمن البضع ، ونقول لهم : لو أنِّى اشتريته يا فقهاء لكنت أستطيع بيعه لآخر ، ثم إن الله سمى المهر صداقا، وجعله نحلة أى هبة وهدية بدون عوض.

لكن القرآن يقول : فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ . (النساء : ٢٤).

بعد أن سماه القرآن صداقا ونحلة، جعله فريضة فرضها الله ، وألزمنا بها كما يلزم الإنسان أجر العامل.

فالزوجة قد استمتعت بزوجها كما استمتع هو بها ، لكن لما كانت المسألة ليست جزاء الاستمتاع المادى ، بل هى حق فرضه الله للمرأة، لأنها قبلت أن تنتقل من بيت أسرتها إلى بيت زوجها، وقبلت أن يكون لزوجها القوامة عليها، وقبلت أن يكون لزوجها الرئاسة والطاعة، لهذا فرض الله لها النفقة والصداق، وجعل ذلك فريضة لازمة، كما يلزم الإنسان أن يعطى الأجر لمن عمل له عملا، قال تعالى : الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ . (النساء : ٣٤).

فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا .

والضمير يعود على المهر ، أى إذا طابت نفوسهن ورضيت عن طيب خاطر ورغبة صادقة ، أن تتنازل إحداهن لزوجها عن شىء من صداقها، فقد أباح الله له أخذه والانتفاع به ، وأحل له التصرف فيه حلالا طيباً .

ومن دقائق اللغة ، أن القرآن قال : فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا . ولم يقل عقلاً . لأن الرجل قد يحتال على المرأة حتى تهب له شيئاً من الصداق، أو يلوّح لها بالزواج فتترضاه بشىء من الصداق، وتتنازل له بحكم عقلها ، ولكنه تنازل ظاهرى.

يقول الحكيم الترمذى : أى أن عقلها يوازى الأمور ، ويفضل التضحية بالمال لترضية زوجها، فهى موافقة شكلية لا حقيقة.

ولذلك فإن القرآن قال : فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا (١٩٦).

وقال الزمخشرى فى الكشاف فى تفسير الآية :

وفى الآية دليل على ضيق المسالك فى ذلك ، ووجوب الاحتياط، حيث بنى الشرط على طيب النفس: فَإِن طِبْنَ . ولم يقل فإن وهبن أو سمحن إعلاما بأن المراعى هو تجافى نفسها عن الموهوب عن طيب خاطر.

والمعنى : فإن وهبن لكم شيئا من الصداق، وتجافت عنه نفوسهن طيبات ، لا لحياء عرض لهن منكم أو من غيركم ، ولا لاضطرارهن إلى البذل من شكاسة أخلاقكم ، وسوء معاشرتكم ، فكلوه هنيئا مريئا.

الخطاب فى الآية :

الخطاب فى الآية للأزواج ، لأن الضمائر فى الآية السابقة لهم ، وبعض المفسرين يرى أن الخطاب فى هذه الآية للأولياء ، فقد كان الولى فى الجاهلية يزوج ابنته أو أخته ، ويأخذ الصداق لنفسه، فأنزل الله الآية لمنع ذلك . ولا مانع من أن يجعل الخطاب عاما للمسلمين، فيشمل الأزواج والأولياء، فالزوج مطالب بإعطاء المرأة صداقها، والولى مطالب بدفعه لها بعد تسلمه من الزوج ، وللزوجة كامل الحق فى التصرف فى المهر بعد ذلك .

من الأحكام التى تؤخذ من الآية :

١ - لابد فى النكاح من صداق يعطى للمرأة، قال القرطبى : هو مجمع عليه ولا خلاف فيه .

٢ - الصداق ملك المرأة ، ومن حقها أن تتصرف فيه بما شاءت.

٣ - يجوز للمرأة أن تعطى زوجها - برضاها واختيارها - مهرها، أو جزءا، سواء أكان مقبوضًا معينا، أم كان فى الذمة. ويشمل ذلك الإبراء الهبة.

ويرى بعض العلماء أن من حقها الرجوع فيما أعطت، وعن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه كتب إلى قضاته : إن النساء يعطين رغبة ورهبة، فأيما امرأة أعطت ثم أرادت أن ترجع فذلك لها .



﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

المفردات :

السفهاء : جمع سفيه، والمراد من السفهاء هنا : ضعاف العقول والأفكار الذين لا يحسنون التصرف.

قياماً : ما تقوم به أموركم، وتصلح شئونكم .

التفسير :

٥ – وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا .

المعنى العام :

ولا تعطوا ضعاف العقول ممن لا يحسنون التصرف فى المال أموالهم التى هى أموالكم ، فإن مال اليتيم وضعيف العقل مالكم، ويعنيكم أمره وإصلاحه حتى لا يضيع المال ، فقد جعله الله قوام الحياة، وأعطوهم من ثمراتها النصيب الذى يحتاجون إليه فى العام، وأكسوهم وعاملوهم بالحسنى، وقولوا لهم قولا يرضيهم ولا يؤذيهم ولا يذلهم.

فى أعقاب الآية :

١ – اختلف المفسرون فى تعيين المخاطبين بقوله تعالى : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ .

قال بعضهم المراد بذلك الأوصياء على اليتامى، والمراد من السفهاء اليتامى غير العقلاء.

وقال بعضهم الخطاب فى الآية الكريمة للآباء، والمراد من السفهاء الأولاد الذين يفسدهم المال ويشجعهم على سوء الفعال.

والواقع أن السفهاء تشمل جميع السفهاء ، من صبى ويتيم وزوجة صغيرة ..

فالمسألة ليست خاصة ، بل الآية دستور عام ينادى جميع الناس، حاكمين ومحكومين ، وأوصياء وآباء.

والمراد بالسفهاء كل من لا يحسن المحافظة على ماله لصغره، أو لضعف عقله، لسوء تصرفاته سواء أكان من اليتامى أم من غيرهم.

٢ – يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز :

كأنه يقول المال وإن كان ملكا لزيد وعبيد ، إلا أنه حق للدولة، فالجماعة مسئولة عن إضاعة هذه الأموال، أى الأمر عام ، أيها الولى على الدولة لا تولِّ وزيرا للمالية يبدد الأموال، أيها الرجل المضارب لا تدفع مالك إلى مبدد مبذر.

فالمجموع موزع على المجموع ، والغرض منه الوحدة والتكافل (١٩٧).

٣ – عنى الإسلام بالمحافظة على المال وتثميره ، وحث القرآن على العمل واكتساب الرزق، وبين أن المال قوام الحياة، فقال : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا .

وهى من أعجب الأوامر التى تأتى فى دستور روحى، وفيها أعظم وصية لتثمير المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحياة.

وليس ذلك بغريب عن روح القرآن ، فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة ، والصادر والوارد فى قوله سبحانه : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا. (البقرة : ٢٨٢).

٤ – قال القرآن : وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .

أى اجعلوا الأموال مكانا لرزقهم وكسوتهم ، وذلك بالاتجار فيها ، واستثمارها فتكون نفقتهم من غلتها وربحها ، لا من أصل المال ، وهذا هو سر التعبير فيها ولم يقل : منها .

روى الترمذى أن رسول الله – ﷺ – قال : « ألا من ولى يتيما له مال فليتجر فيه ، ولا يتركه حتى تأكله الصدقة » (١٩٨).

٥ – القول المعروف يرفع الروح المعنوية للسفيه ، ويخلق عنده الأمل فى أن يسترد ماله وصحته وإنسانيته.

والمعروف كلمة عامة تشمل كل ما عرف حسنه ، وكل ما يناسب حال السفيه ، من كلمة حانية أو عطف ومودة ، أو بشاشة ورحمة، أو زرع الأمل والثقة فى المستقبل ، مثل أن يقول : المال مالك ، وما أنا إلا حارس أحفظه لك من الضياع ، وعند الكبر- أو الرشد أو التدبر للأمر - أرده إليك وتصبح أنت كامل التصرف مطلق الحرية، ونحو ذلك من العبارات التى تزيل اليأس والقنوط، وتغرس الأمل والرجاء.

٦ – تفيد الآية وجوب العناية بالأموال وتثميرها ، وتيسيرها إفادة الناس بها ، يقول الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : (فليس لأحد أن يقول مالى مالى ، هو مالى وحدى لا ينتفع به سواى ، فالمال مال الجميع ، والمال مال الله ينتفع به الجميع عن الطريق الذى شرعه الله فى سد الحاجات ، ودفع الملمات ، وهو ملك لصاحبه يتصرف فيه، لا كما يشاء ويهوى بل كما رسم الله ، وبيَّن فى كتابه، حتى إذا ما أخل بذلك فأسرف وبذر أو ضن وقتر حجر عليه ، أو أخذ منه – قهرًا عنه – ما يرى الحاكم أخذه من مثله) (١٩٩).

٧ – من الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة ، وجوب الحجر على السفهاء ، وجوب إقامة الوصى والولى والكفيل على الأيتام والصغار ومن فى حكمهم ، ممن لا يحسنون التصرف (٢٠٠).



﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

وابتلوا : الابتلاء: الاختبار والتجربة.

بلغوا النكاح : أى بلغوا سن النكاح ، أو بلغوا الحلم وهو حد التكليف ، وقدر بخمسة عشر عاما.

آنستم : أبصرتم وتبينتم.

رشدا : حسن تصرف فى الأموال.

إسرافا : الإسراف : مجاوزة الحد المعتاد فى التصرف.

بدارا : البدار : المسارعة فى الشيء.

أى لا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين كبرهم ، أى مسرعين فى تبذيرها قبل أن يكبروا فيتسلموها منكم.

فليستعفف : العفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، والمراد فليتنزه عن الأكل من مال اليتيم.

التفسير :

٦ - وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ... الآية.

أى عليكم - أيها الأولياء والأوصياء - أن تختبروا اليتامى، وذلك بتتبع أحوالهم فى الاهتداء إلى ضبط الأمور وحسن التصرف فى الأموال، وبتمرينهم على ما يليق بأحوالهم، حتى لا يجيء وقت بلوغهم إلا وقد صار فى قدرتهم أن يصرفوا أمورهم تصريفا حسنا، فإن تبينتم منهم رشدا بعد البلوغ، وهداية إلى حسن التصرف وحفظ الأموال، فادفعوا إليهم أموالهم، من غير تأخير عن حد البلوغ.

ولا تأكلوها مسرفين فى الأكل، ومبادرين بالأخذ، خشية أن يكبروا فينتزعوها من أيديكم.

ومن كان من الأوصياء على اليتامى غنيا فليتعفف عن الأكل من أموالهم ، وليبالغ فى إعفاف نفسه، وإبعادها عن أخذ شيء من مال اليتيم ، ومن كان فقيرًا فليأخذ من مال اليتيم بقدر حاجته ، من سد الجوع وستر العورة لا يزيد عن ذلك.

فإذا سلمتموهم أموالهم فليكن ذلك أمام شهود ، إثباتا للحق وحماية لأنفسكم، وتأكيدا لحفظ مال اليتيم.

والله من ورائكم هو المحاسب والمراقب ، وكفى به حسيبا ومراقبًا .

فى رحاب الآية :

١ - **عنى القرآن بتربية اليتيم وكفالته ورعايته وتكوين شخصيته** ؛ لأنه فرد من أفراد الأمة والأمة مجموعة أفراد ، وقد أمر فى الآية السابقة بالقول المعروف معه، والتوجيه السديد، وفى هذه الآية حث على التدريب العملى بالاختبار، كأن تسأله أنا اشتريت هذا الثوب كم يساوى؟ فإذا توسم الوصى فيه الخير أعطاه قليلا من المال ليتصرف فيه حتى إذا بلغ الحلم وآنس فيه الرشد دفع إليه المال، وقد علق دفع المال على شرطين، البلوغ والرشد، فإذا رشد وهو صغير لا يدفع إليه حتى يكبر، والكبر وحده لا يكفى بل لابد من الكبر مع الرشاد، والرشد عند كثير من المفسرين يكون فى المال والدين والخلق.

يقول الأستاذ محمود شلتوت شيخ الأزهر الأسبق :

وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ . يأمر باختبارهم وتدريبهم على التصرف ، والقيام على بعض الشئون لينظر أيحسنون آم يسيئون ؟ فإذا أحسنوا وسعت لهم دائرة الاختبار ، وإذ أساءوا أرشدوا وعلموا ، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، وإذ أساءوا أرشدوا وعلموا، تأمر الآية باختبارهم على هذا النحو ، حتى يصلوا إلى درجة الرشد، وتعرف قدرتهم على ضبط الأموال وحسن التصرف، فتسلم أموالهم إليهم ليباشروا شئونها بأنفسهم، ويدخلوا بها فى معترك الحياة [٢٠١].

حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ الفاء فى قوله : فَادْفَعُوا . واقعة فى جواب الشرط : فَإِنْ آنَسْتُم . والشرط وجوابه واقع جواب إذا .

* * *

٢ - سن البلوغ :

ظاهر الآية يدل على أن أموال اليتامى لا تدفع إليهم إلا إذا بلغوا راشدين.

والبلوغ إما بالاحتلام للذكور ، وبالحيض للإناث، وإما بالسن وهو عند الشافعى والحنابلة ١٥ سنة ، وعند المالكية ١٧ سنة .

وفرق الحنفية بين الذكور والإناث فجعلوه للذكور ١٨ عامًا، وللإناث ١٧ عامًا ، وكل ذلك بالحساب القمرى.

فإذا بلغ غير رشيد فلا يسلم له ماله عند جمهور الفقهاء.

وقال أبو حنيفة : يسلم له إذا بلغ ٢٥ سنة وإن يثبت رشده، لأنه يصلح أن يكون جدا، وهو يستحى أن يحجر على مثله.

* * *

٣ - أجرة الوصى :

اختلف العلماء حول قوله سبحانه :

وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

١ - منهم من قال إن هذه الآية مع شدتها منسوخة بقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً . (النساء : ١٠).

٢ - ومنهم من يرى أن الآية غير منسوخة ولكنها أرشدت الغنى إلى العفة عن مال اليتيم، وأن يقصد بعمله ورعايته وجه الله.

وأباحت للفقير أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه من مال اليتيم قرضا، ثم إذا أيسر قضاه ، وإن مات ولم يقدر على القضاء بأن كان معسرًا فلا شيء عليه [٢٠٢].

وعن عمر : يأخذ الوصى الفقير ما يسد جوعته ، ويوارى سوأته، ثم إذا استغنى رد ما أخذ.

وعن عمر : ألا إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة ولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن احتجت استقرضت، فإذا أيسرت قضيت.

٤ - الوصى له حالتان :

أن يكون وليا فعليا ، يتصرف فى مال اليتيم ويرعى شئونه، محاسبا أو وكيلا، أو راعيا فبقدر ما يؤجر به نفسه يأخذ من مال اليتيم.

أو أنه ما دام سلم نفسه لليتيم يرعى أمره فليأخذ ما يكفيه وما ينفق به على نفسه.

كالقاضى فى مال الدولة فإنه يأخذ المال والمرتب وإن كان غنيا، ورد هذا القول بأن هناك فرقا بين المقامين.

فالقاضى يأكل من مال الدولة وهو مال عام ، والوصى هنا يأكل من مال خاص.

والرأى الأخير أمثل الآراء ، فالوصى إن شغل بمال اليتيم ورعايته فله الأكل بالمعروف زائدا على أجرته إن كان فقيرا، وله الأجر فقط إن كان غنيا.

يقول الإمام فخر الدين الرازى :

اختلف العلماء فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم أم لا ؟.

فمنهم من يرى أن للوصى أن يأخذ من مال اليتيم بقدر أجر عمله ... لأن الوصى لما تكفل بإصلاح مهمات الصبي، وجب أن يتمكن من أن يأكل من ماله بقدر عمله قياسا على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها، فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم وكذا هنا ..

٥ - الإشهاد عند تسليم المال لليتيم :

أمر الله بالإشهاد عند تسليم أموال اليتامى إليهم، كما أمر بالإشهاد عند كتابة الدين، فقال : وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ . (البقرة : ٢٨٢) .

والإشهاد يكون فى الأمور الهامة ، وفى الأمور المالية بالذات منعا للخصومات والمنازعات ، وإبراء لذمة الأوصياء، ولكى يكون اليتامى على بينة من أمرهم.

وقد ذهب الشافعية والمالكية والحنابلة إلى أن الإشهاد واجب عند تسليم اليتيم ماله ، لقوله تعالى : فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ . وهو أمر وظاهر الأمر أنه للوجوب ، وليس معنى الوجوب هنا أن الوصى يأثم إذا لم يشهد ، بل معناه أن الإشهاد لابد منه فى براءة ذمته، بأن يدفع لليتيم ماله أمام رجلين أو رجل وامرأتين ، حتى إذا دفع المال ولم يشهد ثم طالبه اليتيم فحينئذ يكون القول ما قاله اليتيم بعد أن يقسم على أن الوصى لم يدفع إليه ماله.

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الأمر فى قوله تعالى : فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ . للندب، وأن الوصى إذا ادعى ذلك يصدق ويكتفى فى تصديقه بيمينه، لأنه أمين لم تعرف خيانته ، إذ لو عرفت خيانته لعزل.

٦ - ختام الآية :

قال سبحانه : فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا .

يعنى أنكم قد تبرؤون أمام القضاء، ولكن الله دقيق فى حسابه ورقابته لا تخفى عليه خافية فراقبوا الله قبل رقابة القضاء.



المواريث

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

سبب النزول :

جاء فى تفسير ابن كثير : قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله : لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ .... الآية.

أى الجميع فيه سواء فى حكم الله - تعالى - يستوون فى أصل الوراثة، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من زوجية أو قرابة.

وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتت أم كحة إلى رسول الله - ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شىء، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

* * *

٧ - لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا .

والمعنى :

للذكور نصيب مما تركه الوالدان والأقربون ، أى مما تركه آباؤهم وأمهاتهم وأقاربهم ، كالإخوة والأخوات، والأعمام والعمات.

وللإناث نصيب مما تركه آباؤهن وأمهاتهن وأقاربهن.

والمقصود من الآية إثبات حق النساء فى الميراث ، سواء أكانوا صغارا أم كبارا وإثبات حق الذكور فى الميراث كبارًا كانوا أم صغارا .

وبهذا، بطل ما كان عليه أهل الجاهلية من توريث البالغين من الرجال فقط ، حيث جعل للجميع حظا ونصيبا فى الإرث.

وكان يكفى أن يقال : لكل واحد نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، ولكنه - تعالى - شاء أن يفصل فيجعل للرجال نصيبا ، وللنساء نصيبا ، مما تركه الوالدان والأقربون ، إيذانا بأصالة النساء فى استحقاق الميراث، ومنعا من صرف هذا المجمل إلى الرجال وحدهم، على ما كانت عليه عادة الجاهلية ، ومبالغة فى إبطال هذه العادة الظالمة .

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . سواء أكانت التركة كثيرة أم قليلة ، عقارًا أو منقولاً ، فلا يحق لبعض الورثة أن يستأثر ببعض الميراث دون الآخرين .

وتقديم القليل على الكثير - فى الآية - للتنبيه على وجوب دخوله فى الميراث بين المستحقين ، لأنه مظنة التهاون فيه .

نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . نصيبًا مقطوعًا فرضه الله بشرعه العادل وكتابه المبين ، فلا سبيل إلى التهاون فيه ، بل لا بد من إعطائه لمن يستحقه كاملاً غير منقوص .

* * *

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

المفردات :

أولو القربى : أصحاب القرابة غير الوارثين.

فارزقوهم منه : فأعطوهم من المال الموروث.

التفسير :

٨ - وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ . ممن لا نصيب لهم فى الميراث ، واليتامى الذين فقدوا العائل والنصير، والمساكين الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم وصاروا فى حاجة إلى العون والمساعدة.

فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ . اى فأعطوهم من الميراث الذى تقتسمونه، شيئًا يعينهم على سد حاجتهم ، وتفريج ضائقتهم.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا . اى قولاً لينا جميلا، مثل : وددنا لو أعطيناكم أكثر من هذا ، ومن القول المعروف دعاؤكم لهم بالبركة، وعدم منكم عليهم.

وليس المراد من حضور ذوى القربى واليتامى والمساكين ، أن يكونوا مشاهدين للقسمة ، جالسين مع الورثة، لأن قسمة الأموال لا تكون عادة عند حضور هؤلاء الضعفاء ، وإنما المراد من حضورهم العلم بهم من جانب الذين يقتسمون التركة ، والدراية بأحوالهم ، وأنهم فى حاجة إلى العون والمساعدة.

ويتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ - يرى بعض العلماء أنه للوجوب ، لأنه هو المستفاد من ظاهر الأمر ، ويرى كثير من العلماء أن هذا الأمر بالإعطاء للندب لا للوجوب ، وأن هذا الندب إنما يحصل إذا كان الورثة كبارا، وأما إذا كانوا صغارا فليس على أوليائهم إلا القول المعروف.

وقد رجح القرطبى كون الأمر للندب لا للوجوب ، (وجمهور فقهاء الأمصار على أن هذا الإعطاء على سبيل الاستحباب) (٢٠٣).

٢ - هل هذه الآية منسوخة أم محكمة ؟

من العلماء من قال : إن هذه الآية قد نسخت بآية الموارث التى بعدها ، وهى قوله تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ... .

فجعل الله لكل إنسان نصيبه مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة (٢٠٤).

ومن العلماء من ذهب إلى أن هذه الآية محكمة وليست بمنسوخة، وفى البخارى عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : هى محكمة وليست بمنسوخة(٢٠٥).

وفى تفسير القرطبى عن ابن عباس قال : إن ناسا يزعمون أن هذه الآية قد نسخت ، لا ، والله ما نسخت ولكنها مما تهاون به الناس (٢٠٦).

وعن الحسن كانوا يعطون التابوت والأوانى ، ورث الثياب ، والمتاع الذى يستحى من قسمته .

وعن يحيى بن يعمر (٢٠٧) ثلاث آيات محكمات تركهن الناس (٢٠٨)، هذه الآية ، وآية الاستئذان ﴿ يا أيُّها الّذين آمَنُوا لِيستَأْذِنكُمُ الَّذينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ منكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ... ﴾ . (النور : ٥٨) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .. ﴾ . (الحجرات : ١٣) .

ومن المفسرين من رجح أن هذه الآية لا تعارض بينها وبين آية المواريث ، لأن هذه الآية إنما تأمر بما يؤدى إلى التعاطف والتراحم بين الناس ، وهذا أمر لا ينسخ ، بل هو ثابت فى كل زمان ومكان.

ثم إنّ هذه الآية الأمر فيها على سبيل الندب والاستحباب، لا على سبيل الفرض والإيجاب (٢٠٩).



﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

المفردات :

وليخش : الخشية : الخوف والحذر.

قولاً سديدا : عدلا وصوابا.

خلاصة معنى هذه الآية : عاملوا اليتامى بمثل ما تحبون أن يُعامل به أولادكم من بعدكم.

والآية وصية إلى الأولياء برعاية اليتامى رعاية أبوية مخلصة ، فيها الحنان ، والعطف والمحافظة على مال اليتيم ، وقد لمس القرآن شغاف القلوب، قلوب الآباء المرهفة الحساسية ، بتصور ذريتهم الضعاف مكسورى الجناح، لا راحم ولا عاصم كى يعطفهم هذا على اليتامى، الذين وكلت إليهم أقدارهم ، بعد أن فقدوا الآباء ، فربما تعرض أبناؤهم غدا لمثل هذا الموقف ، فليعاملوا اليتامى بمثل ما يرغبون أن تعامل به أبناؤهم من بعدهم.

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . فليتقوا الله فى كل شأن من شئونهم ، وفى أموال اليتامى فلا يعتدوا عليها، وليقولوا لليتيم ما يقوله الوالد لولده ، من القول الجميل ، والهادى له إلى حسن الآداب، ومحاسن الأفعال.

والسديد : المصيب العدل الموافق للشرع.

يقول الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

وفى الآية الكريمة ما يبعث الناس كلهم على أن يغضبوا للحق، وأن يأخذوا على أيدى أولياء السوء، وأن يحرسوا أموال اليتامى ، ويبلغوا حقوق الضعفاء إليهم ، لأنهم إن أضاعوا ذلك يوشك أن يلحق أبناءهم وأموالهم مثل ذلك وأن يأكل قويهم ضعيفهم ، فإن اعتياد السوء ينسى الناس شناعته ، ويكسب النفوس ضراوة على عمله (٢١٠).



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

يأكلون فى بطونهم نارا : أى يأكلون ما يؤدى بهم إلى النار ، ليعاقبوا فيها على ما أكلوه.

وسيصلون سعيرا : أى وسيدخلون نارا هائلة ، من صلى النار- بكسر اللام - أى قاسى حرها، والسعير: النار الموقدة ، من سعرت النار أوقدتها.

التفسير :

تحدثت السورة عن اليتيم ، وحذرت من أكل ماله بالباطل ، وكشفت الحيل والألاعيب التى يلجأ إليها الأوصياء: نجد ذلك فى الآية الثانية والثالثة ، والسادسة ، والثامنة والتاسعة من سورة النساء .

وفى هذه الآية العاشرة تأكيد لما سبق ، وتحذير من أكل مال اليتيم ظلما وعدوانا ، وساقت ذلك فى صورة حسية مفزعة ، صورة النار فى البطون ، وصورة السعير فى النهاية ..

« إن هذا المال - مال اليتيم - لهو نار ، وإنهم ليأكلون هذه النار . وإن مصيرهم لإلى السعير ، فهى النار إذن تشوى البطون والجلود ، هى النار إذن من باطن وظاهر .. هى النار مجسمة فى هذا المشهد تكاد تحسها البطون وتكاد تراها الأبصار » (٢١١).

« وقد أكد الله الوعيد فى أكل مال اليتيم ، رحمة من الله - تعالى - باليتامى لأنهم لكمال ضعفهم وعجزهم استحقوا من الله مزيد العناية والكرامة ، وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته ، وكثرة عفوه وفضله ، لأن اليتامى لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى، بلغت عناية الله بهم إلى الغاية القصوى » (٢١٢).

وفى أسباب النزول للواحدى ، وتفسير القرطبى والكواشى ، أن هذه الآية نزلت فى رجل من غطفان يقال له : مرثد بن زيد ، ولى مال ابن أخيه وهو يتيم صغير فأكله ، فأنزل الله – تعالى – فيه : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا . أى بغير حق إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا . أى المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار :

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا . أى سيدخلون النار المستعرة ، يقاسون حرها ويشتوون بحريقها.

قال تعالى فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى. (الليل : ١٤ ، ١٥) . تقول : صليت اللحم إذا شويته ، فإن أردت أنك أحرقته قلت أصليته (٢١٣).

وللمفسرين فى تفسير قوله تعالى : إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نارا . اتجاهان :

أولهما : أن الآية على ظاهرها ، وأن الآكلين لمال اليتامى ظلما سيأكلون النار يوم القيامة .

واستدلوا بقوله – ﷺ – : « يبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا . قيل ، يا رسول الله ، من هم ؟ قال : ألم تر أن الله قال : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا .. (٢١٤).

وثانيهما : أن الكلام على المجاز لا على الحقيقة ، وأن المراد إنما يأكلون فى بطونهم المال الحرام الذى يفضى بهم إلى النار.

وقد أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وغيرهم أنه لما نزلت هذه الآية انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله – ﷺ – فانزل الله تعالى وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .. . الآية . (البقرة : ٢٢٠) . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم (٢١٥).

قال الفخر الرازى : ومن الجهال من قال : صارت هذه الآية منسوخة بتلك وهو بعيد ، لأن هذه الآية فى المنع من الظلم ، وهذا لا يصير منسوخًا ، بل المقصود أن مخالطة أموال اليتامى إن كانت على سبيل الظلم فهى من أعظم أبواب الإثم كما فى هذه الآية ، وإن كانت على سبيل التربية والإحسان فهى من أعظم أبواب البر، كما فى قوله تعالى : وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ .. (٢١٦). (البقرة : ٢٢٠) .

دعوى باطلة :

يدعى بعض المغرضين أن القرآن لم يهتم بالصغار .. وهذه دعوى باطلة ، فقد عنى القرآن باليتيم وحث على إكرامه ورعايته ليكون عضوا صالحا فى المجتمع . وكانت التربية تتم بالقدوة والأسوة ، وفى سورة لقمان وصايا حكيم لابنه ، وفى آيات كثيرة نجد وصية للآباء برعاية أبنائهم وحسن توجيههم ، ووقايتهم من النار ، وأمرهم بالصلاة ، وكذلك فى السنة المطهرة .

وقد ادعى بعض المغرضين أن التشريع الإسلامى مأخوذ عن التشريع الرومانى ، وهذه دعوى باطلة لما يأتى :

١ - التشريع الرومانى مأخوذ عن الألواح الاثنى عشر ، والتشريع الرومانى فى سوريا وما جاورها نظر إلى العرف السائد فدونه، وكان يرجع إليه كقانون ، وأحيانًا يقضى القضاء بمقتضى العرف بدون قانون . فكيف يؤخذ من تدوين عرف لشريعة نزلت كاملة شاملة.

٢ - علماء الغرب أنفسهم يعترفون بانفراد القرآن الكريم بالحديث عن اليتيم ، وإفاضة القول فى الوصية به ، فالقانون الرومانى يهدف إلى أن يأخذ الوصى نصيب الأسد. بينما القانون الإسلامى على النقيض من ذلك كله ، توصية باليتيم ، وتحذير من أكل ماله بشتى الطرق، ولم يجعل للوصى الحق فى أخذ شىء من المال إلا إذا كان فقيرًا فليأكل بالمعروف.

من هدى السنة :

١ - فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[٢١٧].

٢ - روى البخارى وغيره عن سهل بن سعد عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهذا ». وقال بأصبعيه السبابة والوسطى ، وأشار وفرج بين أصبعيه السبابة والوسطى[٢١٨].

وكان سلوك النبى الكريم قدوة حسنة فى رعاية اليتامى وكفالتهم، ليكونوا لبنة صالحة لا يحقدون على المجتمع ، ولا يضمرون الشر لمن ظلم، ونجد الوصية باليتيم فى القرآن المكىّ والمدنىّ.

فمن القرآن المكى قوله تعالى : ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ . (الإسراء : ٣٤) .

وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ . (الضحى : ٦-١١) .

ومن القرآن المدنى ، ما ورد فى الآيات العشر الأولى من سورة النساء وفيها وصايا متكررة باليتيم.

ومن القرآن المدنى قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (البقرة : ٢٢٠).

★ ★ ★

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ
فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ
لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ
لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾
۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ
وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ
وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ
فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ
رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن
كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

المعنى العام للآية ١١ :

يأمركم الله فى شأن توريث أولادكم وأبويكم - إذا متم - بما يحقق العدل والإصلاح ، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين إذا كان الأولاد ذكورا وإناثا، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنين فلهن الثلثان من التركة، ويفهم من مضمون الآية أن الثنتين نصيبهما كنصيب الأكثر من ثنتين ، وإن ترك بنتا واحدة فلها نصف ما ترك ، وإن ترك أبا وأما فلكل واحد منهما السدس ، وإن كان له ولد معهما ، ولد ذكر أو أنثى فإن لَم يَكُن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ . فقط فلأمه الثلث والباقى للأب ، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقى للأب، ولا شىء للإخوة ، تعطى هذه الأنصبة لمستحقيها ، بعد أداء ما يكون عليه من دين وتنفيذ ما وصى به ، هذا حكم الله فإنَّه عدل ورحمة ، وأنتم لا تدرون الأقرب لكم نفعا من الآباء والأبناء، والخير فيما أمر الله ، فهو العليم بمصالحكم الحكيم فيما فرض لكم.

المعنى العام للآية ١٢

للزوج نصف ما تركت الزوجة إن لم يكن لها ولد منه أو من غيره ، فإن كان لها ولد فلزوجها الربع ، من بعد وصية توصى بها أو دين ، وللزوجة - واحدة أو متعددة - الربع مما ترك الزوج إن لم يكن له منها أو من غيرها ولد ، فإن كان له ولد فللزوجة الثمن ، من بعد وصية يوصى بها أو دين ، وولد الابن كالولد فيما تقدم .

وإن كان الميت رجلاً أو امرأة ولا ولد له ولا والد ، وترك أخا لأم أو أختا لأم ، فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث يستوى فى ذلك ذكرهم وأنثاهم بمقتضى الشركة ، من بعد أداء الديون التى عليه ، وتنفيذ الوصيَّة التى لا تضرّ الورثة ، وهى التى لا تتجاوز ثلث الباقى بعد الدين ، فالزموا - أيها المؤمنون - ما وصاكم به الله ، فإنه عليم بمن جار أو عدل منكم ، حليم لا يعاجل الجائر بالعقوبة (٢١٩).

المواريث فى الإسلام :

نظام المواريث الذى بيَّنه القرآن الكريم أعدل نظام للتوريث عرف فى كل القوانين ، وقد اعترف بذلك علماء القانون فى أوروبا ، وهو دليل على أن القرآن من عند الله ، إذ إنه لم يكن مثله ولا قريب منه معروف عند الفرس ولا عند الرومان ، ولا فى أىّ شريعة أخرى قبله .

وقد اتبع النظم العادلة الآتية :

١ - أنه جعل التوريث بتنظيم الشارع لا بإرادة المالك ، من غير أن يهمل هذه الإرادة ، فقد جعل له الوصية بالمعروف فى الثلث، ليتدارك الإنسان تقصيرا دينيا فاته ، مثل أداء الزكاة ، وإعانة الفقراء والمحتاجين من الأقارب الذين لا يستحقون ميراثا.

٢ - فى توزيع الميراث يعطى الأقرب فالأقرب من غير تفرقة بين صغير وكبير ، ولذلك كان الأولاد أكثر حظا من غيرهم فى الميراث، لأنهم امتداد لشخص المالك ، ولأنهم فى الغالب ضعاف، ومع ذلك لم يستأثروا بالميراث، بل تشاركهم الأم والجدة ، والأب والجدّ وإن كانوا يأخذون نصيبا أقل من الأولاد.

٣ - أنه يلاحظ فى التوريث مقدار الحاجة ، فالأولاد مقبلون على الحياة ؛فلذلك كان نصيبهم أكبر ، والآباء مدبرون عنها ولذلك نصيبهم أقل.

٤ - اتجه الشارع فى الميراث إلى توزيع التركة دون تجميعها ، فلم يجعلها للولد البكر ، ولم يجعلها للأولاد دون البنات ، ولا للأولاد دون الآباء ، ولم يحرم من ليسوا من عود النسب كالإخوة والأعمام وأبناء الأعمام وإن بعدوا ، فالميراث يمتد إلى ما يقارب القبيلة ولكن يأخذ الأقرب فالأقرب.

٥ - لم يحرم المرأة من الميراث كما كان يجرى عند العرب ، بل جعل لها حقا معلوما يتناسب مع واجباتها، فالمرأة إذا كانت بنتا فهى فى كفالة أبيها ، وإذا كانت زوجة فهى فى كفالة زوجها ، وعلى زوجها النفقة عليها وعلى أولاده منها ، فكان من العدالة أن يكون الغنم بالغرم ، وأن يكون ميراث البنت على مقدار النصف تقريباً من نصيب الابن. وهذا من عدالة الإسلام فهو لم يحرم المرأة ، ولم يسوّ بينها وبين الرجل ، بل أعطاها النصف،

وجعل لأخيها ضعف نصيبها ، لأن أخاها سيتزوج ويفتح بيتا وينفق على زوجته وأولاده، أما هى فدورها ونصيبها فى أنها يجب لها المهر والنفقة والكسوة والسكنى ، وكلّ تكاليف الحياة لها ولأولادها فريضة على زوجها . قال تعالى : لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ . . . (الطلاق : ٧).

المستحقون للتركة :

تحدثت هاتان الآيتان ١١، ١٢ من سورة النساء عن الميراث ونصيب كل وارث ، كما تحدثت الآية الأخيرة من سورة النساء عن ميراث الكلالة [٢٢٠] ، فإذا انضم إلى هذه الآيات الثلاث، الأحاديث الواردة فى الميراث أدركنا نصيب المستحقين للتركة، وأصحاب الفروض وهم : الزوج، والزوجة والبنات ، وبنات الابن ، والأب والجد الصحيح، والأمّ ، والجدة الصحيحة ، والأخوات الشقيقات والأخوات لأب، والجد مع الإخوة ، وأولاد الأم.

ومن المستحقين للتركة ، العصبة النسبية ، وهم كل من يأخذ ما بقى من التركة بعد إلحاق الفرائض بأهلها، ويجوز جميع التركة عند الانفراد.

ومنهم العاصب بنفسه ، وهو كل ذكر لم يدخل فى نسبته إلى الميت أنثى، ولا يحتاج فى عصوبته إلى غيره، وهو منحصر فى جهات أربع :

١ - جهة البنوة ، كالابن ، وابن الابن وإن نزل.

٢ - جهة الأبوة كالأب والجد وإن علا.

٣ - جهة الأخوّة كالأخ الشقيق وابنه ، والأخ لأب وابنه .

٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق ، وابنه ، وعمّه لأب وابنه .

* * *

أصحاب الفروض :

أصحاب الفروض كل من له سهم مقدر فى كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - أو بالإجماع ، وهم اثنا عشر:

الزوجان ، واثنان من الفروع : البنت وبنت الابن.

وأربعة من الأصول : الأب والجدّ، والأم والجدة .

وأربعة من الحواشى وهم : الأخت الشقيقة أو لأب ، أو لأم ، والأخ لأم.

وهذا بيان لنصيب كل وارث من هؤلاء.

١ - الزوج :

للزوج حالان :

١ - أن يأخذ النصف وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوجة مذكرًا أو مؤنثا من هذا الزوج أو من غيره . كالابن وابن الابن والبنت وبنت الابن.

٢ - أن يأخذ الربع عند وجود الفرع الوارث مذكرا أو مؤنثا [٢٢١].

٢ - الزوجـــة :

للزوجة حالان :

١ - أن تأخذ الربع ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج مذكرا أم مؤنثا، من هذه الزوجة أم من غيرها .

٢ - أن تأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا [٢٢٢].

٣ - البنـــات :

للبنات ثلاث حالات :

١ - أن يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما تبقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين.

٢ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا لم يكن معها أخ ولا أخت .

٣ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن [٢٢٣].

٤ - بنات الابن :

لبنات الابن ست حالات ، الثلاث التى للبنات عند عدم البنات والأبناء ويزاد عليها ما يأتى :

١ - أن تحجب بالبنتين إلا إذا كان بحذائها أو أنزل منها غلام فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى .

٢ - أن تحجب بكل غلام أعلى منها درجة، فبنت الابن تحجب بالابن... وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا .

٥ - الأب [٢٢٤] :

للأب ثلاث حالات :

١ - أن يأخذ السدس بالفرض فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل وحده أم مع غيره.

٢ - أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون المذكر .

٣ - أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا ، والأب لا يحجب من الميراث بحال.

٦ - الجدُّ الصحيح :

هو كل أصل مذكر لا تدخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأب، وأبى أب الأب، فإن دخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأم وأبى أم الأب، فهو الجد الفاسد، وهو من ذوى الأرحام .

و الجد الصحيح كالأب عند عدم الأب.

٧ - الأم [٢٢٥] :

للأم ثلاث حالات :

١ - أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة أو الأخوات من أى نوع .

٢ - أن تأخذ ثلث التركة إذ لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من نفس الأخوة أو الأخوات ، لا من فروعهم .

٣ - أن تأخذ ثلث الباقى بعد نصيب أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب وأحد الزوجين، وليس معها فرع وارث ، ولا جمع من الإخوة والأخوات . .

٨ - الجدة الصحيحة :

هى كل أصل مؤنث لا يدخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبته إلى الميت جد فاسد، كأم أبى الأم ، فهى الجدة الفاسدة ، وهى من ذوى الأرحام .

وتأخذ الجدة السدس، وتحجب بالأمّ، سواء أكانت الجدة أبوية أم أمية وتحجب الأبوية بالأب.

٩ - الأخوات الشقيقات :

للأخوات الشقيقات خمس حالات :

١ - أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت.

٢ - أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق .

٣ - أن يرثن بالتعصيب بالغير ، إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما بقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين.

٤ - أن يرثن بالتعصيب مع الغير ، وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر، فلهن ما يبقى بعد أصحاب الفروض.

٥ - أن يحجبن بالفرع الوارث المذكر، وهو الابن وإن نزل.

١٠ - الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياسا على بنات الأبناء مع بنات الصلب.

فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات .

١١ - أولاد الأم [٢٢٦] :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

١ - أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكرا كان أم مونثا.

٢ – أن يأخذ الاثنان فأكثر الثلث : يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكورًا فقط أم إناثا أم ذكورا وإناثا.

٣ – الحجب بالفرع الوارث مذكرا أم مؤنثا، وبالأصل الوارث المذكر أبا أو جدا، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها.

* * *

مبادئ فى التوريث :

نستطيع أن نستخلص من آيات المواريث المبادئ الآتية :

١ – مبنى التوريث فى الإسلام أمران : نسبى وهو القرابة ، وسببى وهو الزوجية.

٢ – متى اجتمع فى المستحقين ذكور وإناث، أخذ الذكر ضعف الأنثى، إلا فى الإخوة الأم ، فإنهم يستوون فى النصيب ، لأنهم يدلون إلى الميت بالأم . وهم سواء فى الانتساب إليها .

٣ – الأبناء و الزوجان والأبوان لا يسقطون فى أصل الاستحقاق ، وإن كان يؤثر عليهم وجود غيرهم فى كمية المستحق.

٤ – لا إرث للإخوة والأخوات مع وجود الأبوين ، وإن كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس ، لأن وجود عدد من الإخوة يثقل كاهل الأب. فاستحق زيادة فى الميراث لرعايتهم وكفالتهم.

٥ – يجب تقديم حقوق الميت على تقسيم التركة ، قال تعالى : مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ . وقد تكررت فى الآيتين ١١و ١٢ من سورة النساء أربع مرات لتنبيه الأذهان إلى وجوب العناية بأمرين قبل تقسيم التركة.

الأول : أداء الديون التى على الميت .

الثانى : تنفيذ وصيته فى حدود ثلث ماله .

٦ – لا ينبغى للإنسان أن يسىء إلى ورثته حين مشارفته الموت ، بالوصية لمن ليس محتاجًا إليها، أو الإقرار بما ليس ثابتا عليه ، وورثته فى حاجة إليه ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ. وقوله: وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ . اى يوصيكم الله أن تنفذوا أحكامه وأن تبعدوا عن الإضرار بالورثة ، أو حرمان البنات ، أو تفضيل بعض الأولاد على بعض ، أو منع بعض العصبة من أخذ حقوقهم ، تحت ستار البيع والشراء، أو تحت ستار الوصية أو الاعتراف بالديون .

وجدير بالمؤمن ألا يختم حياته بوزر عظيم، يفرط بسببه فى تنفيذه الأحكام التى فرضها الله ، فالله عليم حكيم فيما شرع ، وعلينا أن ننفذ أحكامه وأن نخضع لأوامره، ففى ذلك عز الدنيا وشرف الآخرة .



﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)﴾

المفردات :

حدود الله : شرائعة وأحكامه ، وقد أطلق عليها الحدود لشبهها بالحدود والحواجز، حيث إن المكلف لا يجوز أن يتعداها إلى غيرها .

التفسير :

١٣ - تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ... الآية

المعنى العام :

هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة ، بحسب قربهم من الميت ، واحتياجهم إليه ، هى حدود له فلا تعتدوها .

وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضهم بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته .

يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ . لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، قال تعالى : لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ . (الحجر : ٤٨).

وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وهذا الجزاء هو الفوز الحقيقى البالغ العظمة، فقد حصل صاحبه على أسمى المطالب ، ونجا من كل المكاره ، ولا فوز يدنو من ذلك الفوز.

١٤ - وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

ومن خالف أمر الله ، وبدل فى حدود المواريث وغير ، فقد استهان بما فرض الله ، وجعل نفسه مشرعا ومقننا ، ولم يرتض بحكم الله .

قال ابن كثير :

أى لكونه غيَّر ما حكم الله به ، وضاد الله فى حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ؛ ولهذا يجازيه بالإهانة فى العذاب الأليم المقيم .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» [٢٢٧] قال ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم .

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

الفاحشة : معناها لغة ، الفعلة الشديدة القبح، والمراد منها هنا الزنى ، لأنه أقبح الفواحش .

فأمسكوهن : احبسوهنّ.

سبيلا : السبيل : الطريق الموصل ، سواء أكان سهلا أم صعبا.

التفسير :

١٥ - وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً

المعنى العام :

واللاتى يأتين الزنا من النساء إن شهد عليهن أربعة من الرجال العاقلين ، يمسكن فى البيوت محافظة عليهن ، ودفعا للفساد والشر حتى يأتيهن الموت، أو يفتح الله لهن طريقا للحياة المستقيمة بالزواج والتوبة.

التدرج فى التشريع :

بدأ القرآن الكريم بدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فلما استقر الإيمان فى القلوب تحدّث القرآن المكى عن الزنا وضرره، ومدح عباد الرحمن ببعدهم عنه ، وفى سورة الفرقان المكية يقول سبحانه :

وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. (الفرقان : ٦٨) .

وفى سورة الإسراء ، وهى من أواخر ما نزل بمكة، إذ نزلت قبل الهجرة بسنة وشهرين ، يقول : ولا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢).

والآية تنهى المؤمنين عن الاقتراب من الزنا، وتأمرهم بالبعد عن مقدماته ، كالقبلة واللمسة والخلوة بالأجنبية، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

وتبين أن الزنا فاحشة وذنب كبير ، يترتب عليه فساد الأنساب ، وهتك الأعراض واختلاط الذرية، وانتشار الأمراض المؤذية الفتاكة، وَسَاءَ سَبِيلاً . أى ساء مآل الزنا وعاقبته فى الدنيا والآخرة .

وفى العهد المدنى حرم الله الزنا بتدرج مناسب ، ففى العام الثانى من الهجرة نزلت الآيتان ١٥، ١٦ من سورة النساء ، وفيهما نجد الزنا جريمة اجتماعية ، ويترك عقاب الزناة للأسرة التى تتكفل بحبس الزانيات ، وإيذاء ومعاقبة الرجال الزناة ، وفى العام السادس من الهجرة أنزل الله سورة النور ، وجعل فيها الزنا جريمة جنائية ، تتولى تنفيذ عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . حيث قال سبحانه : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ . (النور : ٢) .

من مختصر ابن كثير :

كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة ، حبست فى بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال . وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ . يعنى الزنا . مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً . فالسبيل الذى جعله الله هو الناسخ لذلك .

قال ابن عباس – رضى الله عنه – كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم، وهو أمر متفق عليه .

روى مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن النبى – ﷺ – قال : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، وقد جعل الله لهن سبيلا، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » (٢٢٨).

وقد ذهب الجمهور إلى أن الثيب الزانى إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا لأن النبى – ﷺ – رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك فدل على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم والله أعلم (٢٢٩). وعند أبى حنيفة التغريب فى حق البكر منسوخ (٢٣٠) وأكثر أهل العلم على ثبوته (٢٣١).

١٦ – وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا .

المعنى العام :

والرجل والمرأة اللذان يزنيان وهما غير متزوجين ، فلهما عقوبة محددة ، إذا ثبت الزنا بشهادة شهود أربعة عدول.

قال ابن عباس : عقوبتها الشتم والتعيير والضرب بالنعال أو باليد، أى مطلق الإيذاء المناسب لهما .

فإن تابا بعد العقوبة فلا تذكروهما بما ارتكبا، ولا تعيروهما به ، إن الله يقبل برحمته توبة التائبين.

التعليق على الآية:

اختلف العلماء فى المراد بقوله : وَاللَّذَانِ .

- فمنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة البكران اللذان لم يحصنا.
- ومنهم من قال : المراد بهما الرجل والمرأة لا فرق بين بكر وثيب ، و المختار عند كثير من العلماء هو الرأى الأول .

قالوا : وقد نسخ حكم هذه الآية بآية النور ، حيث جعل حكم الزانيين اللذين لم يحصنا جلد مائة.

ومن العلماء من قال : إن هذه الآية غير منسوخة بآية النور ، فإن العقوبة ذكرت هنا مجملة غير واضحة المقدار لأنها مجرد الإيذاء، وذكرت مفصلة بينة المقدار فى سورة النور ، أى أن ما ذكر هنا من قبيل المجمل، وما ذكر فى سورة النور من قبيل المفصل ، وأنه لا نسخ بين الآيتين.

رأى أبى مسلم الأصفهانى :

لأبى مسلم الأصفهانى رأى آخر فى تفسير هاتين الآيتين ، فهو يرى أن المراد بالآية ١٥ من سورة النساء . وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ ... . إلى آخر الآية النساء السحاقات اللاتى يستمتع بعضهن ببعض، وحدهن الحبس.

والمراد بالآية ١٦ : وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ... . اللائطون من الرجال، وحدهم الإيذاء، وأما حكم الزناة فسيأتى فى سورة النور.

وقد ردَّ عليه الآلوسى ، وزيف قوله لأنه لم يقل به أحد (٢٣٢).

* * *

ومن العلماء من رجح أن هذا الحكم المذكور فى الآيتين منسوخ بعضه بالكتاب فى سورة النور ، وبعضه بالسنة فى حديث عبادة بن الصامت فى صحيح مسلم (٢٣٣).

ورجح أبو الأعلى المودودى فى تفسير سورة النور أنه لا نسخ فى هذه الآيات وأنها تمثل مرحلة معينة من باب التدرج فى التشريع.

فالزنا فى مكة لم يكن عليه عقوبة ، بل بين الله أنه فاحشة ونهى عن الاقتراب منه ، ولم يشرع أى عقوبة عليه.

وفى العام الثانى من الهجرة ، بين أن الزنا مخالفة اجتماعية، والأسرة هى المسئولة عن علاج هذه الحالة بالحبس أو الإيذاء. كما نجده فى الآية ١٥، ١٦ من سورة النساء.

فلما استقر الإسلام واشتدت دولته وحكومته ، جعل الله عقوبة الزانى الجلد وجعل الزنا جريمة جنائية تتولى عقوبتها شرطة الدولة وحكومتها . وكان ذلك فى العام السادس من الهجرة . والله أعلم.



﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

المفردات :

السوء : القبح، والمراد المعاصى مطلقًا.

بجهالة : الجهالة : الجهل والسَّفه وارتكاب ما لا يليق بالعقلاء، وليس المراد عدم العلم فإن من لا يعلم ، لا يحتاج إلى التوبة ، وقال الزجاج : الجهالة اختيارهم اللذة الفانية على اللذة الباقية.

التفسير :

١٧ - إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عليماً حَكيماً .

المعنى العام :

إنما قبول التوبة كائن أو مستقر على الله - تعالى - لعباده الذين يعملون السيئات فى حال الحماقة والطيش وعدم التبصر، ثم يبادرون بالتوبة قبل حضور الموت ، فهؤلاء يقبل الله توبتهم ، وهو عليم لا يخفى عليه صدق التوبة ، حكيم لا يخطئ فى تقدير.

التوبة فى القرآن والسنة :

فتح الله باب التوبة على مصراعيه، ودعا عباده إلى التوبة وتعهد بقبولها من التائبين ، وذلك أن كل بنى آدم خطاء، وخير الخطائن التوابون .

ولم يجعل الله وسطاء بينه وبين عباده، فقد خلقهم ورزقهم وهو أعلم بهم ، وفى القرآن الكريم آيات عديدة تحث على التوبة وتدعو إليها ، وتبين فضل الله العظيم فى قبولها.

قال تعالى : قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . (الزمر : ٥٣).

وقال سبحانه : وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . (آل عمران : ١٣٥).

وقال عز شأنه : الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ . (النجم : ٣٢).

وفى الحديث الصحيح : « ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فينادى : يا عبادى ، هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من تائب فأتوب عليه ؟ حتى يطلع الفجر..».

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله عز وجل : « يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تضلون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم ... » (٢٣٤).

* * *

التوبة من قريب :

قال تعالى :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ (٢٣٥).

ومعنى ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . أى ثم يتوبون فى زمن قريب من وقت عمل السوء، ولا يسترسلون فى الشر استرسالا ويستمرئونه، ويتعودون عليه دون مبالاة.

ولا شك أنه متى جدد الإنسان توبته الصادقة فى أعقاب ارتكابه للمعصية، كان ذلك أرجى لقبولها عند الله- تعالى - وهذا ما يفيده ظاهر الآية .

ومنهم من فسر قوله : مِن قَرِيبٍ . بما قبل حضور الموت ، وإلى هذا المعنى ذهب صاحب الكشاف، فقال: « من قريب » أى من زمان قريب ، والزمان القريب : ما قبل حضرة الموت ، ألا ترى إلى قوله : « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن .. » فبين أن وقت الاحتضار هو الوقت الذى لا تقبل فيه التوبة ، فبقى ما وراء ذلك فى حكم القريب .

وجاء فى تفسير ابن كثير ، ما يفيد أن التوبة من قريب أى قبل الموت ، ونقل من الآثار والأحاديث النبوية الشريفة ما يؤيد ذلك . فقال عن ابن عباس : ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ قال : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت.

وقال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب.

وقال قتادة والسدى : ما دام فى صحته.

وقال الحسن البصرى : ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ . ما لم يغرغر (٢٣٦).

روى الإمام أحمد عن ابن عمر عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ».

١٨ - وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

المعنى العام :

وليست التوبة مقبولة عند الله بالنسبة للذين يعملون السيئات، ويقترفون المعاصي، ويستمرون على ذلك، بدون أن يستيقظ ضميرهم أو يشعرون بالندم، إلى أن ينزل بهم الموت فيقول أحدهم : إنى أعلن التوبة الآن.

كما لا تقبل التوبة من الذين يموتون على الكفر، وقد أعد الله للفريقين عذابا أليما .

* * *

فى رحاب الآية :

نفت الآية قبول التوبة من فريقين :

١ - الذين يرتكبون السيئات صغيرها وكبيرها ، ويستمرون على ذلك بدون توب أو ندم ، حتى إذا حضرهم الموت ورأوا هوله قال قائلهم : إنى تبت الآن .

٢ - الذين يموتون وهم على غير دين الإسلام .

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم لدعوة الناس إلى التوبة فى الحياة الدنيا ، وإلى العمل الصالح ، والإنسان يملك الوقت والصحة والحياة والقدرة على العمل.

قال تعالى : وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . (المنافقون : ١٠ ، ١١).

وحين أدرك الغرق فرعون أعلن توبته مضطرًا عندما رأى شبح الموت ، وهى توبة غير حقيقية لأن الإنسان لا يملك بديلاً لها.

قال تعالى : وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ . (يونس : ٩٠-٩٢) .

وقد سئل رسول الله – ﷺ – أى الصدقة أفضل ؟ فقال : أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر، ولا تمهل حتى إذا بلغت الروح (٢٣٨) .الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد صار المال إلى فلان (٢٣٩) .

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

كرها : مكرهين بدون رضاهن.

ولا تعضلوهن : العضل : المنع والحبس والتضييق.

بفاحشة : كل ما فحش قبحه قولا أو فعلا، والمراد بها هنا: نحو الزنا والنشوز.

مبينة : واضحة ظاهرة.

التفسير :

١٩ – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .. .

فيما تقدم من آيات أبطل الله – سبحانه – عادات كانت للجاهلية ، فى شأن اليتامى وأموالهم. وميراث النساء . واستطرد الحديث، إلى وجوب الحفاظ على عفتهن وتأديبهن ، إن ارتكبن الفاحشة، استكمالا لعناصر إصلاح الأسرة.

وفى هذه الآية ، ينهى عن عادات جاهلية أخرى ، تتعلق بالنساء فى أنفسهن وأموالهن.

سبب النزول :

روى البخارى ، عن ابن عباس ، قال : « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته : إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها . فهم أحق بها من أهلها » فنزلت هذه الآية (٢٤٠).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ .

أى : لا يحل لكم – أيها المؤمنون – أن ترثوا من أقاريكم زوجاتهم بعد وفاتهم، كما تورث الأموال والعقارات. وتقولوا : نرثهن كما نرث أموالهم.

كَرْهًا . كارهات لذلك، بأن تتزوجوهن أو تزوجوهن من غيركم، بدون رضاهن، أو تمنعوهن من الزواج. كأنما تتصرفون فى أموال ورثتموها ، فإن ما كان من أفعال الجاهلية المنكرة ، لا يليق بكم – أيها المؤمنون .

وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ . أى ولا تضيعوا – أيها الأزواج – على زوجاتكم اللاتى كرهتموهن لدمامة أو سآمة وملل، وتحبسوهن لديكم ، مع سوء العشرة، ليفتدين أنفسهن منكم ببعض صداقكم لهن، فتأخذوه منهن بدون رضاهن.

إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ . أى إلا أن يرتكبن فعلة واضحة القبح ، ظاهرة الشناعة تجعلها – وحدها– المسئولة عن هدم الحياة الزوجية : كالزنا أو النشوز. وعندئذ ، يكون من العدل أن يأخذ الزوج المظلوم بعض ما أداه لها صداقًا ليخالعها عليه ، إذ هى التى هدمت بيته بظلمها وعدوانها.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . أى بما عرف فى الشرع حسنه ، من الإنفاق قدر طاقتكم، من غير إسراف، ومن القسم بالعدل، والقول اللين ، وانبساطة الوجه، لتعيشوا سعداء.

فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ . وسئتم عشرتهن لدمامتهن، أو سوء فى خلقهن يمكن احتماله ، فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس، وذهاب الحب، واصبروا على معاشرتهن **فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا** . فلعلكم تكرهون شيئًا بحكم النفس والهوى، ويجعل الله – تعالى – فيه خيرًا كثيرًا : دنيويا كان أو أخرويا، وأنتم لا تعلمون ذلك الخير ولا تدركونه، بسبب كراهتكم لهن. فأحسنوا إليهن وعاشروهن بالمعروف ، لتروا ثمرة ذلك ، فإن المعروف يستعقب الخير دائمًا.

★ ★ ★

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) ﴾

المفردات :

قنطارا : هو مائة رطل كما فى القاموس والعرف، والمراد منه الشىء الكثير.

بهتانا : البهتان: الكذب الذى يواجه به المكذوب عليه فيحيره، والمراد به هنا الظلم الذى يتحير من ارتكابه.

افضى بعضكم إلى بعض : الإفضاء إلى الشىء : الوصول إليه بالملامسة . والمراد به هنا الاتصال الجنسى، أو ما يكون بين الزوجين فى خلوة .

ميثاقا غليظا : عهدا وثيقا قويا .

التفسير :

٢٠ - وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ... الآية

كان الرجل فى الجاهلية إذا أراد التزوج بامرأة أخرى ، بهت التى تحته - أى رماها بالفاحشة التى هى منها بريئة - حتى يلجئها إلى أن تطلب طلاقها منه فى نظير أن تفتدى نفسها بصداقها أو ببعضه [٢٤١]. فنهوا عن ذلك .

ومعنى الآية :

إذا رغبتم تزوج امرأة ترغبون فيها لتقوم مكان زوجة سابقة رغبتم فى طلاقها وفراقها، وكنتم قد أعطيتم هذه الزوجة التى ترغبون فى فراقها مهرا كبيرا ومالا كثيرا فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه على وجه البطلان والإثم المبين.

تعليق :

تحث الآية على الفراق بالمعروف ، وهى تستكمل عدة تشريعات سماوية أنزلها الله بشأن المرأة.

فقد أحل الله لها الميراث، وجعل لها نصيبًا مفروضا، وأحل الله لها الصداق وجعله حقا ثابتا، وأمر بحسن معاملتها، وعشرتها بالمعروف ، ونهى عن المسارعة إلى الطلاق، ووعد الصابر على زوجته بالخير وحسن العوض. وهنا يتوج هذه الوصاية بتأكيد أن المهر حق ثابت للمرأة، لا يجوز لرجل أن يسترده، إذا كره زوجته أو رغب فى فراقها، بل ينبغى أن يفارق بالمعروف ولا يأخذ من الصداق قليلاً ولا كثيرا، فقد عاشرها عشرة الأزواج، واستحل منها ما أحله الله بين الزوجين ، فكيف يبيح لنفسه أن يأخذ مالا بالبهتان والإثم ؟!

قال صاحب الكشاف : والبهتان أن تستقبل الرجل بأمر قبيح تقذفه به وهو برىء منه ، لأنه يبهت عند ذلك - أى يتحير.

٢١ - وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا

والمعنى : بأى وجه من الوجوه تستحلون - يا معشر الرجال - أن تأخذوا شيئا من الصداق الذى أعطيتموه لنسائكم عند مفارقتهن ، والحال أنكم قد اختلط بعضكم ببعض ، وصار كل واحد منكم لباسا لصاحبه، وأخذن منكم عهدا وثيقا مؤكدا لا يحل لكم أن تنقضوه أو تخالفوه.

وفى الحديث الشريف : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٢٤٢).

التعبير بكلمة أفضى :

قال الفخر الرازى ، وأصل أفضى من الفضاء الذى هو السعة ، يقال فضا يفضو فضوا وفضاء إذا اتسع والمراد بالإفضاء هنا : الوصول والمخالطة، لأن الوصول إلى الشىء قطع للفضاء الذى بين المتواصلين .

وجاء فى ظلال القرآن ما يأتى :

ويدع أَفْضَىٰ بلا مفعول ، يدع اللفظ مطلقًا ، يشع كل معانيه ويلتقى كل ظلاله ، ولا يقف عند حدود الجسد ، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتصورات، والتجاوب فى كل صورة من صور التجاوب ، يدع اللفظ يرسم عشرات الصور لتلك الحياة المشتركة آناء الليل وأطراف النهار .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء وفى كل نظرة ود إفضاء ، وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم وأمل إفضاء ، وفى كل تفكير فى حاضر أو مستقبل إفضاء، وفى كل التقاء فى طفل إفضاء (٢٤٣).

كل هذه المعانى تجعل الرجل يخجل أن يسترد بعض ما دفع لزوجته وهو يستعرض فى خياله وفى وجدانه ذلك الحشد من صور الماضى فى لحظة الفراق الرهيب .

ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ - أن الرجل إذا فارق امرأته فلا يحل له أن يأخذ منها شيئا ما دام الفراق بسببه ومن جانبه ، كما أنه لا ينبغى أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها إذا كان الفراق بسببها ومن جانبها.

٢ - اتفق العلماء على أن المهر يستقر بالوطء، واختلفوا فى استقراره بالخلوة المجردة، قال الحنفية : إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة دخل بها أو لم يدخل ، وقال مالك : إذا طال مكثه معها السنة ونحوها، واتفقا أن لا مسيس ، وطلبت المهر كله كان لها (٢٤٤).

٣ - جواز الإصداق بالمال الكثير ، لأن الله قال : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ . والقنطار المال الكثير.

روى أن عمر - رضى الله عنه - قال على المنبر : لا تغالوا فى المهور ، فقامت إليه امرأة فقالت : يابن الخطاب ، الله يعطينا وأنت تمنع ، وقرأت هذه الآية . فقال عمر : كل الناس أفقه من عمر ، ورجع عن النهى فى المغالاة (٢٤٥).

ومن العلماء من بيّن أن الذى رجع عنه عمر هو إلزام الناس بعدم المغالاة.

والآية المذكورة ، وإن كانت تفيد جواز الإصداق بالمال الجزيل ، إلا أن الأفضل عدم المغالاة فى ذلك ، مع مراعاة أحوال الناس من حيث الغنى والفقر وغيرهما .

وقد ورد ما يفيد الندب إلى التيسير فى المهور ، فقد أخرج أبو داود ، والحاكم من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - ﷺ - « خير الصداق أيسره » (٢٤٦).

وروى الإمام أحمد فى مسنده أن رسول الله ﷺ قال : « أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة » (٢٤٧).

★ ★ ★

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

المفردات :

سلف : مضى وتقدم.

فاحشة : فعلة شديدة القبح.

مقتا	: بغضا شديدا.
وساء سبيلا	: وقبح طريقا.
وربائبكم	: جمع ربيبة وهى بنت امرأة الرجل من غيره.
فى حجوركم	: الحجر: الحضن . والمراد فى كفالتكم وتحت رعايتكم.
وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم	: زوجات أبنائكم . وسمت الزوجة حليلة، لحلها للزوج.

التفسير :

٢٢ - وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

روى ابن أبى حاتم عن عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار ، قال : لما توفى زيد أبو قيس - يعنى ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار ، خطب ابنه قيس امرأته فقالت : إنما أعدك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكنى آتى رسول الله - ﷺ - فقالت : إن أبا قيس توفى ، فقال : « خيراً » ، ثم قالت : إن ابنه قيسا خطبنى وهو من صالحى قومه ، وإنما كنت أعده ولدا فما ترى ؟ فقال لها : « ارجعى بيتك» فأنزل الله تعالى قوله [٢٤٨]. وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ .

وذكر الواحدى وغيره أنها نزلت في الأسود بن خلف ، كما ذكروا أنها نزلت فى صفوان بن أمية وامرأة أبيه فاختة بنت الأسود.

ويجمع بين هذه الروايات بتعدد الأسباب والمنزل واحد . قال القرطبى : كان فى العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه ، وكانت هذه السيرة فى الأنصار لازمة، وكانت فى قريش مباحة مع التراضي.. إلخ .

قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين ، وهكذا قال عطاء وقتادة [٢٤٩].

المعنى :

لا تتزوجوا من تزوج آباؤكم من النساء لأنه من أفعال الجاهلية القبيحة، لكن ما قد مضى وسبق من هذا الزواج فإنه معفو عنه ، فمن كان متزوجًا من امرأة كانت زوجة لأبيه من النسب أو من الرضاع فإنها تصير حراما عليه من وقت نزول هذ الآية، ويجب عليه أن يفارقها ، فإنها أصبحت محرمة عليه.

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا .

الفاحشة أقبح المعاصى ، والمقت أشد البغض، وكانوا يسمونه نكاح المقت لأنه أمر ممقوت بغيض.

وَسَاءَ سَبِيلًا . أى وبئس طريقا لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه فيقتل ويصير ماله فيئا لبيت المال.

والحكمة من تحريم نكاح زوجة الأب ما يأتى :

١ - أن امرأة الأب فى منزلة الأم .

٢ - ألا يخلف الابن أباه فيصبح أبوه فى خياله ندا له ، وكثيرا ما يكره الزوج زوج امرأته الأول فطرة وطبعًا.

٣ - ألا تكون هناك شبهة الإرث لزوجة الأب.

لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب .

لهذا حرم الله نكاح زوجة الأب أشد التحريم ، وشنع على فعله وجعله كالزنا أو أشد.

قال تعالى : وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . (الإسراء : ٣٢) . وزاد هنا كلمة وَمَقْتًا . أى غضبا من الله على فاعله فقال سبحانه : وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً .

٢٣ - حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا .

المعنى الإجمالى :

حرم الله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت، والمحرمات لغير النسب : أمهات الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبنات الزوجات من غير الأزواج إذا دخل بهن، وزوجات أبناء الصلب، والجمع بين الأختين ، وما سلف فى الجاهلية فإنه معفو عنه ، إن الله غفور لما سلف قبل هذا التحريم ، رحيم بكم فيما شرع لكم.

حكمة التحريم

يحاول العلماء التماس الحكمة من تحريم نكاح الأقارب عن طريق الاجتهاد ، واستنباط حكمة التحريم للأمور الآتية :

١ - يقال : إن الزواج من الأقربين فى الدم يضوى الذرية ويضعفها مع امتداد الزمن ، لأن مواضع الضعف الوراثية قد تتركز وتتأصل فى الذرية.

٢ - العلاقة بين الإنسان وبعض هذه الطبقات المحرمات علاقة قوية مؤكدة لأنها علاقة القرابة القريبة التى تكون بين الإنسان وأمهاته أو أخواته أو عماته أو خالاته، فبين الإنسان وبينهن علاقة رعاية وعطف واحترام

وتوقير، فلا يصح أن تتعرض هذه العلاقة القوية إلى بعض هزات الزواج ، فإن الزواج أحيانًا يصاب بالفشل أو الضعف أوالطلاق أو النزاع، وهى أمور ينبغى أن تحفظ هذه القرابة القريبة من التعرض لها.

٣ - الفطرة الإنسانية السليمة تأبى أن يتصل ذو القرابة القريبة من الرجال أوالنساء اتصال شهوة ومتعة جنسية، وترى ذلك أشبه بتمتع الإنسان بنفسه لما بينه وبين أقاربه الأقربين من قوة الارتباط، وكثرة الاختلاط، ولهذا كان أكثر المحرمات فى الإسلام محرما فى الجاهلية (٢٥٠).

٤ - قد يلحق القرابة القريبة ما يماثلها فى قوة الاتصال ، واستحقاق الاحترام والترفع عن المطامع الجنسية، كقرابة الرضاع، فإن اشتراك المرضع مع الأم فى بناء بنية الرضيع ، واطلاعها منه على مثل ما اطلعت، جعلها أما بعد الأم ، وبنتها أختا بعد الأخت، وأمها جدة بعد الجدة ، وهكذا . ولاشك فى أن التمتع بهؤلاء كالتمتع بنظائرهن من القريبات الصلبيات تمجه الفطر السليمة.

المحرمات من النساء

اشتملت هذه الآية وحدها على تحريم ثلاثة عشر نوعًا من المحرمات بيانها كالآتى :

سبع يحرم نكاحهن من النسب أى القرابة - وهن الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت.

وست أخريات يحرم نكاحهن من الرضاعة والمصاهرة وهن : الأمهات من الرضاعة ، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات، وبناتهن، وحلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين .

ويتضح لنا أن المحرمات بالنسب أربعة أصناف :

١ - الأصل وإن علا، والمراد به الأم وأمها وإن علت . وأم الأب والجد كذلك ، قال تعالى : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ .

٢ - الفرع وإن نزل، والمراد به البنت وما تناسل منها وبنت الابن وإن نزل ، وما تناسل منها : وَبَنَاتُكُمْ.

٣ - فرع الأبوين وإن نزل وهو الأخوات مطلقاً وبناتهن وبنات أبنائهن وإن نزلن وبنات الأخوة، وبنات أبنائهم كذلك : وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ .

٤ - أول بطن فقط من فروع الجد والجدة ، والمراد به العمات والخالات. قال تعالى : وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ .

أما بنات العمات والخالات ، وبنات الأعمام والأخوال وفروعهن فمحللات لعدم ذكرهن فى المحرمات ، ودخولهن بذلك فى قوله تعالى : وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ولقوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي

آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك . (الأحزاب : ٥٠).

المحرمات بالمصاهرة

يحرم بالمصاهرة أربعة أصناف:

١ - زوجة الأصل والمراد بها زوجة الأب والجد وإن علا ، قال تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء .

٢ - زوجة الفرع ، والمراد بها زوجة الابن وابن الابن أو البنت وإن نزل ، قال تعالى : وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم .

٣ - أصول الزوجة ، وهى أمها وأم أمها أو أبيها وإن علت ، وتحرم بمجرد العقد الصحيح لإطلاق النص فى قوله تعالى : وأمهات نسائكم .

٤ - فروع الزوجة ، ويه بنتها وبنت بنتها أو ابنها وإن نزلت ، والآية دالة على حرمة الربيبة ، أما من عداها من فروع الزوجة فحرمت بالإجماع ، ولا خفاء فى دلالة الآية على اشتراط الدخول على الزوجة لتحريم بنتها ، قال تعالى : وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم.

وفى كتب الفقه نجد هذه القاعدة : العقد على البنات يحرم الأمهات ، والدخول بالأمهات يحرم البنات .

المحرمات بالرضاع

يحرم بالرضاع أربعة الأنواع التى تحرم بالنسب وهى :

١ - الأصل الرضاعى وإن علا، وهو الأم التى أرضعت وأمها نسبا أو رضاعا وإن علت ، وأم الأب والجد الرضاعيين.

٢ - الفرع الرضاعى وإن نزل ، وهو البنت التى رضعت لبنا در من امرأتك لولدك الصلبى وبنتها وإن نزلت وابنها كذلك .

٣ - فرع الأبوين الرضاعيين ، وهو الأخوات من الرضاع شقيقات أو لأب أو لأم ، وبناتهن إن نزلن ، وبنات الإخوة من الرضاع كذلك.

٤ - أول بطن من فروع الجد والجدة الرضاعيين وهو العمات والخالات .

روى الإمام أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله - ﷺ - قال: « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » (٢٥١).

مقدار الرضاع المحرم

الرضاع المحرم : يكون بوصول لبن المرأة إلى الجوف ، مصا من الثدى أو شربا من نحو إناء أو مطبوخا .

ورضعة واحدة تكفى فى التحريم عند أكثر العلماء.

ولا تحريم عند الشافعى إلا بخمس رضعات متفرقات لحديث ثبت عنده بذلك ، وقد رواه مسلم وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تحرم المصة ولا المصتان » (٢٥٢).وفى رواية عنها أنه قال : « لا تحرم الرضعة والرضعتان ، والمصة والمصتان » (٢٥٣) ، ثم ليعلم أنه لابد أن تكون الرضاعة فى سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . واعتبر أبو حنيفة فى إثبات حكم الرضاع ستة أشهر بعد الحولين، واعتبر مالك بعد الحولين - شهرا أو نحوه .

الجمع بين الأختين

يحرم على الرجل أن يجمع بين أختين فى النكاح، فلا يتزوج الرجل امرأة، ثم يضم إليها أختها بطريق الزواج، وهذا بإجماع العلماء ، قال تعالى : وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً .

قال ابن كثير : والمعنى : وحرم الله عليكم الجمع بين الأختين معا فى التزويج، إلا ما كان منكم فى جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرنا له، فدل أنه لا مثوبة فيما يستقبل لأنه استثنى ما سلف .. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين والأئمة قديما وحديثا على أنه يحرم الجمع بين الأختين فى النكاح ،ومن أسلم وتحته أختان خيِّر فيمسك إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة ، فقد روى الإمام أحمد عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : أسلمت وعندى امرأتان أختان، فأمرنى النبى - ﷺ - أن أطلق إحداهما (٢٥٤).

وجماعة الفقهاء متفقون على أنه لا يحل الجمع بين الأختين بملك اليمين فى الوطء كما لا يحل فى النكاح . وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ . إلى آخر الآية النكاح وملك اليمين فى هؤلاء كلهن سواء (٢٥٥).

الجمع بين المرأة وعمتها

كما يحرم الجمع بين الأختين فى عصمة رجل واحد ، كذلك يحرم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها لنهى النبى - ﷺ - عن ذلك ، فقد جاء فى صحيح مسلم وفى سنن أبى داود والترمذى والنسائى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، ولا على ابنة أخيها ، ولا على ابنة أختها » (٢٥٦).

وفى رواية للطبرانى أنه قال : « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ».

والسر فى تحريم هذا النوع من النكاح أنه يؤدى إلى تقطيع الأرحام إذ من شأن الضرائر أن يكون بينهن من المنافسة والكيد وتبادل الأذى ما هو مشاهد ومعلوم ، فكان من رحمة الله بعباده أن حرم عليهم هذه الأنواع من الأنكحة صيانة للأسرة من التمزق والصراع وحماية لها من الضعف والوهن وسموا بها عن مواطن الريبة والغيرة والفساد ، وأن عفا - سبحانه - عما حدث من هذه الأنكحة الفاسدة فى الجاهلية لأنه - كان وما زال غفارا للذنوب ستارا للعيوب رحيما بعباده ومن رحمته بهم أنه لا يعذبهم من غير نذير ، ولا يواخذهم على ما اكتسبوا إلا بعد بيان واضح .

* * *

إن هذا التشريع الإلهى ، صمام الأمان لحماية الأسرة والنهوض بالمرأة والرجل على السواء، وفى هذا التشريع ما يدل حقا على أنه من عند الله الحكيم العليم . فأنى لمحمد الأمى بمثل هذا التشريع المتكامل في شئون اليتامى، وفى شئون الميراث ، وفى شئون الأسرة ، وفى شئون المحرمات ، وفى سائر أحكام العبادات والمعاملات ، إلا أن يكون من عند الله .

أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا . (النساء : ٨٢) .

لقد حرم الله فى آية تالية والمحصنات من النساء . أى حرم ذوات الأزواج من النساء فى الآية ٢٤ .

وعقب الله على تشريع هذه الأحكام بقوله سبحانه : يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا . (النساء : ٢٦-٢٨) .

* * *

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الحمد لله حمدا كثيرا ، وطيبًا طاهرًا مباركًا فيه كما يرضى ربنا ويحب، وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

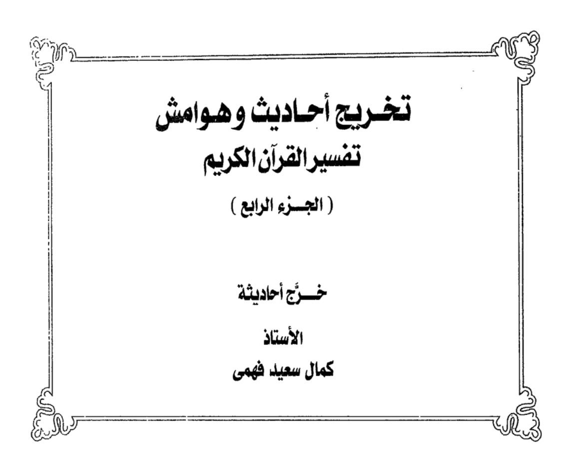
* * *

تم بحمد الله تفسير الجزء الرابع فجر السبت ١٢ يناير سنة ١٩٨٣.

ويليه تفسير الجزء الخامس إن شاء الله .

والله ولى التوفيق

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجزء الرابع)

خرَّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمى

(١) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى : ٥/٤ بهامش تفسير الطبرى . الطبعة الأولى بمطبعة بولاق سنة ١٣٣٥هـ .

(٢) النسخ فى اللغة الإزالة، تقول نسخت الشمس الأثر إذا أزالته ، وفى الشرع : رفع الشارع حكم النص بعد أن يكون ثابتا ، وشريعة محمد صلى الله عليه وسلم مهيمنة على ما سبقها وناسخة لها . وقد أنكر اليهود النسخ فى الأحكام وقد رد عليهم القرآن وأبطل حجتهم .

(٣) أى أن بعض الأطعمة والطيبات كانت حلالا لليهود ثم حرم الله عليهم بعض الأطعمة عقوبة لهم لأنهم شعب غليظ الرقبة أى متكبر عن تنفيذ أحكام ا لله . وتحريم الحلال على اليهود نسخ للأحكام السابقة .

(٤) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٦/٤ .

(٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، الحزب السابع ، ص ٦٢١ .

(٦) أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة

رواه أحمد فى مسنده ح ٢٣٨٤ ، عن شهر ـ ابن حوشب ـ عن ابن عباس . قلت : وشهر بن حوشب هذا فيه مقال .

(٧) تفسير الطبرى : ٥/٤ ، طبعة بولاق . الطبعة الأولى ، ١٣٣٥ هـ .

(٨) البحيرة : كان أهل الجاهلية إذا أنتجت الناقة خمسة ابطن آخرها ذكر بحروا أذنها أى شقوها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحمل ، وكان الرجل يقول إن شفيت فناقتى سائبة ويجعلها كالبحيرة فى تحريم الانتفاع بها .

(٩) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٨/٤ .

(١٠) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ١١/٤ ، بتصرف .

(١١) المسجد الحرام

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣١١٥ ، ٣١٧٢ ، ومسلم فى المساجد ح ٨٠٩ ، والنسائى فى المساجد ح ٦٨٣ ، وأحمد ح ٢٠٤٩٥ ، من حديث أبى ذر الغفارى ، واللفظ لمسلم .

(١٢) انظر تفسير المنار ٦/٤ ، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٢٤ ، وتفسير سورة آل عمران للدكتور محمد سيد طنطاوى ، ص ٢٤٢.

(١٣) تفسير المنار : ٧/٤ .

(١٤) تفسير الفخر الرازى : ١٥١/٨ .

(١٥) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٤٢ .

(١٦) تفسير الفخر الرازى : ١٥١/٨ .

(١٧) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٤٢ .

(١٨) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى مطبعة بولاق :١٢/٤ .

(١٩) صلاة فى مسجدى هذا

البخارى فى فضل الصلاة (١١٩٠) ، ومسلم فى الحج (٥٠٦/١٣٩٤) ، والترمذى فى الصلاة (٣٢٥) وقال : « حديث حسن صحيح» ، والنسائى فى المساجد (٦٩٤) ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة (١٤٠٤) ، كلهم عن أبى هريرة وانظر تفسير النيسابورى : ١٢/٤ ـ ١٣ .

(٢٠) تفسير المنار : ٧/٤ .

(٢١) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ١٣/٤ .

(٢٢) كبر وأسن

(٢٣) قيلة : هى قيلة بنت كاهل بن عذرة وهى أم الأوس والخزرج .

(٢٤) تفسير الطبرى : ١٦/٤ . والنيسابورى : ٢٢/٤ . وأسباب النزول للواحدى : ٦٦ ـ ٦٧.

(٢٥) تفسير الطبرى : ١٩/٤ . وقد استشهد بعدد من أبيات الشعر لتأييد المعنى .

(٢٦) تفسير الطبرى : ١٨/٤ .

(٢٧) تفسير النيسابورى : ٢٧/٤ .

(٢٨) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٢/٤ بتصرف .

(٢٩) مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم

البخارى فى الأدب (٦١١) ، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٦٦/٢٥٨٦) ، وأحمد ح ١٧٦٣٢ ، ١٧٦٤٨ عن النعمان بن بشير .

(٣٠) إن الله يرضى لكم ثلاثا

رواه مسلم فى الأقضية ح ٣٢٣٦ ، ومالك فى الجامع ح ١٥٧٢ ، وأحمد ح ٨٤٤٤ من حديث أبى هريرة .

(٣١) تفسير سورة آل عمران ، د . محمد سيد طنطاوى : ٢٦٦ .

(٣٢) من رأى منكم منكرا فليغيره ١٦

مسلم فى الإيمان ح ٧٠ ، والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٦٣ ، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧ ، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥ ، وفى الفتن ح ٤٠٠٣ ، وأحمد ح ١٠٦٥١، ١١٠٣٤ ، ١١٠٩١ ، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٣٣) والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف

رواه الترمذى فى الفتن ح ٢١٦٩ ، وأحمد ح ٢٢٧٩٠ ، ٢٢٨١٦ من حديث حذيفة بن اليمان ، وقال الترمذى : " حديث حسن " .

(٣٤) بايعت النبى صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٧ ، ٥٨ ، وفى مواقيت الصلاة ح ٥٢٤ ، وفى الزكاة ح ١٤٠١ ، وفى البيوع ح ٢١٥٧ ، وفى الشروط ح ٢٧١٤ ، ٢٧١٥ ، وفى الأحكام ح ٧٢٠٤ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٦ ، والترمذى فى البر ح ١٩٢٥ ، والنسائى فى البيعة ح ٤١٧٤ ، ٤١٧٥ ، ٤١٨٩ ، وأحمد ١٨٦٨١ ، ١٨٦٨٢ ، ١٨٧٠٩ ، ١٨٧١٣، ١٨٧٤٣ ، ١٨٧٦٠ ، والدارمى فى البيوع ح ٢٥٤٠ من حديث جرير بن عبد الله البجلى ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٣٥) أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية

رواه الترمذى فى الفتن ٢١٦٨ ، وفى تفسير القرآن ح ٣٠٥٦ ، وأبو داود فى الملاحم ح ٤٣٣٨ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٠٥ ، وأحمد ح ١ ، ١٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٥٤ من حديث أبى بكر الصديق ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ورواه أيضًا من حديث أبى ثعلبة الخشنى .

(٣٦) الترغيب والترهيب : ٢٢٣/٣ .

(٣٧) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٣ .

(٣٨) إن أهل الكتابين افترقوا

رواه أحمد فى مسنده ح ١٦٤٩٠ ، وأبو داود فى السنة ٤٥٩٧، كلاهما عن معاوية بن أبى سفيان . ورواه أبو داود فى السنة ح ٤٥٩٦ ، من حديث أبى هريرة . ورواه الترمذى فى الإيمان ح ٢٦٤١ ، من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب مفسر ، قلت: فى إسناده : عبد الرحمن بن زياد الأفريقى ، وهو مُتكلّم فيه . ورواه ابن ماجه فى الفتن ح ٣٩٩٢ ، من حديث عوف بن مالك ، ورواه أيضًا

فى نفس الباب ح ٢٩٩٣ ، من حديث أنس بن مالك . والدارمى فى السير ٢٤١/٢ ، من حديث معاوية أيضًا إلا انه لم يذكر فيه : ... كما يتجارى الكلب .

الكَلَب بفتح اللام مرض يصيب الإنسان من أثر عضة الكلب العقور . وهذا المرض يؤثر فى سائر الجسم حتى فى سجايا المخ ثم يفتك بصاحبه .

(٣٩) مختصر تفسير ابن كثير للصابونى : ٣٠٧/١ .

(٤٠) د . محمد سيد طنطاوى . تفسير سورة آل عمران : ٢٦٩ .

(٤١) تفسير الكشاف . ٣٩٩/١ .

(٤٢) تفسير الفخر الرازى : ١٨١/٨ .

(٤٣) تفسير الآلوسى : ٢٦/٤ .

(٤٤) جاد فى تفسير المنار : ٤٧/٤ ، ٤٨ كلام خلاصته ما يأتى :

فى قوله تعالى : ﴿ كنتم ﴾ ثلاثة أوجه :

(الوجه الأول) : أنها تامة بمعنى وجدتم خير أمة ، وهى لا تحتاج إلى خبر ويكون قوله ﴿ خير أمة ﴾ بمعنى الحال .

(الوجه الثانى) : أنها ناقصة ، والمعنى حينئذ كنتم فى علم الله أو قدرتم فى علم الله تعالى خير أمة أخرجت للناس .

(الوجه الثالث) : أن كان هنا بمعنى صار ، أى صرتم خير أمة ، وهذا أضعف الأقوال .

(٤٥) فى ظلال القرآن ١٥/٤٠ .

(٤٦) أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها

رواه الترمذى التفسير ح ٣٠٠١ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤٢٨٧ ، ٤٢٨٨ ، وأحمد ح ١٩٥٠٥ ، ١٩٥١٣ ، ١٩٥٢١ ، ١٩٥٢٥، ١٩٥٤٥ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٦٠ ، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه معاوية البهزى . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٤٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٣٠٨/١ .

(٤٨) عرضت علي الأمم : فجعل يمر النبى زمعه الرجل ٢٢

البخارى فى الرقاق (٦٥٤١) ومسلم فى الإيمان (٣٧٤/٢٢٠) .

(٤٩) تفسير المنار : ٥٦/١ .

(٥٠) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، حزب ٧ ص ٦٣٨ .

(٥١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٦/٤ .

(٥٢) تفسير الكشاف : ٢١٧/١ .

(٥٣) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٨٦ بتصرف .

(٥٤) تفسير الطبرى : ٦/٤ وتفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٥) تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٦) اختار هذا الرأي الشيخ محمد عبده فى تفسير المنار : ٥٩/٤ .

(٥٧) تفسير الطبرى : ٣٧/٤ .

(٥٨) تفسير المنار : ٦٠/٤ .

(٥٩) تفسير الفخر الرازى : ٢٠٣/٨ ، بتصرف .

(٦٠) تفسير الطبرى : ٣٧/٤ ، بتصرف يسير .

(٦١) ﴿ وما يفعلوا من خير ﴾ ما شرطية ، وفعل الشرط قوله ﴿ يفعلوا ﴾ وجوابه قوله ﴿ فلن يكفروه ﴾ .

(٦٢) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى :٣٠٠ .

(٦٣) إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل

رواه أبو داود فى الملاحم ح ٤٣٣٦ ، والترمذى فى التفسير ح ٣٠٤٧ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٠٦ من حديث عبد الله بن مسعود

(٦٤) تفسير المنار .٦٢/٤ ، باختصار شديد .

(٦٥) تفسير النيسابورى : ٥١/٤ .

(٦٦) تفسير النيسابورى :٥١/٤ ـ ٥٢ .

(٦٧) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ١٧/٤.

(٦٨) تفسير المنار :٦٥/٤ .

(٦٩) التفسير الوسيط إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ـ الحزب السابع ، ص ٦٤٦ .

(٧٠) ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يترعها

البخارى فى الاعتصام معلقا ، وأحمد ٣٥١/٣ ، والدارمى عن جابر بن عبد الله . واللأمة : الدرع ، وقيل : السلاح ، ولأمة الحرب أداته . انظر : النهاية ٢٢٠/٤ .

(٧١) احموا ظهورنا

رواه أحمد ح ٢٦٠٤ من حديث ابن عباس .

(٧٢) تفسير الكشاف : ٤٠٩/١ ، بتصرف .

(٧٣) المرجع السابق بتصرف .

(٧٤) مختصر تفسير ابن كثير :٣١٥/١ .

(٧٥) مختصر تفسير ابن كثير : ٣١٥/١ . تحقيق محمد على الصابونى .

(٧٦) تفسير النيسابورى بهامش تفسير الطبرى : ٦٢/٤ .

(٧٧) تفسير المنار : ٩٤/٤ .

(٧٨) د . محمد سيد طنطاوى ، تفسير سورة آل عمران : ص ٢٣٤ .

(٧٩) أن النبى قنت شهرًا يدعو على رعل ، وذكوان

البخارى فى الجنائز (١٣٠٠) ، ومسلم فى المساجد (٢٩٧/٦٧٧) التفسير (٩٥).

انظر تفسير النيسابورى ، وقد ورد هذا المعنى فى تفسير ابن كثير عن البخارى .

(٨٠) كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟!

ذكره البخارى تعليقا فى المغازى ، ووصله مسلم فى الجهاد ح ١٧٩١ ، والترمذى فى التفسير ح ٣٠٠٢ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٢٧ . وأحمد ح ١١٥٤٥ ، ١٢٤٢٠ ، ١٢٧٢٥ ، ١٣٢٤٥ ، ١٣٦٥٨ ، من حديث أنس بن مالك . ورد ذلك فى صحيح مسلم . ومسند الإمام أحمد .

(٨١) تفسير الكشاف : ٤١٣/١ .

(٨٢) تفسير الفخر الرازى : ٣/٩ .

(٨٣) المرجع السابق .

(٨٤) التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف حزب ٦٥٤/٧ .

(٨٥) تفسير القرطبى : ٢٠٢/٤ .

(٨٦) تفسير ابن جرير الطبري : ٩٠/٤ .

(٨٧) ألا إن ربا الجاهلية موضوع

رواه مسلم فى الحج ح ١٢١٨ ، وأبو داود فى المناسك ح ١٩٠٥ ، وفى البيوع ح ٣٣٣٤، وابن ماجه فى المناسك ح ٣٠٥٥ ، ٣٠٧٤ ، والدارمى فى المناسك ح ١٨٥٠ .

(٨٨) البر بالبر مثلا بمثل

البخارى فى البيوع ٢١٧٠ ومسلم فى المساقاة ١٥٨٦ وأبو داود فى البيوع ٣٣٤٨ والترمذى فى البيوع ١٢٤٣ وقال : « هذا حديث حسن صحيح» والنسائى فى البيوع ٤٥٥٨ وابن ماجه فى التجارات ٢٢٥٣ والدارمى فى البيوع ٢٥٨/٢ ، كلهم عن عمر بن الخطاب .

(٨٩) تفسير الكشاف : ٤١٤/١ .

(٩٠) من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه

رواه الترمذى فى البر والصلة ح ٢٠٢١ ، وفى صفة القيامة ح ٢٤٩٣ ، وأبو داود فى الأدب ح ٤٧٧٧ ، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٨٦ . وأحمد ح ١٥٢١٠ من حديث معاذ بن أنس الجهنى . وقال الترمذى : حديث حسن غريب . قلت : وليس فيه : «ملأ الله جوفه آمنا وإيمانا » إنما بقيته بلفظ : « دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق يخيره فى أى الحور شاء » .

(٩١) ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو ٤٤

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٨٨ ، والترمذى فى البر والصلة ٢٠٢٩ ، وأحمد ح ٧١٦٥ ، ٨٧٨٢ ، والدارمى فى الزكاة ح ١٦٧٦ من حديث أبى هريرة ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٢) أن تعبد الله كأنك تراه

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨ ، ٩ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦١٠ ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩٠ ، ٤٩٩١ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٦٣ ، ٦٤ ، وأحمد ح ٣٦٩ ، ٣٧٦ ، ٥٨٢٢ ، ٦١٢١ من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٣) ليس الواصل بالمكافئ

رواه البخارى فى الأدب ح ٥٩٩١ ، والترمذى فى البر والصلة ح ١٩٠٨ ، وأبو داود فى الزكاة ح ١٦٩٧ ، وأحمد ح ٦٤٨٨ ، ٦٧٤٦ ، ٦٧٧٨ من حديث عبد الله بن عمرو . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(٩٤) ما أصر من استغفر

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٥٥٩ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٥١٤ من حديث أبى بكر الصديق . وقال الترمذى : حديث غريب إنما نعرفه من حديث أبى نصيرة وليس إسناده بالقوى .

(٩٥) تفسير الفخر الرازى : ١٢/٩ .

(٩٦) تفسير الطبري : ١٠١/٤ صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى : ٢٣١/١ .

(٩٧) مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى : ٣٢١/١

(٩٨) فى ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب : ٣٨/٤ .

(٩٩) تفسير الكشاف : ٤١٨/١ .

(١٠٠) التفسير الوسيط ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر . الحزب ٧ ص ٦٦٦ .

(١٠١) تفسير المنار : ١٢٨/٤ ، نقلاً عن تفسير الكشاف .

(١٠٢) تفسير الطبرى : ٧١/٤ .

(١٠٣) تفسير المنار : ١٢٨/٤ .

(١٠٤) قال صاحب الكشاف : وقوله ﴿ ولما يعلم اللّه الذين جاهدوا منكم ﴾ بمعنى ولما تجاهدوا ، لأن العلم متعلق بالمعلوم ، فنزل نفى العلم منزلة نفى متعلقه لأنه منتف بانتفائه ، يقول الرجل : ما علم الله من فلان خيرا ، يريد ما فيه خير حتى يعلمه .

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى : والمعنى : بل أحسبتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده مع أنكم لم تجاهدوا فى سبيل الله جهاد الصابرين على شدائده ومتاعبه ومطالبه إن كنتم تحسبون هذا الحسبان فهو ظن باطل يجب عليكم الإقلاع عنه.

(١٠٥) كان هنا ناقصة وقوله ﴿ أن تموت ﴾ فى محل رفع اسمها ، وقوله ﴿ لنفس ﴾ متعلق بمحذوف وقع خبرا لها ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . أى ما كان لها أن تموت فى حالة من الأحوال أو لسبب من الأسباب ، إلا مأذونا لها منه سبحانه . والباء فى قوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ للمصاحبة .

وقوله ﴿ كتابا ﴾ مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة قبله ، وعامله مضمر والتقدير : كتب الله ذلك كتابا مؤجلا ، أى له اجل معلوم لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وهو آت لا ريب فيه . وقوله ﴿ مؤجلا ﴾ صفة لقوله .﴿ كتابا ﴾ .

(١٠٦) تفسير المنار : ٤ /١٣٩ .

(١٠٧) تفسير المنار : ٤ /١٤٠ .

(١٠٨) تفسير المنار : ٤ /١٤١ .

(١٠٩) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب : ٤٥/٤ .

(١١٠) كان هنا ناقصة وقوله : ﴿ قولهم ﴾ بالنصب خبرها، واسمها الاسم المتحصل من أن وما بعدها . فى قوله ﴿ إلا أن قالوا ﴾ و الاستثناء مفرغ ، أى : ما كان قولهم فى ذلك المقام، وفى غيره من المواطن، إلا قولهم هذا الدعاء ، أى هو دأبهم وديدنهم .

(١١١) تفسير الآلوسى : ٨٧/٤ .

(١١٢) تفسير الطبرى : ٨٠/٤ .

(١١٣) تفسير المنار : ٤ /١٤٥ .

(١١٤) تفسير الطبرى : ٨١/٤ .

(١١٥) مختصر من تفسير الطبرى للآية : ٨١/٤ .

(١١٦) تفسير الفخر الرازى : ٣٢/٩ باختصار وحذف .

(١١٧) انظر تفسير المنار : ١٤٧/٤ ، والفخر الرازى : ٣٢/٩ .

(١١٨) تفسير المنار : ٤ /١٤٧ ، بتصرف .

(١١٩) هامش تفسير الطبرى : ١٠٧/٤ ـ ١٠٨ .

(١٢٠) د . عبد الله شحاتة : فى نور القرآن : ٨٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(١٢١) تفسير المنار : ٤ /١٥٤ ، بتصرف .

(١٢٢) تفسير المنار : ٤ /١٥٤ بتصرف واختصار .

(١٢٣) تفسير المنار : ٤ /١٥٦ ، بتصرف واختصار .

(١٢٤) تفسير الفخر الرازى ٥١/٩ .

(١٢٥) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٧٠/٨ .

(١٢٦) التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٧٢/٨ .

(١٢٧) أخرجه ابن أبى شيبة فى مسنده ، والبخارى فى الأدب ، وأشار إليه الترمذى فى آخر باب الجهاد .

(١٢٨) حكاه الواقدى عن الكلبى ، ومقاتل .

(١٢٩) متاع لمسافر .

(١٣٠) هو فى النار

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٣٠٧٤ ، وابن ماجه فى الجهاد ح ٢٨٤٩ ، وأحمد ح ٦٤٥٧ من حديث عبد الله بن عمرو .

غلها : سرقها من الغنيمة ، رواه البخارى نقلا عن تاج الأصول : ٣٩١/٤ . كتاب الجهاد .

(١٣١) انصر أبا داود فى كتاب الجهاد - باب تعظيم الغلول .

(١٣٢) انظر الطبرسى والطبرى والخازن فى تفسير الآية . وفيها روايات أنها نزلت فى حق شهداء بدر أو أحد أو بدر وأحد ، أو شهداء بئر معونة .

(١٣٣) مازالت الملائكة تظله بأجنحتها

رواه البخارى فى الجنائز ح ١٢٤٤ ، ١٢٩٣ ، وفى الجهاد ح ٢٨١٦ ، وفى المغازى ح ٤٠٨٠ ، ومسلم فى فضائل الصحابة ح ٢٤٧١ . والنسائى فى الجنائز ح ١٨٤٢ ، ١٨٤٥، وأحمد ح ١٣٧٧٥ ، ١٣٨٨٣ من حديث جابر بن عبد الله .

أخرجه البخارى ومسلم والنسائى ، وانظر مختصر تفسير ابن كثير تحقيق الصابونى: ٣٣٦/١ .

(١٣٤) لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم

رواه أبو داود فى الجهاد ح ٢٥٢٠ ، وأحمد ح ٢٣٨٤ ، من حديث ابن عباس . قلت : فى إسناده محمد بن إسحاق ، وقد عنعنه .

(١٣٥) أسباب النزول للواحدى : ٧٣ .

(١٣٦) المرجع السابق : ٧٤ .

(١٣٧) تفسير القرطبى : ٢٦٨/٤ .

(١٣٨) تفسير سورة آل عمران للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى : ٤٤٤ .

(١٣٩) يا أم حارثة إنها جنان وليست جنة

رواه البخارى فى الجهاد ح ٢٨٠٩ ، وفى المغازى ح ٣٩٨٢ ، وفى الرقاق ح ٦٥٥٠ ، ٦٥٦٧ ، وأحمد ح ١٢٧٨٨، ١٢٨٣٨، ١٣٣٣٠ ، ١٣٣٧٦ ، ١٣٥٩٩ ، ١٣٦٠٣ من حديث أنس بن مالك .

(١٤٠) هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ٢٧٥٨ ، والنسائى فى الجهاد ح ٣١٢٨ ، وأحمد ح ٨٣٣٥ من حديث أبى هريرة ، ولفظه : " هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر " . قال : ومن يستطيع ذلك . قال أبو هريرة: " إن فرس المجاهد ليستن فى طوله فيكتب له حسنات " . اهـ

(١٤١) تفسير ابن كثير والألوسى والفخر الرازى والطبرى والطبرسى والخازن .

(١٤٢) ج ٣ ص ٩٠ ـ ٩١ و ١٠٠ ـ ١٠٢ .

(١٤٣) هذه رواية ابن سعد .

(١٤٤) انظر تفسير الطبرى والخازن .

(١٤٥) هو جابر بن عبد الله ، وهو الوحيد الذى سمح له بالخروج إلى حمراء الأسد ممن لم يشهدوا غزوة أحد . وانظر تفسير ابن كثير .

(١٤٦) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٨٧/٨ .

(١٤٧) من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجه فى الزكاة ح ١٧٨٧ ، وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبى هريرة .

(١٤٨) التفسير الحديث ، للأستاذ محمد عزة دروزة : ١٩٤/٨ .

(١٤٩) الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل

بوب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى فى الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجه فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ من حديث سعد بن أبى وقاص ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

(١٥٠) يا سعد ألم تسمع ما قال أبو الحباب

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٦٦ ، وفى الأدب ح ٦٢٠٧ ، وفى الاستئذان ح ٦٢٥٤ ، وفى الاستئذان ح ٦٢٥٤ ، ومسلم فى الجهاد والسير ح ١٧٩٨ ، وأحمد ح ٢١٢٦٠ من حديث أسامة بن زيد .

(١٥١) مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى : ٣٤٥/١ .

(١٥٢) من سئل عن علم فكتمه

رواه الترمذى فى العلم ٢٦٤٩ ، وأبو داود فى العلم ح ٣٦٥٨ ، وابن ماجه فى المقدمة ح ٢٦٦ ، وأحمد ح ٧٥١٧ ، ٧٨٨٣ ، ٧٩٨٨ ، ٨٣٢٨ ، ٨٤٢٤، ١٠٠٤٨ ، من حديث أبى هريرة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه ابن ماجه فى المقدمة ح ٢٦٤ من حديث أنس بن مالك .

(١٥٣) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .

(١٥٤) فى ظلال القرآن بقلم سيد قطب : ٥٤٥/٤ .

(١٥٥) بت عند خالتى ميمونة

رواه البخارى فى الوضوء ح ١٣٨ ، وفى الأذان ح ٦٩٩ ، ٨٥٩ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٩، ٤٥٧٠ ، ومسلم فى صلاة المسافرين ح ٧٦٣ ، والنسائى فى الإمامة ح ٨٠٦ ، وفى التطبيق ح ١١٢١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٣٥٦، ١٣٦٥، وابن ماجه فى الطهارة ح ٤٢٣ ، وفى إقامة الصلاة ح ٩٧٣، وأحمد ح ١٩١٥ ، ٣١٦٠، ٣١٨٤، ٣٢٩١، ٣٢٩١، ٣٣١٤، ٣٣٦٢، ٣٣٧٩، ٣٥٠٤ من حديث ابن عباس .

مختصر تفسير ابن كثير ، تحقيق محمد على الصابونى ٣٤٧/١.

(١٥٦) انظر تفسير القاسمى : ١٠٦٦/٤ .

(١٥٧) صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا

رواه البخارى فى الجمعة ح ١١١٧ ، والترمذى فى الصلاة ح ٣٧١ ، وأبو داود فى الصلاة ح ٩٥٢، وابن ماجه فى إقامة الصلاة ح١٢٢٣، والنسائى فى قيام الليل ح ١٦٦٠، وأحمد ح ١٩٣١٨ من حديث عمران بن حصين.

مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد على الصابونى : ٣٤٦/١.

(١٥٨) إذا صلى أحدكم فليبدأ بالتحميد

رواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٤٧٧ ، وأبو داود فى الصلاة ح ١٤٨١ ، وأحمد ح ٢٣٤١٩ من حديث فضالة بن عبيد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

أخرجه أبو داود فى ٨ كتاب الوتر . ٢٣ باب الدعاء حديث ١٤٨١ نقلاً عن تفسير القاسمى ١٠٦٨/٤ .

(١٥٩) نعم وأنت صابر محتسب - القتل فى سبيل الله .

رواه مسلم فى الإمارة ح ١٨٨٥ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٧١٢، والنسائى فى الجهاد ح٣١٦٥، ٣١٧٥، وأحمد ح ٢٢٠٣٦، ٢٢٠٧٩ ، ٢٢١٢٠ ، ومالك فى الجهاد ح ١٠٠٣ ، والدارمى فى الجهاد ح ٢٤١٢ من حديث أبى قتادة . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . قلت : ولفظه : "نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدين فإن جبريل قال لى ذلك".

(١٦٠) يا مكة لأنت أحب بلاد الله إلى

رواه الترمذى فى المناقب ح ٣٩٣٦ ، من حديث ابن عباس بلفظ : " ما أطيبك من بلد وأحبك إلي ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك " . وقال : حديث حسن صحيح غريب . رواه أحمد ح ١٨٢٤٢ من حديث أبى هريرة بنحوه .

(١٦١) لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة

رواه الترمذى فى تفسير القرآن ح ٣٠٢٣ من حديث أم سلمة .

(١٦٢) انظر علوم القرآن للمؤلف . موضوع أسباب النزول . وانظر أيضًا المرأة المسلمة بين الماضى والحاضر للمؤلف ، وانظر تفسير الآيات فى كتاب التفسير الحديث للأستاذ محمد عزة دروزة : ٢٠١/٨ .

(١٦٣) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه

رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٣٢٣، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧، ١٧٥٤٨، ١٧٥٥١، ١٧٥٥٣، ١٧٥٥٩، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى حديث حسن صحيح .

صحيح مسلم ج٢ ص ٥٤٠ (باب فناء الدنيا) .

(١٦٤) انظر تفسير الطبرى والطبرسى وابن كثير والخازن والبغوى والزمخشرى.

(١٦٥) أخرجه مسلم فى كتاب الطهارة .

(١٦٦) الا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا

رواه مسلم فى الطهارة ح ٢٥١، والترمذى فى الطهارة ح ٥١، والنسائى فى الطهارة ح ١٤٣، وأحمد ح ٧١٦٨، ٧٦٧٢ ، ومالك فى النداء للصلاة ح ٣٨٦ من حديث أبى هريرة ورواه ابن ماجه فى المساجد ح ٧٧٦ ، وأحمد ح ١٠٦١١ من حديث أبى سعيد الخدرى

(١٦٧) تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! تعس عبد الخميصة !

البخارى فى الجهاد ٢٨٨٧، وفى الرقاق ح ٦٤٣٥، وابن ماجه فى الزهد ح ٤١٥٣، ٤١٣٦ من حديث أبى هريرة . الخميصة الثوب المخطط .

(١٦٨) قوله: وإذا شيك فلا انتقش أى : إذا أصابه شوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش.

(١٦٩) قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو والرفعة .

(١٧٠) رباط يوم وليلة فى سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه

مسلم فى الإمارة ١٩١٣ ، والترمذى فى الجهاد ح ١٦٦٥ وقال : حديث حسن ، والنسائى فى الجهاد ٣١٦٧، وأحمد ح ٢٣٢١٦، ٢٣٢٢٣ من حديث سلمان الفارسى .

(١٧١) أخرجه مسلم فى ٣٣ - كتاب الإمارة .

(١٧٢) حرمت النار - عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ٩٧ .

يشير إلى حديث " عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله" رواه الترمذى فى فضائل الجهاد ١٦٣٩ وقال : "حديث ابن عباس حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن زريق . قلت : شعيب هذا ، ضعفه بعضهم .

(١٧٣) أخرجه مسلم فى ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها .

(١٧٤) يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله

مسلم فى صلاة المسافرين ٨٠٥ ، والترمذى فى فضائل القرآن ح ٢٨٨٣ ، وقال : غريب وأحمد ح ١٧١٨٥ . من جديث نواس بن سمعان .

(١٧٥) حزقان : سريان أو مجموعتان

(١٧٦) المراد الآيات التى تبدأ من قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ... ﴾ آية ١٩٠ إلى آخر السورة وهى ١١ آية .

(١٧٧) مقتبس من تفسير القرآن الكريم للإمام محمود شلتوت ، ط ٣، ص ٢٠٧ .

(١٧٨) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم : ١١٢ .

(١٧٩) استوصوا بالنساء خيرًا

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء ح ٣٣٣١ ، وفى النكاح ح ٥١٨٦، ومسلم فى الرضاع ح ١٤٦٨ ، وأحمد ح ١٠٠٧١ ، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٢١ من حديث أبى هريرة .

(١٨٠) تفسير الفخر الرازى : ١٦١/٩ .

(١٨١) تفسير الكشاف : ٤٦٢/١ .

(١٨٢) من استعاذ بالله فأعيذوه .. من سألكم بالله فأعطوه

أبو داود فى الزكاة ١٦٧٢ ، والنسائى فى الزكاة ٢٥٦٧ ، وأحمد ٦٨/٢ ، ٩٦ ، ٩٩ كلهم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه .

(١٨٣) من سره أن يبسط له فى رزقه

البخارى فى البيوع ٢٠٦٧، ومسلم فى البر والصلة ٢٥٥٧ ، وأبو داود فى الزكاة ١٦٩٣، كلهم عن أنس .

(١٨٤) الرحم معلقة بالعرش

رواه مسلم فى البر والصلة ح ٢٥٥٥ ، من حديث عائشة .

(١٨٥) محاضرات فى التفسير لطلبة السنة الرابعة بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة . مخطوط أملاه على الطلبة د . محمد عبد الله دراز فى العام الجامعى ١٩٥٤-١٩٥٥م.

(١٨٦) تفسير المنار : ٢٨٥/٤ ، أنظر التراث للجميع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب العدد ١٨ جزء ٤ ص ٢٨٥ طبعة ثانية مأخوذة عن الطبعة الأولى .

(١٨٧) د . محمد بلتاجى : دراسات فى أحكام الأسرة ، مكتبة الشباب بالقاهرة : ٤٧١ .

(١٨٨) د . محمد عبد الله دراز تفسير سورة النساء . مخطوط ، والمرأة فى القرآن والسنة لمحمد عزة دروزة . ص ١١٧ .

(١٨٩) على حسب الله ، الزواج فى الشريعة الإسلامية الطبعة الأولى ص ١١٥ .

(١٩٠) راجع مطالبة بعض الأوربيات بتعدد الأزواج للرجل الواحد : ٣٦٠/٤ من تفسير المنار . وراجع كلاما حسنا للمرحوم الشيخ أحمد شاكر فى من يريد منع التعدد : ١٠٢/٣ - ١٠٩ ، عمدة التفسير للحافظ ابن كثير.

(١٩١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير تحقيق أحمد شاكر : ١٠٢ ، هامش .

(١٩٢) اللهم هذا قسمى فيما أملك

رواه أبو داود فى النكاح ح ٢١٣٤، والترمذى فى النكاح ح ١١٤٠ ، والنسائى فى عشرة النساء ح ٣٩٤٣، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٧١ ، وأحمد ح ٢٤٥٨٧ ، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٠٧ من حديث عائشة ، واللفظ لأبى داود ، وأشار الترمذى إلى تضعيفه .

(١٩٣) من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى

أبو داود فى النكاح ٢١٣٣ والترمذى فى النكاح ١١٤١، والنسائى فى عشرة النساء ٣٩٤٢ وابن ماجه فى النكاح ١٩٦٩.

(١٩٤) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس .

(١٩٥) نداء للجنس اللطيف يوم المولد النبوى الشريف ، تأليف رشيد رضا ، ص ٤٥ .

(١٩٦) الضمير فى ﴿ منه ﴾ يعود إلى الصدقات أى المهور. ﴿ نفسا ﴾ منصوب على التمييز من الضمير وهو نون النسوة فى قوله : ﴿ طبن ﴾ . والتمييز محول عن الفاعل. والأصل فإن طابت أنفسهن عن شىء منه فكلوه .

(١٩٧) محاضرات فى التفسير لطلبة ليسانس كلية دار العلوم سنة ١٩٥٤ / ١٩٥٥ .

(١٩٨) ألا من ولى يتيما له فليتجر فيه

رواه الترمذى فى الزكاة ح ٦٤١ ، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، وقال: فى إسناده مقال لأن المثنى بن الصباح يضعف فى الحديث .

(١٩٩) تفسير القرآن الكريم للإمام الأكبر محمود شلتوت - الأجزاء العشرة الأولى ص ١٨٣.

(٢٠٠) تفسير سورة النساء للدكتور محمد سيد طنطاوى . ص ٥١ .

(٢٠١) تفسير القرآن الكريم ، الطبعة الثالثة : ١٨٤ للأستاذ محمود شلتوت .

(٢٠٢) تفسير الفخر الرازى : ١٩٠/٩ .

(٢٠٣) التفسير الوسيط ، لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر حزب ٨ ص ٧٦٠ .

(٢٠٤) انظر مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٠/١ .

(٢٠٥) هى محكمة وليست بمنسوخة .

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٧٦ من قول ابن عباس .

(٢٠٦) تفسير القرطبى : ٤٩/٥ .

(٢٠٧) وهو أول من نقط المصاحف وتوفى سنة ١٢٩ هـ .

(٢٠٨) تبصرة المتذكر ، وتذكرة المتبصر . لأحمد بن يوسف الموصلى الكواشى تحقيق السيدة/ مفيدة آدم محمد زين : ٦٣٢.

(٢٠٩) تفسير سورة النساء . للأستاذ / محمد سيد طنطاوى :٦٧ .

(٢١٠) تفسير التحرير والتنوير : ٢٥٣ .

(٢١١) فى ظلال القرآن : ٨٩/٤ .

(٢١٢) تفسير الفخر الرازى : ١٠٠/٩ .

(٢١٣) انظر اللسان : ٢٠١/١٩ ، وانظر تفسير الكواشى المسمى (تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر) تحقيق الأستاذة مفيدة آدم : ٦٣٣. رسالة ماجستير بإشراف المؤلف .

(٢١٤) رواه ابن حبان فى صحيحه . وابن مردويه ، وابن أبى حاتم عن أبى برزة .

رواه النسائى فى الوصايا ح ٣٦٦٩ ، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧١ ، من حديث ابن عباس.

(٢١٥) تفسير ابن كثير : ٤٥٧/١ .

(٢١٦) تفسير الفخر الرازى : ٢٠٢/٩ .

(٢١٧) اجتنبوا السبع الموبقات

رواه البخارى فى الوصايا ح ٢٧٦٧، ومسلم فى الإيمان ح٨٩، والنسائى فى الوصايا ح ٣٦٧١، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٧٤ من حديث أبى هريرة .

(٢١٨) أنا وكافل اليتيم

رواه البخارى فى الطلاق ح ٥٣٠٤ ، وفى الأدب ح ٦٠٠٥ ، والترمذى فى البر والصلة ح١٩١٨، وأبو داود فى الأدب ح ٥١٥٠ ، وأحمد ح ٢٢٣١٣، من حديث سهل بن سعد ، وقال الترمذى : حسن صحيح . ومالك فى الجامع ح ١٧٦٨ بلاغا.

(٢١٩) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة:١١٥

(٢٢٠) قال تعالى : يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِن امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَها نصفُ ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولدٌ فإن كانتا اثنتين فلهما الثُّلُثَانِ مما تَرَكَ وإن كانوا إخوةً رِجَالاً ونساءً فللذكر مثلُ حظِّ الأنثيين يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم أن تضلوا واللهُ بكل شيءٍ عليم (النساء /١٧٦).

(٢٢١) قال تعالى : وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . (النساء : ١٢).

(٢٢٢) قال تعالى : وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ . (النساء : ١٢) .

(٢٢٣) قال تعالى : يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإن كانت واحدة فلها النصفُ. (النساء : ١١).

(٢٢٤) قال تعالى : وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ... .

(٢٢٥) قال تعالى : وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ .

(٢٢٦) قال تعالى : وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ . (النساء : ١٢) . والمراد بالكلالة من لا ولد له ولا والد ، والإجماع على أن المراد بالأخ ، والأخت فى هذه الأية الإخوة لأم فقط، انظر الميراث فى الشريعة الإسلامية للأستاذ على حسب الله : ٥٦ .

(٢٢٧) إن الرجل ليعمل ستين سنة بطاعة الله ، ثم يجور فى وصيته

رواه ابن ماجه فى الوصايا ٢٧٠٤ واللفظ له ، الترمذى فى الوصايا ٢١١٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب ، وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٧، وأحمد ح٧٦٨٤، من حديث أبى هريرة.

مختصر تفسير ابن كثير :٣٦٦ . ونقل حديثا آخر عن أبى داود فى باب الإضرار فى الوصية . وهو فى نفس معنى هذا الحديث .

(٢٢٨) خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا

مسلم فى الحدود ١٦٩٠ وأبو داود فى الحدود ٤٤١٥ والترمذى فى الحدود ١٤٣٤ وقال: "حديث حسن صحيح" وابن ماجه فى الحدود ٢٥٥٠ والدارمى فى الحدود ١٨١/٢، كلهم عن عبادة بن الصامت ، وأحمد ٤٧٦/٣ عن سلمة بن المحبق .

(٢٢٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٦٦/١ بتصرف واختصار .

(٢٣٠) المبسوط : ٤٤/٩ .

(٢٣١) انظر المدونة : ٢٣٦/٦ . والجامع لأحكام القرآن : ١٦٥٨ .

(٢٣٢) تفسير الألوسى : ٢٣٦/٥ .

(٢٣٣) تفسير سورة النساء للأستاذ/ محمد سيد طنطاوى : ١٠٦ .

(٢٣٤) يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى

مسلم فى البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، وأحمد ١٦٠/٥، كلاهما عن أبى ذر رضى الله عنه.

(٢٣٥) لفظ التوبة مبتدأ ، وقوله : ﴿ للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ متعلق بمحذوف خبر ، وقوله ﴿ على الله ﴾ متعلق بمحذوف صفة للتوبة أى إنما التوبة الكائنة على الله كائنة للذين يعملون السوء بجهالة .

(٢٣٦) أى تدركه غرغرة الموت .

(٢٣٧) إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر

الترمذى فى الدعوات ٣٥٣٧ وقال : "حديث حسن غريب". وابن ماجه فى الزهد ٤٢٥٣ وقال البوصيرى فى الزوائد : "فى إسناده الوليد بن مسلم ، وهو مدلس ، وقد عنعنه . وكذلك مكحول الدمشقى"، وأحمد ١٣٢/٢، ١٥٣ كلهم عن ابن عمر .

(٢٣٨) أن تصدق وأنت صحيح شحيح

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤١٩، وفى الوصايا ح ٢٧٤٨ ، ومسلم فى الزكاة ح ١٠٣٢، والنسائى فى الزكاة ح ٢٥٤٢، وفى الوصايا ٣٦١١ وأبو داود فى الوصايا ح ٢٨٦٥، وابن ماجه فى الوصايا ح ٢٧٠٦، وأحمد ح ٧١١٩ ، ٩٤٧٦ . من حديث أبى هريرة.

(٢٣٩) أى : أفضل الصدقة وأفضل الأعمال الصالحة ما عمله الإنسان فى صحته وقوته والدنيا مقبلة عليه ، وهو قادر على الطاعة والمعصية ، ولا تؤخر الصدقة إلى أن يهجم الموت فتوصى بالمال لفلان وفلان ، ممن لهم عليك ديون أو صدقات واجبة ، أو صلة للرحم . أو أى عمل صالح توصى به . (وقد صار المال إلى فلان) أى : أصبح المال ملكا لورثتك .

(٢٤٠) كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه

رواه البخارى فى تفسير القرآن ح ٤٥٧٩ موقوفا على ابن عباس .

(٢٤١) رواه الطبرانى عن ابن عباس .

(٢٤٢) استوصوا بالنساء خيرًا

تقدم تخريجه رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، ورواه مسلم فى صحيح عن جابر فى خطبة حجة الوداع .

(٢٤٣) فى ظلال القرآن : ٩٨/٤.

(٢٤٤) تفسير القرطبى : ١٠٢/٥ .

(٢٤٥) رواه الإمام أحمد .

(٢٤٦) خير الصداق أيسره

ذكره أبو داود فى النكاح تحت حديث رقم ٢١١٧ تعليقًا من حديث عمر بن الخطاب ، وهو بلفظ : خير النكاح أيسره . أخرجه أبو داود فى باب «من تزوج ولم يسم صداقًا حتى مات » من كتاب النكاح : ٢٢١/٢ .

(٢٤٧) إن أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة

أحمد ٨٢/٦ ، ١٤٥ ، والبيهقى فى السنن الكبرى فى الصداق ٢٣٥/٧ .

(٢٤٨) انظر تفسير ابن كثير : ٤٦٨/١ ؛ ومختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ وتفسير القرطبى : ١٦٧٤ . وأسباب النزول للواحدى . ٩٨.

(٢٤٩) مختصر تفسير ابن كثير : ٣٧٠/١ .

(٢٥٠) حجة الله البالغة : ٢/٩٨ .

(٢٥١) يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب

رواه البخارى فى الشهادات ح ٢٦٤٥، وفى النكاح ح ٥٢٣٩ ، ومسلم فى الرضاع ح ١٤٤٤ ، ١٤٤٥، ١٤٤٧ ، والنسائى فى النكاح ٣٣٠١ ، ٣٣٠٢ ، ٣٣٠٦ ، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٥٥ ، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، وأحمد ح ٢٤٨٦، ٢٦٢٨، ٢٣٦٥ ، ٢٢٧٢٢، ومالك فى الرضاع ح ١٢٧٨، ١٢٩١ ، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٤٧، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩ .

(٢٥٢) لا تحرم المصة ولا المصتان

رواه مسلم فى الرضاع ح ١٤٥٠ ، والترمذى فى الرضاع ح ١١٥٠ ، والنسائى فى النكاح ح ٣٣٠٩، ٣٣١٠، وأبو داود فى النكاح ح ٢٠٦٣، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٤١، وأحمد ح ١٥٦٨٩، ٢٣٥٠٦، ٢٤١٢٢، والدارمى فى النكاح ح ٢٢٥١.

(٢٥٣) لا تحرم الرضعة

رواه مسلم فى الرضاع ح ١٤٥١، وابن ماجه فى النكاح ح ١٩٤٠ من حديث أم الفضل.

مختصر تفسير ابن كثير : ١/٣٧٣ .

(٢٥٤) أسلمت وعندى امرأتان أختان

أبو داود فى الطلاق ٢٢٤٣، والترمذى فى النكاح ١١٢٩ ، وابن ماجه فى النكاح ١٩٥٠، وأحمد ٤/٢٣٢، كلهم عن فيروز الديلمى .

(٢٥٥) مختصر تفسير ابن كثير : ١/٣٧٤ .

(٢٥٦) لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها

البخارى فى النكاح ٥١٠٨ – ٥١١٠ ، ومسلم فى النكاح ١٤٠٨ ، وأبو داود فى النكاح ٢٠٦٥ ، والترمذى فى النكاح ١١٢٦، وأحمد ٢/٤٠١، ٤٢٣ .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء الرابع

محتويات الكتاب

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
	أولاً : سورة آل عمران ٩٣-٢٠٠	
٩٣	﴿ كل الطعام كان حلا لنبى إسرائيل ... ﴾	٦٢٧
٩٤	﴿ فمن افترى على الله الكذب ... ﴾	٦٢٧
٩٥	﴿ قل صدق الله ... ﴾	٦٢٧
٩٦	﴿ إن أول بيت وضع للناس ... ﴾	٦٣١
٩٧	﴿ فيه آيات بينات ... ﴾	٦٣١
٩٨	﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون ... ﴾	٦٣٥
٩٩	﴿ قل يا أهل الكتاب لم تصدون ... ﴾	٦٣٥
١٠٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا ... ﴾	٦٣٥
١٠١	﴿ وكيف تكفرون ... ﴾	٦٣٥
١٠٢	﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ... ﴾	٦٤٠
١٠٣	﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ... ﴾	٦٤٠
١٠٤	﴿ ولتكن منكم أمة يدعون ... ﴾	٦٤٠
١٠٥	﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ... ﴾	٦٤٤
١٠٦	﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ... ﴾	٦٤٤
١٠٧	﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ... ﴾	٦٤٤
١٠٨	﴿ تلك آيات الله ... ﴾	٦٤٤
١٠٩	﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ... ﴾	٦٤٤
١١٠	﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ﴾	٦٤٩
١١١	﴿ لن يضروكم إلا أذى ... ﴾	٦٤٩
١١٢	﴿ ضربت عليهم الذلة ... ﴾	٦٤٩
١١٣	﴿ ليسوا سواء ... ﴾	٦٥٤
١١٤	﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ... ﴾	٦٥٤
١١٥	﴿ وما يفعلوا من خير ... ﴾	٦٥٤

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١١٦	﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ... ﴾	٦٥٨
١١٧	﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا ... ﴾	٦٥٨
١١٨	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة ... ﴾	٦٦١
١١٩	﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ... ﴾	٦٦١
١٢٠	﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم ... ﴾	٦٦١
١٢١	﴿ وإذ غدوت من أهلك ... ﴾	٦٦٣
١٢٢	﴿ إذ همت طائفتان منكم ... ﴾	٦٦٣
١٢٣	﴿ ولقد نصركم الله ببدر ... ﴾	٦٦٣
١٢٤	﴿ إذ تقول للمؤمنين ... ﴾	٦٦٣
١٢٥	﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ... ﴾	٦٦٣
١٢٦	﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ... ﴾	٦٧١
١٢٧	﴿ ليقطع طرفا من الذين كفروا ... ﴾	٦٧١
١٢٨	﴿ ليس لك من الأمر شىء ... ﴾	٦٧١
١٢٩	﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ... ﴾	٦٧١
١٣٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ... ﴾	٦٧٤
١٣١	﴿ واتقوا النار ... ﴾	٦٧٤
١٣٢	﴿ وأطيعوا الله والرسول ... ﴾	٦٧٤
١٣٣	﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ... ﴾	٦٧٧
١٣٤	﴿ الذين ينفقون فى السراء والضراء ... ﴾	٦٧٧
١٣٥	﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة ... ﴾	٦٧٧
١٣٦	﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة ... ﴾	٦٧٧
١٣٧	﴿ قد خلت من قبلكم سنن ... ﴾	٦٨٢
١٣٨	﴿ هذا بيان للناس ... ﴾	٦٨٢
١٣٩	﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ... ﴾	٦٨٢
١٤٠	﴿ إن يمسسكم قرح ... ﴾	٦٨٢

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١٤١	﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ... ﴾	٦٨٢
١٤٢	﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ... ﴾	٦٨٢
١٤٣	﴿ ولقد كنتم تمنون الموت ... ﴾	٦٨٨
١٤٤	﴿ وما محمد إلا رسول ... ﴾	٦٨٨
١٤٥	﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ... ﴾	٦٩١
١٤٦	﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون ... ﴾	٦٩١
١٤٧	﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ... ﴾	٦٩١
١٤٨	﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ... ﴾	٦٩١
١٤٩	﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ... ﴾	٦٩٦
١٥٠	﴿ بل الله مولاكم ... ﴾	٦٩٦
١٥١	﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ... ﴾	٦٩٦
١٥٢	﴿ ولقد صدقكم الله وعده ... ﴾	٦٩٦
١٥٣	﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ... ﴾	٧٠٠
١٥٤	﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة ... ﴾	٧٠٠
١٥٥	﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ... ﴾	٧٠٥
١٥٦	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ... ﴾	٧٠٥
١٥٧	﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله ... ﴾	٧٠٥
١٥٨	﴿ ولئن متم أو قتلتم ... ﴾	٧٠٥
١٥٩	﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ... ﴾	٧٠٨
١٦٠	﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ... ﴾	٧٠٨
١٦١	﴿ وما كان لنبى أن يغل ... ﴾	٧١٠
١٦٢	﴿ أفمن اتبع رضوان الله ... ﴾	٧١٠
١٦٣	﴿ هم درجات عند الله ... ﴾	٧١٠
١٦٤	﴿ لقد من الله على المؤمنين ... ﴾	٧١٢
١٦٥	﴿ أولما أصابتكم مصيبة ... ﴾	٧١٢

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١٦٦	﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان ... ﴾	٧١٤
١٦٧	﴿ وليعلم الذين نافقوا ... ﴾	٧١٤
١٦٨	﴿ الذين قالوا لإخوانهم ... ﴾	٧١٤
١٦٩	﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ... ﴾	٧١٦
١٧٠	﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ... ﴾	٧١٦
١٧١	﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ... ﴾	٧١٩
١٧٢	﴿ الذين استجابوا لله والرسول ... ﴾	٧٢٠
١٧٣	﴿ الذين قال لهم الناس ... ﴾	٧٢٠
١٧٤	﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ... ﴾	٧٢٠
١٧٥	﴿ إنما ذلكم الشيطان ... ﴾	٧٢٣
١٧٦	﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ... ﴾	٧٢٣
١٧٧	﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ... ﴾	٧٢٣
١٧٨	﴿ ولا يحسبن الذين كفروا ... ﴾	٧٢٣
١٧٩	﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين ... ﴾	٧٢٦
١٨٠	﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله ... ﴾	٧٢٧
١٨١	﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا ... ﴾	٧٢٧
١٨٢	﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ... ﴾	٧٢٧
١٨٣	﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ... ﴾	٧٢٧
١٨٤	﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل ... ﴾	٧٢٧
١٨٥	﴿ كل نفس ذائقة الموت ... ﴾	٧٣٢
١٨٦	﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ... ﴾	٧٣٣
١٨٧	﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ... ﴾	٧٣٣
١٨٨	﴿ لا تحسبن الذين يفرحون ... ﴾	٧٣٥
١٨٩	﴿ ولله ملك السموات والأرض ... ﴾	٧٣٥
١٩٠	﴿ إن فى خلق السموات والأرض ... ﴾	٧٣٨

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
١٩١	﴿ الذين يذكرون الله ... ﴾	٧٣٨
١٩٢	﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ... ﴾	٧٤٠
١٩٣	﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ... ﴾	٧٤١
١٩٤	﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا ... ﴾	٧٤١
١٩٥	﴿ فاستجاب لهم ربهم ... ﴾	٧٤١
١٩٦	﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا ... ﴾	٧٤٤
١٩٧	﴿ متاع قليل ... ﴾	٧٤٤
١٩٨	﴿ لكن الذين اتقوا ربهم ... ﴾	٧٤٤
١٩٩	﴿ وإنَّ من أهل الكتاب ... ﴾	٧٤٦
٢٠٠	﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ... ﴾	٧٤٦
	فضل الجهاد	٧٤٨
	فضل سورة آل عمران	٧٤٩
	قافية السورة	٧٤٩
	سورة النساء	٧٥٠
	أولاً : الأهداف العامة لسورة النساء	٧٥١
	الوصية بالنساء واليتامى	٧٥٢
	المال والميراث	٧٥٣
	تعدد الزوجات	٧٥٤
	شبهة تفتضح ، وحجة تتضح	٧٥٥
	التضامن الاجتماعى	٧٥٦
	المحرمات من النساء	٧٥٧
	مصادر التشريع فى الاسلام	٧٥٨
	القتال وأسباب النصر	٧٥٩
	ثانيًا : تفسير سورة النساء ١ - ٢٣	٧٦١
١	﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ...﴾	٧٦٢

رقم الآيات	أول الآيات	رقم الصفحة
٢	﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ... ﴾	٧٦٤
٣	﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ... ﴾	٧٦٦
٤	﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ... ﴾	٧٧٢
٥	﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ... ﴾	٧٧٥
٦	﴿ وابتلوا اليتامى ... ﴾	٧٧٧
٧	﴿ للرجال نصيب ... ﴾	٧٨٠
٨	﴿ وإذا حضر القسمة ... ﴾	٧٨٢
٩	﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ... ﴾	٧٨٣
١٠	﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ... ﴾	٧٨٤
١١	﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ... ﴾	٧٨٧
١٢	﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم ... ﴾	٧٨٧
١٣	﴿ تلك حدود الله ... ﴾	٧٩٣
١٤	﴿ ومن يعص الله ورسوله ... ﴾	٧٩٣
١٥	﴿ واللاتى يأتين الفاحشة... ﴾	٧٩٤
١٦	﴿ واللذان يأتيانها منكم ... ﴾	٧٩٤
١٧	﴿ إنما التوبة على الله ... ﴾	٧٩٧
١٨	﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات ... ﴾	٧٩٧
١٩	﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها... ﴾	٨٠٠
٢٠	﴿ وإن أردتم استبدال زوج ... ﴾	٨٠٢
٢١	﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى ... ﴾	٨٠٢
٢٢	﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ... ﴾	٨٠٤
٢٣	﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ... ﴾	٨٠٤
	تخريج الأحاديث والهوامش	٨١١
	محتويات الكتاب	٨٢٦

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه

الجزء الخامس بإذن الله

